بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية اللغة العربية

الاتجاه الانساني
في
أدب المنفلوطي

رسالة مقدمة

لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد الطالبة : سميرة عدلى محمد رزق

(المعيدة بقسم اللغة العربية . كلية الآداب والعلوم الانسانية)

جامعة الملك عبد العزيز بجدة

إشراف : سعادة الأستاذ الدكتور محمد نبيه حجاب

١٤٠٢/١٤٠٣هـ - ١٩٨٢/١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا
من أمرنا رشدا) .

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيّدنا محمد النبي المصطفى الأمين القائل : "وإن من البيان لسحرا"

وبعـــد :

فقد نشأت منذ حداثتي على شغفٍ بالمنفلوطي ، أقرأ أدبه فيهزّ أوتار قلبي وأطالع قصصه فتُشبع وجداني واتصفّح معانيه فتَهشّ لها نفسي ، ودفعني هذا التآلف المتّصل الى تحيّن الفُرصة للتّفتيش عن هذه المشاعر نحو هذا الأديب الذي ملك عليّ حواسّي ومشاعري .

وبالأمس القريب قُدّمت الى كُليّة دار العلوم بالقاهرة رسالة عن المنفلوطي لدرجة الماجستير ، اهتمّ فيها الباحث بأدب المنفلوطي بصفة عامّة غير أنّه أغفل الإتجاه الانسانيّ في أدبه ، ذلك الإتجاه الذي بدا في أمثال قوله :-

(الحريّةُ شمس يجب أن تُشرق في كل نفس فمن عاش محروماً منها عاش في ظُلمة حالكة)

(الشّرف في كمال الأدب لا في رنين الذّهب)

(ليتك تبكي كلّما وقع نظرك على محزون أو مفئود فتبتسم سروراً ببكائك ، واغتباطاً بدموعك لأنّ الدّموع التي تنحدر على خدّيك في هذا الموقف إنّما هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصّحيفة البيضاء أنّك إنسان)

أجل ما أشدّ حاجتنا في هذا العصر الذي تخبّطت فيه القيم الخُلُقيّة والحقوق الإنسانيّة في ظُلمات المادّة وضراوتها الوحشيّة ، ما أحوجنا إلى ذراع قويّة تأخذ

بيد يهما الى مافيه خيرهما وصلاحهما .

ولما عزَّ المَطلَب وسما الهَدف وجدتُ ضالّتي في أدب المنفلوطي الإنساني الذي أغفله الباحث في رسالته .

وقد زاد كلفي به وإقبالي عليه ، لما امتاز به من بَراعة في الأداء وقُدرة على التّعبير بأسلوب شائق بريء من الصّنعة اللّفظيّة التي كانت ترسُف فيها الأساليب ، أو مما أثقلها من حُلي لفظيّة ضاع بين ثناياها سموّ المعاني وفضيلة الأغراض فأصبحت لا قيمة لها في دولة الأدب ، تلك الدَّولة التي حفلت بحُسّاد المنفلوطي والحاقدين عليه ، أولئك الذين كانوا كلّما زادتْ شهرتهُ وشعّ نوره وأقبل النّاس عليه ، ازداد حسدهم له وغيّرتهم منه وكأنّما عَشيتْ أبصارهم من ساطع أنواره فلم تتبيّن الحقيقة التي آن الأوان لتأكيدها ، ألا وهي طريقة المنفلوطي الجديدة وأستاذيّته في فن التّعبير ، فما من أديب أتى بعده الا وتفصّح بلسانه وكان بيسانه ثمرة بيانه .

أمام هذه الأسباب عَقَدْتُ العَزْم على أن يكون :ـ

(الإتجاه الانساني في أدب المنفلوطي) موضوع رسالتي لنيل درجة الماجستير ،

فلما تمّ لي ذلك ، انشرح صدري وهشّ له قلبي وشعرت براحة من تحقّق مأمله ودنت القطوفُ الشهيّة اليه ، فجنى منها أحب الثّمار وأطيبها ، وكان هذا البحث وكانت هذه الرّسالة ، تلك التي استقرّت في :ـ

تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أفردت التّمهيد للحديث عن الحياة الاجتماعية في عصر المنفلوطي من حيث أنّ أدبه قد صرّ شغاف المجتمع وجال في هذا المجال .

أما الباب الأوّل : فكان عن (حياته) وقد تحدّثت فيه عن مولدِه ونسبه ونشأته ثم وفاته ، كما تحدّثت أيضاً عن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم وكان لهم الفضل في رعايته وتوجيهه .

وفي بيان روافد ثقافته تحدّثت ما وسعني الحديث عن ثقافته الإسلامية ، التي نبتَتْ في رِحاب الأزهر .

وانتقلت بعد ذلك إلى ذكر ظروفه الخاصّة وما كان لهذه الظُّروف من أثر في تعاطفه مع المرزوئين من الفُقراء والبائسين .

ولم أغفل هنا الحديث عن أخلاقه ، فأدبه من قبل وبعد رسالة خُلُقيّة لتهذيب النّفوس وتقويم أخلاقَها .

وإذا كان كلّ إناء بالذي فيه ينضح - كما يقولون - ، فلا شك أن نتاجه الأدبيّ كان ثمرةً لهذه الأخلاق القويمة التي تأصّلت على تعاليم الإسلام في كتاب الله وسنّة رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - ذلك التأثّر الذي أسفر عن أدب انسانيّ رفيع ، وهنا أشرت الى عاطفته الإنسانية التي ربطت احساسه باحساس بني وطنه ، فاهتزّت لكلّ ما يدور حولها من فقر وجَهْل ومرض فضلاً عن ظُلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وأما الباب الثاني : فقد خصّصتُه للحديث عن " أدبه " بصفة عامّة شعراً ونثراً ، وإن كان حظّ الشِّعر فيه قليلا ، وقد بدأتُ هذا الباب بتمهيد عن الحياة الأدبيّة في عصره وما أصابها من ضياع وسقوط على النّحو الذي ضاعت معه قيمة المعاني وأهدافها النّبيلة وسط ظُلمة حالكة وقيود سقيمة من الصّنعة اللّفظية وأنواع البديع التي هي من أذيال العصر العثماني .

وذكرتُ بعد ذلك كتبه سواءً ماكان منها المؤلَّف كالنظَرات والعبرات ، أو ما قام بترجمته من روايات كالفضيلة ، والشَّاعر ، ماجدولين أو (تحت ظلال الزيزفون) أو (في سبيل التَّاج) فتناولتها بالتَّحليل وبيان المواقف الإنسانيَّة فيها ، ثم تناولتُ شخصيَّته الأدبيَّة وأسلوبه بحديث بيَّن ما أمتاز به ذلك الأسلوب من خصائص وسِمات استحقَّ أن تكون له طريقة متميِّزه وهي (طريقة المنفلوطي) .

وختمت هذا الباب ببيان موقف النُّقَّاد من أدبه ثم أدليتُ برأيي في هذا المجال .

أما الباب الثالث والأخير وهو بيت القصيد وماسبقه إن هو الا تمهيد له ، وقد أفردته للمظاهر الإنسانيَّة في أدبه والتي بدت في :

١ - مقالاته الاجتماعية

٢ - عطفه على البائسين

٣ - انصافه للمظلومين

٤ - حملته على الاغنياء وطبقة الحكام

٥ - دعوته الى التمسك بأهداب الفضيلة

أما الخاتمه فقد قدَّمت فيها خُلاصة للبحث تجمع ماتناثر من عناصره الأُساسيَّة وضمَّنتُها ماتوصَّلت إليه من نتائج أسفرت عنها الدِّراسة . وطاب لي بعد ذلك أن أذيِّل بحثي بمقترحات ربَّما يفيد منها من سار على الدَّرب بعدي .

ويجدربي هنا أن أشير الى أهمّ ما أعانني من مصادر ومراجع لإتمام هذه المسيرة العلميَّة :-

استعنتُ بالقُرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف كما جاء في صحيح مُسلم بشـــرح النَّووي أو في سُنن بن ماجه وذلك لبيان مدى تأثير الكِتاب والسُّنة على معانـــي المنفلوطي وألفاظه .

وُعدتُ إلى بعض معاجم اللُّغة لتحديد معنى الشَّخصيَّة والإنسانيَّة لغـــة / واصطـلاحاً ، فأفادني في ذلك لسان العرب ، وتاج العروس ، والقاموس المحيط والمُعجم الوســيط .

ولدراسة أدب المنفلوطي عُدتُ الى كُتبه (المؤلَّفــة ، المُترجمه)

واستعنتُ بعد ذلك بمؤلفات أخرى في الأدب الحديث وردت في موضعهــا من الرِّســالة .

أما عن الصُّعوبات التي واجهتني فهي :-

١ - عدم توفُّر المراجع عن هذا الموضوع في مكتبة قسم الطَّالبات سواء كان ذلك فـــي الجامعة هنا أم في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ولم تسنح لي الظُّروف بالاستعانة بمكتبة البنين فيهما، وحبَّذا لو يسَّرت لنا الجامعة الرَّشيدة هذا الســبيل فالطالبات أولى بالتيسير ، أمام هذه الصُّعوبة في الحصول على المراجع حولـــي لم أجد بُداً من القيام برحلة عِلمية الى القاهرة فوجدت فيها ضالَّتي بعـــد أن عانيت مايقرُب من عامين في سبيل الحصول على مراجع للموضوع ، فبحثتُ في العام الأوَّل منها في مكتبات الأسواق فلم أجد فيها الا القليل القليـــل الذى لا ينفـــع القليـــل

ولما كان لابدَّ لي من الوصول مهما بلغتْ مناعة الأســوار وشدَّتها ، طوَّعت نفسي لارتياد المكتبات العامَّة ومكتبات الجامعات في القاهرة ، فوجدتُ ماوجدته في مكتبة جامعة القاهرة ومكتبة جامعة عين شمس ، ومكتبة جامعة الأزهر ، ومكتبة كلية دار العلوم .

أما معظم هذه المراجع فكانت من مكتبة دار الكُتب المصريَّة التي قطفتُ من ثِمارها كلَّ ماسنحت لِي به ظروفي في قُطر غير قطري .

٢ - وهنا نقف قليلاً لنذكر مدى الصُّعوبة في الحصول على الدَّوريات القديمة اذ أن معظم ما كتب عن المنفلوطي كان في ثنايا صفحات المجلاَّت والصُّحف التي وجدتَ منها ما وجدتُ وبلي منها مابلي .

لهذه الأسباب ولأكثر منها كانت رحلتي شاقَّة شاقَّة قضيت فيها ثلاث سنوات ذلَّل صعابها الإيمان القوي بقول الله تعالى :-

(إنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ثم رغبتي الصَّادقة في اصابة الهَدف مهما كلَّفني ذلك .

ومن تكن العَلياءُ هِمَّةَ نَفْسِه فكُلُّ الَّذِيْ يَلْقاهُ فيها مُحَبَّبُ

فإن وُفِّقْتُ فذاكَ مأملي وغايةُ مطْلَبِي ، وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

وإلا . . فسلوني في ذلك شرف المقصْد ونُبل الغاية واللَّه الهادي الى سواء السَّبيل .

وفي الخِتام لا يسعني المجال هُنا إلا أنْ أشكر الله تعالى على إتمام هذا العمل ثم أتوجَّه بالشُّكر الجزيل لفضيلة الأستاذ المُشرف على هذه الرِّسالة سعادة الدُّكتور محمد نبيه حجاب ثم شكري وتقديري للسَّيدين عضوي لَجنة المناقشة اللَّذين أترقب توجيهاتِهما السَّديدة لأستفيد من علمهما وسديد آرائهما وكرم عطائهما ان شاء الله .

كذلك لايفوتني هنا أن أشكر السَّيدة عميدة قسم الطَّالبات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة والسَّيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة والسيدة وكيلتها الفاضلة لتقديرهم ظروفي أثناء أعداد هذه الرِّساله .

التمهيد :-

الحياة الاجتماعية فى عصر المنفلوطي

تعريف المجتمع :- عرّف أرنولد وجرين المجتمع بقوله : (ان المجتمع أكبر جماعة ينتمي اليها الفرد ، ويتكون من السكان والتنظيم والزمن والمكان والمصالح)(١)

وأضاف آخر : ان هذا المجتمع يضع المقاييس التى يسير عليها الناس ؛ فهو نسق من الاجراءات والعادات والسُّلطة والمعونة المتبادله ، كما يكون من جماعات وأقسام عديدة ومن ضوابط السلوك الانساني والحريات (٢)

مراحل الحياة الاجتماعية فى مصر الى عصرالمنفلوطي .

لقد مرّت مصر بثلاثة أطوار اجتماعية تبعاً للحالة السياسية التى التى مرّت بها البلاد وهي :-

١ - طور الحكم العثمانى وأثره فى المجتمع .
٢ - طور البعث وما أصبحت عليه مصر بعد الحملة الفرنسية .
٣ - طور الانتداب الانجليزي عليها .

ولا يعنينا هنا الحالة السياسية فى مصر بقدر مايعنينا الحديث عن الحالة الاجتماعية فيها وخاصة الاحوال الاقتصادية التى مرّت بها البلاد والتى حرّكت مشاعر الكُتّاب والمصلحين وبخاصة مصطفى لطفي المنفلوطي ، فسالت أقلامهم أسى ولوعة تفجعاً على الفقراء واليتامى والمساكين ولهجت ألسنتهم سخطاً على مارأوه من ظلم الانسان لأخيه الانسان .

أما الطور الاول وهو فترة الحكم العثمانى :- فمن المعروف أن مصر وبلاد العروبة ظلّت تحت حكم الأتراك ثلاثة قرون (وهى فى جهل فاضح تعانى من مرارة الظلم ،

---

١ - محمد عاطف غيث . علم الاجتماع . ص١٩٥ ط ١٩٨١ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .
٢ - نفس المرجع ص ١٩٦ بتصرف

وقسوة البغـي) (١)

والناظر فى صفحات التاريخ ـ تاريخ تلك الفترة ـ لايجد الا ألوان الاستبداد والبطش ، ولن يصكّ أذنيه ، الا صراخ المظلومين ، كما لا تملأ ناظريه الادماء الفلاحين فى كل مكان ، تسيل تحت سياط الجباة وتتمثّل له بلاد العروبة (تخنقها يد غاشمة أصابعها الفقر والمرض والجهل والذلّة والأغلال) (٢)

ولم يكن همُّ الولاة الاتراك الا جمع الاموال واستدرارها بأية وسيلة غير مبالين بصرخات الشعوب صارفين النّظر عما يقاسونه من ضنك وبؤس وفاقة وجهل .

واشتدّ النزاع بين أمراء المماليك ، وسلبوا الوالي سلطته الفعلية وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ينازعه السُّلطه والجاه وأبناء البلاد هم الضّحية فى كل هذا النّزاع .

كان الحكم للأتراك أما السُّلطة الفعلية فكانت فى يد المماليك وجميع ثروة البلاد فى أيديهم (٣)

لم تكن لهم عصبية وإنما كانت ضربة موفقة من حسام الوالي المتآمر تكسبه الصداره بين أبناء جلدته .

أما روح هذا الوالي ، فكانت روح العبد الوضيع ليس له من هم الا الاستيلاء على النّساء والخيل والاموال ، وكان الفلاح البرىء المسكين يُغزى وتنهب أمواله ، ولم يكن التاجر المصري أو الاوربى القريب بأحسن منه حالا ، (ولا ريب ان الحالة الاجتماعية والادبية تتأثّر الى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية هُمَّل ، ورعاة مستبدون وهيهات أن يكون للأدب نصيب فى هذه البيئة الجاهلة .) (٤)

---

١ ـ عمر الدسوقى . فى الادب الحديث ح ١ ص ١١ ط ٨
٢ ـ نفس المرجع كذلك كتاب د . شوقى ضيف الادب العربى المعاصر فى مصر ص ١٢ ط٧ دار المعارف (بتصرُّف)
٣ ـ أحمد حسن الزيات . تاريخ الادب العربى ص ٤١٥ ط ٧ بتصرُّف
٤ ـ عمر الدسوقى فى الادب الحديث ج ١ ص ١٢

وقد أشار الى ذلك أحد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر وبلاد الشرق وتركيا فى أخريات القرن الثامن عشر ، وقد راعه ما رأى بها من جهل مُطبِق وفساد شائع ، فلمح ذلك فى قوله :-

(الجهل عام فى هذه البلاد ، وفى كل بلد تابع لتركيا ، وقد عمّ كل الطّبقات ، ويتجلّى فى كل العوامل الادبية وفى الفنون الجميلة حتى الصّناعات اليدوية تراها فى حالة بدائية ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة واذا وجد فهو أجنبي) (١)

كما حرم الاتراك مصر أغلى كنوزها ، فنقلوا اكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس الى بلادهم ، كما نقلوا كثير من العلماء والأُدباء ، والامراء والمهندسين والورّاقين وأرباب الحرف .

(وكان من نتائج ذلك الاحتلال كذلك أن قلّت أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء ، وطلبة العلم ، فتفرّق الطلّاب ، وانفضّت سوق العلم ولم يبقَ منه الا ذُماء يسير بالأزهر ومن البديهي أن تضيع اللّغة العربية فى ذلك العهد فلم تجد من يشدّ أزرها ويشيب الأُدباء أو الشعراء المحتفين بها لأنّ اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين وفشت على ألسنة النّاس ، ولأن الحكام لا يفهمونها ولا يقدرونها حق قدرها فلا يميزون بين الغثّ والجيّد حتى يلجأ اليهم الشّعراء مادحين) (٢)

هذه باختصار صورة مبسطة عن الحالة الاجتماعية والعلمية فى مصر ابان الحكم العثماني والتى أثّرت فيما كتبه لنا الأُدباء والشّعراء فى تلك الفترة ومابعدها . وقد لجأت الى ذكرها وان كانت بعيدة العهد بالمنفلوطى الا أن الاديب قد ذكر فى أدبه مايدل على أنه تأثّر بالأوضاع التى قرأ عنها فى مصر والتى كانت تعاني

---

١ - عمر الدسوقى فى الادب الحديث ج ١ ص ١٢

٢ - المرجع السابق ح ١ ص ١٣ .

منها هذه البلاد وسيظهر هذا في موضعه من البحث ان شاء الله .

التطور الثاني وهو طور البعث :- قلنا ان الحياة العقلية والادبية قد إنهارت في مصر ، لولا نشاط ضئيل ظلّ في الأزهر وكان يحفّه ظلام مطبق من الفقر والبؤس والحكم الظّالم الغاشم .

لكن في هذه الاثناء نزلت الحملة الفرنسية مصر يقودها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م ومكث نحو ثلاث سنوات كانت جميعها جهاداً عنيفا وصراعاً قاسياً بين الشّعب المصري والمعتدين ، وقد أنشأ نابليون مجالس شورى سُمّيت باسم الدّواوين وألّفها من طبقة المثقّفين الأزهريين ومن كبار الأعيان والتّجار ، وجعل لها حق البحث في بعض شئون الحكم ، وخاصة الضّرائب ، فقد كانت مجالس صوريّة لتنفيذ مآربه الاستعمارية في السياسة والادارة ، وقد ظل الشّعب المصري يقاومه ويثور ضدّه وضدّ حملته ثورات متوالية بذل فيها غالي الدّماء وعزيز الفداء . (١)

ولكن هذه الحملة قد كان معها طائفة من العلماء البارعين المتخصّصين في مختلف العلوم التاريخية والطّبيعية والرياضية ، ولم يلبث نابليون حين نزل مصر أن أسّس المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي وأخذ العلماء الذين جاءوا معه يدرسون مصر من جميع أطرافها .

كما أنشأ نابليون بجانب هذا المجمع العلمي معامل ومكتبة ومطبعة وكانت المعامل تعنى بالبحث العلمي التجريبي اذ كان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية مايجرون من تجارب كيميائية لاعهد لهم بها ، فيعجبون وينبهرون بما يرون .

ورأى المصريون المطبعة التي جلبها نابليون معه فأعجبوا بها حيث لم يكن لهم عهد بالمطابع ولا بما تطبع من منشورات وكتب فكل ذلك جديد عليهم (٢)

ورغم أن مصر يغمرها هذا التطوّر إلا أن شراسة رجال الحملة واستهتارهم بالشّعب

---

١ ـ د . شوقي ضيف . الادب المعاصر في مصر ص ١٢
واحمد حسن الزيات . تاريخ الادب العربي ص ٤١٥

٢ ـ د . شوقي ضيف . الادب العربي المعاصر في مصر ص ١٤ بتصرف

المصري ودينه وتقاليده ، وانتهاكهم حرمات الاهالي جهاراً ونهبهم القُرى الآمنة ، وافزاع أهلها وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التى كان يصرف ريعها على المساجد وطلاّب العلم ، وفرضها كذلك على المنازل ، كل ذلك قدْ جعل قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته وعلمه وتنظر اليه نظرة الغاصب المُستبد ، ولقد ثار المصريون فى أكتوبر سنة ١٧٩٨م فأخمد ثورتهم فى قسوة وعنف وغلظة وانتهك حُرمة المساجد الإسلامية وعبثاً حاول بعد ذلك أن يؤلّف قلوبهم أو يستحيلهم الى المدنية الغربية وان كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، واتخذوا ماوضعه لهم اساساً للإصلاح الداخلي (١)

واستولى محمد علي على مصر واتيحت لمصر الفرصة لكى تنهض وتتبوّأ مركزها بين دول العالم المتحدين (وحاول أن ينشيء دولة قوية خالصة لنفسه ولذويه من بعده فأفادت مصر من مجهوداته فى هذا السبيل وإن حكمها حكما استبداديا خالصاً) (٢)

<u>أما الطّور الثالث</u> : وهو فترة الحكم الانجليزى فى البلاد والذى بدأ عام ١٨٨٢م فالمعروف أن أهم أطراف المؤامرة كانت تتمثّل فى الخديوي توفيق المتواطىء مع الإنجليز المعتدين ، ولذا تآزر هذان الطّرفان من أول أيام الاحتلال على إضعاف القوى الواعية فى مصر حتى تستحيل البلاد الى حقل كبير ينتج القطن لمصانع بريطانيا ، ويصبّ المال فى جيب الخديوي وأعوانه الرجعيين .

وتبعا لتنفيذ تلك الخُطة ، إكتفى الخديوي من حكم البلاد بالإسم وبعض مظاهره الشّكلية الزائفة التى يضمنها له الإنجليز ، وأطلق أيدي هؤلاء المعتدين فى مصر ، يضعفون كل قواها الواعية على الوجه الذى يحقّق أطماعهم

---

١ - عمر الدسوقى فى الادب الحديث ج ١ ص ١٨ بتصرّف

٢ - نفس المرجع بالاضافة الى كتاب د . شوقى ضيف الادب العربى المعاصر/مصر ص ١٤

ويسدِّد لهم ثمن حمايتهم له .

ونتيجة للسياسة الانجليزية نفسها أُرهِق الاقتصاد المصري بل خُنِق ، وذلك بتعيين مستشار انجليزى للمالية ، واجهاد الخزانة المصرية بتعويضات مُجحفة تؤدى للأجانب مما أصابهم من خسائر وهمية .

ثمَّ كان من عوامل خنق الاقتصاد المصري وإرهاق المصريين مالياً ، تحميل مصر تكاليف جيش الاحتلال والموظَّفين الإنجليز ، ثم تحميلها كذلك تكاليف حرب المهدى فى السودان (١)

هذا فيما يختصّ بالحالة الاقتصادية التى هى بيت القصيد من هذا التمهيد .

أما الصَّحافة فقد أُخِذت أنفاسها بسبب أقل شبهة فى معاداة الإنجليز أو الخديوي فمُنِعت (العروة الوثقى) من دخول مصر وكان يصدرها فى باريس جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، كذلك أُلغيت صحيفة (الوطن) وصحيفة (مرآة الشَّرق) وصحيفة (الزَّمان) وعُطِّلت (الأهرام) بعض الوقت (٢)

وهكذا خُنِقَت روح القوة الاخلاقية وهى الحُرِّيَّة ، وأصبح بعض الناس يتشكَّلون وفق مصالحهم أو مايرونه من صالح جماعتهم ، فتقرَّب نفر من المستعمرين وهادن آخرون الحُكَّام الخائنين ، وبدأت المفاسد الخُلُقية التى تخلقها مصادرة الحُرِّيَّة تظهر فى صور شتى ولكن كلها قبيح شائه .

وقد أُضيف الى هذا العامل الرئيسي المُفسِد للأخلاق عامل الضَّغط الاقتصادي على طبقات الشَّعب الكادحة بما كان من استغلال الاقطاعيين لهم وامتصاص المرابين لدمائهم ، وجور السُّلطات عليهم .

---

١ - عبد الرحمن الرافعى . مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ص ٩ ، ١٧ ، ١٩ ، ٦٤ ، ١٥٩ ج١ ط القاهرة سنة ١٩٤٢م بتصرُّف

٢ - المرجع نفسه ص ٣٦ ، ٥١ بتصرُّف كذلك كتاب احمد شفيق . مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٢٩٠ ط القاهرة سنة ١٩٣٦م بتصرُّف

أجل أضيف هذا العامل الاقتصادي المفسد الى العامل المعنوي المُتلف فتضاعفت المأساة ، وظهرت مع الاحتلال عيوب خُلُقيّة عديدة ، في طليعتها النفاق والجشع ، والحقد ، وما الى ذلك مما يخلفه فقدان الحُرّية وسوء النُظُم الاقتصادية .

كذلك أدخل الاحتلال الى مصر ألواناً من المباذل الوضيعه ، كالبغاء الرسمي ونوادي الميسر ، وحانات الخمر ، وظهرت هذه المباذل في المُدن ، وجرفت كثيراً من المواطنين فعرفت الحياة الاجتماعية وخاصة في المدن عيوباً لم تعرفها قبل عهد الإحتلال (١)

وهكذا عمل الإستعمار على فساد الأخلاق واضطراب الحالة الاقتصادية

وحقيقة قد قام الاحتلال ببعض ألوان من إصلاح الري وإقامة بعض السدود والقناطر ، ولكن ذلك كان بقصد زيادة محصول القطن الذى كانت تحتكره المصانع الإنجليزية ، على أن هذا كله لم يُخلّف رخاء اقتصادياً ولم يرفع مستوى الشعب . وانما زاد من شراء طائفة كبار المُلاّك ، وضاعف من تحكمّهم في الطّبقة الكادحة (٢)

وقد وردت أشعار كثيرة ترغّب في العطف على هؤلاء الفقراء والطّبقة المحتاجة فقال الشاعر :

أفي الحقّ أن يشقى الفقيرُ بعيشه ... وذو المالِ في شرّ الغواية يُسرف

عليكم يكشف الضُرِ عنهم فإنّما ... أخوا لضرّ يُمسي ضارياً حين يَهجفُ (٣)

---

١ - ندد بهذه المفاسد عبد الله النديم في مقالهفي (الأستاذ) عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣م ، كذلك المنفلوطي في مقالاته الداعية الى التمسك بالفضيلة فضلا راجع ص٣٦١ الى ص٤٠٥ من هذا البحث .

٢ - د . محمد حسين الإتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج١ص ٢١٥ ط القاهرة سنة ١٩٦٣م بتصرُّف

وكتاب د . عبد المحسن بدر - تطور الرواية العربية ص ٣٦ ط ١٩٦٣م

وكتاب / عبدالرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ٢٢٧ ط القاهرة ١٩٥٠م بتصرُّف

٣ - يجوع

فان لم ينالوا بالهوادة حقهم ينالوه يوماً والصوارم ترعف (١)

وبذلك يبدو لنا أن التركة التي خلفها الاحتلال تركة مثقلة رهيبة تحتاج الى نضال صابر وكفاح مرير فكان على البلاد أن تناضل في ميادين عديدة، في ميدان السياسة ضد المحتل وخليفة القصر، وفي ميدان الإقتصاد ضد الفقر والاستغلال، وفي ميدان التعليم ضد الجهل والأمية، وفي ميدان الثقافة ضد العدوان على اللغة وتراث العرب والاسلام، وفي ميدان الاجتماع ضد التخلف والجمود وفي ميدان الأخلاق ضد التبذل والتفرنج، وفي ميدان الصحة ضد المرض وانتشار الأوبئة وخاصة في القرى.

فقد قوبل الضغط الاقتصادي وما خلفه من فقر وعدم بدعوات الى مساعدة المعوزين، ومد يد العون إلى المحتاجين، وأنشئت الجمعيات الخيرية، وأسست الملاجئ ونحوها من دور البر.

وقد وردت أشعار معبرة عن ذلك النضال كقول الشاعر :-

فإن لم ينالوا بالهوادة حقهم ينالوه يوماً والصوارم ترعف
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة تهز الجبال الراسيات وتخسف (٢)

كذلك قوبل مابثه الاحتلال من مفاسد خلقية وماأشاعه من مباذل بدعوات حارة الى الأخذ بالأخلاق الكريمة وازاء العادات المريضة الوافدة من الغرب المادي وكان أكثر الداعين الى صلابة الخلق واستقامة السلوك من أصحاب الاتجاه العربي الاسلامي وكانت دعوتهم تتخذ أشكالا مختلفة من أشكال الأدب ،

---

١ - تسيل دماً .

٢ - اهتم الاستاذ الكبير انيس المقدسي بعرض أشعار في هذا المنحى ، فضلا راجع أنيس المقدسي ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٢٢٧

والحقيقة أن المنفلوطي قد وجه معظم مقالاته لهذا الغرض وهو الإنتصار للفضيلة والدعوة الى التمسك بها ونبذ الرذائل والمفاسد الخلقية ، وسيظهر هذا في مقالاته الإجتماعية . كذلك دعا إلى إغاثة المحتاجين والعطف على المعوزين والفقراء وهذا ماسنراه في مقالاته الإنسانية .

" الباب الاول "

حياتـــــه

١ - مولده ونسبه ونشأته

٢ - أساتذته وروافد ثقافته

٣ - ظروفه الخاصة

٤ - أخلاقه وصفاته

٥ - وظائفـــــه

٦ - مرضه ووفاتـــه

٧ - تأثّره بتعاليم الاسلام

٨ - عاطفته الإنسانية (إحساسه بإحساس بنيِ وطنه)

مولده ونسبه ونشأته :

ولد مصطفى لطفى المنفلوطى على الضفة الغربية للنيل فى المدينة ذات التاريخ ، المسماه (منفلوط) فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م .

(ونشأ فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعه ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة .) (١)

وهو مصطفى بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى لاب عربى يتصل نسبه بالحسين ولأم تركيه شابكه القرابة الى أسرة الجوريجى ، وكانت نقابة الأشراف ، ومرتبة القضاء يتوارثها بيت أبيه ، منذ مائتى سنة (٢)

أما شهرته بالمنفلوطى ، فترجع الى صلته بوطنه الصغير ، ودعى بالسيد لانه متصل بعشرة الحسين فى نسبه وتوارث أهله نقابة الاشراف (٣)

وفى ميعة الصبا أرسله والده الى الفقيه الذى يتولى تحفيظه القرآن الكريم كعادة أهل العصر ، وقد تلقى دروسه الأولى فى مكتب الشيخ جلال الدين السيوطى الذى كان يديره الشيخ محمد رضوان أحد الفقهاء الذين كان لهم الفضل فى تربية كثير من أدباء أسيوط وعلمائها ، وبعد انتهائه من حفظ القرآن الكريم ، أرسله والده الى الأزهر الذى كان يرجو أن يتخرج فى علومه (ولقد ظل هنالك قرابة العشر سنوات درس فيها علوم اللغة والبلاغة والشريعه) (٤)

---

١ - احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربى ص ٤٦٠ ط ٢٦

٢ - محمد صبرى . شعراء العصر ح ١ ط ١٩١٠ م ، كذلك محاضرة مطبوعة لأحمد عبد الحميد السحرتى بعنوان (المنفلوطى) سنة ١٩٢٩ م ص ٦ (بتصرف)

٣ - طاهر طناجى . مجلة الهلال أول سبتمبر سنة ١٩٥٤ م (بتصرف)

٤ - د . ابراهيم على ابو الخشب . تاريخ الأدب العربى فى العصر الحاضر ص ٢٥٤ ط ١٩٧٨ م . الهيئة المصرية العامة للكتاب

أساتذته وروافد ثقافته :-

من المعلوم أن المنفلوطي قد حفظ القرآن الكريم كاملاً في صباه ، وكفى بكتاب الله معلماً وهادياً ومقوماً للألسنة ، كما أنه حفظ كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة ، ودرى بفضل نشأته في بيت فقه وقضاء ببعض المسائل الفقهية ، أضف الى ذلك ملازمته للامام الشيخ محمد عبده الذى تلقى عنه كتابي عبد القاهر الجرجاني ، (دلائل الاعجاز) ، و (أسرار البلاغه) ، ثم استفاد من صلته بالإمام أن إتصل بسعد زغلول باشا السياسي الخطيب وتقرب من الصحفي الكاتب علي يوسف وهؤلاء الثلاثة (كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد أبيه) (١)

فاذا أضفنا الى ذلك أن الأستاذ عبد الله هاشم الذى كان على أدب جم ونزعة شعرية ، كان يتردد على منزل أبيه من حين لآخر في الوقت الذى كان المنفلوطي فيه ما يزال صبياً (٢) ، اذا أضفنا ذلك الى ما سبق علمنا كيف حبب الى المنفلوطي في ميعة الصبا حب الأدب العربي ، فأكب على قراءة كتبه وأخذ ينهل من معينها الفياض ، كما أنصت الى أساتذته الذين كانوا يتطوعون لقراءتها أمثال الشيخ سيد المرصفي والشيخ حسين المرصفي (٣)

أضف الى ذلك أنه كان ينهل من آثار معاصريه المترجمه والمؤلفه (٤) ، وقد حفظ الأشعار وتصيد الشوارد منها .

---

١ - أحمد حسن الزيات ، وحي الرساله ج ١ ص ٣٨٨ ط ٨ سنة ١٩٦٤ م دار نهضة مصر
٢ - الأستاذ طاهر طناحي . مجلة الهلال أول سبتمبر سنة ١٩٥٤ م (بتصرف)
٣ - ابراهيم على أبو الخشب . تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر ص ٢٥٤ (بتصرف)
٤ - د . شوقي ضيف . الأدب العربي المعاصر ص ٢٢٨ ط ٧ (بتصرف)

أما ماقرأه فى فترة دراسته بالأزهر - من كتب الأدب النثرية فهي :-

كتب ابن المقفع ، والجاحظ ، وبشر بن المعتمر ، والمبرّد ، والآمدي والجرجاني ، وبديع الزمان الهمذاني ، وغيرهم من ذوي الثقافات العالية ،

وبالجملة كان يقرأ كل مايعثر عليه من كتب التراث القديم شعره ونثره ، وما أنتجته القرائح فى الأدب الغربي الحديث شعره ونثره أيضاً ، ومما دخل فى أدبنا الحديث من روائع الأدب الغربي عن طريق الترجمة التى آتت ثمرتها منذ أواخر القرن الماضي ، فأقبل المنظوطي على مطالعة هذه الألوان الأدبية ، ووقف على طرائق النثر الفنيّ التى كانت سائدة فى أيامه ، والنثر الفنيّ كان على عهده لوناً حافلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ، يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحي وحفني ناصف ، ويظهر الثاني ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفي السيد وقد قال الزيات فى ذلك :-

(إعلم أن المنظوطي تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث بجبران ونعيمه ، ولكن هذا دخل فى فنّه دخول إلهام وإيحاء لا دخول التقليد والاحتذاء) (١)

وقد أفصح المنظوطي نفسه عن روافد هذه الثقافة العربية بقوله فى مقدمة النظرات :-

(ولقد قرأت ماشئت من منثور العرب ، ومنظومها فى حاضرها وماضيها . قراءة المتثبّت المستبصر ...) (٢)

---

١ - أحمد حسن الزيات . وحي الرسالة ج ١ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠

٢ - المنظوطي . النظرات ج ١ ص ٣٤ دار الثقافة بيروت

يضاف الى ذلك ما أشرنا اليه من تلمذته على الإمام محمد عبده الذى كان معنياً بعلوم البلاغه العربية ، لدرجة أن الاستاذ محمد رشيد رضا إعتبر أن المنفلوطي الأديب قد تخرّج على يد الأستاذ الإمام ، لأنّه تتلمذ عليه فى كتابيّ عبد القاهر (أسرار البلاغه) ، (دلائل الإعجاز) (١)

كذلك كان يقيم المنفلوطى ندوة أدبية بداره تعتمد على القراءة فى أمهات الكتب العربية . (٢)

وقد كشف المنفلوطي نفسه عن جانب آخر فى مطالعاته وهو جانب الأدب الشعبي ، وذلك حين حدّث عن نفسه فى صباه ، فيقول :-

(كنت أجد فى نفسي غبطة عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة ، أو سيرة سيف بن ذى يزن ، أو حروب عنتره ، أو وقائع أبو زيد ، أو أساطير الجن والشياطين ..) (٣)

ولا شكّ أن للرجل إطلاعات عامّة فى مختلف العلوم كالفلسفة والتاريخ مثلاً ، فنحن لا نزال تطالعنا إشارات فلسفية تدل هي على نفسها ، كالإصطلاحات المنطقية من الجوهر والعرض والمقولات (٤)

وهكذا يتضح لدينا أن المنفلوطى كان واسع الإطلاع فى حقل الثّقافة العربية وله دراية لاتنكر فى مجال الأدب المترجم ، وله إلمام بالتاريخ والفلسفه وقد بدا ذلك

---

١ - محمد رشيد رضا . تاريخ الاستاذ الإمام جـ١ ص٢٥٧ ط ١٩٣١م

٢ - محمد ابوالأنوار . المنفلوطي الكاتب ، رسالة مخطوطة ص٤٠ قدّمت الى دار العلوم العليا لنيل درجة الماجستير

٣ - المنفلوطى . النظرات ج٣ ، ص٢٥٨

٤ - فضلا راجع مقال مدينة السعادة حـ١ ، وخطبة الحرب حـ٢ ومقال الانسانية العامّة ح ٢ من النظرات

واضحاً فى كتاباته وتصريحاته السّابقة (١)

وبهذا يمكن أن نتساءل :

أيحق للأستاذ الهيهياوي أن يدّعي أن المنفلوطي ألمّ بالجمّ الوفير من القصص الأعجمية المترجمه - فقط - ولم ينظر فى سواها من كتب الأدب الممتعه ، فطُبعت ملكته (عليها) واستمد لغته من أساليبها السّقيمه المريضه ؟! (٢)

لا شكّ أننا لا نوافقه على رأيه هذا ومن يقرأ قصص المنفلوطي فقط يؤكّد صحة رأينا ، فمابالنا بمن يقرأ مقالاته ؟ (٣)

ظروفه الخاصة :-

ان من المؤثّرات التى أحاطت بالمنفلوطي عدم استقامة الأمور بين أمه وأبيه الى الحد الذي أدّى الى طلاقها منه واستمرار حياته مع زوجة أبيه ولا شكّ فى أن كيفية هذه الحياة معلومه لدى من عاش مثلها ، أضف الى ذلك عزّة نفسه ، وترفعه عن السؤال مع حساسيته المفرطة ورقّة مشاعره المتناهية كل ذلك ولا شك - كفيل لأن يكوّن لنا شخصية معقدة منطوية متشائمه ، ولكن المنفلوطي بفضل الله عليه وتوفيقه له لم يكن معقداً ولا متشائماً ، وإنّما كان حريصاً فى معاملاته مع النّاس ، قليل الإختلاط بهم ، دقيقاً فى اختيار ألفاظه مع من يخاطبه محافظة منه على شعور الآخرين .

وقد تحدّث هو عن حياة العزلة والانفراد فى قصيدته (بول وفرجيني) فقال :-

---

١ - فضلا راجع ص ١١ ، ١٢ من هذا البحث

٢ - مصطفى الهيهياوى ، قصص المنفلوطي ص ٢٦ ، ٢٧ ط

٣ - ورد هذا الرأى فى رسالة د أبو الانوار المخطوطة (المنفلوطي الكاتب) ص ١٠٩ ونشاطره هذا الرأي

ان عيش المرء فى وحدته خير عيش كافل خير هناء

فالورى شر وهم دائم وشقاء ليس يحكيه شقاء (١)

وقد لعبت ظروف العصر الإجتماعية التى سبق الاشارة اليها - (٢) قد لعبت دورها فى توسيع الهوّة بين مثالية المنفلوطى وبين واقع الحياة حوله . وما يغمرها من غش ونفاق أو ظلم وإستبداد أو كذب ورياء ... الخ

كذلك من المؤثّرات الخاصّة فى حياة المنفلوطى وشخصيته أنه أنجب من زوجته الأولى خمسة أولاد ماتوا جميعاً منهم ولدان توأمان وثلاث بنات توفت إحداهما قبله . (٣)

ثم توفت زوجته الأولى وتزوّج بالأخرى وانجب منها ولدين وثلاث بنات توفى أحد الذكور وهو ما يزال صغيراً وقد رثاه فى مقاله (الدفين الصغير) (٤)

وثمة موثر آخر يبين فيه إنسانيته وتضحيته ذلك هو أنّ زوجته ضعف بصرها (فكان يرعاها بإحسانه ويجتهد فى تسليتها وإزالة حزنها حتى بلغ به أنه كان يوهمها أنها حادّة البصر جداً ، ليدخل السرور على قلبها ، فكان يلقى بجوارها إبرة بحيث تكون فى ملتقى أول نظرة منها دون ان يشعرها بذلك ، ثم يطلب اليها أن تتناول هذه الإبرة فتنظر أمامها فتقع نظراتها الأولى عليها فتهوى إليها وتناوله إياها .

---

١ - فضلا راجع القصيدة كاملة ص من هذا البحث
٢ - فضلا راجع التمهيد فى هذه الرساله ص١-٦من هذا البحث
٣ - محمد أبو الأنوار (المنفلوطى الكاتب) رسالة مخطوطة ص ٧٥
٤ - المنفلوطى . النظرات ح ١ ص ٥٢

فيظهر السيد إعجابه بحدّة بصرها .. فتفرح كثيراً وتعتقد أنها كما رآها زوجها) (١)

وقد أشار المنظوطي الى هذه القصة فى مقالاته (٢)

ومما سبق يبدو لنا المؤثّرات الخاصّة في حياة المنظوطي والتى كانت واقعاً ملموساً إلى أدبه الانسانى الرفيع ، وانفعاله بكل مايدور حوله من مؤثّرات مؤلمة أو مجرّد قراءته لقصص البؤس والشّقاء .. يقول المنظوطي :-

(ولا أدري ما الذى كان يعجبنى فى مطالعاتى من شعر الهموم والأحزان ، ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين خاصّة ..) (٣)

وقد حكى فى شعره عن نفسه القريحه المعذّبة بقوله :-

ومن كان ذا نفس كنفسي قريحة ... من الهمّ لا يعنى بوصل ولا هجر

كأنى ولم أسلخ ثلاثين حجة ... ولم يجر يوماً خاطر الشيب فى شعرى

أخو مائة يمشى الهوينا كأنه ... اذا مشى في السهل فى جبل وعر

اذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه ... وشاب هواه وهو فى صحوة العمر

حييتُ بآمالى فلما كذبتنى ... قنعت فلم أحفل بقل ولا كثر

جزى الله في اليأس خير فائدة ... كفاني ما ألقى من الأمل المرّ (٤)

---

١ - طاهر طناجى - الهلال ديسمبر سنة ١٩٢٩م

٢ - المنظوطى - النظرات ج ٢ ص ١١٨ مقال (الوفاء)

٣ - المنظوطى - مقدمة النظرات ص ١٦

٤ - محمد محمد عبد المجيد (الكواكب والمواكب والدرر) ص ٣٨ مطبعة محمد عطيه

أخلاقه وصفاته :- (كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ، فهو مؤتلف الخلق متلائم الذوق متناسق الفكر منسّق الاسلوب ، منسجم الزيّ ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقريه ، ولا نشوز الفدامة ، كان صحيح الفَهْم في بُطء ، سليم الفِكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللّسان في تحفُّظ ، وهذه الخِلال تظهر صاحبها للنّاس في مظهر الغبيّ الجاهل ، فهو لذلك كان يتّقي المجالس ويتجنّب الجدل ويكره الخطابه ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية في الأُسرة ونظام التّعليم الصامت في الأزهر أو فرط الشعور المرهف بكرامة النّفس ، وكذلك إذا جلست اليه رأسا الى رأس ، تسرح في كلامه ، وتباري لسانه ، وخاطره في النقد الصّريح ، والرأيِ الناضج ، والحكم المرفق ، والتهكُّم البارع ، فلا شكّ في أن هذا هو المنفلوطِي الذي تقرأه .. ثم هو الى جانب ذلك رقيق القلب ، عف الضّمير ، سليم الصّدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد وموزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ، ووطنيته وإنسانيته)(١)

وفي تأكيد هذا يقول الطّناحي :

(كان السّيد المنفلوطي متواضعا ، رقيق الحاشية ، هادئ الطّبع ، لا كما يلقه القارئ بين سطور كتبه ، من الأسى والتوجّع الذي يدلّ على مايصاحبه من التشاؤم أو عصبية الطّبع الحاد ، فكنت إذا جلست اليه تشعر بهدوء ، ورضا ، بما تتعاقب به الأيام من مختلف الحوادث ، وشدائد الخُطوب ويُخيَّل إليك أن تلك النّفس الحزينة الثائره على مآسي الأيام الباكية لمصارع بني الإنسان ، ماهو

١ ـ احمد حسن الزيات مجلة الرسالة ١٢ يولية سنة ١٩٣٧م

الا صورة أخرى ينتقل اليها المنفلوطى اذا خلا بنفسه وناجى النَّجم فى علاله والقمر فى سمائه) (١)

تلك هى أخلاق المنفلوطى التى أسفرت عن أدب انسانى خالص ، لان الأدب الحق ماهو الا خلاصة لروح الأديب وصورة لمشاعره الصادقة اتجاه مايدور حوله من موثِّرات ، ونجاح الأديب يعتمد على أن يكون قوى الإحساس مُرهَف الوجدان رقيق العاطفة ، لأنه بهذه المقوِّمات النَّفَسية يتأتَّى له أن يبعث فى جمهوره العواطف الخُلُقيَّة النَّبيلة التى تنهض بالأمَّة وترفع شأنها . (٢)

وظائفه :- بعد أن توفى الإمام محمد عبده ، أسف المنفلوطى على ذلك أسفاً شديداً ، فرجع إلى بلدته ومكث بها عامين يكاتب صحيفة المؤيد ، ثم عاد وقد حاز على إعجاب سعد زغلول الذى تولَّى وزارة المعارف ، فعيَّنه محرِّراً عربياً لوزارته وانتقل سعد زغلول إلى وزارة العدل ، فنقله معه ، ولكنه لم يظل فى الوظيفة وفُصِل منها بعد خروج سعد من الوزارة ، وظل يكتب فى الصُّحف إلى أن قام البرلمان سنة ١٩٢٣م فعيَّنه سعد رئيساً لطائفة من الكُتَّاب فى مجلس الشيوخ (٣)

---

١ - طاهر طناحى . مجلة الهلال ديسمبر ١٩٢٩م .

٢ - الأستاذ حامد عبد القادر . دراسات فى علم النفس الادبى ص ١٦ ط ١٩٤٩م

٣ - د شوقى ضيف . الادب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٢٨ بتصرف

مرضه ووفاته :-

أصيب المنفلوطي قبل وفاته بشهرين بشلل خفيف فأخفى ذلك على زوجته وأولاده حرصاً منه على استمرار سعادتهم ، ثم أصيب قبل وفاته بثلاثة أيام بتسمُّم في الدَّم أدَّى الى وفاته ، وقد لقي ربَّه في يوم السبت ١٢ يوليو ١٩٢٤م ، يوم الاعتداء على سعد باشا زغلول ، وتُجمع الأخبار على أنَّه مات في العقد الخامس من عمره - عن ثمانية وأربعين عاماً (١)

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن الإنسانية خيرا .

---

١ - مارون عبود ،أدب العرب ص ٤٦٦ ط بيروت سنة ١٩٦٠م

تأثُّره بتعاليم الاسلام

ان الأمر الذي لا يُدانيه ريب أن المنفلوطي تأثَّر بتعاليم الإسلام الحنيف تأثُّراً كبيراً ، وذلك بسبب النَّشأة الإسلامية التقيَّة التي نشأها مع أسرته وحفظه للقرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وانعكس هذا التَّأثُّر على أدبه ، وسنجلو هذا التَّأثُّر بشواهد من أدبه الزاخر بالتأثير الاسلامي معنى ولفظاً ، وما الإتجاه الانساني الذى إتجه إليه المنفلوطي في أدبه إلا أثر من آثار الإسلام الحنيف على شخصية الرَّجُل وطِباعه .

وسنكتفى هنا بذكر ثلاثة شواهد ، على أن يكون لنا عودة الى هذا التأثير أثناء حديثنا عن المظاهر الإنسانية في أدبه .

وأول هذه الشَّواهد على تأثير الاسلام في أدبه نراها في حديثه عن (يوم الحساب) ، في كتابه " النظرات " وتخيُّله أنه أصبح في ذلك اليوم الرَّهيب ، فرأى الناس لاهية في أمورها وأن لكل إنسان شأناً يغنيه عن النظر إلى رفيقه فيقول :-

(وأنشأت أمشي مشية الحائر الذَّاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلُّني على نفسي في هذا الموقف الذى ينشد كل ذي نفس نفسه) (١) .

فهذا المعنى مأخوذ من الآية الكريمه (يَومَ يفرُّ المرءُ من أخيه . وأُمِّهِ وأبيه . وَصاحِبَتِهِ وبنيه . لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغنِيهِ .) (٢) . وفي نفس

---

١ - مصطفى لطفي المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٣٧

٢ - القرآن الكريم . سورة عبس آية ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

الموضوع يرى المنفلوطي فيما تخيّله صديقًا له كان يعرفه وكان هذا الصّديق كما يقول (لا يتّقي مأثماً ولا يهاب مُنكَراً . . .) (١) .. أقول يراه وقد حاسبه الله حساباً يسيراً وماذلك الا لأنه كان له جار قد نكبه دهره بنكبة ذهبت بحاله فأهمّه أمره ، واحتال على أن يُدْخِل في داره خادماً وجعل لها جعلاً على أن تدسّ في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها . . . وبقى على هذه الحال حتى فرّق الموت بينه وبين جاره فما نفعه عمل من أعماله فى آخرته كما نفعه هذا العمل فى دنياه . (٢)

والحقيقة أن هذه القصّة إسلامية لأن الرّجل علم قيمة الصّدقة التي تُؤدّى في السّر وعمل بالحديث الشّريف الذي يقول :

(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم يُنتفَع به أو ولد صالح يدعو له) (٣) .

وها هو المنفلوطي يقول على لسان ذلك الرجل المُحسن :

(وماكان الإحسان وحده سبب سعادتي ، بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرّياء) (٤) .

ثم يمضى المنفلوطي فى تخيّله فيطلب من الرّجل أن يشفع له عند الله ولكنه يجيبه بقوله : (لا تطلب المُحال ، ولا تصدّق كلّ ما يُقال فقد كنا مخدوعين فى الدّار الأُولى

---

١ - مصطفى لطفى المنفلوطى - النظرات ج ١ ص ١٣٨

٢ - " " " " ,, ١ ص ١٣٩ بتصرّف

٣ - صحيح مسلم بشرح النووى الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٢م ح ١١ كتاب الوصية ص ٨٥ دار الفكر . بيروت

٤ - مصطفى لطفى المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٣٩

بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا ، وما الشفاعة الا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقربين ، فلا يشفع عنده أحد الا بأذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الا اذا كان بين أعمال المشفوع له أو في أعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة) (١) ... فلا يشفع عنده أحد الا بإذنه .

فهو مأخوذ من الآية القرآنية :-

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (٢)

وهكذا ينسج المنفلوطي على هذا المنوال موضوع (يوم الحساب) (٣) متأثراً بالقرآن تارةً وبالحديث تارة أخرى في كل ما يرويه من قصص عن ذلك اليوم الرهيب ، وثمة شاهد آخر على تأثر المنفلوطي بالإسلام (الدعوة) (٤) الذي أورده في الجزء الثاني من النظرات حيث يقول (وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد . لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها ، لأنهم يحاولون أن يرزؤوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .) (٥) .

فهذا يدل على شدة تمسك الرجل بعقيدته ودينه ، ويقول أيضاً في هذا الموضوع

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ١ ص ١٣٩
٢ - القرآن الكريم . سورة البقرة . آية ٢٥٥
٣ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٢٧
٤ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٤٩
٥ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٤٩

(الدُّعاة أحوج النَّاس الى عزائم ثابتـه ، وقلوب صابرة على إحتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدَّعوة ، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها) . (١)

وهذا معنى مأخوذ من قول الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب عندما عرض عليه الجاه والمال في قريش على أن يترك الدَّعوة إلى الاسلام فقال له :

(ياعمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته .) (٢) .

ويقول المنفلوطي أيضا في نفس الموضوع :-

(الدُّعاة الصادقون لا يبالون أن يسمِّيهم الناس خونة أو زنادقة أو مُلحدين ، أو ضالِّين ، أو كافرين ، لأن ذلك لابد أن يكون) (٣) . فهذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم حيث أدَّعى المشركون أن محمداً ساحر ، وأنه شاعر .

قال تعالى :- (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ...) (٤)

و:-(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) (٥)

ألم يقل قوم موسى في شأن دعوته إنَّها سحر ؟.. فقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى .) (٦) .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٥٠

٢ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . محمد بن اسحاق . تهذيب ابن هشام ج ١ ص ١٧٢ . مطبعة المدني . العباسية . القاهرة . الناشر . مكتبة صبيح ، القاهرة

٣ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٥٠

٤ - سورة الأنبياء . آية ٥

٥ - سورة الطور . آية ٣٠

٦ - سورة القصص . آية ٣٦

ومما يدل أيضا على تأثر المنفلوطي بتعاليم الإسلام قوله في موضوع (لا همجية في الإسلام) (١) :-

(أيها المسلمون إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين الا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد أسأتم بربكم ظناً ، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله وتدبيره في شئونه وأعماله ...) (٢)

نعم لقد حرم الإسلام قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق حتى وإن كان هذا المقتول مسيحياً ، ثم يقول الرجل في نفس المقالة هذه مبرراً قتل المسيحيين في صدر الاسلام :-

(أيها المسلمون ليس ماكان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والإنتقام منهم ، أو القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل ، أي أن القتال كان ذوداً ودفاعاً لا تشفياً وانتقاماً) (٣) .

ثم يمضي في موضوعه هذا مبيناً أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة في سبيلها الذى تذهب فيه إلا ويأتيها أمر الخليفة بالرفق في دعوتهم وعدم إزعاج الرهبان في أديرتهم ... (٤)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٢١٥
٢ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٢١٥
٣ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٢١٦
٤ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٢١٧ بتصرف

وهذا المعنى إسلامي أيضاً مأخوذ من قوله تعالى :

(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .) (١)

وهكذا يمضي المنفلوطي متأثراً بالإسلام في معظم مقالاته ان لم تكن كلها لأنني أرى أن الإنسانية التي دعا إليها إنما هي أثر واضح من آثار الاسلام عليه ، وما أشد عجبي من أولئك الذين يفرقون بين الإسلام والإنسانية ، وما الإسلام الا دين الانسانية جمعاء .

---

١ ـ القرآن الكريم . سورة النحل . آية ١٢٥

عاطفته الإنسانية (إحساسه بإحساس بني وطنه)

لقد كان المنفلوطي - كما نعرف - مرهف الحس فيّاض المشاعر رحيم القلب يهتزُّ ألماً ويذوب حزناً لكلّ ما يحيط به من مظاهر البؤس والشقاء .

وقد كتب المنفلوطي مقالاً بعنوان " العام الجديد " (١) تتجلى فيه عاطفته الإنسانية وموقفه من كل ما يحيط به من أنماط البشر الذين نشأوا على الجشع وأقفرت قلوبهم من ينابيع الرّحمة فيقول :-

(لا سعادة في الحياة إلا إذا نشر السّلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشريّ ، ولن ينتشر السّلام إلا إذا هدأت أطماع النّفوس ، واستقرّت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كلّ ذي حقٍ حقّه ، وقنع كلٌ بما في يده عمّا في يد غيره فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ، ولا محدود مجدوداً ولا جاهل عالماً ، وأُشعرت القلوب الرّحمة والحنان على البائسين المنكوبين ، فلا يهلك جائع بين الطّاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلأت النّفوس عزةً وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال النّاس باسم الدين مرّة والإنسانية أخرى . ولا ترى طبيباً يدّعي علم ما لا يعلم ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكّله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب منه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشوه ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتباً يضرب النّاس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصّها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشّرر المتطاير منها) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ١٣٩

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ١٤٠

فهذا شاهد يؤكِّد ما انطوت عليه نفس المنفلوطي من انسانية عامرة بالأمان وحبِّ السَّلام بمعناه الواسع الرَّحب ، ثم يعكس إحساس المنفلوطي بما يدور حوله من مأسي بين أفراد وطنه الَّذين طفت عليهم الأُثرة وحبُّ الذَّات ومحاولة ابتزاز أموال النَّاس بالباطل وانتشار الفَوضى وعدم الاستقرار ولا أدلَّ على إحساس المنفلوطي بإحساس بني وطنه من قصيدته " قدوم " الَّتي عبَّر فيها عن إحساسه بما يدور من ظُلم واستبداد في الشَّعب حوله والَّتي سُجِن من أجلها واشتهر بها في عالم الشِّعر (١)

---

١ ـ فضلا راجع نص القصيدة وتحليلها في تمهيد الباب الثاني (الحياة الادبية في عصره ص ٤١ من هذا البحث

الباب الثاني

أدبه

تمهيد : الحياة الأدبية في عصره

- كتبه . (مؤلفه ، مترجمه)
- شخصيته الأدبية وأسلوبه
- موقف النقّاد من أدبه

تمهيد :

الحياة الأدبية فى عصره

أ ـ حالة النثر :ـ من المعروف أنَّ النثر العربي قد ترقَّى فى أسلوبه حتى وصل إلى قمته الفنيَّة فى العصر العباسيّ الأول ، ثمَّ أخذ يسير فى عظمته ورقيِّه زمناً طويلاً حاملاً معه آثار تلك النهضة ، وإن اختلف من إقليم إلى إقليم ، وكانت مصر موطناً خصيباً له حتى عهد المماليك الذي بدأت فيه الأساليب تنوء بالمحسِّنات البديعية والصَّنعة اللفظية .

وحين دخل العثمانيون مصر سلبوها كلّ ميزة كانت فيها حتى أنَّنا نجد فرقاً كبيراً جدّاً بين كتاب مثل " بدائع الزهور " فى التَّاريخ ، وبين كتاب آخر مماثل له فى عصر المماليك ، فالركاكة والأخطاء النحوية والامتزاج بالألفاظ التركيَّة التي نجدها عند ابن إياس لا نجد مثلها عند ابن تغري بردي .

أما الكتابة الفنيَّة فكانت تلفيقاً خالصاً من أساليب السَّابقين وقد أدخلوا فيه التصنيع واستعمال البديع بكثرة إلى جانب مصطلحات العلوم ولم يعد هناك شيء من الجديد والابتكار فالقوم يعيشون على التَّقليد وتكرار أعمال السَّابقين ، وهكذا نجد أنَّ الكتابة الفنيَّة جمدت جموداً بل تحجَّرت وأصبحت مواتاً (١)

أما فى أخريات العصر العثماني ، فقد بلغ الغاية فى الركَّة والضَّعف ، فعباراته سقيمه ، تقيِّدها قيود ثقيلة من الحليّ والزخارف اللَّفظية المصطنعه المتكلَّفة لتخفي وراءها غثاثة المعنى أو تفاهة الفكرة وضحالتها ، تلك المعاني التي

---

١ ـ د . شوقي ضيف . الفن ومذاهبه فى النثر ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ ط ٦ دار المعارف (بتصرّف)

أُخذت من كُتّاب سابقين بيد أنّها سيقت لعجز الأدباء عن الأداء الصحيح - في ذلك الثوب المهلهل الرّث ، وكثيراً ماينقص ذلك التّعبير الكلمة الفصيحة ، مع غلبة العاميّة والكلمات التركية والدّخيلة ، فيأتي الكلام أشبه مايكون بالرّموز والأحاجي .

أما من تذوّق الأدب على درجة لا بأس بها من اللّغة في تلك الفترة فقد نسج على أسلوب المقامات في أخريات عصر المماليك . (١)
والتزم السّجع في كل مايصطنع من كتابه ، بل ان بعضهم كان يتلاعب بالألفاظ ويأتي بالمقامات المحرّفه والمُصحّفه مما يُبعِدها عن الأدب ، من ذلك مثلاً المقامة التي انشأها مصطفى أسعد الدّمياطي في مدح (رضوان كتخدا عزبان) والتي يقول فيها :

(حكى البديع بشير بن سعيد قال : حدّثني الرّبيع بن رشيد قال :
هاجت لي دواعي الأشواق العُذريّة ، وعاجت بي لواعج الأنواق الفكرية إلى ورود حِمى مصر المُعزّية البديعة ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرّفيعة ، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدري ، وأروّح بحواشي نيلها الجاري روحي وسرّي ..) (٢)

---

١ - المقامه : وهي نوع من القصص الأدبية القصيرة التي تعتمد على الخيال في تأليف حوادثها وترمي الى غاية مثل تعليم اللّغة ، وسرد الموعظة ، وقد اشتقّت من المقام أي مكان القيام ، وكان ذلك في الخُطَب والتكلّم في المحافل ، أما أسلوبها فتقوم العبارات فيه على الصّنعة البديعية من سَجْع وجناس ، وازدواج وطباق ومقابلة واستعارات على اختلاف بعد ذلك في الإغراب اللّغوي ودرجة التكلّف ،

٢ - فضلا راجع الأسلوب . الأستاذ احمد الشايب ص ١١٠ - ١١٢ ط ٧ سنة ١٩٧١م ، مكتبة النّهضة المصرية .

٢ - عمر الدسوقي ، نشأة النثر الحديث وتطوره ص ٣٧ ج ١ ط ٢ . دار الفكر العربي .

وهكذا بدا لنا من المثال السَّابق كيف كان الكلام متكلّفا مصنوعاً لا يفضي الى غاية ولا يُنبىء عن فكرة سليمه وانما هو لإظهار البراعة فى اقتناص السَّجعات ووضع المحسّنات وقد غلَب هذا الأسلوب على ألسنةِ مدّعيّ الأدب فى مِصر والعراق فى تلك الفترة ، أضف الى ذلك غلبة العاميّة والتُركية على الألسنة مع تفشّي الجهل وتراكُم ظلُمات الإستعمار على تلك البلاد .

وحين أقبل العصر الحديث بنهضته منذ بداية القرن الميلادِي الماضي ومافيه من ترجمة وإحياء للتراث العربى القديم وطباعة الكُتُب وانتشار الصُّحف اليوميَّة وغيرها من العوامل التى ساعدت على نموّ الأدب وتقدُّمه ـ أقول وحين أقبل هذا العصر الحديث بنهضته ـ بدأت الأساليب تتطوَّر وتتقدَّم وتترك السَّجع والتَّقليد والأساليب العاميّة الساقطة والكلمات الدَّخيلة على العربيَّةِ بقدر الإمكان ، لأن النَّهضة لا تكون طفرةً واحدة وإنما تأتي تدريجياً ، لذلك فقد ظلَّ الأُسلوب بين الإطلاقِ والسَّجع ، ولم يستطع التَّخلُّص منه حتى مابعد العِقد السابع من القرن الماضي ، اذا أردنا أن نضرب أمثلة واضحة لما نقول ، فإنّنا نأخذها من الصّحافة لأنها أقرب الكتابة الى الحُريَّة والإطلاق ، وأجدر بها أن تتخلَّص من رواسب الماضي ، وكان لها دورها فى تخليص الأدب من ركامات العصر السَّابق ، فقد جاء فى خبر داخلي نُشر فى العدد الرَّابع من" الوقائع" سنة ١٨٦٥م :-

(إن أناساً من اللِّئام سَقَطةِ الأَنام ارتضوا بالخِزي وارتكاب الآثام فاستبدلوا الاشتغال بأنواع الكَسْب الحلال ، بالاشتغال بالحرام والعار ، والدوران فى القرى والأمصار) (١)

---

١ ـ عمر الدسوقى . نشأة النثر الحديث وتطوره حـ ١ ص ٥٤

وعلى هذا المنوال من السّجع كان يُنسَج الخبر الخارجي المُترجم سواءً كان سياسياً أو غير سياسي ، ولم يكن يخلو من الكلمات الأعجمية ، وإن ظلّت الكلمات المحلّية تأتي على أقلام الكُتّاب إلى أنْ تولّى الشيخ محمد عبده تحرير الوقائع سنة ١٨٨٠م فخلّصها من هذه الآفة وجعل السّيادة للفصحى (١)

والواقع أن هناك عاملاً كان له أهميتة في تطوّر الأدب ورُقيّه خاصة النثر لأنّه أسرع تطوراً من الشّعر ، ذلك العامل هو وجود طبقة جديدة من المُرتشفين للثّقافة الغربية من منابعها الأولى ، أو عن طريق التّرجمة لروائع الأدب ، ثم أخذوا أنفسهم بالجدّ والمُثابرة على القراءات المستمرّة من أجل التذّوق للأساليب الجديدة .

والذي لا يُنكَر أن عصرنا الحاضر قد دخله من أسباب العمران ما باعد بينه وبين العصور السّالفه أعتُبر ذلك في شتّى المبادىء السّياسية التي طفت على مصر من وراء البحر ، وتلك الإنقلابات الإقتصادية والإجتماعيّة التي اقتضاها تقدّم العلم والتوسّع التجاريّ والاحتكاك بالأمم الغربية ، كل ذلك قد أدّى إلى تطوّر البيئة العربية ، ومن ثمّ إلى توجيه الأدب العربيّ نحو أهداف وأساليب لم تتهيّأ في البيئة القديمة أو في الأدب القديم (٢)

واذا أردنا أن نحصر الإتجاهات في النثر الفني في تلك الفترة فانّنا نجده يدور حول أمور أهمها :-

---

١ - عمر الدسوقي . نشأة النثر الحديث وتطوره ج ١ ص ٥٤ بتصرّف

٢ - أنيس المقدسي . الإتجاهات الأدبية ص ١٢ بتصرّف

١ - النّثر الاجتماعي :- وهو الذي يُطلَب به تغيير حالة إجتماعية أو محاولة إصلاح ناحية من نواحي الحياة العامّة .

ومن مقوّمات هذا النّثر صحّة العبارة وترك الزّخرُف ووضاءة الأسلوب ووضوحه ، والبُعد عن الخيال والمُبالغات لأنّه يقوم على المنطق والحجّة، ومُعالجة الواقع الاجتماعيّ وقلّما يستخدم الإشارة العاطفيّة مثل الكتابة الدّينية التي تدعو إلى الإصلاح العام مثلاً .

٢ - وثمة نوع ثان وهو نشر الصّحافة الذي من مقوماته السُّهولة والوضوح حتى يتسنّى لكاتبه مخاطبة الجماهير باختلاف نزعاتها . (١)

ولا نعني بذلك أن يكون نثر الصّحافة عاميّاً ، إنما هو ذو لغة متوسّطة ، وأكثر اعتماد هذا النوع على الأدلّة الخطابية لأنها هي الأنفذ في إقناع الجماهير . (٢)

٣- أمّا النوع الآخر : فهو الذي يمتّ الى موضوعنا بصُلة وثيقة ، ذلك هو النّثر الأدبي ، وهو أشدّ أنواع النّثر حاجة الى تخيُّر اللّفظ والتأنّي في النّظم وهو يمتاز بالأسلوب الجميل الذي يُشبه الشّعر وإن لم يكن على وزن من أوزانه .

ولا نستطيع هنا أن نخصّ كاتباً في اتجاه من هذه الإتجاهات النثرية ، لأنّها مُتداخلة بعضها في بعض ، فنجد كثيراً من الكُتّاب الذين يكتبون في الصّحافة مثلاً يعالجون مشكلات إجتماعية في أسلوب أدبيّ جميل كما كان الشيخ محمد عبده

---

١ - فاروق خورشيد . بين الأدب والصحافة ص ١٥٨ ط ٢ سنة ١٩٧٢م دار الفكر العربي بتصرّف

٢ - نفس المرجع ص ١٥٩ بتصرّف

والمنفلوطي (١) وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش ، وإن كان بعضهم يميل إلى ناحية خاصّة لقربه منها واتّصال حياته العملية بها .

وليس من الغريب أن نجد الكُتّاب ينقسمون الى طوائف مختلفة ؛ فمنهم المُحافِظ الذي يتمسّك بالقديم ، يقابله المجدِّد الذي ينزع مَنزع الأوربيين في تحرير الأسلوب من المحسّنات والسّجع والتّقليد ، وقد وجدت هذه الطائفة الثّانية من يُناصرها من السّوريين والمُهاجرين ثمّ كانت طائفة أخرى أسهمت في التّطوير المُفرِط حتى كانت تستخدم العاميّة ، وفيما يلي نذكر أهم المدارس التي كانت في مصر في أُخريات القرن التّاسع عشر (٢)

١ - طائفة الأزهريين المُحافظين ومن نحا نحوهم من دار العلوم من أمثال توفيق البَكري ، وحفني ناصف وغيرهما .

٢ - طائفة المجدِّدين المعتدلين من خريجي المدارس المدنيّة الحديثة من أمثال قاسم أمين ، وفتحي زغلول ولطفي السّيد .

٣ - طائفة المُسرفين في التّجديد وهم دعاة العاميّة من أمثال محمد عثمان جلال (٣) وغيره من أولئك الذين أخذوا بجمال الصياغة ويلحق بهم عرب لبنان النازحون أمثال ميخائيل نعيمة وجبران وغيرهما ممن هاجر الى الأمريكتين ، وكانت عباراتهم

---

١ - فضلا راجع مقالاته الإجتماعية في الفصل الأول من الباب الأخير في هذا البحث ص ٢٤١ إلى ص ٢٨٦ .

٢ - د . شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر ص ٤٩٢ ط ٦ بتصرّف

٣ - ترجم محمد عثمان جلال بعض روايات موليير الى لغتنا الدّارجة فاتّسعت هذه الدّعوة الى العاميّة .

لا تسلم من الركاكة والتساهل في وجود الدخيل من الألفاظ (١)

٤ - وثمة طائفة رابعة اتجهت الى ردّ الفعل الذى لا بدّ من وجوده أمام هذه الطرائق الثلاث ، تلك الطائفة التى تمثلت فى طريقة رابعة أخذت من محاسن السابقين وأعرضت عن مساوئهم ، فرضينها الأذواق جميعاً لما فيها من إحياء الأسلوب العربيّ الخالص ، فكمل النقص بما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسايرة التجديد الحديث ، .

استبانت معالم هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ثم سار عليها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت أساليبهم بالرقة والسلاسه والرصانه والعذوبة .

من هؤلاء الكتاب طائفة من الكتاب جمعت بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد ، وبلغت بالنثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره ، فالأسلوب الذي كتب به المنفلوطي والبشري والرافعي والمازني والعقاد ، هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب ، والعلم والفن والحضارة وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف والعمق والضحل ، والدقة والتجوز ، والتركز والإنتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهي الصحة والنقاء والمرونه وفى الخصائص الأصلية للبلاغة وفى الأصالة والإيجاز والتلاؤم . (٢)

تلك هى حالة النثر فى عصر المنفلوطي وهذه الحالة تبين شطراً من الحياة الأدبية فى عصره .

---

١ - د . شوقي ضيف ، الأدب العربى فى مصر ص ١٨١ ط ٧ بتصرف

٢ - احمد حسن الزيات . دفاع عن البلاغة ص ١٤٢ ط ١٩٤٥م كذلك كتابه : تاريخ الادب العربى ص ٤٣٢ ط ٢٦ دار الثقافة بيروت (بتصرف)

ب ـ حالة الشعر : أما عن حالة الشعر، فمن المعروف أنه وصل الى قمة تطوره فى العصر العباسي ، ثم أخذ في الإنحدار تدريجياً إلى أن بلغ أقصى إنحداره في العهد العثماني ، (إذ اقتصر الأمر على جماعة يقرأون بعض القصائد الموروثه وخاصة التي كانت قريبة من عصورهم ، ثم يعارضونها او يخمسونها أو يربعونها او يشطرونها فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال ، إنما هي تقليد ركيك ضعيف) (١)

وكان الشعر فى مصر أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر يجري على نفس الصورة السيئة التى كان يجري عليها أثناء العصر العثماني (٢) ، فكان أكثر الشعر من هذا اللون التقليدي المتخلف الذي يسفر هزالة وتهافته بألوان المهارة اللفظية والحيل اللغوية والمحسنات البديعية المتكلفة ، كعمل أبيات تقرأ طرداً كما تقرأ عكساً فلا تستحيل بالإنعكاس ، أو أبيات جميع كلماتها من معجم الحروف أو كل كلماتها من حروف مهملة ، أو أبيات أوائل حروفها تؤلف بيتاً آخراً أو تدل على اسم معين أو تاريخ خاص ، أو نظم أبيات كلماتها مبدوءه بحرف معين أو جميع أبياتها مفرقة الحروف الى آخر هذه التعقيدات التى لا طائل من ورائها .

ومن النماذج السائرة فى هذا الإتجاه ، أغلب أشعار الشيخ علي الدرويشى فهو مثلاً يقول متغزلاً ببيتين من الشعر كل كلماتها تشتمل على حرف العين :-

عَليَّ عَلَى عَينيْكَ عَـذْلُ عَواذِلٍ
عِذابٌ عَليها عِنْدَ عَاشِقِها عَـذَابٌ

---

١ ـ د . شوقي ضيف . الفن ومذاهبة في الشعر العربى ص ٥٦ ، ط ٨

٢ ـ د . شوقي ضيف . الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٣٨ ط ٧ بتصرف

عذارك عذرى عجب عطفك عدتي
عيونك غضبى عاد عائبها عضب (١)

كما كانت بعض نماذج الشعر فى تلك الفترة تخلو من الألاعيب والمحسنات ، ولكنها سطحية الفكرة ، مهزوزة الصورة ، فاترة التأثير ، ومن ذلك قول الشيخ حسن قويدر (٢) :-

يا طالب النصح خذ مني محبرة ... تلقي إليها على الرغم المقاليد
عروسة من بنات الفكر قد كسبت ... ملاحة ولها في الخد توريد
كأنها وهي بالأمثال ناطقة ... طير له في صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغو ومن غلط ... كل البلاء بهذا العضو موصود
واحذر من الناس لا تركن الى أحد ... فالخل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس في ذا الدهر قد فسدت ... فالشر طبع لهم والخير تقليد

على أن نماذج قليلة من شعر تلك الفترة كان أقل تكلفا وأكثر قربا من روح الشعر ، ومن تلك النماذج قول الشيخ حسن العطار راثيا :-

أحاديث دهر ألم فأوجعا ... وحل ينادى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة ... فلم يخل من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوب الدهر تترى فما ... مضى حادث يعقبه آخر مسرعا
وحل بنا مالم نكن فى حسابه ... من الدهر ، ما أبكى العيون وأفزعا (٣)

---

١ - لويس شيخو ديوان . على الدرويش ص ١٧

٢ - لويس شيخو . تاريخ الادب العربية فى القرن التاسع عشر ح ١ ص ٤٩
بيروت سنة ١٩٠٨ بتصرف

٣ - هذه الابيات من قصيدة وارده فى الجبرتى ص ٢٣٢ ، ٢٣٢ ح ٤ وهى رثاء للشيخ محمد الدسوقى .

بل قد ظهرت في أواخر تلك الفترة نماذج أقل من السّابقة القريبة من روح الشّعر ، وتضمّنت أوائل سمات التّجديد وإن لم تكن من الشّيوع بحيث تُعَد اتجاهاً ، وكان أصحاب هذه النماذج من أهم تلاميذ ذلك الجيل السّابق لأنّهم أضافوا الى ثقافتهم العربيّة ثقافة أجنبية ، فقد نظم رفاعة الطهطاوي بعض الأشعار الوطنية ، كما نظم بعض الأناشيد الحماسية ، كذلك نظم صالح مجدي تلميذ رفاعه طائفة من الأناشيد التي نراها في نهاية ديوانه .

ونلاحظ أن الشّعر الوطنيّ وشعر الأناشيد ذو طابع تجديدي واضح على الأقل إذا قيس بما كان من طابع الشعر في تلك الفترة (١)

وهذه الروح الجديدة في الشّعر ، بدأت منذ أوائل النّصف الثاني من القرن الماضي الميلادي ، وقد ساعدت عدّة عوامل على هذه النّهضة أهمها :- تقدّم الوعي القومي ، كذلك الإتصال بالأدب الغربي عن طريق التّرجمه أو عن الطّريق المباشر لمن يُجيد اللّغات الغربية ، كذلك إحياء كتب الأدب العربي القديم والنّسج على منواله والاهتمام بالصّحافة (٢)

ومن شعر رفاعه الوطنيّ الذي يأتي متناثراً في قصائده قوله :-

وَلئِنْ حَلَفْتُ بأنَّ مصرَ لَجنة ... وقطوفُها للفائزينَ دَواني
والنيلُ كوثَرُها الشّهيّ شرابُه ... لأبرَّ كلّ البرّ في ايماني (٣)

---

١ - د. احمد هيكل . تطوّر الادب الحديث في مصر منذ أوائل التاسع عشر الى قيام الحرب الكبرى الثانية ص ٢٥ ط ٣ . دار المعارف القاهرة .

٢ - أنيس المقدسي . الإتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ١٠٥ بتصرف . و د . علي العمّاري . الصّراع الأدبيّ بين القديم والجديد ص ٢٠٦ ط عام ١٩٦٥ دار الكتب الحديثة (بتصرّف)

٣ - رفاعة رافع الطّهطاوي . تخليص الإبريز في تلخيص باريز ص ١٩١ ط ١٩٥٥م القاهرة

وبالرغم من التطور والتقدم الذي ساعد على النهضة الأدبية عند الشعراء فان أحداً لم يستطع أن يبعث الشعر فى نهضته الحديثة ويخلصه من البديعيات والمحسنات والتضمينات إلا البارودي ومن لف لفه اذ أنه لم يكن مقلداً للقدماء بالمعنى السيء للتقليد ، وإنما أراد أن يرد للشعر جزالته ونصاعته ورصانته أما بعد ذلك فشخصيته فى شعره قوية بارزه ، (وهو الذي أنقذ الشعر من عثرة الأساليب الركيكه ورد اليه الحياة والروح ، حياة نفسه وروح عصره وقومه فى الفترة التى عاش فيها ، اذ جعله متنفساً حقيقياً لعواطفه ومشاعر أمته ، وما ألم به وبها من أحداث وخطوب) (١)

لقد جعل البارودي الشعر فى نهضة جديدة لأنه عبر به عن خلجات نفوس الشعب ، فلاعجب أن يظهر فى تلك الفترة المنفلوطي ليكون شاعراً معبراً عن الشعب وآماله ، فقد حصل على العوامل التى تمكنه من أن يقف فى هذا الميدان بثقافته العربية الأصيلة ورقة حسه وقوة شعره وظهوره من بين طبقات الشعب الأصيلة ، وهو من الذين يجلون ويقدرون الإمام الشيخ محمد عبده والذي كان ينادى بإصلاح الأزهر ، ويجد معارضة من الخديوى عباس الثاني . وكان المنفلوطي أيضاً له اتصالات بشيخ الطرق الصوفية ونقيب الأشراف السيد توفيق البكري الذي كان يعد هو وأسرته أكبر معارض للسلطة فى مصر ، لأنه ركن من أركان الخلافة بصفته الدينية والاجتماعية ، والمنفلوطي كان فى تلك الفترة طالباً فقيراً من طلاب الأزهر ، ولكن انتسابه الى الشرف النبوي هو الذي قربه من شيخ الطرق الصوفية وزج به فى منازعات الخلافه ومناوراتها (٢)

---

١ - د . شوقي ضيف ، الادب العربي المعاصر فى مصر ص ٤٤

٢ - عباس محمود العقاد . رجال عرفتهم ص ١١٠ بتصرف

ومن هنا اشتهر المنفلوطي فى عالم الشّعر بقصيدته " قدوم " التى شغلت الرأي العام وقتاً طويلاً لأنّها كانت حملةً على الخديوىّ عبّاس وتعبيراً عن روح الشّعب السّاخط على الأوضاع .

وبهذا يكون المنفلوطيُ مشاركاً فى الحياة العامّة منذ حداثة سنّه وأَبصر عن قُرب سير المعارك السّياسيّة لأنّه وقف على خبايا القصور وما يجري فيها من تصريف أمور الشّعب فقال معبّراً عن إحساسه بذلك الجُور الذي يعيش فيه المجتمع حوله :-

قدومٌ لكن لا أقولُ سعيدُ ... وعُمرٌ وإنْ طالَ المدى سيبيدُ
علامَ التهاني هل هُناكَ مآثرٌ ... فنفْرحُ أو سعْيٌ لَدَيكَ حَميدُ
تمرُّ بنا لا طرفٌ نحوكَ ناظرٌ ... ولا قلبٌ من تلكَ القلوبِ ودودُ
تذكّرنا رُؤياكَ أيامَ أُنزلَتْ ... علينا خُطوبٌ منْ جدودكَ سُودُ
رمانا بكم (مقدرينا) فأصابَنا ... مَصوبُ سَهمٍ بالبَلاءِ سَديدُ
فلمّا تولّيتمْ طغيتُمْ وهكذا ... اذا أصبحَ التُركيّ وهوَ عميدُ
فكَمْ سَفكت منّا دماءٌ بريئةٌ ... وكم ضمِنَت تلك الدماءُ لُحودُ
وكَمْ ضمّ بطنُ الأرضِ أشلاءَ جمّةً ... تمزّقَ أحشاءَ لها وكُبودُ
وكَم صارَ شَمْلُ للعباد مشتّتاً ... وخُرّبَ قصرٌ فى البلادِ مَشيدُ
وَسِيقَ عظيمُ القومِ منّا مُكبّلاً ... له تحتَ أثقالِ القيودِ وئيدُ
فما قامَ منكُمْ بالعَدالةِ طارفٌ ... ولا سَارَ منكُمْ بالسّدادِ تليدُ
كأنّيَ بقصرِ المُلكِ أصبحَ بائداً ... من الظّلمِ والظّلم المُبينَ يبيدُ
ويندُبُ فى أطلالهِ اليومَ ناعياً ... له عند ترداد النّداءِ نشيدُ
أعباسُ ترجو أنْ تكونَ خليفةً ... كمَا ودّ آباءٌ ورامَ جدودُ

فياليتَ دُنْيَانَا تَزولُ وليتَنا ... نكونُ ببطْنِ الأرضِ حينَ تَسودُ (١)

والملاحظ أنّ القصيدة تعبير صادق عن عاطفة المنفلوطي الإنسانية التي حرّكها الظّلم الذي يعيش فيه أبناء وطنه من حوله ، والقصيدة كما سيدو في تحليلها مثالٌ واضح على شعر المنفلوطي الذي وُجد في تلك الفترةُ متحرّراً من القيود اللّفظيّة التي كانت سائدة قبل ذلك .

تحليل القصيدة : إستقبل الشّاعر هذا الخديوي أسوأ استقبالٍ ، فقد بدأ قصيدته بالأسف الشّديد لمقدمه ، لأنّه قدوم لرجلٍ ظالمٍ ، ولابدّ للظّالم من أن يزول حكمه وإن طال الأمد .

ولِمَ التّهنئة ؟ ، وعلامَ الأفراح ؟ فلا شيء من المحامد أو المآثر يستحقّ ذلك ، بل إن ذلك الظّالم لا يستحقّ حتى النّظرةُ ، فمن الأولى ألا تحمل له قلوب النّاس مثقال ذرّة من الحبّ والودّ .

وكيف يكون ذلك ؟ وهو الذي تُثير رؤياه ذكرى تلك المآسي التي نزلت بمصر منذ دخوله أجداده بها ، يقول الشّاعر :-

تمرّنا لا طرفٌ نحوكَ ناظرٌ ... ولا قلبٌ من تلك القلوبِ ودودُ

تذكّرنا رؤياكَ أيامَ أُنزِلَت ... علينا خطوبٌ من جدودِكَ سودُ

---

١ - نشر هذه القصيدة بمجلة الرسالة في اكتوبر عام ١٩٥٢ ضمن مقال صحفي للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي بعنوان (المنفلوطي الشّاعر الجرئ) ، كذلك نُشرت مع بعض الزّيادات في الجمهورية ٢٣ مايو سنة ١٩٥٦ م

ثم يذكر الشّاعر أن تلك المصيبة الحالّة بهم كان سببها (مقد ونيا) الذى أصاب مصر بسهم من البلاء شديد ، حتى اذا تمكّن الأتراك من الولاية استفحل طغيانهم وهذا هو شأن الجنس التّركيّ في تسلّطة وعنفوانه .

فكم من دماء بريئة ضمنتها اللّحود وكم من أشلاء مفتّته ضمّتها تلك اللّحود وتقطّعت لفقدها القلوب . يقول :-

فلمّا تولّيتم طغيتم وهكذا ... اذا أصبح التّركيّ وهو عميد .
فكم سُفِكَت دماءٌ بريئة ... وكم ضَمِنَتْ تلك الدّماءُ لُحُودُ
وكَمْ ضَمّ بَطْنُ الأرضِ أشلاءَ جهة ... تمزّقَ أحشاءٌ لها وكبُودُ

ثم ماذا ؟؟

لقد أصبح قصر الملك المشيّد خراباً بسبب الحكم الجائر حتى ان عظماء البلاد وكبارهم سيقوا مكبّلين بقيودهم مستقيتين بأنينهم ، ولكن هيهات فلا جديد منهم ولا قديم ناصر للحقّ أو مقيم للعدل

فهذا قصر المُلك قد بدا مقوّضاً لما أحاط به من جور وطغيان وذاك النّاعب فى أطلاله ، قد أصبح ندبه إنشودة لا يملّها اللّسان ، تلك الأنشودة التي يردّد فيها قوله :

أعباسُ ترجو أنْ تكونَ خليفةً ... كما وَدّ آباءٌ ورامَ جدودُ
فياليتَ دُنيانا تَزولُ وليتَنا ... تكونُ ببطنِ الأرضِ حينَ تسودُ

وقد بدت معاني الشّاعر قويّة هادفة ، تهيب بالشّعب أن يثور ثورته على العدوّ .

أما عاطفة الشّاعر فتبدو جيّاشة مشبوبة تدلّ على تأثّر المنفلوطي بظروف أمّته ، ومايحيط بمجتمعه من ظلم واستبداد ، ولِمَ لا يكون كذلك ؟ وهو الدّاعي الى المُثُل الإنسانيّة النّبيلة في أدبه . ؟!

تتجلّى شرارة تلك العاطفة في ذلك الأسلوب الإنشائي الذي استعمله الشّاعر في قصيدته كقوله :-

(علام التّهاني ، هل هُناك مآثرٌ فنفرحُ أوسعيٌ لديكَ حميدُ) .

و (أعاش ترجو أن تكونَ خليفةً) (فياليتَ دُنيانا تزولُ وليتَنا . .)

وهو إلى جانب ذلك عاطفة متنوّعة تثور أحياناً وقد بدا ذلك في أسلوبه الانشائي ثم تهدأ أخرى ، ويبدو ذلك في أساليبه الخبريّة في القصيدة . وهكذا تسير وفقاً لشعور الأديب ودرجة انفعاله في كل بيت من أبيات قصيدته .

وقد استعمل الشّاعر في خياله بعض الصّوَر البلاغية كالتّعبيرات المجازيّة في قوله :

(قلبٌ ودود) (دماءٌ بريئةٌ) (شطّ للبلاد)

والتّشبيه في قوله :-

(كأني بقصْر المُلك أصبح بائداً)

ولكن الخيال هنا بدا غير مجنّح والصّوَر ليس فيها جِدّة ولا ابتكار

أما أسلوبه فبدا سهل الألفاظ خالياً من التّعقيد اللّفظي أو المعنوي - وذلك ماعهدناه في أسلوب المنفلوطي دائماً - أضف الى ذلك سلاسة عباراته وجمالها .

وأسلوبه بصفة عامّة أسلوب سهل واضح صحيح التّركيب إلى جانب سلاسته وخلوّه من الألفاظ العاميّة أو الركيكة والدّخيله كذلك خالٍ من المحسّنات البديعيّة الزائدة التي تطغى على المعنى وتفسده وهذا خلاف ماعهدناه في الشّعر في عصر المنفلوطي كما سبق أن أشرنا (١)

أما موسيقا الشّاعر فبدت متماوجه تسير وفقاً لعاطفة الشّاعر ومدى انفعاله في كل بيت من أبيات القصيدة ، فتعلوا أحياناً وعندها يظهر الأسلوب الإنشائي

(عَلامَ التّهاني هلْ هُناكَ مآثرٌ ؟)

(فياليتَ دُنيانا تزولُ وليتَنا)

(أعباسَ ترجو أنْ تكونَ خليفةً)

وتهدأ أحياناً أُخرى ويبدو ذلك في أساليبه الخبرية

(فما قام منكم بالعدالة طارفٌ . .)

(كأني بقصْرِ المُلكِ أصبحَ بائداً)

كذلك بدت قوّة الموسيقا وشدة رنينها في استعماله لرويّ الدّال المضمومه التي يتردّد صداها في القلوب مما يدلّ على نفسه الشاعره .

---

١ - فضلا راجع حالة الشعر في عصره ص ٣٧ من هذا البحث

المعاني الانسانية فيها :- لا شكّ أنّ هذه القصيدة كانت نقمةً على الخديوي ولكنّها كانت نعمة على الشّعب وعلى الأدب العربيّ ، ولا شكّ أن موضوعها بصفة عامّة موضوع انسانيّ فيه تعبير واضح عن مشاعر الشّعب المصري الذي كابد الويلات أثناء الحكم العثمانيّ الجائر ، فكلّ بيت من أبياتها يحمل معنىً إنسانياً واضحاً لا مراءَ فيه ، كما يدلّ على صفاء نفس المنفلوطي الحسّاسه ومشاعره الرّقيقة التي تنفعل بكلّ ما يدور حولها من عدلٍ أو ظُلم وطُغيان ، وتسمو بمشاعر الإنسان إلى المرتبة اللّائقة بها ، وهو بذلك يمتاز عن بعض الشّعراء الذين لا يعنيهم الا حياتهم الخاصّة يعيشون في برجهم العاجيّ بعيداً عن مؤثّرات العصر وأحداث الحياة حولهم .

كتبـــــــــه

أولا : مؤلفـــاته :-

أ - النّظــرات :-

تقع النظرات فى ثلاثة أجزاء ، وهى عبارة عن مجموعة مقالات تعالج قضـــايا عصر المنفلوطي الإجتماعيــة وتتّسم معالجتــه لهذه القضـــــايا باتجاه إنسانيّ واضح المعالم مع ارتكازها على أساس دينيّ توجيهيّ (١)

وهذه المقالات قد نُشرت متفرّقه بصحيفة (المؤيّد) التى كان يحرّرهــــا الشيخ عَلِي يوسف ولعل أهم مايميّز هذه المقالات ميزتان أساسيّتان :-

احداهمـــا : تتنـــاول الشّـــكل

والاخــرى : تتنـــاول المضْمون أو الموضـــوع

أما من حيث الشّكل (فإنّها كُتِبَت فى أسلوب نقيّ خالص ليس فيه شـــــىء من العاميّة ولا من أســـاليب السّجع المُلتويّة الا ما يأت عفوًا) (٢)

وهو وإن قلّد الجاحظ وابن المقفع فى أسلوبهما ولكنّه .. ليس التّقليـد الواضح المكروه وإنّمـــا يعيد السّـــبك بطريقتِهِ المتَميـّزه والتى تُوحِي للقـــارئ بشخصيته الخاصّـــه به (٣)

(أما من حيث الموضوع فقد اختار الحياة الاجتماعية لبيئته ، واتخذهـــا ينبوعاً لافكاره ، وتحوّل فيها بتأثير اُستاذه الشّيخ محمّد عبده الى مُصلح اجتماعي ، فهو

---

١ - فضلا راجع (تأثره بتعاليم الإسلام) . ص٢١ من هذا البحث أيضا الباب الاخير من هذا البحث .

٢ - د . شوقى ضيف - الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٣٠ ط ١

٣ - نفس المرجع بتصـــرّف

يردّد آراء الصالحين من حوله ويؤدّيها بلغته التى تأسر السّامع وتخلب لبه) (١)

ولن نورد هنا أمثلة من النظرات لإثبات صحة القول السّابق لان الدّراسة فى هذا البحث ترتكز معظمها عليها لأنها من بنات أفكار الكاتب وحده ولما تتضمنه مقالاتها من انسانية فاضله .

ب ـ العبرات :ـ وهى مجموعة من القصص بعضها مُترجم وبعضها من وضع الكاتب وتأليفه وكلّها ـ كما يدلّ اسم الكتاب ـ تتّسم بالطّابع الحزين المؤثّر سواء كانت ذلك فى المضمون أو الأسلوب (٢)

---

١ ـ د . شوقى ضيف الأدب العربى المعاصر فى مصر . ص ٢٣١

٢ ـ سنتناول كل قصة فى العبرات لبيان المواقف الإنسانيّة فيها وسيرد ذلك فى موضعه من البحث إن شاء الله .

ثانياً : مترجمات :
وهي عبارة عن قصص حزينة مؤثّرة فيها ملامح إنسانيّة كثيرة ، ترجمها المنفلوطي عن الأدب الفرنسيّ ، أو بالأحرى كان هناك من يترجمها قبله ترجمة حرفيّة ، لعدم إتقانه للفرنسيّة ، ثم يقوم المنفلوطي بترجمتها مع بعض التصرّف .

وفيما يلي من الصّفحات سنتناول كل قصّة على حدة لبيان المواقف الإنسانيّة فيها ، لأنّها وإن كانت ليست من تأليف الكاتب ، الا أنّها من إختياره وفي اختياره لهذا النّوع من القصص دليل واضح على ماصادفته مواقفها من هوى في نفسه لما بها من ملامح إنسانيّة لا يعرفها الا ذوو القلوب الرّحيمه .

أ ـ ماجدولين أو (تحت ظلال الزيزفون) : وهي رواية من تأليف الكاتب الفرنسيّ (الفونس كار) ، قام بتلخيصها وترجمتها مع بعض التّصرّف السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ، وهي :

تحكي قصّة شاب بائس فقير يُدّعى (استيفن ، ويحظى بدرجة لا بأس بها من العلم والمعرفة ، قد أستأجر الطّابق العلويّ من منزل رجل فقير له فتاة جميلة تُدّعى (ماجدولين) ، وكان لهذا المنزل على صفره ـ حديقة غنّاء ، وتحفّه البساطة والهدوء من كلّ جوانبه مما يُشعر ساكنيه بالطّمأنينة والرّاحة التامّة .

كانت (ماجدولين) على صلة وثيقة بصديقتها (سوزان) وكان حبل المراسلة دائم الإتصال بينهما .

أما (استيفن) فكان صديقاً لوالدها ، حيث يربط الودّ والتّفاهم صداقتهما برباط وثيق ، وكثيراً ماكانوا يتناولون أحاديث النّباتات بينهما أما علاقة (ماجدولين) بـ (استيفن) فكان يغلبها حياء (ماجدولين) فلم يظهر حبّهما إلا بعد فترة طويلة من سكنه بدارهم .

وعندما ربط الحبّ بينهما رباطه وبذر بذوره العميقة في قلبيهما ، كانت الحديقة هي الموطن الأوّل لذلك الغراس ، فأُعجب (استيفن) بجمال (ماجدولين) وصفاء نفسها ونضارة شبابها ، وأعجبت هي الأخرى بسموّ خُلُقه وطيبة نفسه ، ونقاء سريرته وشجاعته النادرة ، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث ، في صفاء لا يشوبه كدر ولا ينغّصه منغّص بين أحضان تلك الطّبيعة الفيحاء .

وهكذا توالت أيام سعادتهما ولحظاتها . . ـ وما أسرع أيام السّعادة !ـ دون أن يحسب أحدهما لصدمات الدّهر حساب

ولكن . . . لابدّ للأيام من فعلتها ، ولابدّ لقضاء الله أن ينفذ مهما كانت الأسوار منيعة أو الحواجز متينة، لقد علم والد (ماجدولين) بسرّ العلاقة بينهما وبين ذلك الشّاب الفقير المُعدَم ، فأبى أن ترتبط ابنته بمثله إذ لا مصدر للرّزق له يُعولهما ، ولا إرث يعود عليه بإيراد شهريّ يتولّى أمرهما ان قُدِّر لها الزّواج منه .

فحرر والد (ماجدولين) رساله للشّاب يطلب منه فيها أن يرحل عن سكنه وأن يقطع علاقته بابنته على أن تستمرّ علاقته به كما كانت من قبل .

قرأ الشّاب الرّسالة فجُنّ جنونه ، وعلمت (ماجدولين ، بالأمر ، فقطعت على نفسها عهداً أن تحتفظ بحبّه في قلبها مخلصةً له في ذلك الحب إلى أن تفارق الحياة مهما فرّقت صروف الدهر بينهما ، وطلبت من حبيبها أن ينزل عند رغبة والدها ويحاول أن يعد نفسه بما يضمن لهما عيشا هنيئاً في مستقبل حياتهما ليملأ الدّنيا سعادة وحُبورا .

فملئ الشّاب قوة وعزيمةً ومضاءً وقرّر الرحيل على أن يعود إليها بعد أن يحقّق أمل والدها في شريك حياة ابنته .

وصل استيفن الى (كوبلانس) موطن أهله وذويه فأقام والده حفلة رقص كبيرة استدعى فيها أعيان المنطقة ووجهاءها ، وطلب من ابنه أن يتزوّج من فتاة ثريّة قد اختارها له لتستقيم حياته ويودّع أيام البؤس والشّقاء .

رفض استيفن ذلك الزّواج ، فما كان من والده الا أن طرده من منزله ، ولكن . . . تبعه أحد أقربائه فزوّده ببعض المال ليستعين به على رحلته المجهوله .

سار (استيفن) فى طريقه وهو يعلّل نفسه بآمال عِراض وأمانيّ حِسان ، فرسم لمستقبل حياته ماشاء من الخُطط والنُظُم ، حتى وصل فى الأصيل الى (جوتنج) وهى البلدة التى تعلّم فى مدرستها وقضى فيها أكثر أيام صباه ، فذهب ساعة وصوله الى أستاذه القديم فى الموسيقا ويدعى (هوملِ) ليُفضى إليه بشأنه ، ويستعين به على حاجته ، فكان له بمثابة الأب الرَّحيم وكان (استيفن) أثيراً عنده عن غيره من التّلاميذ ، فلما وصل إليه عقد الحياء لسانه ولم يستطع أن يُفضى اليه بشىء مما فى نفسه الى أن مرّت أيام على ذلك ، فسأله أستاذه عن مخططاته لمستقبل حياته ، فتحيَّر (استيفن ، فى إجابته فاشار عليه أن يفيد من هذا الفن الذي تعلّق به (الموسيقا) لما سيعود عليه من الرِّبح الكثير بسببه ، وهنا حلّت عقدة الحياء من لسان (استيفن) فقصّ على استاذه قصّته وصارحه برغبته ، فوعده أستاذه بمساعدته والأخذ بيده ثم كان له ما أراد

دبّر الأستاذ لاستيفن عملاً بإحدى المدارس فى تلك القرية بعائد ضئيل من المال على أن يزيد الضِّعفين بعد ثمانية شهور ، فاستقرّت نفس الشّاب واطمأنّ إلى حاله الجديده ، وبدأ يراسل (ماجدولين) ليخبرها بحاله أوّلاً بأوّل ، بينما كانت (ماجدولين) على صلة بصديقتها (سوزان) التى طلبت منها الحضور الى مدينتهم لتقيم معها بضعة أيام .

رحلت (ماجدولين) الى صديقتها برفقة والدها ورأت من رفاهية العيش ورغد الحال مالم تعرفه من قبل فطرِبت لهذه الحياة الجديدة وأُخذت برفاهيتها ، ثمّ بعثت الى (استيفن) تطلب منه الحضور لرؤيتها ، فأذعن لرغبتها وتجشّم فى سبيل ذلك ماتجشّم من المصاعب . .

حضر (استيفن) الى الطعب فى يوم ما،وكانت (ماجدولين) جالسة إلى جانب رفيقاتها اللائي كُنّ يهزأن من شاب مجهول فى هيأته وملبسه بالنسبة إلى وسطهن فالتفتت (ماجدولين) فاذا هو حبيبها فلم تجد بُداً من إخفاء شخصيته عنهن

وهكذا أخذت الحياة الباذخه بلبّ (ماجدولين) القروية الطيّبة وسيطرت على وجدانها وعواطفها النقيّة الطاهرة واختارت لها صديقتها أحد الشباب الأثرياء وهو (إدوار) صديق حبيبها القديم - اختارته ليكون زوجاً لها وأقنعت (ماجدولين) بأن زواجها من رجل ثري سينقذها من ورطتها مع (استيفن) وينقذ (استيفن) نفسه حياة البؤس التى يحياها ، لأنه سيتزوّج هو الآخر من فتاة ثرية ترفع من شأنه وتُصلح حاله .

اقتنعت (ماجدولين) -للأسف- بالفكرة وأذعنت لرغبة صديقتها ، فتزوجت (ادوار) وتحللت من عهدها مع (استيفن) بينما تحسنت أوضاع (استيفن) حبيبها الأول بسبب إرث ورثه من قريب له كان قد قام على خدمته عدة أيام حتى استغنت عنه المدرسة التى كان يعمل بها لطول تغيبه عن العمل .

اشترى (استيفن) بما ورثه من مال بيتاً صغيراً من طابقين ، أعدهما كما أرادت (ماجدولين) وكسا جدران حديقته بأزهار البنفسج التى تروق(ماجدولين) مشاهدتها وبعد أن أتمّ إعداد كل شيء كما أرادت الحبيبه وكما اتفقا من قبل ، رحل وهو لا يعلم بخطبتها لصديقه فلما وصل رأى مالم يكن فى حسبانه وفى نفس الحديقة التى كانت موطن حبهما ومسرح آمالهما ، ولكن . . . حبه لماجدولين أعمى قلبه عن فهم الحقيقة الماثله أمام عينيه وأخذ يحدّثها عن نعيمه الحديث وعن تغيّر حاله ورفاه عيشه الجديد ، ثم مدّ يده ليقدّم لها خاتم الخطبه فإذا به

يرى خاتماً آخراً في إصبعها غير خاتمه الذي كانت قد نسجته من شعره أيام حبهما والتي كثيراً ماحدثته عنه في رسائلها إليه

اشتد حزن (استيفن) وزاد خفوق قلبه واضطرابه وصار حائراً طتاعاً لا يعلم أخيالاً يطير في أجوائه أم حقيقة يتوه في ظلماتها ؟ وازدحمت الدموع في عينيه وكاد أن يسقط صريعاً ولكنه . . تماسك وحاول محادثة (ماجدولين) ليعلم منها شيئاً ، ولكنها جمدت هي الأخرى وبقيت صامتة في مكانها حتى أخذها (ادوار) وتركا (استيفن) في حيرة وضياع بين أغصان الحديقة التي كانت موطن أمانه وراحة نفسه .

وبينما هو يترنح في حيرته تلك خرج صديقة وخطيب حبيبته ممتطياً جواده فاستوقفه وأمسك بعنان فرسه وسأله عن شأن وجوده في دار (ماجدولين) فأعلمه (ادوار) بلهجة حمقاء خشنة - أنه خطيب (ماجدولين) وما أتى الى هذه الدار إلا من أجلها لانهما سيتزوجان عما قريب .

صعق (استيفن) لهول المفاجأة وخرج من دار حبيبته الأولى وهو لا يلوي على شيء أمامه وحوله ثم حطه المارة حملاً الى العربة ، حتى أوصلوه الى الدار التي كان يعيش فيها ، وبقي في غرفته يصيح صياح المجانين ، ولكن بصيصاً من نور الأمل كان ينير فؤاده ويبعث فيه طمأنينة تريحه الى حد ما ، فكان يراسل (ماجدولين) ، ويستعطفها مسترحماً قلبها ويناشدها الود والمحبة والبر بالعهد الذي كان بينهما وعرض عليها في سبيل ذلك أثمن العروض من مباهج الدنيا وزينتها ولكن هيهات هيهات .. !

فقد بعثت له برسالة قصيرة تخبره فيها أنّ الله قد اختار له ولها هذا الفراق ليسعد كلّ منهما في حياته الجديدة ، كما أخبرته أنّها فعلت ذلك برضاها واقتناعها التّام . . وأنّ ليس لمخلوق آخر ضغط عليها .

سلّم (استيفن) لقضاء الله المحتوم وحان يوم زفاف (ماجدولين) إلى صديقه ، فذهب حبيبها الأوّل الى المعبد وحضر ذلك المشهد ولم يعلم بوجوده أحد ، الى أن نطق القسيس كلمته الأخيرة سقط المسكين على الأرض مغشياً عليه وخرج النّاس من الكنيسه وأسدل اللّيل ستائره على الوجود ، فأفاق من غشيته وخرج وهو في حال يُرثى لها من الحَيْرة والضّياع لا يعلم كيف يحيا حياته في ظلمات تلك الوَحدة الموحشه ولا يدرى أيّ فجّ من فِجاج الأرض يسلك ؟ والأرض أضيق في عينيه من كفّة الحابل ! ، فإذا هو في منزل الشيخ (مولر) والد (ماجدولين) ورأى المدعوين منصرفين من الحفلة ، فتسلّل إلى الحديقة وصعد إلى غرفة العَروسَين فما أن سمع حديثهما حتى سقط مغشياً عليه ورأته الخادمُ صباحاً ، فطلب منها ألا تُعلِم أحداً بحاله ثم رحل وقلبه يقطُر ألماً وحسرة إلى منطقته)وحينما وصل إلى المنزل الذي أعدّه لحبيبته ، لم يستطع أن يقيم فيه وإنما أقام عند (فرتز) وهو رجل فقير كان قد تعرّف عليه في تلك القرية وكانت زوجته مقيمةً معه .

أُصيب (استيفن) إثر وصوله بحمّى شديدة كادت تُذهِل عقله بل لم يكن يهتِف إلاّ باسم (ماجدولين) ولا يراوده سوى طيفها يحادثه ويتفق معه على مايحب أن يفعلاه بعد زواجهما ، فسرثا لحاله الطّبيب ورأى أن يذهب بنفسه الى حبيبته الأولى ليطلب منها الحضور الى هذا المسكين رحمة به ورأفةً لحاله ، راجياً أن يكون في نظرته إليها ومحادثتها له مايخفّف عنه وَطأة المرض وشدّته الذي طالما كابد منه الكثير والكثير . . .

حضرت (ماجدولين) بعد عناء شديد بذله الطبيب لإقناع زوجها - ذلك الصديق الغادر - وحضر برفقتها هذا الزوج ورأت (ماجدولين) حال المريض فتقطع قلبها حزناً وتمزق فؤادها ألماً وحسرةً لما رأت . . . وماهي إلا أيام قلائل ، حتى عادت إلى منزلها تاركة المسكين في حال بائسة حزينة يرثي لها كل من رآه أو علم به .

برئ (استيفن) بعض الشيء من مرضه فأخذ البستاني (فرتز) يحادثه حديثاً طويلاً ليخفف عنه ألم تلك الصدمة العنيفة التي أصابت فؤاده ، وطلب منه أن يكرس كل جهوده وينفق جل وقته لفنه ليصبح ذا شأن تندم عنده (ماجدولين) على تركه ، فنزلت كلمات الرجل منزلة حسنة من نفس الشاب الحزين وأخذ يبث قيثارته وألحان موسيقاه أحزانه القوية وآلامه العميقة إلى أن اصبح فناناً له شأنه وذاع صيته في الآفاق وكثيراً ماشاهدته (ماجدولين) وزوجها في الحفلات التي كان يحييها بفنه وعزفه الطروب ، وكثيراً ماكان هو يراها ولا يكترث ويخفي آلامه بين حنايا أضلعه دون أن تشعر هي بشيء منها ، فحرك أمره كثيراً من التساؤلات في نفسها ، أمازال (استيفن) يحبها أم لم يعد يهمه أمرها ؟ وودت لو تعلم حقيقة الأمر منه ولكنها لم تستطع .

مرت الأيام تلو الأخرى وصيت استيفن يطبق الآفاق شهرةً ونجاحاً . . أما (ماجدولين) فبدأت تشعر بطلل زوجها منها وتغير حاله معها وكاشفت صديقتها (سوزان) بأمرها في رسائلها ، فأخذت صديقتها تخفف عنها إحساساتها مؤكدةً لها أنها مجرد أوهام تريد أن تكدر عليها صفو حياتها ، في الوقت الذي كانت فيه (ماجدولين) واثقة كل الثقة من إحساسها بتغير زوجها من ناحيتها .

لقد باع ذلك الزوج ذلك القصر الذي كانوا به ولم يبق لهما شيء من المال ، حتى مرض مرضاً شديداً فحضر (استيفن) لمساعدتها والقيام بشأنهما عدّة أيام ، ثم اقترح عليهما أنْ يذهبا معه إلى قريته فاستجاب صديقه لرغبته ورافقتهما (ماجد ولين) .

وصلت (ماجد ولين) الى منزل (استيفن) فما أن رأت أشجار البنفسج تظلل الدار ورأت كل شيء في تلك الدّار كما كانت تتمنّاه من قبل وما أن رأت ذلك حتى جاشت في نفسها الأشجان ولكنّها تماسكت وأخفت أمرها ، بينما سهر (استيفن) على راحة زوجها وتمريضه حتى قارب الشفاء ، ثم عادا إلى موطنهما

وفي ليلة حالكة السّواد هرب (ادوار) تاركاً زوجته وحيدة ليس لها أنيس ولا حتى شيء من المال لتعيش به باقي حياتها ، فاضطرت الى بيع المنزل الذي تركه لها والدها لتسدّ به دَين زوجها .

لم تجد (ماجد ولين) بُدّاً - في حالتها تلك - من العودة الى موطنها الأوّل حيث وجدت دارها القديمة التي قد باعتها - ورأت البستاني وزوجته فطلبت منهما أن يستأجرا لها الغُرفة الصغيرة التي كان يسكنها (استيفن) في حياة والدها فرثيا لها ، وأسكناها تلك الغُرفة والحسرة تمزّق قلبيهما ، حتى إذا جاءها المخاض وضعت طفلة اسمتها (ماجد ولين)

لم يكن حبيبها الأوّل يعلم من أمرها شيئاً ، حتى علم أخيراً بانتحار (ادوار) - زوجها - فلم يجد بُدّاً من البحث عنها حتى وجدها وكاد أن يعود الى حبّه الأوّل

لولا تذكره لحديثها مع زوجها الأول ليلة عرسها - والذي حم بسببه - فتبادر الى الخروج مسرعاً وتركها تغط فى ألم عميق وحسرة لا تنتهي ثم عاد الى قريته .

وفى اليوم التالي جاءت (ماجدولين) متخفية إلى منزل (استيفن) حاملة ابنتها فى صفط ووضعته عند بابه ثم تركته ومضت الى سبيلها وقد رآها البستاني وزوجته ، فأخبراه بالأمر بعد استيقاظه .

سأل (استيفن) بعد عن وجهة تلك المرأة فعلم أنها أتجهت إلى النهر وأدرك أنها (ماجدولين) حبيبته الضائعه - فاتجه مسرعاً الى وجهتها ، فاذا بأناس كثيرين يشيرون إلى جثة طافية على سطح الماء وحاول أن يلقي بنفسه لإنقاذها فاشفق الناس عليه وأمسكوه به ولكنه ألقى بنفسه وسط الماء وتبعه البستاني وما زالا يرسبان مرة ويطفوان أخرى ويصارعان فى هبوطهما وصعودهما جبابرة الأمواج صراعاً عنيفاً ، ثم انفرج الماء عنهما وهما حاملان الغريقة لا يعلمان أحية هي أم فارقت الحياة ؟

علم الناس بموتها بينما جثا (استيفن) يصلي بصلاتهم ويدعو بدعائهم مما أبكى الناس جميعاً . ثم سكت فجأة ، فهالهم بسكوته وجموده أكثر من هولهم بجزعه وبكائه .

أخذ (استيفن) الجثة بين يديه وصعد الى الغرفة التي كان قد أعدها لعرسهما وألقى بها على السرير - الذي حرمته الحياة عليها فأحله الموت لها ، والذي كان بالأمس سرير عرسها فصار اليوم لحدها الأخير - وكشف غطاءها ثم قبلها ومالبث أن سقط مغشياً عليه ، وتولى البستاني دفن الجثة ، حتى إذا أفاق (استيفن) من غشيته سأل عنها فعلم أنها لحقت بمثواها الأخير ، فهرع الى قبرها

وجثا فوقه ساعات وساعات يضرب بفأسه الأرض حتى خيّل إليه أنّه هشّم رأسها فعاد مسرعاً إلى المنزل وأخذ البستاني إلى هناك فأكّد له أنّ كل شيء ، كما هو وأنّ ما توهّمه لم يكن صحيحاً واستمرّت حاله تلك أياماً طويلة تاركاً النّاس وشهرته مختلفاً إلى القبر صباح مساء غير متذوّق طعماً للحياة بعد رحيل ماجدولين إلى الدّار الآخرة ، بل تمنّى لو يأخذه ملك الموت سريعاً إليها .

وهكذا انقطعت أخباره عن (كوبلانس) المنطقة التي اشتهر فيها وكان غرة جبينها المتلألئة وشمس جمالها السّاطعه ، وتساءل عنه أصدقاؤه ومعلّموه ومعارفه ومعجبوه حتّى عرفوا قصّته ، فعزموا أن يخرجوه من عزلته وبعثوا إليه خطاباً يعلمونه فيه بحضورهم إليه في اليوم التالي .

رحل إليه كلّ أولئك في أصيل اليوم التالي مستصحبين نساءهم وفتياتهم ،حتى وصلوا الى القرية فاستقبلهم (استيفن) على باب داره باسماً منطلقاً ، كأنّه لم يحمل بين جنبيه ذرّة من الأسى والحزن بينما كان قلبه يذوب بين أضلاعه ذوب السّبيكة في بوتقتها ، فأغراهم أمره وتبادلوا الأحاديث معه تلو الأحاديث ، حتى إذا ذكروا (بتهوفن) تطوّع هو بالحديث عنه لأنّه كان صديقاً لأستاذه الذي علّمه الموسيقا ، وما أن وصل (استيفن) إلى نهاية حديثه عنه حتى امتقع لونه وتفصّد جبينه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فانتبه إليه القوم ، فإذا هو واضع يده على قلبه وإذا دموعه منهلّة على خدّيه انهلالاً ثم نهض من مكانه فجأةً ومشى بقدمٍ هادئة مطمئنّة إلى كرسي البيانو وجلس عليه وأخذ يسمعهم لحن بتهوفن الأخير (ربّ لم اشقيتني وما أشقيت أحداً من عبادك ، وأخذ يغنّيه بصوت خافت ، بينما كانت عواطفه تشتعل شيئاً فشيئاً حتى دوّى اللّحن في أرجاء الفضاء ، فأطرقوا برؤوسهم إجلالاً واعظاماً له وخيّل

إليهم أنهم لا يرون مغنيا يوقع على أوتاره بل ثاكلاً متفجعاً يذرف مدامعه ويصعد زفراته ، وكان كلما استمر في غنائه اشتد تأثره والتهبت عواطفه وتلون صوته بصوت الأنين المحزن حتى فني عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه حالة غريبة من الذهول والاستغراب ، فما إن أتى إلى النغمة الأخيرة - وكانت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها في أجواء الفضاء حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وأخذوا يصفقون له تصفيقاً شديداً هاتفين (يحيا استيفن)

وهنا وهم على تلك الحالة من الهتاف والتصفيق بنجاحه إذا به مائلاً برأسه على ظهر الكرسي وقد اقشعر وجهه وتغيرت سحنته ثم وضع كفه على أحشائه متألماً ، فحملوه إلى سريره ودعا البستاني إليه ، فأوصاه أن يدفنه في قبر (ماجدولين) وأن يحسن تربيته ابنتها ويزوجها بمن أرادت ثم أوصى له بكل مايملكه من مال أو غيره .

وهكذا لقي (استيفن) ربه بعد أن كابد ما كابده من عذاب وماهي إلا أيام قلائل حتى كبرت (ماجدولين الصغيرة) وأحبت إبن البستاني فتزوجا وعاشا هانئين في حياة تظللها السعادة والحبور .

التعليق :

تلك هي رواية ماجدولين التي عرضها المنفلوطي عرضاً ملخصاً في أسلوب بديع جميل لا يشعر القارئ نحوه بملل الأسلوب المترجم من لغة إلى أخرى وهذه هي عادته في كل ماترجمه من قصص أو روايات .

ولا شك أن الرّواية تحتوي على مواقف إنسانية فاضلة إلى جانب تمثيلها لصورة من صور الشّقاء الذي كان يطرب له المنفلوطي وينكبّ انكباباً على قراءته وهذا ما أخبرنا به نفسه في مقدمة النّظرات (١)

المواقف الإنسانية فيها : تزدحم الرّواية ولا شك - بالمواقف الإنسانيّة التي استهوت المنفلوطي وهشّ لها قلبه من ذلك مثلاً موقف (استيفن) من ذلك الغريق الذي حكت عنه (سوزان) لـ (ماجدولين) في رسالتها فأخبرتها أنّ رجلاً نزل النّهر فتخبّط في أمواجه ولم يستطع النّجاة ، ولم يحاول أحد إنقاذه بينما أخذ رجل يدفع الجميع بمنكبيه ، وينزلق بين النّاس انزلاق السّهم الى الرّميّة حتى ألقى بنفسه وسط العباب وسبح ومازال يهبط وراء الغريق ويرتفع حتى انفرج الماء عنهما وإذا بهما صاعدان ، وقد أمسك الرجل بذراع الغريق ولكنّه ظنّ أنّ هذا الرجل سيدفعه إلى الماء فما كان منه إلا أنّ خبطه خبطةً قويّةً في صدره وانشب أصابعه في عنقه ثم لفّه بساقه لفة قويّة كادت أن تتهشّم لها عظامه فاستيأس الرجل وظنّ أنّه هالك لا محالة ، ورفع يديه الى السّماء ،ناطقاً باسم (ماجدولين) وماهي إلّا لحظات حتّى نجا هذا الرجل بنفسه وطلب منه النّاس أن ينجو بنفسه ولكن أبت عليه شهامتهُ أن يترك الغريق ، فألقى بنفسه في النّهر مرة أخرى ومازال يصارع الأمواج حتى صرعها وأخرج الغريق من الماء وكان ذلك الرجل الشّهم هو (استيفن) بطل هذه الرّواية . (٢)

---

١ - فضلا راجع قول المنفلوطي في النظرات ج ١ ص ١٦

٢ - المنفلوطي . ماجدولين . ص ٢٥ بتصرّف دار الثقافة - بيروت

وثمة موقف آخر نعتقد أنّه أعجب المنفلوطي هو موقف العفّة والمحافظة على الفضيلة في هذه الرّواية ، فقد حاول (استيفن) مرّة أن يقبّل جبين (ماجدولين) فامتنعت ، ثم بعث إليها برسالة يعاتبها على ذلك فأجابته بكلمات ملؤها العفاف والشّرف إذ قالت :-

(فوالله ما احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعتك نفسي اليوم إلا لأبذلها لك غداً ، أنت اليوم حبيبي ، وغداً تكون زوجي ، وكل ما أصنعه أني توسّلت إلى حبيبي أن يزفّني تقيّة طاهرة إلى زوجي .) (١)

كذلك في الرّواية حديث لماجدولين يدلّ على تصرّف المنفلوطي ، في التّرجمة لما يحمله ذلك الحديث من موقف انسانيّ نبيل أُخذ معناه وأصوله من القرآن الكريم وهو قول (ماجدولين) لـ (استيفن) والذي تخفّف به حدّة صبوه وقوّته فتقول :-

(واعلم أنّ الله ما ألهمني الصّبر عنك ، وألهمك مثل ذلك في مثل هذا الموقف الذي تطيش فيه العقول وتطير رواجح الأحلام ، إلا وقد أراد بنا خيراً في جميع شئوننا وقدّر لنا السّعادة والهناء في مستقبل أيامنا) (٢)

فهذا موقف إنسانيّ منها بلا ريب ولكنّه في الوقت نفسه يدلّ كما قلنا على تصرّف المنفلوطي بما تمليه عليه ثقافته الإسلامية ألا تراه متأثراً فيه بقول الله تعالى؟ :-

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (٣)

ثمّ ماذا ؟ ، ثمّ هناك موقف آخر لـ(إستيفن) يلوح لي أنّه أعجب المنفلوطي أيضاً - ذلك

---

١ - المنفلوطي - ماجدولين ص ٣٩

٢ - نفس المرجع ص ٤٧

٣ - القرآن الكريم - سورة النساء آية رقم ١٩

الموقف الذي صدر عن(استيفن) مرّة أخرى بطل هذه الرّواية ـ وهو بعد لم يحصل على العمل في القرية التى رحل إليها ولم يكن لديه سوى اليسير من المال ليقيم به أوده حتّى يلقى عملاً يعود عليه بما يقيم حياته ويصلح شأنه، تقول إنّه مع حاله تلك أتاه شاب بالي الثّياب رثّ الهيْئة هزيل البدن وطلب معونته ، فأطرق (استيفن) برأسه حياءً منه ، فأخبره الشّاب أنّ زوجته وأولاده سيلقون حتفهم جوعاً إذا لم يعد إليهم بطعام يمسك رمقهم فما كان من استيفن إلا أن سأله عن مدى حبّه لزوجته وعندما تأكّد من ذلك أعطاه كل مايملك من مال قائلاً :ـ

(لقد أنقذتها من مخالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله أنْ يقيّض لهما من يتولّى شأنهما بعد ذلك) (١)

نعم تلك هي رواية (ماجدولين) الحافظة بمواقفها الإنسانيّة السّامية فأي موقف هو أعظم من إيثار المرء لغيره في وقت هو أحوج ما يكون فيه الى هذا المال . . . بل وأكثر من هذا نرى (استيفن) يدعو في تلك اللّحظة ـ يدعو ربّه أن يسخّر لهما من يتولّى أمرهما بينما ينسى أن يدعو لنفسه معهم أنْ يهيّئ الله له عملاً شريفاً ينقذه ممّا هو فيه .، نعم هذا هو الإيثار بعينه الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز والذي تأثّر به المنفلوطي فقال تعالى :ـ

ـ (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (٢)

ولا ننسى هنا موقف (استيفن) أيضاً من صديقه (ادوار) ذلك الصّديق الغادر الذى طعنه طعنة نجلاء فتزوّج حبيبته رغم إيوائه له لمدة شهرين عندما طرده

---

١ ـ المنفلوطي . ماجدولين ص ٦٩

٢ ـ القرآن الكريم ـ سورة الحشر آية رقم ٩

أهلــوه وذووه فقــد ذهب إلى منزل (استيفن) وارتكب أثناء إقامته عنده فعلـــة أوجبت عقابه ، وعندما جاء من يسأل عنه تصدَّر (استيفن) مُنتحلاً شخصية صديقه فتحمَّل من الرجل لطْمه أظلمت لها عيناه ثُمَّ دعاه إلى مبارزته على ضفاف النَّهر ظبَّق ذلك ليحمي صديقة الذي لا يفقه من أمر المبارزة شيئاً وكتب لماجدولين رسالة يخبرها فيها أنه مات في مبارزة شريفة إن قُدِّر له الموت ، فكتب الله له الحياة ولكنَّه جُرِحَ في ذراعه جُرحاً بليغاً حتى أوقف النَّاس المُبارزة وتصالح الخصمان (١)

وهكذا تحمَّل استيفن كلَّ ذلك في سبيل إنقاذ صديقه ولكنْ هيهات أن يحفظ هذا الجميل ، بل كان جزاؤه - جزاء سنمَّار -

ولكنْ . . . هل ينْي (استيفن) بعد كل مالقيه من صديقه عن تقديم خدماته الإنسانيَّة الفاضلة له أو لماجدولين ؟

وهل هناك إنسانيَّة أرحب من أنْ يذهب استيفن إلى هذا الصَّديق - الذي خانه في حبيبته واختطفها منه - هل هناك إنسانيَّة أعظم من أنْ يذهب اليه عندما علم بعَوزه ومرضه ؟ ، فأقام على راحته وتمريضه أياماً طويلة ثمَّ اصطحبه وزوجته إلى داره ليقوم على رعايتهما بنفسه وماله دون مِنَّةٍ أو تردُّد ، حاملاً الأسى بين ضلوعه وحنايا قلبه ، لا يُظْهره لأحد ولا ينتقم من أحد ، حتى بعد وفاة ذلك الصَّديق قام على رعاية ماجدولين وبعد وفاتها تولَّى رعاية إبنتها (ماجدولين الصَّغيرة)

كل هذا ليعطي للإنسانيَّة حقها من الوفاء والشَّرف والفضيلة وقد أوصى قبل وفاته بكل مايملك لهذه الطِّفلة وللبستانيّ الذي لازمه أيام شقائه ومحنته .

---

١ - المنفلوطي . ماجدولين ص ٨١ بتصرُّف

لا شك فى أن هذه المواقف الإنسانية الفاضلة هى التى حرّكت مشاعر المنفلوطي فدفعته الى ترجمة هذه الرواية ضمن ماترجمه من روايات .

ب - في سبيل التّاج : وهي خُلاصة رواية تمثيليّة بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشّهير (فرانسوا كوبيه)، ترجمها المنفلوطي مع بعض التّصرُّف .

وخلاصة هذه الرّواية أنّها تحكي قصّة قائد كبير في الجّيش البلقاني أراد أن يخون وطنه ويُخلي الحدود من الحرس ليدخل فيها الجيش التّركي ، على أنْ يكون ثمن هذه الخيانة تتويجه على عرش البلقان ، وقد عزم على هذا الأمر بإيعاز من زوجته التي طالما حلمت بتاج العرش يتلألأ على رأس زوجها ممّا دفعه إلى توقيع عهد الخيانة مع الترك سرّاً .

وفي الليلة الموعودة ، علم ابنه بالأمر وكان مخلصاً وفيّاً لوطنه ، فذهب إلى والده ليُثنيه عن ذلك بشتّى الوسائل ولكنّه لم يستطع .

وعندما شعر الإبن بدنوّ جيش العدوّ رفع السّيف على والده فقتله وأشعل النّار لتنبيه الجّيش وإشعاره بالخطر فأنقذ بذلك وطنه من خطأ والده الفادح ، الأمر الذي جعل زوجة والده تسعى بالوشاية بينه وبين الجيش ، وادعت أنه متواطئ سرّاً مع الأعداء ، وأنّه يتحيّن الفُرصة لخيانة وطنه ، فرفع الجيش أمره إلى الملك الذي لم يصدّق في هذا القائد ما زعموه من الخيانة إلا بدليل قاطع بين يديه ، فقدّمت له زوجة والده العهد الذي سبق أن وقّعه الأب الرّاحل مع العدوّ والذي قُتل بسببه ، وكان ذلك العهد يحمل اسم (آل براتكومير) - وهو اسم العائلة - فثبتت التّهمة على الابن البرىء الذي لم يحاول حتى إنقاذ نفسه من هذه التّهمه رغم كثرة الظّروف المُتاحة لتبرئته ، لأنّه يعتقد أنّ دفاعه عن نفسه يعني أنّه قتل والده مرّتين ، فآثر أن تلتصق التّهمةُ به على أن يعلم النّاس أنّ والده مات مقتولاً لأنّه نقض عهد الوطن ، فجعل سرّه دفين صدره حتى حكم مجلس القضاء فيه حكمه .

المواقف الانسانية فيها :-

لبيان هذه المواقف لا بدّ لنا أن نورد نماذج من الحوار الذي دار بين الإبن وابيه والذي يمثّل قمّة الروح الإنسانيّة في نفس بطل الرّواية ، تلك المواقف التي هزّت المنفلوطي ووافقت هوى في نفسه ، فدفعته إلى ترجمتها .

يقول الابن (قسطنطين) لأبيه :-

(لا تبع أمّتك يا أبي بعَرَضٍ تافه من أعراض الحياة فالتّاج الذي يتناوله صاحبه من يد عدوّه ليس بتاج الملك ، انما قلنسوة الإعدام .

كيف يهنئوك ذلك المُلك وأنت ترى أمّتك المسكينه راسفة في قيود الذّل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا مُنجد لها ولا مُعين وتئن في يد عدوّها القاهر أنين المُحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها أو يصغي إلى شكاتها .

كيف يهنوءك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاّء في قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته الى الذّبح ، فإن خفق قلبك خفقة الرّحمة بهم أو العطف عليهم لا تستطيع أن تمدّ يدك لمعونتهم وإنقاذهم ، لأنّك قد بعتهم ونفضت يدك منهم فلا سبيل إليهم بعد ذلك) (١)

(أذكر الدموع التي كانت تذرفها الأمّهات على أطفالهنّ المذبوحين فوق حجورهنّ ، والصّيحات التي كانت تصيحها الزوجات والأخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهنّ وإخوتهنّ ، والزّفرات التي كان يصعّدها اليتامى الثّاكلون على حافات القبور حنيناً إلى آبائهم وأمّهاتهم الهالكين) (٢)

---

١ - ترجمة المنفلوطي - في سبيل التّاج ص ٧١ دار الثقافة بيروت

٢ - " " " ص ٧٣

(إليَّ أيتها الفضائل الإنسانيَّة والكلمات العالية من شرف وعزَّة وترفُّع وإباء ، وأمانه ، وإخلاص تعالين إليَّ جميعاً ، إجْثين معي بين يديه ، واضرعن إليه أن ينصفكنَّ، ويعدل في أمركنَّ ، ولا يقضي للرذيلة عليكنَّ وقُلْنَ له : إنَّك خذلتنا ونفضت يدك منَّا فلن تجد لنا من بعدك ناصراً ولا معينا) (١)

(يا أطفال البلقان وصغارها الناشئين من فتيةٍ وفتيات أقبلوا اليه جميعاً واجتمعوا من حوله وتعلَّقوا بأهداب ثوبه واسكبوا ماتستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشئونكم وقولوا له : رحمةً بنا أيها الأب الرَّحيم والسَّيِّد الكريم وحناناً علينا ، لا تكلنا الى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم يسوموننا الخَسْفَ ويذيقونا ألوان العذاب ، فإن أبيت إلا أن تفعل فجرِّد سيفك من غمده واقطع به اعناقنا فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المريز) (٢)

تلك هي كلمات الإبن التي تفيض عزَّة وكرامة وتندى بما تحمله من معانٍ إنسانيَّةٍ فاضلة عمَّت نفسه فوجَّهها لوالده الذي عزم الخيانة حتى يرقِّق قلبه ويهزَّ مشاعره .
ولنستمع إليه أيضا في كلماته الوطنيَّة التي وجَّهها أيضا لوالده في حواره معه فيقول :-

(تنحَّ عن طريقي فإنَّ نفسي تحدِّثني بأفظع ماتُحدِّث به نفس صاحبها في هذا العالم .

قال : إنَّك لا تستطيع أن تقتل أباك .

قال : أستطيع أنْ أفعل كل شيء في سبيل وطني

---

١ - ترجمة المنظوطي في سبيل التاج ص ٧٤

٢ - ترجمة المنظوطي في سبيل التاج ص ٧٥

إنّني وقفت سيفي طول حياتي على خدمتك وحمايتك والذّود عنك أيام كنت لوطنك وقومك ، أمّا الآن فإنّني أغمد ذلك السّيف نفسه في صدرك طيّب النّفس مثلوج الفؤاد لأنّي أعتقد أنّي لا أغمده في صدر أبي بل في صدر خائن وطني .

قال : لا تنسَ أنّ لي يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من سيفك

قال : إنّي لا أجهل ذلك . ولكنّك تقاتل في سبيل الدناءة والخيانة وأقاتل في سبيل الواجب والشّرف والله مُطّلع علينا من علياء سمائه وهو الحَكم العدل بيننا) (١)

وهكذا يجد المتتبّع لهذه الرّواية مواقف الشّرف والمروءة والفضائل الإنسانيّة الماجدة تزيّن صفحاتها من بدايتها إلى نهايتها ، ولكنّنا اكتفينا بما ذكرناه من نماذج لنؤيد قولنا : ان المنفلوطي لا يترجم الا الرّوايات التي تصادف هوى في نفسه لأن الرجل داعٍ إلى الفضيلة والمعاني الإنسانيّة بما تحمله من إخلاص ومروءة ووفاء نادر مع المحافظة على الشّرف والكرامه وكل مايمتّ إلى الفضيلة بصله ، والرّواية كما رأينا حافلة بتلك المواقف السّامية ـ والتي عرضنا نماذج منها .

---

١ ـ ترجمة المنفلوطي . في سبيل التاج ص ٧٧

ج- الفضيلة :- (بول وفرجيني)

وهي رواية للكاتب الفرنسي (برناردين دي سان بيير) قام بترجمتها أيضاً المنفلوطي مع بعض التصرف

وهي تحكي قصة امرأتين لكل منهما ظروف قاسية ومحن شداد ، رمتهما إلى جزيرة نائية عن الناس على مقربة من جزيرة مدغشقر ، وهي جزيرة قفراء ليس بها إلا قليل من السكان السود المتفرقين في جبالها وغاباتها ، يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوربيين النازلين بينهم ويسخرونهم في حراثة الأرض واستنباتها والعمل على استخراج معادنها وخيراتها .

وكانت لإحدى هاتين المرأتين طفلة إسمها (فرجيني) وللأخرى طفل إسمه (بول) وللأولى منهما خادم زنجي يقوم بمساعدتها في حراثة أرضها وفلاحتها ، بينما للأخرى خادمه تقوم بنفس المهمه ، وكانت أرضيهما تعود عليهما بأكلهما وقوت يومهما .

أما سكن هذه الأسرة فكان في كوخ صغير تظلله الأشجار وتكتنفه السعادة والهناء ، فعاش الجميع في رغد منقطع النظير ورضي كل منهم بتلك الحياة البسيطة المنعزلة عن الناس بعد أن وجدوا في الاختلاط بهم ألوان العذاب وأصناف المشقة والنصب .

وترعرع الطفلان وسط طبيعة خضراء وماء عذب وتحت سماء صافية ، فشرب كلاهما من كأسها النديّ العذب وامتزجت دماؤهما بسذاجة الطبيعة وصفائها ، فانطبعت على ملامحهما ابتسامة دائمة لا تكاد تفارقهما حتى في منامهما .

وكبر الطفلان حتى أصبحا شابين يافعين لا يملأ فراغهما إلا طهارة الحديث في أحضان تلك الطبيعة الغناء ولا يكدّر صفوهما مكدّر واكتسب كل منهما من تلك الطبيعة

ما يُلاحظه من خصائص ومُميزات فكانت (فرجينو) مثالاً في الأدب والحياء والجمال وكان (بول) قمة في الشجاعة والإقدام والنشاط .

أما حقيقة علاقتيهما ، فقد ربط الودّ والإخاء بينهما رباطاً قوياً طاهراً لا يدنسه مُدنّس ، وكثيراً ماكانا يتعاونان على فعل الخَيْر ومساعدة الآخرين ، حتى أنّ جارية زنجية قد استنجدت بفرجينو من ظُلم سيّدها وتقتيره عليها فأطعمتها ثم رافقتها و (بول) لتتوسّط لها عند ذلك السّيّد ليحسن مُعاملتها .

وهكذا رضي الجميع بهذه الحياة ، قانعين بما وهبته الطبيعة من سعادة الأيام ، ونشوة الحياة وراحة البال .

ولكن . . أين تذهب تلك الأسرة من فعل القدر وقضائه ؟

نعم . . لقد أبت الأقدار إلاّ أن ترمي بنبالها تلك الأسرة السّعيدة ، فبينما هم في غمرة الهناء وظلاله الوارفة ، إذا برسالة تصل الى والدة (فرجينو) ؛ كانت هذه الرّسالة من عمّتها التي تعتبر من أكبر وأعظم العائلات ثراءً في (باريس) ، تطلب منها هذه العمّة أنْ تبعث (فرجينو) - إبنة أخيها - إليها لتقوم على خدمتها ورعايتها في آخر سنوات حياتها ، على أن تكتب لها جميع ثروتها بعد وفاتها ، بينما رفضت هذه العمّة مساعدتها والنّفقة عليها قبل رحيلها إلى هذه الجزيرة النّائية .

اقتنعت والدة (فرجينو) بسفر ابنتها إلى باريس ورحّبت بذلك لما ينتظر حياتها المقبلة من ثراء وسعادة ، غير أن (فرجينو) رفضت أول الأمر ولم توافق إلا بعد ضغط من الكاهن الذي تعوّد أنْ يزورهم من حين لآخر والذي جاء في هذه المرّة مبعوثاً من حاكم الجزيرة الذى كان على صلة قوية بعمّتها الثرية .

رحلت (فرجيني) سرًّا في ظلمة ليل حالك حتى لا تعلم (بول) بساعة سفرها ، وهناك في باريس لقيت مالقيته من ألوان الترّف والمتعة ولكنّها المتعة الزائفة ومن ثم كرهت باريس وانقطعت صلتها بأسرتها الطيّبة

ولم يشأ القدر أن يقف بأحكامه عند هذا الحد ، فقد رغبت عمة (فرجيني) أن تزوّجها من أحد الأثرياء في باريس ، ولكنّها رفضته وأصرّت على ذلك حفاظاً منها على عهدها الوثيق مع حبيبها الأوّل مما أثار غضب عمّتها وغيّر قلبها عليها ومعاملتها لها ، فلما شعرت المسكينة بذلك لم تجد بُداًّ من العودة إلى أسرتها .

خرج (بول) لاستقبال (فرجيني) بمرافقة رجل عجوز - كان صديقاً للأسرة ودائم الزيارة لها - خرجا سوياً للقاء (فرجيني) بعد طول غياب ، وكانت الفرحة تملأ قلب حبيبها لما يتوقّعه من لقاء سار وسعادة منتظرة ولكنّ القدر أبى ذلك وحدث مالم يكن في الحسبان . فقد عصفت بالسفينة عاصفة هوجاء ألقت بركّابها جميعا في البحر ، فنجا من نجا وغرق من غرق ، وحاول بحّار إنقاذ (فرجيني) ولكن حياءها وعفّتها منعاها من الإمساك به والاستجابة لأوامره ، فكانت من المغرَقين .

وماهي إلّا أيام قلائل حتى لحق بها (بول) ثم في الإثر والدتها فوالدته . وهكذا عاش الحبيبان في الوفاء والطهر والعفاف كما عاشت الأسرة بعيدة عن الرذائل والآثام حتى لقي كلّ منهم ربّه .

المواقف الإنسانية فيها : اذا تصفّحنا هذه الرّواية ، وجدناها حافلةً بالمواقف الإنسانيّة الفاضلة ، كذلك نجد أبطالها مثلاً حيا في الأخلاق ومحبّة النّاس أضف إلى ذلك،حبّ أفرادها لبذل المعروف ومساعدة الفقراء والمُحتاجين ، كما نجد فيهم الوفاء النّادر والبساطة الواضحه .

فمن المواقف الإنسانية التى احتوت عليها الرّواية :

أنّ جارية زنجية هربت فارة من قسوة سيّدها وتقتيره عليها حتى أصبحت جلداً على عظم وما أنْ رحلت إلى (فرجيني) حتى جثت أمامها وكشفت عن جسمها لتريها أثر العذاب ثم أخذت تقول :-

(ولقد حدّثت نفسي كثيرًا بالإنتحار فما كان يمنعني منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت النّاس يتحدّثون عنكم حديثاً حسناً ويقولون ، إنّكم وإنْ كنتم من هذا الجنس الأبيض المُخيف ، ولكنّكم قوم محسنون راحمون ، فأضرع اليك ياسيّدتي أن ترحميني وتعودي عليَّ بلقمةٍ أتبلّغ بها وأن تحولي بيني وبين الشّقاء) (١)

وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها .

فرقّت لها (فرجيني) رِقّة شديدة ونهضت إلى الطّعام الذي أعدّته لأسرتها فأتتْها به والتهمته الجارية في لحظات وتهلّل وجهُها بشْراً وسعادة .

ولم تكتفِ (فرجيني) بذلك ، بل بادرت إلى الذّهاب معها مصطحبة (بول) برفقتها لتتوسّط لها بنفسها عند سيّدِها .

---

(١) المنفلوطي . الفضيلة ص ٥٠

ومما يزيد موقفها السّابق فضلاً ان الطّريق إليه كان وعر المسالك بعيد المدى فاذا أضفنا إلى ذلك شراسة السّيد وسوء أخلاقه علمنا أنّ (فرجيني) و (بول) كانا مثالاً في المروءة وإغاثة الملهوف ، وهذا دليل - من غير شك - على ماتحمله نفساهما من قيم إنسانيّة نبيلة .

وثمّة موقف شريف آخر صدر عن (فرجيني) أيضاً ذلك أن (بول) اقترح عليها أن يعودا إلى سيّد تلك الجارية - بعد أن ضلّا طريقهما في العودة الى كوخهما ولم يجدا طعاماً ولا ماءً يسدّ جوعهما ويُمسك رمقهما - ذلك الموقف هو رفضها العودة إلى ذلك السيّد الذى أحسّت في نظراته المَكْر والخُبْث وأقنعت (بول) بعدم العودة إليه لأنّ الله سبحانه وتعالى لن يتخلّى عنهما لأنّها حافظت على نفسها وصانتها من نظرات ذلك الرّجل . (١)

ولنستمع أيضاً إلى الشّيخ الذي روى قصّة هذه الأسرة وهو يقول :-

(أستطيع أن أقول لك يابني أن السّعادة يُنبوع ينفجّر من القَلب ، لاغيث يهطل من السماء ، وأنّ النّفس الكريمة الرّاضية البريئة من أدران الرّذائل وأوزارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلّت ، وأنّى وُجدت ، فى القصْر وفى الكُوخ في المدينة وفي القرية ، فى الأُنْس وفى الوَحْشَة ، في المجتمع وفى العزلة ، بين القصور والدّور ، وبين الآكام والصّخور فمن أراد السعادة ، فلا يسأل عنها المال والنّسب وبين الفضّة والذّهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه التى بين جنبيه ،

---

(١) المنفلوطي . الفضيلة ص ٥٢ بتصرُّف

فهي ينبوع سعادته وهنائه ان شاء ، ومصدر شقائه وبلائه ان أراد ، وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألأ في أفواه الفُقراء والمساكين والمحزونين والمتألمّين لأنّهم سُعداء في عيشهم بل لأنّهم سُعداء في أنفسهم ، وما هذه الزّفرات التي تسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والأثرياء وأصحاب العظمة والجاه لأنّهم أشقياء في عيشهم بل لأنّهم أشقياء في أنفُسهم وما كدّر صفاء هذه النّفوس ، وأزعج سكونها وقرارها وسلبها راحتها وهناءها مثل عاطفة البُغض ، ولا أنار صفحتها وجلى ظُلمتها مثل عاطفة الحُب ، فأشقى النّاس جميعاً المبغضُون الّذين يضمرون الشّرّ للعالم فيجزيهم العالم شرّاً بشر ، وأسعد هم أولئك الذين يحبون النّاس ويمنحونهم ودّهم وصفاءهم فيمنحهم النّاس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأُسرة الفقيرة المسكينة أنْ تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجَعْجَعَة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة لا تُضمر حِقداً ولا تعرف غِلاّ ، فأحبّت القريبَ والبعيدَ ، والمُحسن والمسيء ، وعطفت على النّاس جميعاً ، من تمتُّ إليه بصلة ومن لا تمتّ إليه بصلة . . . .) (١)

وهكذا يتجلّى في الحديث السّابق - المنقول على لسان الشّيخ - فيجلي صدى صوت المنفلوطي أعظم جلاء ، حيث نجد الدّعوة إلى تلك المعاني الإنسانيّة الفاضلة في كل ماكتبه من مقالات في (النّظرات) لأنّه رجل أحبّ النّفوس النّقيّة الطّاهرة بل أراد للنّاس جميعاً نفوساً طاهرة ، وأرواحاً سامية تتطلّع

---

١ - ترجمة المنفلوطي للفضيلة ص ٦٤

إلى الفضائل كما كانت أفراد الأسرة السابقة ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في اعجاب المنفلوطي بهذه الرِّواية الفرنسية فدفعه ذلك الإعجاب إلى ترجمتها لقُربها من نفسه وموافقتها هواه وهل هنالك أقرب إليه من هذا القول عن تلك الأسرة :-

(إنّهم ماكانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوُقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من النَّاس ، فيسألهم حاجة من الحاج أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدَّهر ويدعوهم الى زيارة مريض أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى وحواساتهم وتفقُّد حالة المنكوبين والبائسين) (١)

نعم إنَّ تلك الأسرة كانت نموذجاً للمُثُل الإنسانيَّة التي يدعو إليها المنفلوطي من عطف على المحتاجين ومُساعدة الفقراء والمساكين فلا غرابة إذاً في قيامه بترجمة هذه الرِّواية .

وهذا موقف آخر تتجلَّى فيه المحافظة على الشَّرف والكرامه أعظم جلاء .

هذا الموقف يبدو في نصيحة الأم لابنتها عند رحيلها إلى باريس فلنستمع إليها وهي تقول :-

(... وان تجعلي الفضيلة والطَّهارة والشَّرف والعفَّة رائدك في كل ماتقولين وماتفعلين ، وأن تأخذى نفسك بالاناة والرِّفق في جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزَّلة ، وأن تجعلي نصْب عينيك دائماً أن الرَّجل لايحترم إلا المرأة التي تضنُّ بنفسها عليه ، ولايحتقر مثل المرأة التي تبذُل نفسها له أى أنَّه يُحب المرأة الفاضلة أكثر ممَّا يُحبُّ المرأة الجميلة ، بل لايعرف

---

١ ـ ترجمة المنفلوطي للفضيلة ص ٨٠

للمرأة جمالاً غير جمال الأدب والعفة وإن زعم في نفسه غير ذلك) (١)

فلا شك أن هذه نصيحة فاضلة من امرأة أحبت الفضيلة وشجعت عليها بل وأنشأت ابنتها على حبها فماتت في سبيلها نقية طاهرة .

وستورد هنا حديثاً آخراً صدرأيضاً على لسان الشيخ الراوي والذي تتجلى فيه روح المنفلوطي المحبة للفضائل والقيم الإنسانية الراقية وكرهه للرذيلة بشتى صورها وأشكالها .

يقول الشيخ في حديثه عن حياته في ذلك الكوخ النائي عن المدينة والحضارة والمتمرغ في بساطة الطبيعة وجمالها بعيداً عن الناس :-

(فأحمد الله على نجاتي منهم وخلاصي من أيديهم ، وعلى أنني استطعت أن أعيش على حساب نفسي لا على حساب الضعفاء والمساكين أو أن أتناول لقمتي مغموسة بدمي لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتي على البائسين والمساكين والساقطين في هوى اليأس . المنقطعين عن قافلة الحياة ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ، وضعت لي في كفة ، ثم وضعت لي في الكفة الأخرى لذتي في هداية تائه ضل به طريقه ، أو معونة بائس انقطع به أمله لرجحت عليها) (٢)

وهكذا يبدو لنا أن قارئ (الفضيلة) لا يكاد يرى بطلا من أبطالها الا والقيم الانسانية تعمر قلبه بما في تلك القيم من شرف وحياء وكرامة واغاثة ملهوف أو مواساة حزين .

---

١ - ترجمة المنفلوطي للفضيلة ص ١٠٩

٢ - المصدر السابق ص ١٤٥

وهذه كلها قيم إنسانية فاضلة كرّس المنفلوطي جهوده للدعوة إليها وسوف نرى مصداق ذلك بجلاء في الباب الخاص به من هذا البحث (١)

ولعلّ أكبر دليل على انفعال المنفلوطي بهذه الرواية (الفضيلة) هو مبادرته إلى نظمها جاعلاً عنوانها (بول وفرجيني) وقد عبّر فيها عن القصّة أجمل تعبير وأضفى عليها من ذات نفسه ما أضفى فالمستمع إليه في قوله :-

بول وفرجيني (١)

يابني الفقر سلامٌ عاطرٌ	منّ بني الدنيا عليكم وثناءْ
وسقى العارضُ عن أكواخكم	معهد الصدق ومهدُ الأتقياءْ
كنتمُ خيرَ بني الدنيا ومَنْ	سَعدوا فيها وماتوا سُعداءْ
عشتمُ عن فقركم في غبطةٍ	ومن القلّةِ في عيشٍ رخاءْ
لا خصامٌ لا مراءٌ بينكم	لا خداعٌ ، لا نفاقٌ ، لا رياءْ
خلقٌ برٌّ وقلبٌ طاهرٌ	مثل كأسِ الحرّ معنىً وصفاءْ
ووفاءٌ ثبتَ الحبُّ به	وثباتُ الحبّ في الناسِ الوفاءْ
أصبحت قصتكم معتبراً	في البرايا وعزاءُ البؤساءْ
يجتلي الناظرُ فيها حكمةً	لم يسطّرها يراعُ الحكماءْ
حكمٌ لم تقرأوا في كتبها	غير أنْ طالعتم صحفَ القضاءْ
وكتابُ الكونِ فيه صحفٌ	يقرأُ الحكمةَ فيها العقلاءْ
ان عيش المرءِ في وحدته	خيرُ عيشٍ كافلٍ خيرَ هناءْ
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ	وشقاءٌ ليس يحكيه شقاء

---

١ - القصيدة مثبوته في نهاية كتاب الفضيلة كذلك في الكواكب والمواكب والدرر لمحمد محمد عبد المجيد ص ٤٥

وفقيرٌ لغنيٍّ حاسدٌ ... وغنيٌّ يستذلُّ الفقراءْ
وقويٌّ لضعيفٍ ظالمٌ ... وضعيفٌ من قويٍّ في عناءْ
في فضاءِ الأرضِ ضاقَ عنهُمُ ... ونجاءٌ منهم أيّ نجاءْ
إنَّ عيشَ المرءِ فيهم ذلةٌ ... وحياة الذلِّ والموتِ سواءْ

. . . .

ليتَ (فرجيني) أطاعتْ بول ... وأنالته مُناه في البقاءْ
ورثتْ للأدمُعِ اللاتي جرت ... من عيونٍ ما درتْ كيف البكاءْ
لمْ يكنْ من رأيِها فرقته ... ساعةً لكنّه رأيُ القضاءْ
فارقته لم تكن . عالمةً ... أنَّ يومَ المُلتقى يومَ اللقاءْ
ما (لفرجيني) و(باريس) أما ... كانَ في الفقرِ عن الدنيا غَناءْ
إنَّ هذا المالَ كأسٌ مُزجتْ ... قطرةُ الصهباءِ فيها بدِ ماءْ
لا ينالُ المرءُ منه جرعةً ... لمْ يكنْ في طيِّها داءٌ عياءْ
عرضوا المجدَ عليها باهراً ... يدهشُ الألبابَ حسناً ورُواءْ
وأروْها زخرفَ الدنيا وما ... راقَ فيها منْ نعيمٍ وثراءْ
فأبتْ وأبى الحبُّ لها ... نقضَ ما أبرمه عهدُ الإخاءْ
ودعاها الشوقُ للفقرِ وما ... ضمَّ منْ خيرٍ إليه وهناءْ
فغدتْ أهواؤها طائرةً ... بجناحِ الشوقِ يزجيها الرجاءْ
يأملُ الإنسانُ ما يأملُهُ ... وقضاءُ اللهِ في الكونِ وراءْ

. . . .

مالِهــذا الجوّ أمســى قائمـاً ﴿ يُنذرُ النَّاسَ بويلٍ وَبَــلاءِ
ما لِهـذا البَحْرِ أضحى مائِجـاً ﴿ كبناءٍ بشـامخٍ فوقَ بنـاءِ
وكأنَّ الفُلْكَ في أمواجــه ﴿ ريشـةٌ تَحمِلُها كَفُّ الهَـواءِ
و(لفرجيني) يَدٌ مبسـوطةٌ ﴿ بدعاءٍ حينَ لا يجدي دُعـاءُ

....

لَهَفي والماءُ يُطفو فَوقــه ﴿ هيكَلُ الحُسْنِ وتِمثالُ الضِّياءِ
زهرةٌ في الرَّوضِ كانتْ غضَّــةً ﴿ تملأُ الدُّنيا جمالاً وبَهــاءِ
من يراها لا يراها خُلِقَــتْ ﴿ مثلُ خلقِ النَّاس مِنْ طينٍ وماءِ
ظَنَّتْ البَحْرُ سَماءُ مَهْـــوىً ﴿ لِتبارِيَ فيــهِ أفلاكَ السَّماءِ
هكذا الدُّنيا وهذا مُنْتَهـى ﴿ كل حيٍ ما لِحَيٍ ، مِنْ بقاءِ

تحليل القصيدة : موضوع القصيدة انساني عبَّر فيه الشَّاعر عَنْ إحساسِه تجـاه بطليّ القصَّة التي ترجمها ، وهي قصّة (الفضيلة) - أو (بول وفرجيني)

وقد بدأ الشَّاعر قصيدته بمقدّمة طَلليَّه أهدى فيها السَّلام لأهل القفْر والدُّعاءْ لديارِهم بالسُّقيا ثُمَّ أخذ يبيّن فَضائل ساكنِيها الذين كانوا أسعدَ النَّاس بفقرهم ، لبراءة أنفسهم من الخداع والنِّفاق والرِّياء بل كل ما يُمكن أن يُصيب المرء من رذائل النفوس المريضه ، فضمائرهم كانت نقيّة طاهرة بما تحطه من حبٍّ يكلّله الإخلاص ويشدّ من أُزره الوفاء .

هذان الحبيبان اللّذان أصبحت قصتهما عبرة البريّه وعزاء بؤسائها لما فيها من حكمة سطّرتها يدالقدر تلك الحِكمة التي ستبقى عبرة للعقلاء بعدهما ،

ثم يعود الشّاعر إلى تأمّله ليأخذ العبرة لنفسه من تلك القصّة التى رواها، فيرى أن الوحدة هي الطّريق الوحيد للسّلامة من الشّرور والآثام التى تفيض بها نفوس البشر .

فالفقير حاسد للغنيّ ، والغنيّ مستذلّ للفقير ، والقويّ متسلّط جائر على من هو أضعف منه ، والضّعيف متألّم من ذلك الجوْر ، والحياة فى صراع مستمرّ لا يرى الشّاعر لنفسه نجاة منه إلاّ فى الفرار الى الوحدة ، إذ لا قيمة للحياة مع الذّلّ .

ثم يبدأ الشّاعر فى الإفصاح عن شعوره اتّجاه موقف البطليْن من بعضهما وبيان حسرته الواضحة لعدم تلبية (فرجينى) لرغبة (بول) صديق طفولتها عند ما طلب منها - والدّمع ينهمر من عينيه - ألاّ ترحل الى عمّتها فى باريس .

لَيْتَ فرجيني أطاعت (بول) وأنالته مُناه في البقاء

ثمّ يستدرك الشّاعر بتأمّله ويرى أنّ ذلك لم يكن بدافع من نفسها وإنّما دفعها إليه قضاؤها المحتوم .

ثمّ يبيّن الشّاعر ندمه على رحيل (فرجينى) وتساءل تساؤلاً قرّر فيه أنّ بقاءها فى ذلك الفقر النّائي أفضل من متاع الدّنيا فى باريس .

ويعود الشّاعر إلى تأمّله ونظرته الفاحصة إلى حقائق الأشياء ، فيؤكّد أنّ هذا المال ماهو إلاّ كالكأس الّتي امتزجت فيها الخمر بداء شاربها فتحمل له ذلك الكأس داء عضال ليس له دواء .

وذكْر المال هنا يذكّر الشّاعر مرّة أخرى (بفرجيني) التي عُرض عليها المجد والشّهرة والجاه والمال فما أغناها ذلك الزّخرف الزّائل عن عهد الوفاء الّذى أبرمته مع (بول) فى ثغرها المُوحش ، الّذي طالما شدّها الشّوق

وأرّقها الحنين إليه وإلى حياة البساطة الوادعة الهانئة فيه . ورَجَتْ سُرعة الوصول إليه .

ولكن أيْنَ المفرُّ من قضاءِ اللّه النّافِذ ؟

ثمّ أخذ الشّاعر فى وصْف الجوِّ الّذى أظْلَمت فيه السّماء ، وارتَعدتْ معه أمواج البحر فأضْحت كالبناء الشّامخ الّذى يعلوه آخر مثله لا يقلّ عنْه ضخامةً وهيبةً ، حتى أصبحت السّفينة بين أمواجه كالرّيشة فى كفّ الهواء أمّا (فرجيني) فكانت مبسوطة اليدين مبتهلة إلى اللّه بدعاءٍ كان قضاء اللّه أقوى منه وأنْفذ .

ثم يشتدّ حزنُ الشّاعر ولهفه على تلْك الغادة الحَسْناء الّتي تشعّ ضياءً وبهاءً وهى تطفو على الماء ، تلك الغادة الّتى كانت تملأ الدّنيا بجمالها وحسنها الأخّاذ ، حتى ليظنّ النّاظر إليها أنّها ليست كباقى البشر من طين وماء بل هي نجم ظنّ البحرَ سماءً فهوى إلى ذلك السّطح ليباري أفلاكه ضياءً وسناءً فكانت نهايتها المحْتومة وذلك هو قدَر الأحياء جميعاً فما لأحدٍ بقاء .

تِلْك هى الخواطر والأفكار الّتى جاشت بها نَفْس المنفلوطي ، والملاحظ أنّ موضوع القصيدة بصفة عامّة إنسانيّ تأثّر فيه المنفلوطيّ بالقِصّة التى ترجمها ، تلك القصّة الحزينة التى عاشها بروحه وكيانه فعبّر عن مشاعره بهذه القصيدة التى افتتحها بالمطلع التّقليديّ وهو الوقوف على الأطلال والدّعاء لها بالسّقيا بعد السّلام على أهلها الرّاحلين ، وهذا ما اعتاده شعراء الجاهليّة .

أمّا عاطفته فى القصيدة فهي عاطفة مشبوبة صادقة حرّكها الإحساس العميق بأحداث القِصّة الّتي ترجمها .

أمّا خيال الشّاعر فيشتمل على الصّور البلاغيّة الآتيـة :-

التّشـبيه البَليغ في قوْله (إنّ عيش المرء . . . ذلّـة)

و (إنّ هذا المال كـأس)

والتّشـبيه (كأنّ الفُلك في أمواجِه ريشة)

والتشبيه البليغ فى قولـه (زهـرة فـى الأرض)

وفى قولـه (طغّت البحـر سـماء)

والاستعارة المكنية فى قوله (رأي القضاء ،عرضوا المجد)

وفى قولـه (رأى الحب لهـا . . .)

وفى قولـه (نقض ما أبرُمه عهدُ الإخاء)

(دعاهـا الشـوق)

وفى قولـه (كفُ الهـواء)

وفى قولـه (هيـكل الحُسْـن)

والكناية فى قولـه (ان هذا المال كأس مُزجت قطرة الصّهباء فيه بدماء)

فهي كناية عن زوال المُتعة فى الحياة وتلك هي سنة الحياة

والملاحظ أنّ صُور الشّاعر جميلة فيها جدّة وابتـكار .

وأسـلوب الشّاعر يشتمل على ألفاظ سهلة رقيقة ليس فيها غرابة ولا تعقيـد

لأنها ذَوْب عاطفتـه الرقيقة ونفسه الطيّبة كما في قوله :

(السّلام) ، (عاطـر) ، (مـاء)

كذلك كانت ألفاظه مُوحية كقوله فى وصف البحر عند ثورتـه :-

(مالـهذا البحر أضْحى هائجاً كبناءٍ شـامخ فوق بنـاء)

فنجد الشّاعر قد استعمل ألفاظاً عالية الصّوت للإيحاء بجلال ذلك الموقف وعظمتهُ

وتراكيب سلسلة سهلة ليس فيها ركة ولا ضعف ولا معاناه .

أما موسيقا القصيدة ، فهي متماوجة تسير وفقاً لعاطفته فهي تبدأ قوية ويظهر ذلك في افتتاح القصيدة بالأسلوب الإنشائي في قوله :

يابني القفر سلام عاطر من بني الدنيا عليكم وثناء
وسقى العارض من اكواخكم معهد الصدق ومهد الأتقياء

ثم تهدأ هذه الموسيقا مع هدوء عاطفته وذلك عند ما يذكر غبطة سكان ذلك القفر ومجد هم الفاضل وتعود موسيقا شعره في العلو مرة أخرى ويظهر ذلك في قوله :-

(ليت فرجيني أطاعت (بول) وأنالته مناه في البقاء)
(... أما كان في القفر عن الدنيا غناء ؟)

كذلك تبدو موسيقا هذه القصيدة قوية رنانة في ألفاظها (ان هذا الجمال كأس مزجت قطرة الصهباء فيه بد ماء

ما لهذا الجو أمسى قاتماً ينذر الناس بويل وبلاء
وكأن الفلك في أمواجه ريشة تحملها كف الهواء

الاتجاه الانساني في القصيدة : الملاحظ أن موضوع القصيدة موضوع انساني بصفة عامة ، فقد كتب الشاعر هذه القصيدة اثر ترجمته لقصة (بول وفرجيني) السابقة وهي قصة مليئة بالمواقف الانسانية كما رأينا (١)

---

١ - فضلا راجع ص ٧٣ من هذا البحث

وقد عبّر الشّاعر عن هذه المعاني الإنسانيّة بقوله :-

عِشتم مِنْ فقركم في غبطة ... ومن القلّة في عيش رخاء
لا خصام لا مراء بينكم ... لا خداع لا نفاق لا رياء
خلق برٌّ وقلب طاهر ... مثل كأس الحبّ صفوٌ وصفاء
ووفاء ثبت الحبّ به ... وثبات الحبّ في النّاس الوفاء

وهكذا بدا لنا في الأبيات السّابقة المعاني الإنسانيّة السّامية التي دعا إليها المنفلوطي في مؤلّفاته وكرّس لها جهوده (١)

كذلك نجد هذه المعاني السّامية في قوله :-

إنّ عيش المرء في وحدته ... خير عيش كافل خير هناء
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ ... وشقاءٌ ليس يحكيه شقاء
وفقيرٌ لغنيٍّ حاسدٌ ... وغنيٌّ يستذلّ الفقراء
وقويٌّ لضعيفٍ ظالمٌ ... وضعيفٌ من قويٍّ في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم ... ونجاءٌ منهم أيّ نجاء
إنّ عيش المرء فيهم ذلّةٌ ... وحياة الذلّ والموت سواء

فترى في الأبيات السّابقة تأمّلاً يدلّ على تجربة إنسانيّة عاشها الشّاعر مع النّاس حوله على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم ثمّ انطباق ذلك على ماقرأه في قصة (بول وفرجيني) ، الأمر الذي أدّى إلى تحرك مشاعره واستجابتها لتلك المواقف ، وهذه عن غير شك مشاعر إنسانيّة صادقة .

---

١ - فضلا راجع الباب الثالث من هذه الرسالة ص ٢٣٨ إلى ص ٤٠٥ .

ثم نلمح ثورة على أصحاب الجاه والمال في قولـه :ـ

إنَّ هذا المالَ كأسٌ مُزِجت ... قطرةُ الصَّهباءُ فيه ماء

لا ينالُ المرءُ فيه جرعةً ... لم يكن في طيِّها داءٌ عياءُ

أيضاً يبدو تأمّل الشّاعر في صروف الدّهر وقضاء اللّه فيما حوله في قوله :ـ

يأملُ الإنسانُ ما يأملُه ... وقضاءُ اللّه في الكونِ وراءْ

هكذا الدُّنيا وهذا منتهى ... كلّ حيٍّ فالحيّ بقاءْ

ر. الشّاعر :ـ (سيرانو دي برجراك) وهى رواية للشّاعر الفرنسيّ العظيم ادمون روستان ، قام بترجمتها ترجمة حرفيّة الدّكتور : محمّد عبد السّلام الجندي ، ثم عهد إلى المنفلوطي تهذيب أسلوبها ، ليقدّمها إلى فرقةٍ تمثيليّة تقوم بتمثيلها ، فترجمها المنفلوطي ثمّ رأى أنْ يحوّلها من القالب التمثيليّ إلى القالب القصصيّ ، حتى يتمكّن القارئ من أن يراها على صفحات القرطاس ويستمْتع بها ، كما يستمتع بها المشاهد لها على خشبة المسرح ، وفي ذلك يقول :ـ

(وقد حافظتُ على روح الأصل بتمامه وقيّدت نفسي به تقيّداً شديداً ، فلم أتجاوز إلّا في حذف جمل لا أهميّة لها وزيادة بعض عبارات اضطرّتني إليها ضرورة النّقل والتّحويل ، واتّساق الأغراض والمقاصد ، بدون إخلال بالأصل والخروج عن دائرته .) (١)

وهذه الرّواية تحكي قصّة شاعر فرنسي من شعراء القرن السّابع عشر يُدْعى (سيرانو دي برجراك) نشأ غريباً في أطواره وأخلاقه مُنْفرداً بصفات قلّ أنْ تجتمع لأحد من معاصريه فكان جامعاً بين الشّجاعة إلى درجة التّهوُّر ، والخجل إلى درجة الضّعف ، كما كان قاسياً إلى درجة معاقبة أعدائه لأتفه الأسباب ، ورقيقاً إلى حدّ البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريماً مِتلافاً لا يُبْقي على شيءٍ ممّا في يده ، وعفيفاً لا يمدّ يده إلى مخلوق كائناً مَن كان ، وصريحاً لا يتردّد لحظة واحدة في مجابهة صاحب العيب بعيبه مهما كانت النّتيجة المُترتّبة على تلك المُصارحة .

---

١ - مصطفى لطفي المنفلوطي . الشاعر . ص ٧

أمّا الخُلُق الغالب عليه ، فهو عِزّة النّفس والأنَفَة والحفاظ على الكرامة ، أضف إلى ذلك بلاغته النّادرة وثقافته الواسعة .

وقد كانت بليّته العُظمى في حياته ومَصْدر شقائه فيها ، هي دمامة وجهه وكِبَر أنفه إلى الحدّ الذي يلفت فيه أنظار من يراه ويثير دهشته ، وكثيراً ما كان يتألّم لذلك ألماً شديداً ، لأنّه كان مُحبّاً لابنة عمّه (روكسان) حبّاً كبيراً في الوقت الذي اشتهرت فيه بجمالها النّادر وذكائها الخارق ، لذا لم يجرؤ على مصارحتها بحبّه لاعتقاده أنّ المرأة مهْما سمّت أخلاقُها وجلّت صفاتُها لا يمكن أن تقع في أحبولة غرامية غير أحبولة الجمال ولا تهتمّ بشيءٍ قدر اهتمامها بحُسن الوجوه والصّور .

ورغم ذلك الحبّ الكبير الذي حبسه في صدره كان شديد الإخلاص لها عظيم التّضحية من أجل راحتها وسعادتها ، فقد عشقت تلك المحبوبة رجلاً غيره وكاشفته بالأمر كما طلبت منه الدّفاع عن ذلك الحبيب والمحافظة عليه ، فلم تحمله تلك المكاشفة على الحقْد أو الغدر بل لبّى أمرها مُطيعاً مخلصاً .

لقد اتّخذ هذا الشّاعر حبيب ابنة عمّه - الذي آثرته عليه - صديقاً حميماً له وأخلص في مودّته إخلاصاً نادراً وأعانه على استمرار صلته بها وبقاء حبّه في قلبها ، وذلك لأنّ حبيبها كان على حظ غير قليل من البلاهة وليس له علم بالبلاغة وفنونها ، في الوقت الذي كانت فيه (روكسان) حبيبته لا تتقرّب إلا من الأذكياء ولا تُحب إلا البُلغاء ، فما كان منْ شاعرنا الا بذل التّضْحية من أجلها لأنه أخذ يلقّن ذلك الحبيب ما يجب أن يقوله لحبيبته ويجبره على حفظه وبهذه الطّريقة كان الشّاعر - بطل الرّواية - ينفث شعوره المتأجّج في صدره بلهب الشّوق ولوعة الحُبّ - كان ينفثُه في كلماتٍ تصل الى محبوبته عن طريق حبيبها الآخر ، فتُعجَب بها

(روكسان) أيما إعجاب ؟ الأمر الذي يدعو إلى الغبطة والسعادة لسعادتها وفرحتها ، فلا أحب إلى نفسه من ذلك .

ولم يزل هذا شأن (سيرانو) حتى خرج من دنياه ولم تعلم ابنة عمه بحقيقة أمره وسريرة نفسه إلا في الساعة الأخيرة التي لا يغني فيها عند العلم شيء .

المواقف الانسانية فيها :

الرواية - كما رأينا في خلاصتها الماضية - تحتوي على تضحية من بطلها وهو (الشاعر) تلك التضحية الانسانية التي لا نظير لها ، فبطلها يدوس على قلبه ويتنازل عن حبه العميق لابنة عمه في سبيل سعادتها مع غيره الذي آثرته لجماله ، وهو لا يكتفي بإخلاء سبيلها لذلك الحبيب بل يربط حبل الصداقة بينه وبينه ليكون على صلة دائمة به حتى يلقنه ما يجب أن يقوله لمحبوبته حتى لا تصدم في حبها له ببلاهته وجهله وتظل سعيدة هانئة في حبها معه .

ولا شك ان هذه التضحية العظيمة قد قدرها المنفلوطي فراح يترجم الرواية بعين قريره ونفس سعيدة فها هو ذا يقول :-

(فأعجبني منها الشيء الكثير وأفضل ما أعجبني منها أنها صورت التضحية تصويراً بديعاً ، وهي الفضيلة التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها) (١)

ذلك موقف يشمل الرواية بصفة عامة ، ولكننا سنورد هنا مواقف أخرى متفرقة نلمحها من خلال قراءة صفحاتها :

يقول بطل الرواية (سيرانو) عن نفسه :-

(إنني لا أحفل ياسيدي بالصور والرسوم والأزياء والألوان ولا يعنيني جمال

---

١ - المنفلوطي . الشاعر ص ٧

الصُورة وحُسْنها ، ولا بزَقشَة الثّياب وغثمها ، وحَسْبي من الجمال أنّي رجل شريف مستقيم ، ولا أكذب ولا أتلوّن ولا أُواهن ، ولا أتملّق ، وأنّ نفسي نقيّة بيضاء غير ملوّنة بأدوات الرّذائل والمفاسد ، فلئن فاتني الوجه الجميل والثّوب المفوف والوسام اللاّمع والجوهر السّاطع فلم يفتني شرف المبْدأ ولا عزّة النّفس ولا إباء الضّيْم ولا نقاء الضّمير) (١)

نعم تلك هي صفات بطل الرّواية التي شدّت المنفلوطي إليه ، ولِمَ لا وكلّها قيم إنسانيّة عالية ومُثُل فاضلة طالما نادى المنفلوطي إلى التّمسك بها والتّحلّي بمثلها (٢)

وثمّة حُديث آخر جاء أيضاً على لسان البطل في الرّواية ، ذلك الحديث الذي يوحي بمقالات المنفلوطيّ في "نظراته" والتي تذكّرنا بالفضيلة وقيمها وطريق الوصول إليها .

فيقول :-

(إنّ الجُبهةَ العالية ياسيّدي لا تحتاج الى تاج يُزيّنها . وإن الصّدر المملوء بالشّرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه ، فليفخر الفاخرون بما شاءوا من فضّتهم وذهبهم وألقابهم ومناصبهم أمّا أنا فحسْبي من الفخر أنّني أستطيع أنْ أمشي بين النّاس برأس عالٍ ، وجبهة مُرتفعة ، ونفسٍ مطمئنة ، وثوب نقيّ أبيض لم تعْلَق به ذرّة من غُبار ، ولم تلوّثه شائبة من شوائب السّفالة والدّناءة لا أهاب شيئاً ولا أغضب لشيء ولا أخجل من شيء) (٣)

---

١ - المنفلوطي . الشاعر ص ٤٠

٢ - فضلا - راجع الباب الاخير من هذا البحث ص ٣٣٨ — ٤٠٥ .

٣ - المنفلوطي . الشاعر ص ٤٠

نقول إنّ كلام البطل السّابق يوحي لنا بموقف المنظوطيّ من الجاه والسّلطان ومحاربته للأغنياء وذوي المناصب (١)

فما أجمل حقاً من وسام الشّرف والفضيلة ولا أسمى من أن يسير المرء في حياته شامخاً بأنفه رافعاً رأسه لأنّه حافظ على سلامة سلوكه ونقاء سريرته

وما أسوأ من أولئك الّذين يركضون وراء الجاه والمنصب ركضاً حثيثاً رغبة في السّمعة والشّهرة الزّائفة .

نعم ما المال والجاه والسّلطان إلا أمور سطحيّة زائفة لا قيمة لها إذا خلت من الفضيلة والمُثل العليا التي يجب أنْ تكونا رافدتين للمرء إلى أرقى درجات المجد والسّؤدد .

وبطل الرّواية - كما علمنا - من أولئك الذين يكرهون أن يلقوا بأنفسهم في هلاك الذّل للوصول إلى المجد المزيّف المبنيّ على جدار الرّذيلة وأساسها الواهي ، ونراه يُدافع عن هذا المبدأ أيّما دفاع حتّى ولو كلّفه ذلك فقد حياته فالحياة في نظره لا تستمرّ مع ذلّ النّفس وخضوعها وسنورد هنا جزءاً من الحوار الذي دار بين (الشّاعر) وصديقه ذلك الحوار الذي يكشف عن عزّة نفسه وسموّها :

- وهو معنى إنسانيّ نبيل يقول البطل لصديقه (ليريه): (إنّني لا أنكر يا ليريه انّني فعال متطرّف كما تقول ، ولكن في سبيل المبدأ أو الفكرة والتطرّف قبيح في كلّ شيء إلا في هذا السّبيل .

قال : ولكنّك في حاجة إلى شيء من حسن السّياسة وسعة الصّدر ولين الجانب لتستطيع أن تصل إلى المجد الذي تحبّه وتتعشّقه .

---

١ - فضلاً راجع ٢٤٥ - ٢٦٠ من الباب الأخير من هذا البحث

فاستوى (سيرانو) فى مكانه جالساً وقد ظلّلت جبينه سحابةٌ سوداء من الهمّ واستحالت صورته إلى صورة مُريعة مخيفة وقال : —

ماذا تريد منّي يالبريه ؟ وماهي الخطّة التى تحبّ أنْ ترسمها لأنُفذ من طريقها إلى المَجْد الذي تتحدّث عنه وتزعُم أنّني أتعشّقه وأصْبوا إليه ؟

أتريد أنْ أعتمد فى حياتي على غيري وأنْ أضع زمام نفسي فى يد عظيم من العُظماء أو نبيل من النُّبلاء يصطنعني ويُجنّبني موءونةَ عيشي ويحمل عنّي همومَ الحياة وأثقالها ، فيكون مثلي مثل شجرة " اللّبلاب " لا عمل لها فى حياتها سوى أن تلتفّ بأحد الجذوع لتعلقَ بقشرته وتمتصَّ مادّة حياته بدلاً مِنْ أَنْ تعتمد فى حياتها على نفسها ؟ ذلك مالا يكون .

أتريد أَنْ أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدّلّال سلعته وأدور بها فى الأسواق منادياً عليها : مَنْ منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعُظماء وأصحاب الجاه والسّلطان يبتاع نفساً بذمّتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيشٍ وجرعة ماء ؟

أتريد أن أُنصّب نفسي سُخريةً فى الأندية الخاصّة والمجتمعات العامّة ألعب كما يلعب القِرد وأنطق كما تنطق الببغاء ، وأتلوّن كما تتلوّن الحِرْباء ، رجاء أن أجد التفاتة من عينيّ أمير أو أرى ابتسامة على شفتيّ وزير ؟

أتريد أَنْ تستحيل قامتي إلى قوس من كثرة الإنحناء وأَنْ تتهدّل أجفاني من كثرة الإطراق والإغضاء وأن تجتمع فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة السّجود أو الجثوّ بين يديّ العُظماء ؟

أتريد أن يكون لي لسانان : لسان كاذب أمدح به ذلك الذى اصطفاني واجتباني ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لي وجهان وجه راضٍ عنه لأنه يذود عني ويحميني ، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويسترقني ؟) (١)

وهكذا بدت لنا فى حديث البطل (الشاعر) السابق روح المنظوطي الكارهة للنفاق . والخضوع لأولي الجاه والسلطان والمحبة للصراحة والحق أينما كانوا وحيثما حلوا ومهما كلفا صاحبهما من مشقةٍ وعناء .

ونستمع أخيراً إلى حديث (الشاعر) مع حبيب ابنة عمه - ذلك الحديث الذى تبدو فيه قمة التضحية التي سبق الإشارة إليها (٢) فيقول :-

(إن روكسان ابنة عمي وصديقتي ورفيقة صباي وطفولتي ليس لها في العالم من صديق ولا معين سواي ويهمني جداً أن أراها سعيدة في حياتها هادئة في عيشها لا يكدر عليها مكدر من عوادي الدهر ونكبات الأيام ، ولا أكتمك أني أخاف عليها الخوف كله أن تحل بها في هذا الحب الذى اختارته لنفسها ، نكبة من النكبات العظام ، أو فاجعة من الفواجع الجسام تقضي عليها وعلى آمالها ، وما أحسبك تتمنى لها إلا ما أتمناه أو تضمر لها في نفسك إلا العطف الذي أضمره لها ، خصوصاً وأن الصلة التي بينكما ستطول طبعاً إلى عشرة زوجية طويلة ، لا يقطع حبلها إلا الموت.لذلك أردت أن نتعاقد يداً واحدة على إسعادها وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب في قلبها وحراسته من أن تغشاه غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسنك وجمالك وأنا بنصاحتي وبياني ، تسمع صوتي ولكن من فمك ، وتحس روحي

---

١ - المنظوطي . الشاعر . ص ٨٢

٢ - فضلاً راجع ص ٨٦ من هذا البحث

ولكن في جسمك وتشرب عواطفي ولكن من كأسك ، وتطرب لنغماتي ولكن من قيثارتك ، أي إنني أتقمص في جسمك وأتسرب بين حنايا خدعك ، وأكمن في قرارة نفسك فنستحيل نحن الإثنين إلى شخص واحد أو تصبح أنت كل شيء وأصبح أنا لا شيء وما دامت سعادتها في الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها إنساناً يجمع في نفسه بين موهبتي الفصاحة والجمال فليتألف مني ومنك ذلك الإنسان الذي تتمناه . . وتريده ، ولا تقل إننا نخدعها بذلك أو نفترها ، فإنا لا نريد بما نفعل إلا سعادتها وهناءها هذا هو الغرض الذي أرمي إليه ولا أرمي لغرض سواه) (١)

أي قيمة إنسانية وأي معنى فاضل أسمى وأفضل من فناء الإنسان في سبيل تضحية فاضلة ذات غرض شريف كالتضحية التي بذلها (الشاعر) ؟!

لا شك في أننا لن نجد أنبل ولا أكرم من نفس كنفسه التي أحبت وأخلصت ووفت ثم ضحت حتى فنيت في سبيل تلك التضحية .

وثمة حديث آخر صدر عن شخصية أخرى في الرواية ، يتجلى في هذا الحديث كيف أن النفس الإنسانية لا بد لها من لحظة يقظة الضمير وانتباهته بعد غفلة طويلة وقد صدر هذا الحديث من رجل عظيم من رجال الجيش النبلاء ، تمنى أن يكون مثل (سيرانو) فقالت له روكسان ابنة عم البطل :

ولكنك عظيم ياسيدي

فقال لها :ـ

(إن المرء حينما يصل إلى ذروة العظمة في الحياة لا بد أن تمر به ساعات مهما كان طاهراً وبريئاً ـ يشعر فيها ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلمها ،

---

١ ـ المنفلوطي . الشاعر . ص ٩٤

وربّما لا تبلغ فى قوتّها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضّمير ، ولكنّها على كلّ حال تزعجه وتقلقه وتستولي على شيء من راحته وسكونه ، وهل استطاع العظماء أن يكونوا عظماء إلّا لأنهم ارتقوا سلّما بنيت درجاتها من جماجم الموتى وأشلائهم ، أو أن يناموا ملء جفونهم إلّا لأنّهم أسهروا كثيراً من عيون البائسين والمعدمين فى سبيل راحتهم وهنائهم ، أو أن يمشوا فى طريقهم رافعيّ الرؤوس شامخيّ الأنوف إلّا لأنّ وراءهم كثيراً من المطرقين الصّامتين الّذين لا تفارق أنظارهم الأرض همّاً وكمداً .. وربّما لا يشعرون بشيء من تلك الجرائم الّتى يقترفونها وهم فى نشوة عزّهم وضوضاء عظمتهم ولكنّهم متى خلوا إلى أنفسهم وأووا إلى مضاجعهم ساورتهم تلك الآلام الخفيّة اللّاذعة التي لا يشعر بمثلها الجائعون والظامئون والمرضى والمعوزون ، لا تصدّقي ياسيّدتي أنّ فى الدّنيا سعيداً واحداً قد خلت كأسه التي يشربها من قذى ينغّصها عليه ولابدّ للعظيم وهو صاعد إلى قمة عظمته أن يشعر أن ذيل معطفه المسبل وراءه يجرّ معه كثيراً من أنّات الباكين وصرخات المتألّمين الذين بنى عظمته على أنقاض شقائهم فيسمع لها خشخشة كخشخشة الأوراق الجافة التى يجرّها وراءه ذيل معطفك الآن) (١)

ذلك هو الحديث الذي صدر من أحد شخصيات الرّواية وهو يذكّرنا بموقف المنفلوطيّ من طبقة الأغنياء وذوي الجاه والسّلطان ذلك الموقف الذى وقفه ضدّهم فى (النّظرات) .(٢)

---

١ ـ المنفلوطيّ . الشّاعر ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .
٢ ـ فضلاً راجع ص. ٣٤٥ ـ ٣٦٠ من البحث .

والحقيقة أنّ مثل هذه الأحاديث بما تحمله من معانٍ إنسانيّة فاضلة تستميل المنفلوطيّ وتروق لنفسه لذا نراه تـوّاقاً إلى ترجمتها وإهدائها إلى قُـرّاء العربيّة .

وممّا يدلّ على أنّه ذو نفس تـوّاقة إلى الخير داعية إلى المُثُل العليا والفضائل الإنسانيّة السّامية التي يجب أن يتحلّى بها كلّ من يحمل لقب "إنسان " .

مترجماتـه فى العَبَـرات

الشُّهداء :- (١)

وهي قصَّة قصيرة ترجمها المنفلوطيّ ضمن ما ترجمه من قصص فى كتابه " العَبَـرات " وهى تحكى :-

قصَّة أرملة فقدت أبويها الى جانب فقدها لزوجها كما غاب عنها أخوها فى بعض أسفاره إلى أمريكا وانقطعت أخباره وآثاره (ولم يُبْقِ لها الدّهر إلاّ ولداً صغيراً يؤنسها وأخاً شقيقاً يحنو عليها ، وصُبابـةً من المال تَتَرشَّف الرِّزْق منها ترشُّفاً مصانعة للدَّهر فيها .

أمّا الصّبابة فقد نضبت ، وأمّا الأخ فقد ضمَّه الدَّهر ضمَّةً ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ولا عضُداً) (١)

ولقد لقيت هذه المرأة من ألوان العذاب مالقيت وغسلت الثِّياب حتى يَبِسَتْ أطرافها وذلّت كرامتُها إلاّ أنّ اللّه أبقى لها مايهوّن عليها مُصابها ، وهو أنسُها بولدِها ورجاؤها فى عودةِ أخيها .

مرّت الأيّام والسّنون سِراعاً فاكتهلت الأمُّ وشبَّ الابن وشاركها حُزنها ولوعتها ، وماكان له من عمل إلا أنّه كان يَهوىٰ فنَّ الرّسم فأخذ يُمارسه ، ليُحسِن إلى هذه الشّقيّة التى أحسنت إليه ، واستطاع وهو فى مهنته تلك التى ماكانت تدرّ عليه

---

١ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٢١

إلاّ عائداً ضئيلاً أن يسدّ حاجته وحاجتها ، فقنعت الأمّ بذلك ورأت في وجوده إلى جوارها أنسها وسعادتها ، غير أنّ الشّيطان يأبى إلاّ أن يكدّر ذلك الصّفاء فيذكّرها بأخيها الغائب فلا تلبث أن تذرف على فراقه عبرات سخيّة تحاول أن تخفيها عن ابنها قدر استطاعتها ، حتّى اكتشف يوماً هذا السّرّ الدّفين في صدرها : فعاهدها على أن يفتّش عن خاله أثناء رحلته ، إلى (واشنطون) ليعرض لوحاته في المعرض الذى سيقام بها ، والذى خصّصت له جوائز عظمى قد ينال واحدة منها فتساعدها على عيشها وتزيل شقاءها .

أشفقت الأمّ المسكينة على نفسها وعليه من هذه الرّحلة لخوفها أن تفقده كما فقدت أخاها من قبل فيكون خطبها عظيماً وثكلها أليماً .

وهكذا رحل الشّابّ إلى " واشنطون " وعرض لوحاته ففازت إحداها ، وهي التي عبّر فيها عن لحظة فراقه لوالدته وساعة وداعه إيّاها ، وطرب لهذا الفوز طرباً أنساه شقاءه وبؤسه السّابقين فأرسل إلى أمّه بعض المال واستبقى لنفسه الباقي ليبرّ بوعده معها ويفتّش عن خاله ، ثم كتب إليها أنّه لن يبرح هذه الأرض حتّى يفي بما عاهدها عليه قبل سفره ، ثم أخذ يضرب الآفاق بحثاً عن ذلك الخال المفقود ، حتى أخبره بعض من سألهم أنّ آخر عهدهم به تلك الرّحلة التي رحلها عنهم منذ سنوات الى بعض الجزر الجنوبيّة فشقّ الشابّ طريقه إليها حتى أوقفته ظروفه السّيئة في جزيرة موحشة مقفرة تسكنها قبيلة من قبائل الزّنج المتوحّشين الذين ما أن رأوه حتّى هاجت في صدورهم أحقاد تلك العداوة اللّونية ، فأخذوه أسيراً ثمّ أودعوه في نفق تحت الأرض سمّوه (سجن الإنتقام) .

وفى هذا السّجن فقد الشّابُّ كلّ ما فى نفسه من أمل وَعلِمَ أنّه مفارق هذه الحياة بين لحظة وأخرى ، ومّما زاد فى ألمه وحُزنه أنّ شخصاً آخر فى فرنسا أضعف منه قوة وأكثر منه حبّا له يشاركه هذه الآلام على غير علم بها وهى تلك الأمّ المسكينة .

مرّت على الشابّ أيام وأعوام وهو على هذه الحال ، ومازال فى سجنه حتّى أخذ بيده ذات يوم رجل أسود ثم ساقه إلى صخرة كبيرة فى أرض قفر وربطه فى جزع شجرة هالكة ثم تركه وحيداً وذهب إلى حاله .

هنا التفت الشّابّ حوله ، فعاد إليه صوابه وعلم أنّه فى مكانٍ غير مكانه الأوّل وأرضاً غير الأرض . . (وتذكّر السّعادة والشّقاء والقريةَ والوطنَ والسّجنَ وظُلْمته والقَيْدَ ووطأته) (١) وتذكّر أمّه وشقاءها من بعده فذرف عبرة كادت تحترق لها وجنتاه ، ثمّ أسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء له أنْ يذهب حتى أخذت جفنيه سِنَةٌ من النّوم وبينما هو كذلك (اذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه فخُيّل إليه أنّ ملَكاً نورانياً نزل إليه من عَلياء السّماء لينقذه من شقائه ، فتبيّنه فإذا فتاة جميلة بيضاء ما التفت الأُزُرُ على مثلها حسناً وبهاءً) (٢) وهنا سألها مَنْ تكون ؟ وما سببُ مجيئها إليه ؟

فأعلمته أنّها إحدى فتيات الحيّ وأنّها علمت بحاله فأتت لتخلّصه من مِحَنته لأنّه محكوم عليه بالإعدام فى صبيحة اليوم التّالى . ولكنّ الشّابُّ الذى تعلّق بها وخفق قلبه بحبّها رفض الفرار اذا لم تُرافقه فى رحلته لأنّه أضحى ولا يستطيع أن يعيش حياته الباقية بدونها ، ومِنْ ثمّ فالموت أهون عليه من حياة ملؤها العذاب والحرمان .

---

١ - المنفلوطى . العبرات ص ٢٩

٢ - نفس المرجع والصفحة

هنا أذعنت الفتاة لطلبه مع خوفها الشّديد من الوقوع فى هواه وهى من قبل قد وهبت نفسها للعذراء ، ثم رحلا معاً فى ظُلمة ليلٍ حالكٍ يقطعان الفلوات والقفار حتّى وصلا بعد مسيرة ثلاثين يوماً إلىٰ منطقة عامرة بأهلها وسكّانها ، فاستبشرا وعلما أنّهما علىٰ مقربةٍ من ساعات هنائهما .

وبعد أن طاب جلوسهما معاً طلب منها الزّواج حتّى لا يحول بينهما بعد ذلك حائل ، فأُصيبت برعشة قويّة لم تستطع أثناءها الإجابة على طلبه حتّى هدأ حالها ولم تجدْ بُدّاً من مكاشفته بسرّها ، إذ أخبرتْه أنّها فتاة غريبة عن هذه الدّيار وأنّ والدها كان رجلاً أبيض يُدْعى (روفائيل) ثم تعلّق بأمّها وتزوّجها ، فدانت بدينه ثمّ أنجباها وعاشا عيشة هانئة طيّبة حتى هَجَم عليهم رجال قبيلتهم فاقتادوهم جميعاً غضباً ثم قتلوا والدها على مشهدٍ منها ووالدتها وكانت إذ ذاك لم تتجاوز العاشرة من عمرها فمرضت أمّها المسكينة علىٰ إثر ذلك .

وكان يحضرها ساعة احتضارها رجل مسيحيّ من رجال الدّين فطلبت من ابنتها أنْ تنذرَ نفسها للعذراء حتى لا تتزوّج ويصيبها من الشّقاء ما أصاب والدتها فاذعنت لأمرها وأشهدَتْ الرجل على ذلك .

وهكذا قصّت الشّابّة عليه قصتها لتكون عذراً لها فى امتناعها عن الزّواج منه ومن هذه القصّة علم الفتىٰ أنّها ابنة خاله الذى فقدوه من سنوات عديدة ، وخافت الفتاة على دينها أنْ يغلبها الحبُّ وتتزوّج الشّابّ فتناولت جرعة من زجاجةٍ مُلئت بالسّمّ كانت لا تفارقها أبداً لتكونَ فى متناولِ يدها فى مثل هذا الموقف ، فشربت منها وغابت عن الوجود .

حزن عليها الشّابُّ حُزناً شديداً وثار على رجال الدّين المسيحيين وعلى تعاليمهم التّي وضعوها وفقاً لأهوائهم فحرّموا ماكرهوه وأحلّوا ما أحبوه ، وظلّ على ثورته تلك حتى ثَقُل لسانه ووَهَنَتْ عزيمتُه وارتعدت مفاصلُه وسقط فى مكانه يَزْفِر زفيراً شديداً .

إقترب منه شيخ مسيحيّ وأخذ يخفّف عنه وطأة مابه، فطلب الشّابّ منه أنْ يُقَبِّلَ الفتاة قُبلَة الوَداع فكان له ما أراد ثمّ لقي ربّه ساعتها ، فكان دفنهما فى مكان واحد تحت شجرة مُورِقة على شاطىء النّهر .

مرّت بوالدته امرأة عجوز من جاراتها فوجدتها قد فارقت حياتَها إلى بارئها . وهكذا كان هؤلاء الثّلاثة ضحيّة الحُزْنِ واليأس القاتِلَيْن .

المواقف الانسانية فى القصة : لقد بينّا قبل ذلك أن المنفلوطي أعجب بكل موقف انسانى فى الرّوايات التى ترجمها بل إنّ هذه المواقف ـ على مانعتقد ـ هي التى دفعت المنفلوطى الى ترجمتها ودليلنا على هذا أنّ جميع مقالاته التى نبعت من ذات نفسه إنّما هي ذات وُجهةٍ انسانيّة واضحة السّمات بيّنه المعالم ولا أدلّ على ذلك من دراستنا لهذا الإتجاه فى أدبه فى الباب الخاصّ به (١)

ونبيّن هنا بعض المواقف الإنسانية فى قصّة الشّهداء التي عرضنا تلخيصها فيما سبق (٢) ، تلك المواقف التى هزّت عاطفة الأديب فدفعته الى ترجمتها .

ولعلّ أول ماحرّك مشاعره فى هذه القصّة هى كونها قصّة حزينه موءلمة تحكي آلام أرملة ذاقت ألوان العذاب والبُوءس ، وقصّة شاب نال ماناله من التّنكيل والشّقاء ، وشابّة فقيرة نذرت نفسها للعذراء لكثرة مالاقته من يأس وألم فى حياتها ممّا جعلها فى صراع عنيف بين نذرها هذا وبين حبّها الذي يعتلج فى صدرها ، فلم تجد بُدّا من الانتحار فرارًا من واقعها الأليم .

ونعود هنا الى الأم فى فرنسا ، تلك الأم التى ظلّت تنتظر ابنها ووحيدها يقتلها اليأس ويرحمها الرّجاء ومرت الأيّام والأعوام ، لايفارقها الأمل فيهنّ ساعة حتى جاء يوم استسلمتْ فيه ليأسها وأيقنت بموته وبين الزّفرات والعبرات أنشأت تقول :ـ

(فى أيِ بطن من بطون الأرض مضجعك يابنى وتحت أيِ نجم من نجوم السّماء صرعك وفى أيِ قاع من قيعان البحر مثواك ، وفى أيِّ جوف من أجواف الوحوش الضّارية مأواك ؟

لو يعلم الطّير الذي مزّق جثتك ،أو الوحش الذى ولغ دمك أو القبر الذي ضمّك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك فى جوفه أنّ وراءك أمّاً مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي .

---

١ ـ فضلا راجع الباب الاخير من هذا البحث ص ٢٣٨ ـ ٤٠٥

٢ ـ ،، ،، ص ٩٧ من هذا البحث

عِنْدَ إليّ يابُنيّ فقيراً أو مُقعداً أو كَفيفاً فَحَسْبِي مِنْك أَنْ أراكَ بجانبي في السّاعة التي أُفارِق فيها هذه الحياة لأُقبّلك قُبلة الوَداع وأعهد إليك بزيارة مَضجعي مَطْلع كلّ شمس ومغربها المتَخيّر بزورتك عنّي ضمّة القبْر وتستنير بوجهك الوضّاء ظُلماته الحالكة .

ما أسعد الأمّهات اللّواتي يَسبقْنَ أولادهنّ إلى القُبور ، وما أشقى الأمّهات اللّواتي يسبقهُنّ أولادهنّ إليها ، وأشقى منهنّ تلك الأمّ المسكينة الّتي تدبّ إلى الموت دبيباً وهي لا تعلم هل تركت ولدها وراءها أو أنّها ستجده أمامها ؟ (١)

هذا هو حديث الأمّ التي لا تعلم عن ابنها شيئاً بعد رحيله .. وهو حديث مؤثّر من غير شكّ ، بل لا تشكّ بعد قراءته في أنّ هناك قلباً - مهما بلغت درجة قسْوته - لا يذوب أمام هذا الموقف الذي أذاب من قَبْل قلب المنظوطيّ فدوّن ما دوّن . والمنظوطيّ عندما يركّز على هذه المواقف في قصصه إنّما يهدف إلى تحريك المشاعر الإنسانيّة تحريكاً صادقاً لإغاثة المنكوبين والبائسين ومحاولة تخفيف آلامهم وتضميد جراحهم بما يعينهم على مصائب الدّهر وأرزائه .

كذلك من هذه المواقف ، مبادرة الفتاة الشّابّة لإغاثة الفتى المُقيّد إلى جوار الصّخْرة والتي علِمت برغبة الزّنوج في قتله صبيحة اليوم التّالي ، فها هي تقول له :-
(أنا فتاة من فتيات هذا الحيّ وقد ألممْتُ بشيء من أمرك فعلمت أنّك شقيّ فرحمتك ممّا أنت فيه فجئتك أُطلِق وَثاقك لتذهب حيثُ تشاء ، فلا مثوبة يقدّمها المرءُ بين

---

١ - المنظوطيّ . العَبَرات ص ٢٨

يـــدي ربّه يوم جزائه أفضـــل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب) (١)

ولعلّ أجمل من هذا الموقف موافقة الفتاة نفسها أن ترحل معه لأنّه كاشـــفها بحبّه لها وأنّه لن يستطيع العيش بدونها ، وأنّ الموت على حبل المشنقة أهـــون عليه من فراقها ، فلم تجد بدّاً من موافقته لإنقاذه من مصيره المحتوم رغم تأكدهـــا أنّها لن تتزوّجه أبداً لأنّها نذرت نفسـها للعذراء .

وثمّة حديث آخر يجري على لســان الشّابّ نفســه ذلك الحديث الذي يدلّ علـــى الإعتراف الحقيقيّ بالمشاعر والعواطف الإنسانيّة المسيطرة على حياة الإنسان فتوجّـــه سيرة فيها .

يقول الشّاب موجّهاً خطابه لرجال الدّين الذين يحرّمون ماشاءوا من الأمور ويحلّلون ما أحبّـوا :-

(إن كنتم تريـدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حبّ فانتزعوا من بين جنوبنـــا هذه القلوب الخفّاقـة ثمّ اطلبوا منّا بعد ذلك ماتشاءون ، فإنّنا لا نستطيع أن نعيـــش بلا حبّ مادامت لنا أفئـدة خافقـة) (٢)

نعم إنّ الحبّ عاطفة إنسانيّة سـامية لا يمكن أن يتنكّر لها إنسان تنبض فيـــه الرّوح الإنسـانيّة .

وممّا نرى أنّه أثّر في نفس المنفلوطيّ - في هذه القصّة - ماقاله البطل لرجـــال الدّين المسيحيين الذين يستغلّون مواقفهم لإفساد عقول النّاس :-

---

١ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٣٠

٢ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٣٦

(إنّنا لا نعرفكم أيُّها القوم ولا نَدين بدينكم ، ولا نعترف لكم بسُلطانٍ على أجسامنا وأرواحنا ، ولا نُريد أنْ نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتوارُوا عنّا وهبُوا وحدكم إلى معابدِكم أو مغاوركم ، فإنّا لا نستطيع أنْ نتّبعكم إليها ولا أن نعيش معكم فيها .

إنّ وراءنا نساءً ضِعاف القلوب ورجالاً ضعاف العُقول ، ونحنُ نخافكم عليهم أنْ يمتدّ شرُّكم إليهم ، فلا بدّ لنا أنْ نقِف في وجوهِكم ونعترِض سبيلكم لنذودَكم عنهم حتى لا تصلوا إليهم فتُفسدوا عليهم البقيّة الباقية من قلوبهم وعقولهم) (١)

وهذا القول يشير إلى مشكلة إجتماعية سائدة في الوَسَط المسيحيّ وهو محاولة رجال الدّين المسيحيّ إفساد عقول النّاس بطريق غير مباشر ، متشبّثين بما يدّعونه من قِيَمٍ دينيّة غيرصائبة ، ويشير كذلك إلى تمسّك بعض المسيحيين بها دون تمحيصٍ في صحّتها أو عدمه .

وثمّة حديث آخر أيضاً على لسان الشّابّ بطل هذه القصّة ، هذا الحديث نرجّح أنه من وَضْع المنفلوطيّ أو بعض تصرّفه في التّرجمة وهو قول البطل : ـ
(إنّا لا نعبدُ إلّا اللّه وحده ، ولا نُشرِك به غيره ، وفي استطاعتنا أنْ نعرف الطّريق إليه وحدنا بدون دليل يدلّنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

كتاب الكون يُغنينا عن كتابِكم ، وآيات اللّه تُغنينا عن آياتِكم ، وأناشيدُ الطّبيعة ونغماتها تُغْنينا عن أناشيدكم ونغماتكم ،هذا الجَمال المترقرِق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحرّكه وساكِنه ، إنّما هو مرْآة نظيفة صافية تنظُر فيها فنرى وجهَ اللّه الكريم مُشرِقاً متلألئاً فنخرّ بين يَديْه ساجدِين ، ثم نُفضي إليه لِنَستمتعَ بحُبِّه

---

١ ـ المنفلوطيّ . العبرات ص ٣٧

فنسمعه يقول لنا :-

أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فأحبوه

ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمراً سواه)

ففي هذا الحديث نرى المنظوطي متأثراً فيه بالقرآن الكريم في قوله تعالى :-

" إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب " (١)

وكأني هنا ألمس في حديثه ترديد قول الشاعر :-

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الذكرى : (٢)

وهي قصة قصيرة ترجمها المنفلوطي ضمن ماترجمه من قصص في العبرات ، وهو تحكي قصة ملك عربي يدعى أبا عبد الله من بني الأحمر ، وهو آخر ملوك غرناطة ، وهذه القصة ترسم لنا ساعة رحيله عن تلك الأرض بعد هزيمته أمام الملك (فرديناند) والملكة (إيزابلا) على شاطيء الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق - ترسم لنا تلك الساعة التي وقف فيها يطل على ملكه الضائع وحوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه فألقى نظرة على ماحوله لم يسترجعها إلا مُبللةً بالدمع ثم أنشأ ينشج نشيجاً محزناً حتى بكى معه كل من حوله وأصبح شاطيء البحر مناحةً تتردد فيها الزفرات والأحزان وماهي إلا دقائق حتى سمع هاتفاً يهتف باسمه بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، كأن ذلك الصوت صادر عن شيخ متكيء على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل

---

١ - القرآن الكريم . سورة آل عمران . آية رقم ١٩٠

٢ - المنفلوطي . العبرات ص ٥٥

المشرف عليه يقول :-

لا يظلم الله عبداً من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشئون شراً ولا ضيراً ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق فأبيت إلا الملك والسلطان فنازعت عمك الأمر واستعنت عليه بعدوك وعدوه فتناول رأسيكما معاً ومازال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قليب من الدم فغرقتما فيه معاً .

لي فوق هذه الصخرة يابني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك ملكاً يرحل من هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ، لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء) . (١)

وهكذا مضى الرجل في حديثه موئباً هذا الملك الظالم على سوء تصرفه وغبائه في حكمه مشاركاً في ذلك غيره من ملوك بني الأحمر الذين أخذوا الأبناء وفنوا الشباب في حروب لا شرف فيها ولا فضيلة حتى ماتوا جميعاً أذلاء أدنياء ، فلاهم تركوا ليقوموا على راحة ذويهم وآبائهم ولا نالوا الشهادة الكريمة (٢)

ثم وصلت السفينة المكلفة بترحيل هذا الملك فركبها وبخروجه عن الديار كانت نهاية ملك بني الأحمر في الأندلس بعد ماعمروها ثمانمائة عام .

١- المنفلوطي . العبرات ص ٥٦

٢ - المنفلوطي . العبرات ص ٥٨ بتصرف

لم يبق أحد من بني الأحمر على قيد الحياة في إفريقيا إلا شاب يُدعى (سعيد) يبلغ من العمر عشرين عاماً ، لم يكن هذا الشاب يعلم بطلك آبائه في غرناطة ولا عن ماضيهم شيئاً بل لم يكن يعلم عن أسرته إلا ماحفظه في ذاكرته من عهد الطفولة من أناشيد أندلسية بديعة كان يترنم بها نساء قومه حول مهده يرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة التي يبكي فيها شعراء الأندلس مجدهم الساقط وملكهم الضائع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد ماكان يسمعه بنغم شجي محزن يستثير عبرته ويهيج أحزانه فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على الهلاك (١)

وكانت أمنيته التي تراود نفسه أن يرى غرناطة ولو لحظة واحدة فيشفي بهذه النظرة غليل نفسه وظمأ روحه ، ثم ليفعل الله به مايشاء بعد ذلك .

وكان لا يمنعه عن تحقيق ذلك إلا عجوزاً كان يقوم على رعايتها حتى وافاها الأجل المحتوم فسافر بحراً إلى غرناطة في صورة طبيب عربي يتنقل في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل ، فوقف على هضبة من هضاب جبل الثلج يتأمل جمال الطبيعة ورونقها ثم رأى على البعد أبراج المدينة العفيقية الحمراء وقبابها العالية الشماء ومآذنها الذاهبة في السماء .

وقف على هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع وضم يديه إلى بعضها بعضاً ثم وضعها على صدره وكأنه واقف يصلي أمام المحراب ولبث على حاله تلك ساعة ثم جلجل بصوت ردده كل ماحوله فقال : ـ

المنفلوطي . العبرات ٥٩ بتصرف

(هذا ميراث آبائي وأجدادي لم يبقَ لي منه إلّا وقفة بين يديه كوقفة الثّاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البَوالي والآثار الدّوارس .

هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم وهُمْ لا مضاجع لهم إلّا رمال الصّحراء وكثبان الفَلوات) (١)

وهكذا مضىٰ الأمير الشّاب يَندُب مجد آبائه الذّاهب ويبكي ملكهم الضّائع حتّى توسّد ذراعه واستغرق في نوم عميق لم يفِقْ منه إلّا بعد أن دالت دولة اللّيل .

وعندما أفاق من سُباته سارَ إلىٰ شاطِئ النّهر فصلّىٰ صلاة الفجر وظلّ علىٰ حالته تلك من الحَيْرة والضّياع حتّى استيقظ النّاس من هجْعتهم ، فانفتح بين يديه باب قصر عظيم تُشرِق منه فتاة أسبانيّة حسناء فأسبلت - عند رؤيته - خِماراً علىٰ وجهها الوضّاء ، وكانت ترسل على صدرها صليباً ذهبيّاً صغيراً ، ويمشي خلفها غلام صغير حاملاً الكتاب المقدّس .

وهُنا سألته الفتاة بلسان عربيّ تخالطه عُجْمة قليلة - سألته عمّا إذا كان من هذه الدّيار أم غريب عنها . ؟

فأخبرها الشّاب بحاله ثمّ دلّته بعد ذلك على الخان الذى يمكن أَنْ يأوي إليه أخذت هذه الفتاة مكاناً راسخاً من قلب الشّابّ ونفسه وأصبح ينظرُ إلى غِرناطة نظرة تغمرها السّعادة ويُكلّلها الأُنس والفرح ولم يَعُدْ يشغله سوىٰ وجه تلك الغادة الحسناء التى مازال طيفها يراوده فى كلّ شيءٍ ، أمامه وحوله فى تلك المدينة .

حتّى إذا أعياه البحث عنها ونال اليأس من نفسه مَناله ، عاد إلى مقبرة آبائه

---

١ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٦٠

يذرف دموعاً غزاراً لا يعلم أهي دموع الحسرة على الماضي الأليم أم على حاضره اليائس الحزين ؟

أما محبوبته الحسناء ، فهي الأخرى فتاة أسبانيّة نكبها الدّهر منذ عامين نكبة ذهبت بوالدها الذي دسّت له الحكومة فقتلته لأنّه كان رئيساً لجمعيّة (العصابة المقدّسة) تلك العصابة التى كثيراً ما وقفت فى وجهها أعواماً تطالبها بالحريّة الدينيّة والشّخصيّة ، كما فقدت والدتها على أثر تلك الحادثة فأصبحت وهى لم تبلغ الثّامنة من عمرها تعيش وحيدة فى قصرها عيش الزّاهدات المتبتّلات ، وكان لا يراها الرّائي إلّا ذاهبةً إلى الكنيسة أو عائدةً منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدّولة الدّارسة ورسومها ، تقلّب فيها نظرة العبرة والعظة أو هائمة فى مروج غرناطة الفنّاء . (١)

وبينما هى سائرة يوماً بجوار مقبرة بني الأحمر إذ لمحت على البُعد فتى غريباً منكبّاً على أحد القبور يقبّل صفائحه ويبلّل تربته بدموعه الغزار ، فاقتربت منه فإذا به الفتى الغريب الذي رأته قبل أيّام وعرفها هو أيضاً ثمّ سألته أيمتّ إلى أصحاب هذه القبور بصلة ؟

فلم يصارحها بحقيقة أمره وإنّما أعلمها أنّه كان مولىً لهم وهو مازال محتفظاً بعهد الولاء فى نفسه ويتمنّى لو يزور قصورهم لأنّه منع من ذلك ، فوعدته الفتاة بتنفيذ هذه الأمنيّة فى اليوم التّالى .

ومرّت الأيام تلو الأخرى وهما يتجوّلان فى قصور آبائه وأجداده ، وهى لا تعلم أنّه منهم إلّا فى لحظة انفعاله عندما رأى اسم أبيه منقوشاً على جدار إحدى غرف

---

١ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٦٣ ، ٦٤ بتصرّف

القصر ، فعلم أنها عرفته وعلمت هي كذلك بعد أن فقد أعصابه لما رأى .

مرت عليهما الأيام وكبر الحب في قلبيهما واكتفيا بهذا الحب الذي ربط بينهما رباطاً قوياً وإن حال الدين بين زواجهما .

وبينما هما يجلسان جلساتهما الهانئة ذات يوم على ضفة أحد الجداول بينما هما كذلك إذ مر بهما ابن حاكم مدينة غرناطة ، ورأى مجلسهما الهانيء دون أن يعلما بذلك ، وكان هذا الأمير قد رأى الفتاة الحسناء قبل ذلك اليوم وأحبها واختلف إلى منزلها وحاول التودد إليها ودعاها إلى الزواج منه ولكنها رفضته لأنها لا تقبل أن تتزوج ابن قاتل أبيها ، فانصرف عنها بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى هذا اليوم الذى رآها مع غيره ، فظن أنها لم ترفضه إلا لأن هذا الشاب كان قد احتل قلبها قبله وأخذها عنه ، فأضمر في نفسه له ما أضمره .

طلب هذا الشاب أن يقابلها في اليوم التالي ولكنها رفضت ذلك اللقاء ، فخرج من قصرها والغضب يملأ نفسه فيحدثها بأفظع جرائم الإنتقام .

وماهي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير (سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله) سليل بني الأحمر ذليلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش بحجة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها وكانت هذه عندهم أفظع الجرائم وأبشعها .

وعندما وقف للمحاكمة سأله رئيس المحكمة عن تهمته فأنكرها ولكن الرئيس طلبه الدليل على براءته ، ذلك الدليل الذى يطلب منه أن يترك دينه الى دين المسيح ، فرفض الشاب وانطلق يهاجم أمثال هؤلاء الناس الذين يرغمون غيرهم على التدين بدينهم فقال :-

(في أي كتاب من كتبكم ، وفى أى عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم ، أن سفك

الدّم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ولا يدينون بدينكم.؟) (١)

وهكذا مضى الشّابّ الأمير يستنكر في حديثه الطّريقة والأسلوب الذى يُدعى فيه إلى الدّين المسيحيّ وحاول الاستمرار في حديثه ، لكن الرّئيس قاطعه وأمر بسوقه إلى ساحة الموت ، وماهي إلّا لحظات ثمّ هوى السّيف على رقبته فسقط رأسه .

بنت له (فلورندا) قبراً جميلاً بجوار مقبرة بني الأحمر ثم كتبت عليه :-

(هذا قبر آخر بني الأحمر من صديقته الوفيّة بعهده حتّى الموت (فلورندا فيليب) (٢)

المواقف الإنسانية فيها : تتجلى هذه المواقف في بعض الأحاديث التي وردت على لسان بعض شخصيات القصّة كقول الشّيخ الذي تصدّر للملك الظّالم عند رحيله عن البلاد والذي يقول فيه :-

(لا يظلم اللهُ عبداً من عباده ، ولا يُريد بأحدٍ من النّاس في شأن من الشّئون شرّاً ولا ضيراً ولكنّ النّاس يأبون إلّا أنْ يقفوا على حافّة الهوّة الضّعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصّخرة البارزة المُشرفة فتسقط على رؤوسهم) (٣)

فهذا موقف إنسانيّ نرى أنّه من تصرف المنفلوطيّ في التّرجمة ، لأنّه مأخوذ من معنى الآيات الكريمات القائلة :-

(ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (٤)

---

١ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٦٩
٢ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٧٠
٣ - المنفلوطيّ . العبرات ص ٥٦
٤ - سورة آل عمران . آيه رقم ١٨٢ -
٥ - سورة الأنفال . آيه رقم ٥١

وقوله تعالى :-

(فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١)

وقوله تعالى :-

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٢)

وفي القصة أيضاً موقف إنساني آخر نرى أيضاً أنه من تصرف المنفلوطي في الترجمة وهو موقف الغيرة الدينية على ممتلكات الإسلام وعلى المسلمين أنفسهم هذا الموقف هو قول الشيخ :-

(ستقفون غداً بين يدى الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألكم عن الإسلام الذى أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام ، وعن المسلمين الذين أسلمتموهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين عن مدن الإسلام وأمصاره التى اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها فى أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذمارها ، فلم تحركوا فى شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء ، وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غداً ؟) (٣)

نقول إننا نرجح أن يكون الحديث السابق من وضع المنفلوطي وتصرفه فى الترجمة ، لأنه مفعم بالحماس الدينى الواضح والغيرة على مواطن المسلمين وديارهم ، ولا نظن أن حديثاً كهذا يصدر إلا عن رجل قد ملأ الإيمان قلبه ووجهت قيم الدين سلوكه ، فنطق بما انطوت عليه نفسه من معانٍ إنسانية سامية هى قمة الشعور

---

١ - القرآن الكريم - سورة التوبة آية رقم ٧٠
٢ - القرآن الكريم سورة النساء آية رقم ٧٩
٣ - المنفلوطي . العبرات . ص-٥٧

الدّينى الصّادق .

ومن المواقف الإنسانيّة في القصّة والتى ترى أنّها آثارت أريحيّة المنفلوطيّ وحازت رضاه قول الشّيخ :-

(يسألكم اللّه يابني الأحمر عنّي وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يديّ انتزاعاً أحوج ماكنت إليهم وسقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا فخار حتّى ماتوا جميعاً موت الأذلّاء الأدنياء ، فلا أنتم تركتموهم بجانبي ولا آنس بهم فى وحشتي وألجأ إلى معونتهم فى شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزّى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداءً عن دينهم ووطنهم) (١)

وهذا الموقف لا شكّ أنّه يُعجب المنفلوطيّ لأنّه يلفت الإنتباه إلى أخطاء المسلمين الشّنيعة فيما بينهم كمحاربة بعضهم بعضاً فى مجال بعيد عن الشّرف والكرامة والمنفلوطيّ عندما يترجم أمثال هذه القصص ، إنّما يريد أن يلفت الأنظار إلى مثل هذه الأخطاء بطريق غير مباشر ولعلّ هذا هو السّرّ فى نجاح مهمّته وحلول نصائحه مكانها من النّفس .

وثمّة موقف آخر يؤثّر فى المنفلوطيّ وينقله إلينا بصدق لما فيه من إنسانيّة صادقة ، وهو ذلك الموقف الذي وقفه الشّابّ أمام ميراث آبائه وأجداده الذى يدلّ على برّه بآبائه وذكرى أجداده .ـ وهذا مايحبّذه المنفلوطيّ ويدعو إليه يقول الشّابّ :ـ

(هذا ميراث آبائي وأجدادي لم يبق لي منه إلّا وقفة بين يديه كوقفة الثّاكل المفجوع بين أيدى الأطلال البوالي والآثار الدّوارس .

---

١ ـ المنفلوطيّ . العبرات ص ٥٨

هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ، وهُم لا مضاجع لهم إلّا رمال الصّحـــراء ، وكثبان الفلوات . .

في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظّلال كانوا يَقِيلُون ، وعلــى ضِفــاف هذه الأنهار كانوا يَغْـدون ويروحــون . .) (١)

ثُمّ يستمرّ الشّابّ في حسْرتِهِ على الماضى إلى أن دالت دولة النّهار وانحدرت الشّمس إلى مغربها فقال :ـ

(هكذا تدول الدّولات وتسقط التّيجان ، وهكذا تحلّ الظّلمات محلّ الأنــوار ، وهكذا تَنْتَشِــر سُحبُ الموت على وجه الأرض) (٢)

نعم إن الحنين إلى الوطن الأوّل مهْد الآبــاء والأجداد والشّعور بالغَيْـــرة على ضياع ملكهــم ، والتأمّل في آيات اللّه المتمثّـلة في كونه البديع ومخلوقاته العظيمة ، كل هذه مواقف إنسانيّة خالدة لا يخلو منها آدمــيّ تنبض في شرايينه دمـــاء الإنســـانيّة الحقّــة ،

ومثل هذه المواقف تأثّر منها المنفلوطيّ فترجم القصّة التي تحتوي عليها .

كذلك من المواقف الإنسانيّة في القصّــة موقف الشّابّ من أولئك الذين أرغموه على إثبــات برائته عن طريق تخلّيه عن دينه حيث رفض ذلك بإصرار حتّى ولوكان رفضــه ثمناً لحياته ،

نعم لقد رفض الشّابّ ذلك ثمّ قال لهــم :ـ

(أنتم أقوياء ونحن ضُعفاء فأنتم أصحاب الحقّ الأبْلَــجِ والحجّةِ القائمة فأصنعوا ماشــئتم فهذا حقّكم الذي خولته إياه قوتكم .

---

١ ـ المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٦١

٢ ـ المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٦١

إسفكوا من دمائنا ماشئتم واسلبوا من حقوقنا ما أردتم واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتّى لا ندَين إلّا بما تَدينون ولا نذهب إلّا حيث تذهبون ، فقد عجزنا عن أنْ نكون أقوياء ، فلا بدّ أنْ ينالنا ماينال الضُّعفاء .) (١)

فحديث الشّابّ هذا يذكّرنا بموقف المنفلوطيّ من الأقوياء . وذوى الجاه والسُّلطان - فى النّظرات - ويذكّرنا أيضاً بحملته عليهم لسوء تصرّفهم واستبدادهم فى معاملتهم لِمَن حولهم . (٢)

ومن المواقف التى أعجبت المنفلوطيّ - فى نظرنا - موقف الشّابّة من الأمير بعد أن قُتِل ظُلْماً ، ذلك الموقف الذى ينمّ عن إخلاصها ووفائها وبرّها لحبّه حتّى بعد وفاته إذ بنت له قبراً جميلاً وكتبت عليه هذه العبارة :-

(هذا قبر آخر بني الأحمر

من صديقته الوفيّة بعهده حتّى الموت ظوريدا فيليب) (٣)

فهذا وفاء نادر يدلّ على إنسانيّة فاضلة .

تلك هى المواقف الانسانيّة فى القصّة وهى تدلّ على مدى تأثر المنفلوطيّ بها ورغبته فى نشرها بين النّاس جميعاً .

---

١ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٧٠

٢ - فضلاً راجع الحديث الخاص بحملته على الأغنياء ، وطبقة الحكّام من الباب الثالث فى هذا البحث ص

٣ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٧٠

الجـــزاء :- (١)

قصّـــة قصيـرة ترجمها المنفلوطيّ عن كتابة (العَبَرات) وهـــو تحكى قصّـــة فتاة قروية تدّعى (سوزان) قد نشأت وابن عمّها (جلبرت) فى بيـــت واحد كما تنشأ الزّهرتان المتعانقتان فى مَغْرِس واحد ، لعبت معه طفلة وأحبّته شـــابة ومرّت بهما فى جميع أدوار حياتهما التى كانا فيها سويّاً سعادة لم يستمدّاها مـــن القصـــور والدّور والأرائك والأسِرّة والجياد والمركبات ، وإنما اكتسباها من سحـــر الطّبيعة وجمالها الأخّاذ حولهما ، فمن شمس ساطعة وأرض يانعة إلى نجوم زاهـــرة وكواكب منشورة ، ذلك الجمال الذى لا يضاهيه جمال ، فهما مايزلان ينتقلان بيـــن هنا وهناك ماشاء الله لهما أنْ ينتقلا لا يكدّر عليهما صفوهما مكدّر ، حتّى كان يـــوم البُحَيْرة الذى التفت فيه (سوزان) بالمركيز(جوستاف روستان) فأُعْجِب بها ومـــازالا يلتقيا فى كلّ يوم حتّى راودها عن نفسها بكلمات عِذاب قلّما كانت تسمعها من خطيبهـــا القرويّ السّاذج ، فغزا حبّه قلبها ، وتناست حبّها الأوّل حتّى نسيته وتابعت حبيبها الجديد إلى قصـره الفخم تاركة ابن عمّها فى حَيْرة ولوعة وألم ، هائماً على وجهه بيـــن الأحراش والغابات يأنس إلى صوت الوحوش ومعاشرتهم أكثر من أُنْسِه إلى البشـــــر ومخالطتهم ، وكثيراً ما كانت والدته المسكينة تبحث عنه حاملة فى يديها الطعـــــام فتضعه أمامه وهو فى غيبوبة لا يعلم أثناءها مايدور حوله - ثمّ تتركه المسكينة على حالـــه تلك وتنصرف .

نَعِمت (سوزان) بقصرها الفخم وحياتها الجديدة ، وأُنْجِبت طفلة دعتهـــا (ماري) وفى نفس الوقت كان المركيز الذى تزوّجها - قد سافر وتركها فى القصـــر

---

١ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ٨٤

وحيدة تنتظر عودته فى كلّ ليلة مُناجية طيفه كلّ مساء ، سائلة النُّجوم عنه وتخاطب القمر باسمه حتّى يغلبها النّوم وهى على تلك الحالة من الحَيْرة والحرمان .

وفى إحدى الليالى رأته فى حُلمٍ سعيدٍ ، وهو مقْبل عليها باشّاً فرحاً يضمّها وابنته بكلتا يديه . وعندما أشرقت شمس الصّباح أيقظتها الخادم من نومها وهى تحمل إليها بُشْرى وصول سيّدها المركيز فاستطارت (سوزان) فرحاً وظنت أنّ حُلمها قد تحقّق ولكن تأبى الكارثة إلّا أنْ تحلّ بالسّعداء ، لقد نزلت (سوزان) تستقبله بنفسها ، فرأت رجلاً غير الرّجل ووجهاً غير الوجه الذى أحبّته وعهدْته ، لأنّها رأت منه سوء المعاملة ، فأنكر عليها بقاءها إلى ذلك الوقت فى قصره وتنكّر لابنته وأخبرها بمقْدِم زوجته الأخرى إلى القصر ، فلا يجب أنْ يكدّر عليها بوجود الأولى أمامها ثُمّ أشار إلى كيس من المال كان قد أعدّه لها لتستعين به على حاجتها ، فعلمت أنّه ثمن عِرضها فتركته وحملت ابنتها وملابسها القَرَويّة التى كثيراً ما أخفتها وخجلت من لبسها فى قصره ، ثم خرجت هائمة على وجهها لا تدرى أين مصيرها وما الذى ينتظرها بعد ذلك وفى ساعة خروجها رأت العربة التى تقلّ الزّوجة المنتظرة ، فتوارت عن الأنظار ثمّ اندفعت إلى خارج القصر لا تعلم أين تذهب أو ماذا تفعل بنفسها وبابنتها المسكينة . ؟

سارت (سوزان) هائمة على وجهها حائرة بين الأحراش والغابات ، فنامت ابنتها فوضعتها على صخرة من الصُّخور وخلعت بعض ملابسها لتَقِىَ بها ابنتها شرّ البرد وبينما هى كذلك ، سمعت أنيناً على مقربة منها فاتّجهت إلى مصدر الصّوت ، فإذا بشابّ مسكين لم تُبْقِ منه الأيّام إلّا هيكلاً عظمياً يوشك أنْ يتحطّم هو الآخر ، وكان

هذا الشابّ يهتف في مرضه باسم (سوزان) فاستبانت ملامحه فاذا هو بن عمّها (جلبرت). أقبلت (سوزان) على ابن عمّها وأخذت تخاطبه ولكنّه ألقى عليها نظرة طويلة كانت نظرته الأخيرة ، حزنت المسكينة عليه حزناً شديداً وبكيت من أجله بكاء مرّاً تذكّرت خلاله أنّها تركت ابنتها نائمة بين الصّخور في مكان آخر فأسرعت إليها وأضمرت في نفسها أمراً لم تجد حلاً لمشكلتها سواه ، لأنّها خافت أنْ تظلّ عاراً لا يمحى أثره من حياة ابنتها .

لم تجد (سوزان) بدّاً من ترك ابنتها إلى الأبد آملة أنْ تجد هذه الإبنة مَنْ يتولى أمرها ويحنو عليها ، فودّعتها الوداع الأخير ثم ألقت بنفسها في النّهر ،

كانت المركيزة في تلك اللحظة تطلّ من شرفة قصرها فوجدت طفلة وحيدة على شاطئ النّهر تنشد أمّها العودة دون جدوى ، فأخبرت المركيز بأمرها فأسرع إليها وكان خائفا أن تكون هذه الطفلة ابنته والغريقة أمّها ، فإذا به يرى أن ماتوقّعه قد أصبح حقيقة ماثلة أمام عينيه وواقعاً أليماً بين يديه فحاول إنقاذ الأمّ ولكنّه لم يستطع ، فأمر باعادة الطّفلة إلى قصره ، أمّا هو فقد خُلع عقله ، إذ كان منظر (سوزان) وهي غريقة لا يفارق عينيه لحظة وصوت ابنته المجلجل لا يبرح أذنيه لمحة بصر ، وماهي إلاّ ثلاثة أيام حتّى لحقت الطّفلة بأمّها واستحال حبّ زوجته الجديدة له إلى كُره واحتقار ثمّ هجرته وسافرت إلى (نيس) .

ظلّ المركيز على حاله تلك حتّى وُجدت جثّته طافية على صفحة النّهر الذى غرقت فيه (سوزان) قبله ، فكانت نهايته نهاية الجزاء . وظلّت هذه الحكاية يتداولها عجائز تلك القرية لتكون عبْرة لكلّ فتاة عندما يطوف بها طائف من أشرار الرّجال .

التّعليق والمواقف الإنسانيّة فيها :-

من المُلاحَظ أنّ القصّة - على قصرها - تحمل العبرة والعظة لكلّ فتاة تراودها نفسها بالزلل ، إذ تعيد لها هذه العبرة صوابها وتهديها إلى الصّراط المستقيم وهذا من غير شك موقف إنسانيّ نبيل وقفه المنفلوطيّ بأسلوب غير مباشر ، لأنّه يريد بترجمته لهذه القصّة - من الفتاة العربيّة المسلمة أنْ تكون عفيفة نقيّة طاهرة بعيدة عن المآثم والشّبهات ، وهكذا يستطيع الأديب بطريقته هذه أنْ يغزو الأسماع إلى القلوب فتستقرّ نصائحه فيها .

والقصّة كلّها حكاية بؤس وشقاء وألم لا يبرح أبطالها ولا يفارقهم ، سواء كان ذلك الألم يكابده (جلبرت) الشّاب القرويّ الفقير الذى تركته ابنة عمّه وتناست حبّه ، أو كانت صاحبة الألم ذاته ابنة عمّه (سوزان) الذى تركها المركيز وتناسى حبّها وتنكر لابنته معها ، فكانت نهايته سيّئة كما رأينا .

نقول إن مثل هذه القصص المؤثّرة الحزينة تؤثّر فى نفس المنفلوطيّ بل ويتهافت عليها وقد صرّح بهذا هو بنفسه (١)

كذلك اشتملت القصّة على موقف إنسانيّ فاضل بذلته الأمّ من أجل وحيدتها وهو قتلها لنفسها حتّى لا تعيش عاراً على ابنتها وسبباً فى تعاستها فى مستقبل حياتها ولنسمع إلى قولها لحظة وداعها :-

(لا أحبّ أن تكون حياتى يابنيّتى شؤماً على حياتك ولا أنْ يأخذك النّاس

---

١ - قد نقلنا نصّ تصريحه هذا كاملاً من النّظرات فضلاً راجع ص ١٧ من هذا البحث

بـــذنبى كلّما رأوك بجانبى فأنا أتركك وحدك فى هذا المكان لعلّ راحماً من النّـــاس يمرّ بك ، فيعطف عليك ويضمّك إليه من حيث لا يعلم شيئاً من أمرك ، فتعيشـــــين فى بيتك سعيدة هانئـة لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمّـــك فتولمك ذكراهـــا (١)

تلك هى قصّـة الجزاء ، وهذه هى المواقف الإنسانيّة التى نرى أنّها أثّـــرت فى المنفلوطيّ فدفعته إلى ترجمتها .

---

١ ـ المنفلوطيّ . العبرات ص ٩٥

الضَّحيــة :- (١) وهي آخر قصّة ترجمها المنفلوطيّ ضمن كتابه " العَبَرات " وهي تحكي قصّة امرأة معوزة فقيرة ، فقدت نعمة السّعادة الزّوجية ، ففقدت على إثرها من يقوم على رعايتها وتلبية حاجتها ، ولم تجد بُدّاً من الاتّجار بسلعة جمالها الذى كانت نقمة عليها ، فقد أبى ذوو الجاه والسُّلطان إعانتها إلاّ إذا ساوموها على هذا الجمال ، فلا مانع عندهم إذا أنفقوا فى سبيل ذلك كلّ مالديهم ، وكان الجدير بهم أن يمدّوا لها يداً طاهرة شريفة لتحافظ بها على شرفها وكرامتها .

وهكذا حقدت هذه المرأة على جنس الرِّجال وأقسمت أنْ تُسَخّر جمالها لِذُلّ أمثال هذه الأعناق ولتحقير تلك الحياة التى تدّعي الشّرف وماهى كذلك .

وماهى إلاّ أيّام حتّى كان لها ما أرادت ، فجمعت أموالاً طائلة وأصبح لها رصيد عظيم وشأن كبير فى (باريس) ولكنّها مع كل ذلك كانت تحمل ألماً دفيناً بين أضلعها لعدم رضاها عن الحياة الآثمة التى تحياها .

يقول المنفلوطيّ عنها :-

(أمّا ماتعلمه عن أمر نفسها فهى ترى أنّ جميع مايبذله لها النّاس من فضّة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور أو جيادومركبات ، لا يساوى دمعة واحدة من تلك الدّموع التى سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها) (٢)

وكانت هذه المرأة إذا خلت إلى نفسها تذكّرت أنّ جميع هذه القلوب التى تلتفّ حولها الآن لن يكون واحدٌ منها أمامها إذا هى فقدت جمالها يوماً واحداً ، وعندها لن تجد أحداً منهم يُخفّف عنها شقاءها وبؤسها في وَحدتها فكثيراً ماكانت تتمنى

١- المنفلوطيّ . العبرات - ص ١١٧
٢- نفس المرجع - ص ١١٩

أنْ يكون لها شأناً في أسرة متواضعة كأسرة حارس قصرها مع زوجته - مثلاً - فتلك هي السّعادة الحقيقيّة التي كانت تتمنّاها . وقد ذكر بعض الذين ألمّوا بشؤونها الخاصّة ، أنّها كثيراً ماكانت تدفع مالاً لبعض الفقيرات ليستعنّ به على الزّواج ممّن يُرِدْن .

هذا هو قلب (مرغريت) وهذه هي سريرة نفسها فهي فتاة ساقطة ولكنّها غير راضية عن ذلك وفاسدة ولا تحبّ أنْ يفسد غيرها من الفتيات ، ولوكانت تستطيع المرأة الفاسدة - في نظرها - أن تسترجع نظرة النّاس إليها وأنْ تمحو ماسلف من فسادها في نظرهم لكانت هي أقرب النّاس إلى التّوبة والإنابة .

ولم يمضِ على (مرغريت) بضعة أيّام في حياتها تلك حتّى نزل بها مرض حجبها عن النّاس عدّة أيّام ثمّ اشتدّ عليها ، فأشار عليها الأطبّاء أن تذهب إلى حمّامات " البانييـر " للإستشفاء بمائها وهوائها فسافرت بصُحْبة خادمتها إليها ، وكان في ذلك المصطاف في نفس العام شيخ ثريّ اسمه (الدوق موهان) حضر إلى هذه الحمّامات وابنته الوحيدة مريضة بداء الصّدر ليستشفي لها من دائها فلم يجدِها العلاج وماتت بين يديه فدفنها هناك ، ولبث عدّة أيّام بعد موتها يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاءً شديداً .

وفي ذات يوم أثناء عودته من المقبرة لمح في طريقه (مرغريت) فدُهِش لمنظرها دهشة عظمى وخيّل إليه أنّ الله قد بعث له ابنته من قبرها أو أرسل إليها خيالها ليعزّيه عنها لشدّة الشّبه بين صورة هذه الفتاة وصورة ابنته الرّاحلة ، فتقدّم نحوها مشدوهاً ذاهلاً وأمسك بطرف ردائها وظلّ يحدّق في وجهها تحديقاً طويلاً ،

فعجبت لشأنه وسألته ما باله ؟ فطلب منها أنْ تأذنه لتقبيل يدها فأذنت له بذلك وهى لا تعلم شيئاً من أمره .

رافق الشّيخ " مرغريت " فى سيرها واعتذر لها عن طلبه فى تقبيل يدها ثمّ قصّ عليها مصابه فى ابنته التى تُشْبِهُها ، فرثَتْ الفتاة لحاله ، وذرفت من عينها عَبْرَة مشاركة له فى أحزانه ، فشكر لها هذا الشعور الإنسانىّ النبيل ، ولم يزل سائراً معها حتّى وصلا إلى المنزل فودّعها ولم ينسَ قبل وداعها أنْ يستأذنها فى الإختلاف إليها من حين لآخر فأذنته وصعدت إلى غرفتها وهى تفكّر فى شأن تلك الفتاة المسكينة التى اختطفها القدَرُ من بين يدَىْ والدها اختطافاً وهى مازالت فى زهرة شبابها ، ثم خطر فى بالها أنّها مصابة بنفس المرض وأنّها ستفارق الحياة عمّا قريب ولن تجد لحظة فراقها لها أباً رحيماً يحنو عليها ولا أمّاً ثكْلى تندبها ، فأثر فى نفسها هذا الشعور ولزمت غرفتها فى يومها ذلك .

ظلّ الدّوق يختلف إلى منزل (مرغريت) من حين إلى آخر ، يأتى إلى محادثتها ولقائها ، وكانت هى تشعر بأنسه معها ، فمنحته من عطفها وحبّها مالم تمنحه أحداً من قبله ، وأنست به أنساً لم تأنسه بإنسان سواه وماهى إلاّ أيّام قلائل حتّى أبلَت من مرضها وعاد إلى وجهها رونقه ونضارته وإلى ملامحها بهاؤها وحسنها فأزمعت العودة إلى باريس ، ولكنّ الدّوق عرض عليها أن تترك حياتها الماضية وتعيش بعيدة عن الآثام والخطايا فى منزل يعدّه لها ، وأن يقوم هو على توفير كلّ ماتحتاجه في حياتها على أن تسمح له بزيارتها دائماً .

نزلت (مرغريت) عند رغبة الشيخ ، ومنذ ذلك الحين تغيرت صورة حياتها الأولى وأصبحت تعيش في قصرها الذي أعدّه لها عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً ، ولا تختلط مع الذين تستقبلهم إلا اختلاط كلّه ، وربما مرّت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً .

هكذا استقرت (مرغريت) وظن الناس جميعاً أنها هجرت حياتها الآثمة ، وأنها قنعت بحياتها الجديدة فوقفت قناعتها هذه أمام أغراضهم الدنيئة منها ؛ فلم يعد أحد منهم يطمع بها أيّ مطمع ، وكثيراً ما كانت تخلو إلى نفسها فتذكر تلك الحياة التي كانت تحياها فتدفعها هذه الذكرى الموئمة إلى كره الرجال جميعاً لأنهم كانوا سبباً في سقوطها الذي استنكرته استنكاراً شديداً لأنه كان سبباً في مرضها ، ولا تأسف على شيء قد فاتها من مال الناس لأنها تعيش في نعمة من مال الدوق لا يطمع في أكثر منها طامع لأن هذا الاستقرار الذي تحياه طالما حلمت به وتمنته وهو الآن تتقلب بين أعطافه .

إنقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقراً ، فثار ما كان كامناً من داء (مرغريت) وعاد إليها سعالها العنيف ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تفارقها يوماً حتى تعاودها أياما ، فإذا ألمت بها لزمت سريرها أياماً لا تبرحه وإذا خفت عنها خرجت إلى الخلاء باكر كل يوم وأصيله طلباً للهواء الطلق ، وربما قضت بعض الليالي في ملعب التمثيل لتروح عن نفسها بما تشاهده من مقصورتها فيه حتى إذا مرت عليها ساعة أو ساعتين عادت إلى منزلها .

كانت (مرغريت) لا تزال ترى وهي في مقصورتها تلك ، شاباً في زي الأشراف يخالسها النظر حتى إذا ما التقت عيناها بعينيه احمر وجهه خجلاً وارفض جبينه عرقاً ، كأنما جنى جناية لا مفر له منها ، فكانت لا تحفل بأمره كثيراً ، إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده وطول اغضائه وأطرافه ولتلك العبرة الحزينة المنتشرة على وجهه .

وكان أكثر مايدهشها فيه أو يعجبها منه تأثره لمشاهد الحزن والشقاء التى كان يراها على مسرح التمثيل ، لعلمها أن الشاب المستهتر لا يهتم بمثل هذه المواقف المؤثرة إذا كانت حقيقة واقعة فكيف به لو كان مشهداً ممثلاً أمامه ؟

وبينما كانت (مرغريت) خالية بنفسها فى مقصورتها بالملعب ، وكان الجو فى تلك الليلة بارداً ، بينما هى كذلك إذ فاجأتها نوبة السعال التى كادت أن تسقطها أرضاً لضعفها ووهنها ، فشعرت على الفور بيد تمسك يدها فاعتمدت عليها ولم تستطع الالتفات لترى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها ثم شعرت بالراحة قليلاً ، والتفتت لتشكر صاحب اليد الرحيمة ، فلم ترَ أحداً أمامها ولمحت على البعد إنساناً منصرفاً عنها ولم تتمكن من رؤيته ولكنها تخيلت صورته تخيلاً فعجبت لأمره ومضت فى طريقها ، وما أن وصلت إلى قصرها حتى شعرت برعشة الحمى تتمشى فى أعضائها فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه .

برئت (مرغريت) من مرضها بعض البرء ، وكانت خادمتها تقدم لها فى كل يوم بطاقات الزائرين والزائرات لها فلم تقرأ واحدة منها ، ثم أخبرتها الخادم أن فتى كان يسأل عنها فى اليوم مرة أو مرتين ولم يخبرها باسمه ولا يترك بطاقته أبداً ،

وكان يتألّم كثيراً عندما يعلم أنّها مازالت مريضة .

طلبت السيّدة من خادمتها أنْ تصِفَه لها فلبّت طلبها وعندها عرفت (مرغريت) ذلك الشّابّ المخلص وعجبت لأمره كلّ العجب وتمنّت رؤياه لتشكره على حسن صنيعه معها ، فأمرت الخادم أن تخبرها فور وصوله للسّؤال عنها .

جاء الفتى و (مرغريت) فى شُرفتها فعرفته وطلبت من الخادم إدخاله ففعلت. وهنا اضطّرب الفتى لطلب السيّدة ولكنّه لم يجد بُدّاً من الاستجابة ، فتبع الخادم حتّى دخل على (مرغريت) التى مدّت يدها له لتصافحه وآذنته بالجلوس فجلس وأخذا يتبادلان النّظرات والأحاديث ، فسألته عن نفسه وعن قومه وكلّ شُؤونه .

علمت (مرغريت) أنّه غريب عن باريس وأنّه وفد إليها منذ عشرين يوماً فقط قادماً من بلدته (نيس) ليقضى فى رحلته هذه ثلاثة أشهر بعد أنْ أذن له والده بذلك للتّرويح عن النّفس ثم يعود فى نهايتها إلى وطنه ، وتدرّج بهما الحديث حتى كاشفها بحبّه لها ، فاعترفت له بأنّها امرأة مريضةٌ وليس فى استطاعتها أنْ تحتمل الحياة خالصة لا مؤونةّ فيها ، فأحْرى بها ألاّ تحتملها وهى مُثقلّة بالحبّ والغرام .

إصفرّ وجه الشّابّ وحزن حزناً شديداً ، وأعلمها أنّه أحبّها لأوّل مرّة رآها فيها وقد علم من أمرها ما علم ، لذا لا يتمنّى على اللّه أكثر من أنْ يراها بارئة ناعمة بالصّحة والعافية ثم لا يطمع بعد ذلك فى شىء مما يطمع فيه المُحبون المُغرمون ، ثم سألها بعد ذلك أنْ تأذَنَ له بالوقوف على بابها كلّما جاء ليسأل الخادم عنها ويمضى بعدها لسبيله دون أنْ ترى وجهه ، فأذنت له بذلك ، بل وأذنت له

بزيارتها كلّما أراد علىٰ أنْ يكون صديقاً حميماً ، لأنّها إلى الأصدقاء المخلصين أحوج منها إلى المحبّين المُغرَمين .

وهكذا انصرف عنها وهو سعيد بيومه ذلك .

خافت (مرغريت) أن تقع في حُبّ هذا الشّابّ المخلص لها ، ولا شكّ أنّ خوفها هذا يعني أنّها أحبّته فعلاً واستمرّ الشّابّ في زيارته لها يأنس برؤياها وتأنس لحديثه ، فأخبرته بماضيها وحاضرها لم تكذب عليه في شيء ، ولا أخفتْ عنه شيئاً واستمرّا على ذلك حتى انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عارض مرّ به فذهبت بنفسها الظّنون كل مذهب وأدركت أنّها في قلق لا عهدَ لها بمثله فأضمرت في نفسها أمراً لا يعلمه إلاّ اللّه .

جاء (أرمان) في اليوم التّالي ، فوجد في عينيها أثر السّهر والبكاء ، فسألها عن حالها ، فطلبت منه أنْ يجلسَ إلى جوارها لأنّها تريد محادثته ، فأذعن لرغبتها ثم أخبرته بما كان من أمرها مدّة غيابه عنها ، وطلبت منه أنْ لا يعود لزيارتها مرّة أخرى وأنْ يعود إلىٰ أهله لأنّها لا تريد أن تكون عاشقة والهة ، وستحمِل نفسها على الصّبر عنه حتّى يمنّ اللّه عليها براحة اليأس منه ، ثم نظرت إليه لترى إجابته في ملامح وجهه فرأته مصفرّ الوجه جامداً في مكانه ، لم يستطع أنْ يحرّك شفتيه إلاّ بعد عناءٍ طويل ، فسألها عن سبب خوفها من حبّه ؟

فأعلمته أنّها تخاف انتقام اللّه منها لأنّها طالما لعبت بقلوب محبّيها وتخاف الآن أنْ يستبدّ بها حبّه خاصّة وأنّه سيرحل عمّا قريب إلى باريس ويتركها وحيدة لأنّ أهله لن يسمحوا له بالزّواج أو العيْش مع امرأة كان لها ماضٍ آثم مثلها وليس

أمامه إلاّ النّزول عند رغبتهم ، وعندها ستقف موقف الحَيْرة واللّوعة ، إذ تطلب السّبيل إليه فلا تجده والسّلوّ عنه فلا تستطيعه ، وربّما حاولت بعد ذلك العودة إلىٰ كنف الشّيخ كما كانت فيطردها عقاباً لها علىٰ خيانتها لعهدها معه وكفرانها لنعمته عليها وإحسانه لها ، فلا تجد بعد ذلك إلاّ العودة إلى حياته الأولى التى فرّت منها هاربة .

وهكذا أقنعت (مرغريت) حبيبها (أرمان) بالابتعاد عنها بعد إلحاح شديد حتّى أذعن لرغبتها وخرج من قصرها يجرّ أقدامه جرّاً إلىٰ باب القاعة حتّى بلغه وحينما بلغه ، وقف عنده ونظر إليها نظرة المحتضر ساعة وداع أحبّائه وذويه ثم خرج ، فما أنْ غاب شخصه عنها حتّى نهضت من فراشها هائمة مختبلة تريد اللحاق به ولكنّها تماسكت ، ثم عادت تصرخ ليعيدوه إليها ، وبينما هو كذلك سمعت صرخة مُقبلة عليها من الحديقة فهُرعت إلى حيث الصّوت فوجدت حبيبها مغشيّاً عليه ، وعندها استسلمت لقضاء الله قائلة ليكن ما أراد الله وألقت بنفسها عليه فشعر بها ثم اصطحبته إلى داخل القصر .

وبهذه الحادثة كانت بداية حياتها الجديدة مع (أرمان) إذ اتّفقت معه أن يقضيا بقيّة حياتهما سويّاً لا يفرّق بينهما إلاّ ريْب المَنون .

تركت (مرغريت) حياتها مع ذلك الشّيخ الذى أحسن إليها واستأجرت مع (أرمان) بيتاً صغيراً فى ضاحية من ضواحي باريس يقع على هضبة عالية فى سفح جبل أخضر تجري من تحته بحيرة صافية بديعة كأنّما بناه صاحبه لهما .

ونقلت " مرغريت " إليه من منزلها السّابق فى باريس ماتحتاج إليه من أثاث ومتاع ، وعاشا فيه سويّاً فى رَغَدٍ من العيش وهناء منقطع المثيل .

ثم انتبه لهما الدّهر من غفوته ـ وويلٌ للسّعداء من انتباهته هذه ـ إذ نفد ما عند حبيبها من مال كثير ، فكتب إلى والده يستزيده منه زاعماً أنّه مازال مريضاً متألماً لا يستطيع السّفر إليه .

وهكذا استمرّ (أرمان) على حاله تلك من حينٍ إلى آخر ولكن . . لم يأتِ ردّ فأقلقه الأمر وظلّ يختلف إلى المدينة من حين إلى حين يسأل في فندق (تورين) الذى كان ينزل به قبل اتّصاله بهذه المرأة ـ ظل يسأل عن رسالة ينتظرها من والده ولكن دون جَدْوى فعاد حزيناً منقبضاً .

خفقت (مرغريت) من حبيبها ما به إذا أخرجت بعض المال وأخبرته أنها ستُنفق منه لأنها استطاعت أن تعرف أمره بنفسها ، ولكن للأسف كان مالها قليلاً لأنّ الدّوق قطع عنها ما قرّره لها كذلك كان عليها دَيناً فسدّدته ولم يبقَ لها إلاّ النّذر اليسير منه ومع ذلك لم تبخل عليه به ، ممّا جعل (أرمان) يكبر فيها هذه التّضحية الصّادقة ، ولكنّه أنِف منه أنفاً شديداً ورفض أن يعيش على مال امرأة وعزم على السّفر إلى والده علّه يستطيع أنْ يحضر منه ما أراد .

أزعج (مرغريت) ماعزم عليه حبيبها فجثت بين يديه تستعطفه ألاّ يرحل ، وبينما هو كذلك وصلته رسالة من والده تخبره أنّه وصل إلى ذلك الفندق بنفسه وأنّه يريد مقابلته .

ذهب الشّاب للقاء والده ، فكانت لهجة الوالد قاسية شديدة لأنّه علم بحياته مع هذه المرأة فطلب منه تركها والعودة معه إلى (نيس) وإلاّ سيقطع عنه كلّ مَدَد بعد ذلك ، فأعلم الشاب والده أنّه لا يعيش معها إلاّ لأنّه يشفق عليها من مرضها

ووحدتها فى ذلك المرض حيث لا تجد مُعيناً ولا أنيساً كما أخبره بحبّ هذه المرأة وإخلاصها له ، وهى تعيش معه عيشة شريفة مخلصة ، ويخاف إن تركها أن تعود إلى حياتها الأولى قبل جلوسها فى قصر الدّوق .

ولكنّ هذه الأعذار لم تُجْدِ مع الوالد الذى يخاف على سمعة العائلة وشرفها شيئاً ، لذا ترك لابنه فرصة يسْترجِع فيها عقله فى منأى عن عاطفته بعد أن أوضح له كل ماغاب عنه بسبب تلك العاطفة .

انصرف الأب لقضاء بعض أموره الخاصّة ثم عاد لابنه يسأله عن قراره الأخير . حبثا الإبن بين يَدَيْ والده يستعطفه ويسْتَرحمه وكاشفه بحقيقة حبّه لها وأنّه لا يستطيع فراقها فقال :ـ

(...... وقد نزلت هذه الفتاة من نفسى منزلة هى منزلة الحياة من الجسم والغيْث من التّربة القاحلة ، فإن كنت لابُدّ أخذى فخذ معك جسما هامداً لا حراك به أو بته زاوية لا حياة فيها ....) (١)

وهنا تركه والده إلى اليوم التّالى علّه يعود إليه بحال أحسن من التى هو عليها الآن ، وعاد (أرمان) إلى (مرغريت) فلم يجدها فى استقباله بالشُّرفة كعادتها فدخل عليها فى غرفتها فإذا هى مُنكبّة على منضدة بين يديها كأنما هى نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ثم نهضت مذعورة خائفة ، فخُيّل إليه أنّه لمح فى يدها رسالة تخفيها بين أصابعها فظنّ أنّها من تلك الرّسائل التى كان

---

١ ـ المنفلوطىّ . العبرات ص ١٣٨

يرسلها إليها المركيز "جان فيليب" من حين لآخر ، لستعطفها العودة إلى سيرتها الأولى ، ويعرض عليها ماشاءت من مالٍ وجاهٍ لشدة حبه لها .

ولكنها كانت تمزق هذه الرسالة فور قراءتها أو اطلاعها على عنوانها ، وكان "ارمان" لا يحتمل مايراه ، فسألته "مرغريت" عن والده وماتم بينهما فقص عليها كل ماحدث وهى مطرقة برأسها صامتة تسمع مايقول وجهها أصفر كأنما نفض عليه الموت غباره .

سأل (أرمان) حبيبته عن حالها فأخبرته أنها متعبة تريد الراحة ولزمت سريرها فى ليلة ليلاء مشردة الفكر والفؤاد بين أحلام مزعجة وأوهام سوداء حتى كان الصباح ، فطلبت من (أرمان) العودة إلى والده ليسترحمه ويستعطفه مرة أخرى عله يجد ذلك الاسترحام إلى قلبه سبيلاً .

ذهب الشاب إلى والده فلم يجده ولكنه وجد رسالة منه يطلب منه فيها انتظاره حتى عودته ، فانتظره إلى آخر النهار ، إذ عاد باسم الوجه على غير ماتركه عليه فى اليوم السابق ، وأخبره أنه فكر فى أمره مع هذه المرأة فقرر أن يتنازل عن إصراره على عودته إليهم شريطة أن يعود فور انقطاع صلتها به ثم أخذ عليه وعداً بذلك .

وهنا استطار (أرمان) فرحاً واستأذن والده فى العودة إليها ليبشرها بموافقته فطلب منه الوالد الانتظار معه حتى الليل لأنه سيرحل ويتركه معها ، فنزل الابن عند رغبته وبقى معه حتى آخر اليوم ثم ودعه .

انطلق الشاب إلى حبيبته حاملاً بين جنبيه آماله وآمال (مرغريت) وسعادتهما التى يرجوانها فى مستقبل حياتهما وطاربها إليها بتقاسماها فما دنا من منزلهما حتى أدهشته رؤية البيت مظلماً ساكناً ليعربه أحد ، فظن أنها ذهبت إلى بيتها فى

باريس لبعض شأنها واصطحبت معها خادمتها ولا بدّ لها أنْ تعود .

وهكذا مضى من الليل ساعات لم يَذُقْ فيها " أرمان " طعم النّوم حتّى فكّر في الذّهاب إلى " باريس " ولكنّه أحجم عن ذلك مخافة ألاّ يتقابلا ، فمكث ينتظرها حتّى اليوم التّالي وحدّثته نفسه في ليلة انتظاره تلك بكل حديث إلاّ حديث خيانتها وغدْرها .

رحل أخيرا " أرمان " إلى باريس حتّى بلغ منزلها وهو خائر القوى والأعصاب فرأى حارس المنزل ، ثم سأله عن " مرغريت " فأجابه أنّها أتت إلى المنزل وبقيت به ساعة ثم ركبت العربة وطلبت من الحوذى أن يسير بها إلى منزل المركيز (جان فيليب)

جمد الشّابُ فى مكان وامتقع لونه ومرّ بخاطره رُؤيته لتلك الرّسالة التى أُخفتها عنه يوم عودته بعد مقابلة والده . وهنا أتى له الحارس بخطاب تركته (مرغريت) عنده لحبيبها فإذا هو يقرأ قولها :-

(هذا آخر مابينى وبينك يا أرمان ، فلا تحدّث نفسك بمعاودة الإتصال بى ولا تسألني عن السّبب فى ذلك فلا سبب عندى إلاّ أنّى هكذا أردت لنفسي والسّلام (١)

قرأ أرمان (الرّسالة وجمد بعدها جموداً لا يعلم ماذا يقول ؟ حتى سقط مغشياً عليه فى حديقة المنزل .

وعندما أفاق من غفلته توجّه من توّه إلى منزل والده ودخل عليه مَذْهولاً مُخْتبلاً فسأله الوالد عن حاله فأعلمه بما حدث من خيانتها فقال له والده :-

(ذلك ما أنذرتك به يابنىّ من قبل) (٢)

---

١ - المنفلوطى . العَبَرات ص ١٤٢

٢ - المنفلوطى . العَبَرات ص ١٤٣

طُويت صفحة النّهار وجاء الليل سابلاً أستار وساوسه وأوهامه على الشابّ الحزين فاستعاد خلاله شريط ذكرياته مع (مرغريت) وأخذ يستعرض فى نفسه جميع أطوارها وشئونها فلم تبق حركة من حركاتها ولا كلمة من كلماتها كان بالأمس يراها حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلاّ واليوم سيّئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى ذكر اليوم الذى لم تستقبله فى الشّرفة كعادتها وإخفائها للرّسالة التى كانت بين يدها وضنّها عليه ضنّاً شديداً ، فزاد حقده عليها وازدرائه لها ، وعزم فى نفسه أمراً ولكن . . غلبه النّوم إلى صبيحة اليوم التّالى ، فدخل الى والده وطلب منه أن يعطيه مبلغاً كبيراً من المال . وحاول والده أن يعرف السرّ فى ذلك ولكنّ الشّابّ احتفظ به لنفسه ، فأدرك والده مايدور فى خلده وأعطاه ما أراد .

أرسل " أرمان " المالَ إلى " مرغريت " فى رسالة مسجّلة وأرفقها بخطاب جارح خرج الشّابّ ليعدّ نفسه للسّفر وقضى يومه خارج الفندق ثم عاد فوجد رسالة تحمل اسمه هناك ففضّها فإذا بالأوراق التى بعثها إلى (مرغريت) بداخلها لم تمسّ منها شيئاً وليس معها أىّ كلمة أخرى ثُمّ حاول أَنْ يعيدَها إليها فمنعه والده من ذلك ثُمّ رحلا إلى بلدتهما سويّاً .

وهكذا قضى اللّه أنْ يفترق الحبيبان ، فعاد الشّابُّ إلى أحضان أبيه وعادت (مرغريت) إلى حياتها الأولى التى أبَتْها كلّ الإباء ، وحَمل كلٌّ منهما حسرة فى نفسه لا تخفّفها الأيّام ولا تنهيها الأعوام .

أمّا من شأن (مرغريت) بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع النّاس بصورة غير التى تعيشها مع نفسها ، إذ كانت تُرى لاهية ضاحكة مستهترة وقلبها يعتصر ألماً وحزناً ، وأصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ولا تجد فى نفسها لذّة الأُنس بهم وهى مع ذلك لا تجد بُدّاً من محادثتهم والتّحدّث إليهم بما يعشقون .

ولم تَزَلْ تكابد من الشّقاء فى تلك الحياة السّاقطة مالا طاقة لها بمثله ، حتّى عاودتها نوبتها القديمة ، فهزل جسمها وشَحُب لونها وغاض ماء ابتسامتها وانطفأ شعاع نظراتها وشُغِلَت بنفسها عن المركيز ، فمالبث أنْ ملّها وفارقها واستبدلها بغيرها ، ثم اختلف عليها غيره ، ومالبثوا أنْ علموا عنها ماعلمه المركيز فهجروها .. وهكذا كَسَدت سلعتها فى سوق الجمال .

نضب مال (مرغريت) فمدّت يدها إلى جواهرها فباعتها لتسدّ حاجتها ودَيْنها ثم طلبت المعونة من أصدقائها فلم تجد لديهم إلاّ القليل . وحجز الدّائنون على جميع مقتنياتها ودخاصُرها وأثاث بيتها وأساءوا معاملتها إساءةً زادت من حُزنها وألمها ، وفقدت بصيص الأمل الذى كانَ يطلّ علىَ نفسها أحياناً فيسْعِدها ، ونَسيت العالم خيره وشرّه ولم تتمنّ إلاّ أمنية واحدة ترجو تحقيقها قبل فوات الأوان وهو أن ترى حبيبها (أرمان) قبل وفاتها ، فنهضت من مكانها وهى تتحامل على نفسها وأخذت تكتب اليه رسالة لم تسبقها برسالة قبلها .

طلبت (مرغريت) من (أرمان) أن يأتيها لتُفْضِي إليه بسرّ الذّنب الذي اقترفته فى حقّه رغماً عنها وأخذت تسْترحمه وتسْتَعْطِفه بكل ماأُوتيَت من ألفاظ الاسترحام والاستعطاف

فقالت لـه :ــ

(واذكر يا أرمان أنّ أول عاطفة جمعَت بيني وبينك وألّفت بينَ قلبي وقلبك هي كانت عاطفة الرّحمة والشّفقة ، فها هي الفتاة المريضة المسكينة التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أنْ تحبّها تدعوك اليوم أنْ ترحمها وتعطف عليها وإنْ تكُنْ قد سلوْتها) (١)

بقيت (مرغريت) تنتظر حضور (أرمان) أياماً طوالاً فلم يأتِ وظنّت أنّه سلاها فحزنت حزناً شديداً لأنّها أدركت أنّه لم يعُدْ يهمه أمر سعادتها أو حتّى حياتها وموتها ، والحقيقة أنّها أخطأت في ذلك لأنّ أرمان لم يرُ رسالتها تلك لعدم وجوده في مكان وصولها، فقد سافر إلى الإسكندرية ترويحاً عن نفسه من كرْبتها ثم تركها وأخذ يتنقّل في أنحاء البلاد ، لم ينزل بلدةً حتى يدفعه ضجره بها إلى غيرها حتّى انقطعت أخباره عن والده الذي احتفظ بالرّسالة عنده ، وسيطر اليأس على المسكينة فلزمت الصّمت حتّى مع طبيبها لأنّها لم تَعُدْ تنتظر إلّا ساعة موتها ، وكانت إذا شعرت بشيء من الرّاحة والسّكون ركبت عربتها إلى البيت الذي كانت تسكنه مع حبيبها أيّام سعادتهما الرّاحلة ، وكان ذلك المنزل مازال على هيئته الماضية فلا تزال تتجوّل في غُرفه وقاعاته مُستَعيدةً ذكرى الماضي السّعيد في حاضرها التّعيس ، ولا تزال تمرّ بها هذه الذّكريات التي تُسعدها لحظات ثمّ لا تُلبث أنْ تنْتَبه من غفلتها فتبكي ماشاء الله لها من ساعات وساعات ، تعود بعدها إلى بيتها في باريس فتجلس إلى كرسيّها أمام منضدتها لتكتب مذكّراتها التي تناجي فيها حبيبها وكأنه ماثل أمامها يراها ويسمعها .

---

١ ـ المنفلوطي . العبرات . ص ١٤٧

مذكّرات مرغريت : أمّا مذكّراتها ، فقد حادثت فيها " أرمان " بكلّ شيء وأفضت إليه بسرّ خيانتها له - كما يظنّ - فأعلمته أنّ والده عندما أعياه أمر السّيطرة عليه كتب إليها رسالة يقول فيها :-

(سيّدتي :-

أريد أن أقابلك غداً في منزلك في السّاعة العاشرة صباحاً في شأن خاصّ بي وبك ، وأريد ألاّ يكون " أرمان " حاضراً تلك المقابلة ولا عالماً بها ، ولا بأني أرسلتُ هذه الرّسالة إليك ، ولي من حسن الرّأي فيك ما يُطمِعُني في أنْ يكون ما سألتك إيّاه سرّاً بيني وبينك حتّى نلتقي .. والسّلام

دوفال) (١)

وكانت هذه الرّسالة هي التي ضنّت عليه بها أن يراها وأخفتها بين أصابعها عندما دخل عليها ولم يجدْها في استقباله ولمحها في يدها فظنّ أنّها من المركيز " جان فيليب " كذلك أخبرته أنّ والده أتى لمقابلتها وطلب منها بل واسترحمها أنْ تبتعد عنه لأنّ ابنته الوحيدة على فراش الموت بسبب فراق خطيبها لها والذي كان من أسرة شريفة ويأبى أنْ يتزوّج من فتاة مازال أخوها على ارتباط بامرأة مومس مثل " مرغريت " .

كما طلب منها ألاّ تخبر (ارمان) بكلّ ذلك بل أن تكتب له رسالة تُخبِره فيها أنّها خانته وعادت لحياتها الأولى لأنّ هذا هو الأمر الوحيد الذي سيبعده عنها ويعيده إلى كنفه ، ويعيد إلى ابنته صحّتها وسعادتها بخطيبها فقال :-

---

١ - المنظوطيّ . العَبَرات ص ١٥١

(إرحمينى يامرغريت وأشفقى على ضَعْفِي وشيخوختى وتصدَّقى علىّ بمستقبل ولديّ وحياة ابنتي) (١)

وهكذا كانت مذكّرات " مرغريت " مُكاشفةً منها له بالحقيقة التى لم يطّلعْ عليها إلاّ بعد وفاتها حيث أطْلعت خادمتها عليها ، لأنّه لم يحضر إلاّ بعد أنْ لقيت " مرغريت " ربّها ولازم بعدها (ارمان) فراشه طريحاً عاكفاً على قراءة مذكّراتها باكياً عليها بُكاء الثاكل المفجوع ثمّ اشتدّ به المرض بعد ذلك ، ظم ترَ الخادم بُدّاً بعد ذلك من أن تكتب إلىٰ أبيه لتشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهراً يقومون برعايته وتطبيه حتى أبل ونجا من علته ، ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر " مرغريت " فبكوا عليها وكانت (سوسان) أخت (ارمان) أكثر بكاءً عليها وهى لا تعلم أنّها ضحيّة سعادتها الوحيدة ثم تقدّم الأب من ابنه طالباً منه الغُفران فغفر له .

ومضت الأيام ولقى الوالد ربّه وسعد الابن كما أراد له والده (ولكن بقيت بين جنبيه لوعة أسى وغُلالةُ حزن لا يخففها عنه إلاّ قراءة مذكّرات " مرغريت " ومُحادثة خادمتها عنها وزيارة قبرها من حين لآخر .

---

١ ـ المنفلوطيّ . العَبرات ص ١٩١

المواقف الإنسانيّة فيها : إنّ قصّة التضحية حافلة من - غير شكّ - بالمواقف الإنسانيّة النّبيلة ، وهل هناك إنسانيّة أفضل من أن يبذل الإنسان نفسه ضحيّة موقف نبيل ينقذ فيه غيره ؟!

لقد وقفتْ (مرغريت) - بطلة القصّة - تلك المرأة التي اقتضت الظّروف أنْ تفسد سلوكها مع ما في نفسها من طيبة غامرة تدفعها إلى أفضل الأعمال وأنبلها ، قلّ أو ندر أنْ تصدر من غيرها من السّيّدات وحتّى من عرفن منهن بالطّهر والعَفاف - لقد وقفتْ هذه المرأة مواقف إنسانيّة تستحقّ التّسجيل والإعتبار من هذه المواقف ،

إنّها كثيراً ما كانت تمنح بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعنّ بها على الزّواج بمَن يُرون صيانة لهنّ من الإنزلاق في مهاوي الرّذيلة . (١)

ثم مشاركتها للشّيخ في حُزنه لفقد ابنته الوحيدة بسبب مرضها وذرفها الدموع أمامه رثاءً لحاله السّيئة ، ثُمّ انفرادها بنفسها في غرفتها بعد أن تركت الرّجل وتفكيرها في أمر نفسها ، فربّما تموت في مرضها هذا ولا تجد أباً رحيماً يبكيها ولا أسرة تندب فراقها وتأثّرها لذلك تأثّراً شديداً مما دفعها إلى ذرف الدّموع الغزار . (٢)

نقول إنّ هذا شعور إنساني واضح منها لأنّ رغبة الإنسان في الانتماء الأسريّ إحساسٌ طبيعيّ وفطرة موجودة في كلّ إنسان سواء كان ذلك الإنسان ساقطاً أو نبيلاً بل ربّما كان سقوط المرء في مهاوي الرّذيلة سبباً من الأسباب الّتي تُضاعِف هذا الشّعور عنده .

---

١ - المنفلوطي . العبرات ص ١٢٠ بتصرف

٢ - المنفلوطي . العبرات ص ١٢٢

عنده .

ثمّ مِنْ مواقفها الإنسانيّة أيضاً موافقتها على لقاء هذا الرّجل المحزون ومجالسته كلّما أحبّ منها ذلك ، رغبة منها فى تخفيف ألمه وحزنه بما تمنحه له من عطف وحبّ لم تمنحهما لأحدٍ قبله (١)

ولعلّ أبرز المواقف الإنسانيّة التى وقفتها " مرغريت " موقفها الذي ضحّت فيه بحبّها وحبيبها ونفسها من أجل إنقاذ أخت هذا الحبيب ، تلك الأخت التى كانت مخطوبة لأحد أبناء الأشراف والذي ابتعد عنها بسبب علمه بعلاقة أخيها بهذه المرأة السّاقطة ، لأنّه لا يريد أنْ يُصاهر رجلاً من هذا النّوع فمرضت مرضاً شديداً لذا رحل والدها إلى (مرغريت) يَستعْطِفها أنْ تترك ابنه - بعد أنْ أعياه إقناع هذا الابن - وطلب منها أنْ تدّعى أمام حبيبها عودتها لحياتها السّاخرة وأنّها لا تريد أنْ تستمرّ فى حياتها معه ، شريطة ألاّ تعلمَ هذا الابنَ بما دار بينهما من حديث ولنستمع إلى قوله لها :-

(مرغريت إنّ حياة ابنتى بين يديك ، فامنحينى إيّاها تتخذي عندي يداً لا أنساها لك حتّى الموت) (٢)

(إرحمينى يامرغريت وأشفقى على ضعفى وشيخوختى وتصدّقى علىّ بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي) (٣)

فرثَتْ له ولحاله ووعدته بكتمان السّرّ وتنفيذ ما أراد وتركت لأرمان الرّسالة

---

١ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ١٢٢ بتصرُّف
٢ - نفس المرجع ص ١٦٤
٣ - المنفلوطيّ . العَبَرات ص ١٦١

التي طلبت منه فيها قطع صلته بها لأنّها أرادت ذلك (١)

ثم كتمت " مرغريت " سرّها رغم ما أصيبت به من مرض شديد ولم تبُح به إلاّ في مذكّراتها التي لم يرها " أرمان " إلاّ بعد وفاتها فقالت :-

(لقد كان شديداً عليّ جدّاً أنْ أفارقك يا أرمان ، ولكن .. كان أشدّ منه أن أرى أباك يبكي بين يديّ وأنْ أكون سبباً في موت أختك أو شقائها .

.... إنني أحبّ وهي تُحبّ ولا بدّ لواحدة منّا أنْ تموت فداءً عن الأخرى ، فلأمُتْ أنا فداء عنها لأنّها أختك ، ولأنّها لم تقترف في حياتها ذنباً تستحقّ بسببه الشّقاء ، وكنت كلّما ذكرت أنّها ستصبح سعيدة هانئة من بعدي وتراءى لي شبحها ، وهي لابسةً ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها طار قلبي فرحاً وسروراً وهان عليّ كلّ شيء ، في سبيل غِبطتها وهنائها) (٢)

وهكذا تتجلّى في قولها هذا قمّة تضحيتها التي لا مثيل لها مطلقاً لأنّها ماتت فعلاً لتهيّئ الراحة والعيش والسّعادة لغيرها .

كذلك من المواقف الانسانيّة في القصّة موقف هذا الشّاب الثّريّ " أرمان " من " مرغريت " - قبل أنْ يحبّها - وذلك عندما أصيبت بالنّوبة الصّدرية وهي في إحدى سهراتها إذ أخذ بيدها حتى أوصلها إلى عربتها ، ثم سؤاله عنها خادمتها وتردّده عليها دون علم منها بل حتّى لم يُعلِم الخادم باسمه او يترك بطاقة تفصح عن شخصيّته أو تعلم المريضة بزيارته وما يزيد موقفه فضلاً وجمالاً أنّ تطوّر علاقته بهذه

---

١ - المنفلوطي . العبرات ص٤٢ ، بتصرّف

٢ - المنفلوطي . العبرات ص ١٦٤

الإنسانة المريضة إلى حبّ قوىّ ، ورغبته الأكيدة فى استمرار حياته إلى جوارها ، ليقوم على مواساتها وتخفيف آلامها بنفسه وعدم تفكيره فى العَيْش مع أسرته من أجلها . ، لأنّها أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه بل ربّما زاد مرضها لو تركها وعاد إلى هذه الأسرة .

نقول ما أجمل أنْ يحبّ الشابُّ هذه الفتاة رغم علمه بدائها العُضال إذ كنّا ننتظر من مثله الابتعاد عنها لأنّه لا رجاء فى حبّها ، فقد أحبّها لنفسها ولتقديم يد العَوْن لها أكثر مما أحبّها لنفسه ورغباته وهذه من غير شك قمّة التضحية الإنسانيّة ولنستمع لتأكيد ذلك لوالده عندما طلب منه أنْ يتركها ويعود معه :ـ

(لا يا أبتاه إنّها ليست بعابثة ولا خادعة ، ولكنّها تُحِبّني حبّاً لم يحبّه أحد قبلها أحداً وأحسب أنّى إنْ فارقتها قتلتها وجنيْتُ عليها جناية لا يفارقنى النّدم عليها حتّى الموت) (١)

كما تُظْهِر قمّة تضحيته الإنسانيّة خوفه عليها إنْ تركها أن تعود إلى حياتها الأولى من السّقوط والضّياع فقال :ـ

(فإنّ الأشراف فى هذا العصر يفخرون بإفساد النّساء الصّالحات واستدراجهنّ إلى مواطن الفِسْق والفُجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة أدنى إلى الشّرف من إفساد المرأة الصّالحة) (٢)

(لِمَ لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها فى النّاس مَنْ يعولها من ذى قرابة أو رَحِم ؟ وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلّل عنها ، إلّا أنْ

---

١ ـ المنفلوطيّ . العبرات ص ١٣٥
٢ ـ المنفلوطيّ . العبرات ص ١٣٦

يهدأ حيناً ويستقيظ أحياناً ، فهى تكابد الألم مرّة والخوف من الألم أخرى ، ولا عزاء لها فى حالتها إلاّ هذه السّعادة التى تتوهّمها فى الحبّ وترى أنّها ناعمة بها ، فإنْ فقدتها فقدت كلّ شىء فى الحياة وعظم حزنها وبؤسها وثقلت وطأة الدّاء عليها حتى كادت تأتى على البقيّة الباقية منْ حياتها) (١)

ويمضى الشّابّ فى استرحام والده واستدرار عطْفه حتّى طلب منه أن يبقيه معها عاماًأو عامين حتّى يتولاّها اللّه برحمته وتلقى ربّها فيبكيها بدموع الحُزن لا بدموع النّدم.
وهكذا بدت لنا فى صفحات هذه القصّة (الضّحيّة) مواقف إنسانيّة فاضلة سواء كانت من " مرغريت " بطلة القصّة التى ماسمّيت بـ (الضّحية) إلا لأنّها كانت هى ضحيّة موقف إنسانىّ نبيل بذلته لانقاذ امرأة غيرها .
أو كانت هذه المواقف صادرة عن حبيبها " أرمان " بطل القصّة .

ولا شكّ أنّ مثل هذه المواقف تهزّ مشاعر المنظوطىّ لأنّه هو نفسه يدعو إليها فى معظم ما كتبه من مقالات أدبيّة أو قصص ـ إن لم يكن كلّها ـ

وماذاك إلاّ دليل اتجاهه الإنسانىّ الفاضل في كتاباته .

---

١ ـ المنفلوطىّ . العَبَرات ص ١٣٦

شَخصيّة الأديبِ وأسلوبه

الشّخصيّة لغة :

الشّخصيّة في اللّغة تُطلق على معانٍ كثيرة - وإن كانت كلّها تدور في فلك واحد ، فقد يُراد بها الحضور والظّهور والإرتفاع قال تعالى :-

" فإذا هيَ شاخِصةٌ أبْصارُ الّذِينَ كَفَرُوا "

أيْ مرتفعة ، كما يُقالُ للسّمين البَدَنْ شَخِيصٌ وهيَ شَخيْصة ، ويقول ابن الأثير :

الشّخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به إثبات الذّات ، كما يُطلق على الانسان والذّات والنّفس تقول :

شَخَصَ إليهم : أيْ ذَهبَ إليهم بنفسه وذاته . (١)

وفي الإصْطِلاح :

مجموع صفات الشّخص التي تميّزهُ عن غيره ويُقال فُلانٌ ذو شخصيّة قويّة أيْ ذو صِفات مُتميّزة وإرادة وكيان مستقلّ (٢)

ولا شكّ أنّ الأدب مَعْرِض لظهور الشّخصيّة فيه واضحة لأنّ عاطفة الأديب فيه هي التي تميّزه عن العلم وهي التي تبعث فيه الخُلود وتشبّعه بشخصيّة الأديب ، ففي موءلّفات الأديب - شاعراً كان أو كاتباً - تلمس طَبْعَهُ وخُلُقه وطريقة تفكيره ومزاجه في الحياة ومستوى ثقافته ، ونظرته إلى الحياة ، وطريقة تفسيره للأشياء ، كذلك تبدو في الأدب طريقة تناول الأديب للألفاظ لإخراج الجُمل والعبارات المختلفة (٣)

---

١ - محمد مرتضى الزبيدي تاج العروس . مادّة شَخَصَ .
٢ - مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة . المعجم الوسيط . مادّة شَخَصَ .
٣ - أحمد الشّايب . الأسلوب : ص ١٢٧ ط ٧ بتصرُّف .

فالشّخصيّة الأدبيّة فى نظرنا هى تلك السّمات الخاصّة التى تميّز بها الأديب على غيره وبدت فى أدبه معبّرة عن شخصيّته تعبيراً صادقاً يصف تجاربها ونزعاتها ومزاجها وطريقة اتّصالها بما حولها مما يجعل أسلوبه الأدبيّ مشتقّاً من نفسه وعقله وعواطفه وخياله ، ولغته الخاصّة به ، وتلك العناصر التى تميّزه عن غيره من الأدباء وتطبع أسلوبه بطابعه الخاصّ الذى لا يشاركه فيه غيره وإن شابهه فى بعضه .

وهذا الأمر هو الذى يفسّر تعدّد الأساليب بتعدّد الأدباء أو منشئي الأدب .

عناصر الشّخصيّة الأدبيّة : إنّ عناصر الشّخصيّة الأدبيّة لا تظهر إلّا بدراسة آثار الأديب كلّها أو أكثرها دراسة واعية فاحصة ثمّ يوازن بينه وبين غيره ، وخاصّة في الفنون التى شاركه فيها سواه ، فيعرف بهذه الدّراسة كيف يختلف الأدباء فى تفسير الأشياء والتّعبير عمّا يتصوّرون ومن هذا الإختلاف يفرّق بين الشّخصيّات .

مجالات الشّخصيّة الأدبيّة : وتتجلّى شخصية الأديب فى نواحٍ ثلاثٍ من نواحى الكلام :-

١ - طريقة النّظم

٢ - ناحية الطّبع أو الصّفة

٣ - إيثار اللّفظ أو المعنى (١)

١- د . محمد نبيه حجاب . بلاغة الكتاب فى العصر العباسى ص ٣٠

أمّا طريقة النّظم : فقد عرّفها الأستاذ الدّكتور محمّد نبيه حجاب بقوله :

(ونعني بها الأسلوب اللّفظيّ الذى يسلك الألفاظ فى جملها والجملة فى فقرتها ، والفقرة فى عبارتها) (١)

ولكلّ أديب طريقته الخاصّة في التّأليف بين الألفاظ لتكوين الجمل وفى تأليفه الجمل لإخراج العبارات والأساليب الّتى تميّز طريقته فى الكتابة عن غيره من الأدباء . (٢)

أما من ناحية الطّبع أو الصّنعة:

إنّ من الأدباء من يغلب عليه سماحة طبعه فيتّصل بأسباب البلاغة لفظه ثم يرسل القول على سجيّته السّمحة فيأتى الكلام سهلاً بعيداً عن الوشي والحلىّ اللّفظيّة والسّجع المملّ الذى يزيد المعنى غموضاً والعبارة تعقيداً . (٣)

وسنرى أنّ المنفلوطيّ بعيد كلّ البعد عن هذا التّعقيد وتلك الحلىّ اللفظيّة .

أمّا ناحية اللفظ والمعنى :

فهى قضية نقدية قديمة ومايزال الحديث حولها قائماً فمن الأدباء من يؤثر جانب اللّفظ على المعنى فيأتي أدبه رثّاً مجوفاً ، ومنهم من يؤثر المعنى على اللّفظ فيأتي أسلوبه مفككاً أو سيّئ التّأليف والنّظم .

أمّا المنفلوطيّ فقد كان بعيداً عن ذلك كلّ البعد فقد جاء أدبه جميل اللفظ سلس العبارة عذب الموسيقى مع سموّ المعنى وفضله ممّا جعله أكثر الأدباء تأثيراً

---

١ ـ د . محمّد نبيه حجاب . بلاغة الكتّاب فى العصر العباسيّ ص ٢٩ ط ١ ١٩٦٥م .

٢ ـ فضلاً راجع طريقة المنفلوطيّ ص ١٨٦ من هذا البحث .

٣ ـ د . محمّد نبيه حجاب ـ بلاغة الكتّاب ـ ص ٣٠ بتصرّف .

فيمن حوله من أهل عصره ومن لحقهم فى العصور التالية .

(فى هذه الميادين الثلاثة تتجلَّى .. شخصية الأديب .

تطالعك بروحه وخُلقه وذَوْقه ومذْهبه ، وثقافته .. ومن هنا اختلفت الأساليب باختلاف الشَّخصية . وليس من العسير معرفة أعلام الكتابة أو مدارسهم من أساليبهم الخاصَّة ، فأسلوب الجاحظ غير أسلوب ابن المقفع أو عبد الحميد وهما غير أسلوب ابن العميد .

وفى عصرنا الحاضر تجلَّت الشَّخصية البارزة فى أسلوب المازني والعقَّاد ، والرَّافعى والزَّيات ، والبشري وطه حسين ، ومن قبل تجلَّت شخصية المنفلوطي فى عبراته ، ونظراته فى أسلوبه الدَّامع الحزين) (١)

ومن المعروف أن الأدب يشمل فنَّين عظيمين هما :-

الشِّعر (٢) . والنَّثْر (٣)

---

١ - د . محمد نبيه حجاب . بلاغة الكُتَّاب فى العصر العباسى ص٣٩ ، ٤٠ ط ١

٢ - اختلف فى تعريف الشعر اختلافات كثيرى ولا نرى هنا داعيًا لتعريفه أو ذكر فنونه وأغراضه .

٣ - أما النثر فأهم فنونه :-

أ - الرسائل الاخوانية ، وهى مايدور بين الافراد فى تهنئة أو تعزية أو توصية أو عتاب ونحو ذلك مما يصور العواطف والصِّلات الخاصَّة بين الافراد .

ب - الرَّسائل الدِّيوانية : وهى ماتصدر عن الدواوين أو ترد اليها خاصَّة بشئون الدولة ومصالحها تيسيرًا للعمل وتثبيتاً للنِّظام العام . . =

ونخصّ هنا بالتّعريف من المقالة وكل مايمتّ إليها بصلة - ولو كان ذلك بطريقة موجزه - لأن الأديب الذي ندرس أدبه ما هو الا كاتب مقالة على التّحقيق ، أمّا ماكتبه من قصص قصيرة فى العبرات ، فليست فيها كل العناصر الفنّيّة التى توجب أن نطلق عليه كاتب قصّة كما هو كاتب مقالة حقّاً .

= جـ - الخطابة بأنواعها : وهو الكلام الذى يُلقى فى جمهور النّاس للإقناع والتأثير ، وأنواعها : دينى وسياسى واجتماعى .

د - الرّواية : وهي تقوم على حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب ينتهي إلى غرض مقصود يفهم من السّياق وبطريق غير مباشر

و - المسرحية : تشترك المسرحية مع القصة فى اشتمالها على الحادثة والشخصيات والفكرة والتعبير ، ويميزها عنها تميزا واضحا طريقتها فى فى استخدام أسلوب الحوار بصفة أساسية وسواء فى ذلك أكانت المسرحية ممثلة أو مقروءه .

ز - القصة : وأهم عناصرها ، الحادثة والشخصيات ، والحبكة والحل .

ح الأقصوصه : وهي تمثل حدثا واحدا فى وقت واحد ، وتتناول القصة القصيره شخصية مفردة أو حادثة مفرده أو عاطفة أو مجموعة من العواطف التى أثارها موقف مفرد . وهى لا تتطلب أكثر من نصف ساعة أو ساعتين لقراءتها قراءة دقيقة .

ط ترجمة الحياة : وهى الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصر العظمه فيها أو الانحطاط - ان وجدت - عن الشخصية .

ونخصّ هنا بالتّعريف من المقالة وكل مايمتّ إليها بصلة - ولو كان ذلك بطريقة موجزة - لأنّ الأديب الذى ندرس أدبه ماهو إلّا كاتب مقالة على التّحقيق ، أما ماكتبه من قصص قصيرة فى العبرات ، فليست فيها كلّ العناصر الفنّية التى توجب أنْ نطلق عليه كاتب قصّة كما هو كاتب مقالة حقاً .//

تعريف المقالة لغةً :

أصلها : مقولة من مادة قول ومقاله وزنها الصّرفى مفعله مصدر ميمى جاء فى لسان العرب :-

(يقال ما أحسن قيلك وقولك ومقالتك ومقالك خمسة أوجه) (١)

أما تعريف المقالة الأدبى فهو :-

(المقالة باعتبارها فنّاً من فنون الأدب ، هى قطعة إنشائيّة ذات طول معتدل تُكتب نثراً وتلمّ بالمظاهر الخارجيّة للموضوع بطريقة سهلة سريعة ، ولا تعنى إلّا بالنّاحية التى تمس الكاتب عن قرب) (٢)

أما مورى فقد عرّفها فى قاموسه بعد أن تنبّه إلى التغيّرات التى طرأت على المقالة الحديثة فعرّفها بأنّها :-

(قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معيّن أو حول جزء منه

ثم مضى قائلاً :

---

١ - إبن منظور . لسان العرب . مادة قول

٢ - نقل هذا التعريف د . يوسف نجم فى كتاب من المقاله ص ٩٤ ط ٤ وهو خاص بادموند جوس

(وكانت في الأصل تعني موضوعا يحتاج الى مزيد تهذيب ، ولكنّها أصبحت الآن تُطْلَق على أيّة قطعة إنشائية يختلف أسلوبها بين الإيجاز والإسهاب ضمن مجالها الموضوعي المحدود) (١)

هذا وقد استنتج الدكتور يوسف نجم تعريفاً خاصاً به للمقالة بعد اطّلاعه على التعريفات المختلفة فعرّفها بقوله :

(ان المقالة الأدبيّة قطعة نثرية محدوده في الطّول والموضوع وتُكتب بطريقة عفْوية سريعة خالية من الكُلفة والرّهق . وشرطها الأوّل أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصيّة الكاتب) (٢)

ويقدّم لنا الأستاذ أحمد أمين تعريفاً مشابهاً للمقالة ورد فيه أن المقالة عبارة عن قطعة نثرية قصيرة لا تخضع لنظام معين في كتابتها بل تكتب حسب هدى الكاتب فتسمح لشخصيته بالظهور وهي ليست الا تعبيرا عن النفس وتنفيسا لمشاعرها فهي تشبه النوع الغنائي في الشعر ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن كثيرا مايطلق اسم مقالة على نوع من الكتابة له مميزات المقالة الا قصره كبعض رسائل الجاحظ فانها قطع قصيرة من التاريخ أو السيرة أو الدراسات . (٣)

أما الأستاذ أحمد الشايب فقد عرف المقالة بقوله :

(ولا تطلق في الحديث على الموضوع المكتوب الذى يوضّح رأياً خاصاً وفكرة عامة أومسألة علميّة أو اقتصادية أو اجتماعية يشرحه الكاتب ويؤكّدها بالبراهين ، والمقالة من

---

١ ـ يوسف نجم . فن المقالة ص ٩٤

٢ ـ نفس المرجع ص ٩٥ .

٣ ـ أحمد أمين . النقد الأدبي ص ٩٧ ط ١ . ١٩٧٢م دار النّهضة المصرية (بتصرّف)

الأدب بمعناه العامّ أو العلم بمعناه العام تقوم على عنصرين رئيسيين : المادّة والأسلوب (العبارة) ولها بعد ذلك خطّة " أو أسلوب عقلي " (١)

وممّا سبق يمكن أن استخلص تعريفاً أخيراً جامعاً لكلّ ما قرأته من تعريفات للمقالة فأقول :ـ

المقالة قطعة نثرية يخضع طولها لطبيعة الموضوع الذى أنفعل به الأديب وعبّر عنه بطريقة خاصة تنم عن شخصيته الأدبيّة وإحساسه تجاه ذلك الموضوع الذى يعالجه وهى تشتمل على إختلاف موضوعاتها على مقدّمة وعرض وخاتمة ، ويجب أن يكون أسلوبها مشوّقاً سهلاً ومقنعاً ، ومناسباً للطّبقة الموجهة لها .

وإذا طبّقنا ذلك التّعريف على مقالات المنفلوطيّ وجدنا أنّ المنفلوطيّ كاتب مقالة بمعناها الأدبيّ الصّحيح فضلاً عن محاولاته القصصيّة المتواضعة .

ويرى د . عزّ الدّين إسماعيل أنّ كلمة مقالة ليست غريبة على اللّغة العربيّة ولكنّها من حيث دلالتها الفنيّة تعدّ محْدثة فى أدبنا العربيّ ، ويرتبط تاريخها بتاريخ الصّحافة وهو تاريخ لا يرجع بنا إلى الوراء أكثر من قرن ونصف قرن بكثير ، ويرى كذلك كما يرى غيره من الباحثين أنّ كلمة " مقال " كانت أقرب فى الحقيقة إلى ماعرفه الأدب العربيّ القديم فى (الرّسالة) لا الرّسالة الشّخصيّة أو الدّيوانيّة ولكن .. تلك الرسالة التى تتناول موضوعاً بالبحث كرسائل إخوان الصّفا مثلاً ولذلك كانت تطول

---

١ ـ الأستاذ أحمد الشّايب . الأسلوب ص ٩٤ ط ٧

إلى الحدّ الذى تبلغ فيه عشرات الصّفحات . (١)

أمّا المقالة في مفهومها الحديث فهي تتناول موضوعاً أكثر تحديداً وتعرضه بطريقة أكثر تركيزاً بحيث تجذب القارئ وتشدّه إليها أمّا موضوعها فيتّصل بقضية حيّة ، ويتّجه فيه الحديث إلى الجماعة ويخضع آخر الأمر فى أسلوبه لمتقضيات الصّحافة التى نشأ معها هذا الفنّ . (٢)

وهكذا جاء فن المقالة فى الأدب المصريّ - إستجابة لضرورات سياسيّة واجتماعيّة ثم تطوّر نتيجة لهذا الوعى الذى كان ينمو وينضج فى تلك السّنين من النّصف الثانى من القرن الماضى .

فقد وعى المصريون واقعهم بكلّ مافيه من حاجات إلى الإصلاح السّياسىّ والإجتماعىّ والدّينى ، واتّجه فريق من مثقفيهم إلى الكتابة فى تلك الجوانب الإصلاحيّة العديدة متخذين من الصّحافة أداة لتوصيل آرائهم وأفكارهم إلى الجمهور ، وبدأوا يكتبون بأسلوب قريب من الأسلوب التّقليدي المزركش ، ثمّ أخذوا تدريجيّاً يتخلصون

---

١ - د . عزّ الدّين إسماعيل - الأدب وفنونه ص ٢٨٨ بتصرّف - أيضا راجع الأدب وفنونه د . محمّد مندور ص ١٧٤ ط.(بدون) دار نهضة مصر
كذلك كتاب بين الأدب والصّحافة للأستاذ فاروق خورشيد ص ١٢٠ - ١٢١
كذلك كتاب النثر العربىّ فى نماذجه وتطوّره لعصرى النّهضة والحديث د . على شلق ص . ٣١٨ ط ٣
كذلك كتاب فنّ المقالة الأدبيّة د . محمّد عوض محمّد ص ٩ ومابعدها بتصرف ط ١٩٥٩م

٢ - د . عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية ص ١٢٧ : ومابعدها ط ١ بتصرّف

من ذلك إلى الترسل الطبيعي لأنه لم يكن من الممكن الاتجاه إلى الجمهور بذلك الأسلوب وبتلك اللغة المتكلفة وعن طريق الصحف - لأن هذه الطريقة المتكلفة عاجزة عن علاج المشكلات أولاً ، ثم لأنها لن تفهم من جمهور القراء ثانياً ، وكان الوعي قد لفت الأنظار إلى التراث العربي النثري المشرق وأدرك الرواد من الكتاب مافي هذا النثر من ترسل وبساطة وحرية وقوة ، وكان قد أذيع - ضمن ما أذيع من تراث - آثار نثرية جيدة ، يمكن أن تكون أنماطاً للكتابة التي يجب أن توجه إلى الجماهير عن طريق الصحف كبعض كتب ابن المقفع وكبعض آثار ابن خلدون فأخذ الرواد من المثقفين المصريين يكتبون موضوعات في السياسة والاجتماع والدين ، بهذه اللغة الجانحة إلى الموضوعية والوضوح والترسل ، وهم في ذلك مراعون لمقتضيات الصحافة . وتحديد أنهرها ، وسمتوى قرائها ووسائل تأتيها فكانت من هذه الكتابات المقالات الحقيقية الأولى في الأدب الحديث . (١)

وقد كان يؤازر المصريين ويشاركهم تلك الحركة إخوانهم من مهاجري الشام المسيحيين الذين كانوا شديدي الاتصال بالآداب الأجنبية وترجمتها ، كما كان يرودهم ويوجههم المصلح الغيور السيد جمال الدين الأفغاني ، ومن كل تلك الظروف ولدت المقالة في ألوانها السياسية والاجتماعية والدينية ، حيث وجدت موضوعات عامة تدعو إلى الكتابة ، ووجد جمهور كبير يتجة إلى الكتاب ، كما

---

١ - سبق رفاعة الطهطاوي ببعض كتابات رائدة في الوقائع ، ولكنها لم تتخلص تماماً من المقومات التي تجعلها مقالات مكتملة . أنظر فضلاً د . عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية في مصر ١ ص ١٢٢ ومابعدها بتصرف .

وجدت الصّحف التي تنقل هذه الكتابات إلى أكبر عدد من المثقّفين ، وفيهم العاديّون من المتعلّمين ، بل وفيهم المستمعون للقراء من الأُمّيّين كذلك وُجِدَ في التراث العربي القديم الذي يُحظى بالإهتمام به نمطٌ أسلوبيٌّ يمكن أن يُحتذى في الجانب التّعبيري على الأقل .

(وكان لهذا التّحول من الموضوعات التقليدية الضيّقة فيما يُكتب أولاً ، ثم من الفرد إلى الجماعة فيمن يُكتب إليه ثانياً ، أكبر الآثار في أن اتّخذت المقالة لغة تنأى عن فرديّة الموضوع وعن أرستقراطية التعبير ، وتميل إلى الموضوعية في الأغراض ، والديموقراطية في الأسلوب) . (١)

ولا نشك في أنّ حركة التّرجمة وانتشار الصّحافة وإسهام المهاجرين الشّوام ، وتوجيهات الأفغاني قد ساعدت الروّاد الأُوَل من كُتّاب المقالة في الأدب الحديث على أن يرسوا دعائم هذا الفن النّثري .

وكان من أوائل هؤلاء الرّوّاد الشّيخ محمد عبده (٢) لما له من أثر في تخليص لغة النّثر من التّفاهة وأثقال المحسّنات ، وذلك بعد أن تطوّر هذا الشيخ وآمن بوجوب التّخلّص من آفات النّثر المعوّقة ، وعندما أُسْنِدَ إليه تحرير " الوقائع المصرية " في عهد الخديوي توفيق عمل على تخليص كتاباتها من التّقليد والتّخلّف ، وكان يكتب كتابة موضوعية حية مُرسلة ، تعدّ نماذج رائدة إلى حد كبير .

.. هذا إلى جانب حثّه الآخرين من كُتّاب الوقائع وغيرها على الأخذ بهذا الأسلوب الحيّ المرسل فيما يكتبون .

---

١ ـ د. أحمد هيكل . تطور الادب الحديث في مصر ص ٧٢

٢ ـ فضلاً راجع كتاب تاريخ الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا ، وأدب المقالة الصحفية لعبد اللطيف حمزة ج ٢ وكتاب محمد عبده للدكتور عثمان أمين ، وكتاب الإمام محمد عبده لعبد الحليم الجندي . فيما يختصّ بهذا الموضوع

ومن هذه الناحية يُعْتَبَـرُ الشيخ محمد عبده ذا دوْر فى إحياء النّثر يشـبه - إلى حد ما - دور البارودى فى إحياء الشّعر . (١)

أنواع المقالـة :-

تُقَسـمُ المقالة إلى قسمين يضمّان كلّ فروعها ، وأنواعها وهذان القسمان هما :-

أ - المقالة الذّاتيـة

ب - المقالة الموضوعيـة (٢)

أ - المقالة الذاتية :- أهم مايميّزها مايبثّه فيها الكاتب من عناصر شـخصيّة حيث تبدو فيها شـخصيته الأدبيّة جليّة جذّابة تستهوى القارئ وتستأثر بلُبّه ووسيلته فى ذلك الأسلوب الأدبى الذى يشعُّ بالعاطفة ، ويثير الإنفعال ، ويستند إلى ركائزقويّة من الصّور الخيالية ، والصّفة البيانية ، والعبارات الموسيقية ، والألفـاظ القويّة الجزلـة (٣)

والمقالة الذاتية حُـرّة فى أسلوبها وطريقة عرضها . ولا يضْبطها ضابط (٤)

وأهمّ الألوان المقالية التى تشملها المقالة الذاتية هى :-

١ - الصّورة الشـخصية

٢ - النّقد الإجتماعى

---

١ - فضـلاً راجع أدب المقالة الصّحفية جـ ٢ ، ص ٦٢ ومابعدها ، والأدب العربى المعاصر د . شوقى ضيف ، وفى الأدب الحديث لعمر الدسوقى - فى حديثهم عن دور الشيخ محمد عبده فى تطوّر النّثر .

٢ - د . يوسف نجم . فن المقالة . ص ٦٩ . كذلك كتاب العقّاد : يسألونك ص ٢٥١

٣ - د . يوسف نجم . فن المقالة ص ٩٦

٤ - " " " ص ٩٧

٣ ـ المقالة الوصفيّة

٤ ـ وصف الرّحلات

٥ ـ مقالة السّيرة

٦ ـ المقالة التأمّليّة

وسوف نوضّح إن شاء اللّه صلة المنظوطى بما ذُكِرَ من هذه الأنواع المقاليّة . (١)

ب ـ المقالة الموضوعية :ـ

إن أهم ما تحرص عليه المقالة الموضوعية هو التقيّد بما يطلبه الموضوع من منطق في العرض والجدل ، وتقديم المُقدّمات واستخراج النّتائج . (٢)

وهي تمرّ بمراحل ثلاث : المقدّمة ، والعرض ، والخاتمة . (٣)

وأهم ألوان هذه المقالة :ـ

١ ـ المقالة النّقدية في حقول الأدب والفن

٢ ـ المقالة الفلسفيّة

٣ ـ المقالة التاريخيّة

٤ ـ المقالة العلميّة

٥ ـ مقالة العلوم الاجتماعيّة

---

١ ـ فضلاً راجع ص ١٦٠ من هذا البحث .

٢ ـ د . نجم . فن المقالة . ص ٩٧ .

٣ ـ د . نجم . فن المقالة . ص ١٣١ كذلك فن المقالة الأدبية د . محمد عوض ص ٦١

تعقيب :-

يجب ملاحظة أنّ هذا التقسيم لا يعني حدّاً فاصلاً بين النّوعين السابقين (المقالة الذاتية ، والموضوعية) لأنّه ليس من السّهل وضع حدود فاصلة بينهما وإنّما محك التمييز الصادق بينهما هو مقدار ما يبثه الكاتب من عناصر شخصية في كل منهما ففي المقالة الذّاتية تبدو شخصية الكاتب جليّة جذّابة ، بينما يستقطب الموضوع عناية الكاتب والقارئ في المقالة الموضوعيّة ، ولكنّهما أولاً وأخيراً تنبعان من نبع واحد هو رغبة الكاتب المُلِحّة في التّعبير عن شئ ما قد يكون هذا الشئ تأمّلاته الشخصية في الحياة والنّاس فيكتب المقالة الذاتية ، وقد يكون موضوعاً من الموضوعات ، فيَعمَد إلى المقالة الموضوعية . (١)

كما ينبغي مُلاحظة أنّ الصّفات الفنّيّة التي نتعرّف بها على هذا الفن ليست قيوداً أو حدوداً فاصلة تضبطه وتفلّ من حركته الذّاتية بل لكلّ مقالة - وخاصّة الذّاتية منها - القدرة على التّرجمة والتعبير عن فطرة الملاحظة في الإنسان المتيقظ الحسّ ، المُمعن النّظر في الحركة الدّائبة المختلطة للحياة من حوله ، وهي كذلك تعبير عن إنفعالاته وتأثّراته المعقّدة الكثيرة التي لا حصر لها ، ثُمّ أليست المقالة كما يقول النُقّاد :-

" نزوة عقليّة لا ينبغي أنْ يكون لها ضابط من نظام " (٢)

وأليست المقالة قصيدة ذاتيّة خالية من قواعد الشّعر وضوابطه على أنّنا في إعفائها من كل القيود ندرك أنّها ليست بالمَطلَب السّهل ، وبهذا الإعفاء نخالف د . زكي نجيب

---

١ - د . نجم . من المقال ص ٩٦ - ٩٧ بتصرّف

٢ - د . زكي نجيب محمود . جنة العبيط ص ٦ ط ١٩٤٧م

محمود فى قوله " ولكنّ الأديب المصريّ يكتب المقالة التى لو قيست بمعيار النّقد الأدبى لطارت هباءً ولأُغْلقت دَولة الأدب من دونها الأبواب ، وإنّما قَصَدْتُ بمعيار النّقد مايكاد يُجْمِع عليه أدباء الإنجليز . (١)

ووجه المخالفة فى الرأى السابق هو أن فن المقالة كما سبقت الإشارة فن طليق ليس له ضابط أو حدود يجب التّقيُّد بها والوقوف عندها ولكن ليس معنى ذلك أنه فنّ ليس له أنماط ومراتب بل لكلّ كاتب لونه ومقدرته ، أمّا أن تُرْفَض المقالات المصريّة لأنّ كُتّابها لم يسيروا على سِمَات معيَّنة توفّرت لدى الكُتّاب الإنجليز أو غيرهم فهذا لا يُسلَّم به ولا يُقْبَل لدينا لأنّ كلّ أديب خاضع لظروفه الإجتماعية والبيئية التى تختلف عن غيره من الأدباء ، ولا بدّ من تأثير هذه الظّروف على ماينتجه من أدب .

فمثلاً التّعبير عن السُّخط الذى يشترط د . زكى نجيب محمود (أن يجىء سخطاً فى نغمة هادئة خفيفة ، هى أقرب إلى الأنين الخافت منها إلى العويل الصّارخ ..) (٢)

إن هذا الشّرط مثلاً .. لا يمكن أن نعقله عند رجل مصرى كالمنظوطى هو بحكم فطرته جياش العاطفة ، وبحكم ظروفه التّاريخية والإجتماعية ثائر ، حيث عاش فترة الإحتلال ، وإختلال القِيَم والمُثُل ، والإقطاع ، وفساد الحكم ، وحيث الحرب العظمى تحرق قومه ظلماً وعدواناً بشعارها ، وحيث تتفجّر الأمّة

---

١ - زكى نجيب محمود جَنّة العبيط . ص ٤

٢ - د . زكى نجيب محمود . جَنّة العبيط . ص ٤ .

فى شكل بركان فى ثورة ١٩١٩م ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ المنفلوطى كان يعيش هذه الظروف فى أمّة حظها ضئيل فى ميدان التّقدّم والرّقىّ الاجتماعى والثّقافىّ فهل نطلب منه بعد كل ذلك أن يتأنّق فى مقالاته وأن يهدأ فى سخطه وثورته ؟ .

إننا لو طالبناه بذلك أو لو كان هو كذلك لكان ذلك الرّجل البليد الحسّ الضّائع الصوت بين شعب وأمة أراد أن يُعيد إليها الحياة ويحفّزهم إلى استرداد ماضاع من حقوقهم وسُلِبَ من وطنهم ومُزّق من قوميتهم ، فيصَلهم بتاريخهم المجيد فى عزة وشَمَم ، وإذا تذكّرنا أنّ للبيئة الجغرافيّة أثرها فى تلوين الفن الأدبي بلونها! ألا يكون فى كلّ هذه الأسباب مايسوغ خروج كُتّاب المقالة المصريين على مقاييس الإنجليز ؟ ، وأنّه لا داعى لاغلاق أبواب الأدب دون كُتّاب المقالة المصريين كما قال د . زكى نجيب محمود فى حديثه السّابق ؟

أنـواع مقـالات المنفلوطـيّ

بالرجـوع إلى مقالاتـه ذاتها ، نجـد أنّها لا تخـرج في مجموعهـا عن النّوعين السّابقين وهما :

١ - المقالة الذّاتية وهي تشمل معظم ماكتبـه من مقـالات .

٢ - المقالة الموضوعية ، وهي قليلة لا تكاد تتركّز إلا في النّاحية السّياسية والثّـورة على نظام الحكم ، ومقالاته المُترجمـة .

وستكشف الدّراسة التّالية عن طريقـة المنفلوطي في مقالاته ثمّ خصائص أسـلوبه ومكانتـه بالنّسـبة إلى عصـره ومعاصـريه .

المقالة الذّاتية في أدبـه :-

قد سبقت الإشارة إلى أنّ المقالة الذّاتية حظّهـا من الجانب الشّخصيّ واضـح ومفهوم وبالطّبـع أنّ المقالات لا تقـف في ذلك عند حدودٍ موسـومة ، وخُلاصة القـول أن هذا العنصر الشّخصيّ كبير الخطر في هذا النوع من هذا الفن . (١)

وأهمّ تلك المقالات لديه : (الغدّ) ، (مناجاة القمر) ، (أيّها المحزون) (الحرّية) ، (الشّعرة البيضاء) ، (السّـريرة) ، (دوْرة الفلك) ، (العام الجديد) ، (الأربعون) (٢)

وأول ما يُـلاحَظ على هذه المقالات أنّها تُعالِج موضـوعات تنبعث من نفـس

---

١ - د . محمد عوض محمد . فن المقالة الأدبية ص ٦

٢ - المقالات على التوالي - النظرات جـ١ ص ٤٣ ، ٥٧ ، ٧٦ ، ١٢٣ ، ١٤٤ ، جـ ٢ ص ١٢ ، ٢٤ ، ١٢٧ ، جـ ٣ ص ٢٥٤ ط ، بيروت . دار الثقافة .

الكاتب مُعبِّرة عن إحساسه ومشاعره ، وهي في نفس الوقت تعكس تجاربه في الحياة ورأيه فيها ، فهي صدى التأمل والإحساس معاً في موضوعات يغلب على الشعراء طرقها ، وقد يتعرّض المفكّرون لبعضها .

وكان من الممكن أن يُطلَق عليها المقالات التأمّلية حيث ينطبق عليها ماذكره د . نجم من أنها (تعرض لمشكلات الحياة والكون والنفس الإنسانية ، وتحاول أن تدرسها درساً لا يتقيّد بمنهج الفلسفة ونظامها بل تكتفي بوجهة نظر الكاتب وتفسيره الخاص للظواهر التي تحيط به) (١)

ولكن الذي دعانا إلى الإعراض عن هذه التسمية هو أنّ التأمل قاسم مشترك في مقالات المنظوطي ، بل هو من مميزات الفن المقالي عامة (٢) ، كما نلاحظ أيضا أنّ المنفلوطي كان في مقالاته هذه ينفذ أحياناً إلى النّقد الإجتماعي كما في مقاله " العام الجديد " ولعل حظ النّقد الإجتماعي في هذه المقالة أكثر من أخواتها فهي صاحبة النّصيب الأكبر إذا قيسَت بالبواقي ، والعظة والإعتبار والأسى هو العامل المشترك في هذه المقالات كلّها ، ومرجع ذلك إلى نزعته الحزينة دائماً التي إصطبغت بها مشاعر المنظوطي ونفسيّته .

نموذج :

لنأخذ مقالة (دورة الفلك) (٣) للتّحليل والتطبيق كمثال للمقالة الذاتية عند المنظوطي :-

---

١ - د . نجم . فن المقالة ص ١١٨

٢ - ذهب إلى هذا الرّأي ف . أبوالأنوار في رسالته المنظوطيّ الكاتب ص ١٥٢

٣ - المنظوطيّ . " النّظرات " ج ٢ ص ٢٤ ، والذي كُتِبَ بمناسبة سقوط السّلطان عبدالحميد ملك تُركيا .

دورة الفلك (١).

أيها القصر :

أين الكوكب الزّاهر الذى كان يتنقّل فى أبراجك ؟ أين النّسر الطّائر الذى كان يحلّق فى أجوائك ؟ أين الملك القادر الذى كان يطلع شمساً فى صباحك وبدراً فى مسائك ؟ أين الأعلام والبنود تخفق فى شُرفاتك ؟ والقوّاد والجنود تخطر فى عَرَصاتك ؟ أين الشّفاه التى كانت تلثم تُرابك ؟ والأفواه التى كانت تقبّل أعتابك ؟ والرؤوس التى كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب التى كانت تخفق لروعتك ؟

أين الصّوت الذى كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السّماء ؟ أين الفلك الذى كان يدور بالسّعد والنّحس ، والنّعيم والبؤس ، والرّفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟

كيف استطاع الدّهر أنْ يمدّ يده إلى شملك فيبدّده ؟ وجَمْعك فيفرّقه ؟ وسمائك فيكوّر شموسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحُرّاسك وحجابك ؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء ؟ وتصدّ عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر اذ ريع سربه ... واذ ذعرت اطلاؤه وجاذره
تحمل عنه ساكنون وهتكت ... على عجل أستاره وستائره

---

١ - المنفلوطى . النّظرات ، ص ٢٤ ط بيروت

أيها السّجن :

حلّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدّنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن إحتماله قلل الجبال الرّواسى فكيف احتملته ؟ رفقًا به ولا تزعجه ، ولا تحرج صدره ، وضمّ جانحتيك عليه كما تضمّ على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب ، والعزّ الزائل ، والرّأس الذى بيّضته حوادث الدّهور ، والظّهر الذى قوّسته أيدى المقدور .

أيها الدّهر :ـ

ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع أن تسقية كأس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

إن كنت تريد أن تسلبه ظمَ أعطيته ؟ وان كنت تريد أن تعطيه ظمَ سلبته ؟ كان خيراً له ألا تعطيه حتّى لا تفجعه فى تلك العطيّة ، وألّا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السّمّ الذى أودعته تلك الكأس .

أيها الرّجل المودع :

كان إرتفاعك عظيماً ، فوجب أن يكون سقوطك عظيماً إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلمّا ذقت مرارتها جزعت وقطّبت كما يجزع ويقطّب كل من ذاق من الشّراب مالا عهد له به ولا قبل له باحتماله .

لا تأس على مافاتك ، فإنّما كان وديعة من ودائع الدّهر ، أعاركها برهة من الزّمان ثم إستردّها .

إنك لا تدري ، لعل الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من

الزّمـان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فيها فهرس أعمالك ، فان رأيت خيراً أغتبطت أو شرّاً إستغفرت .

قضى اللّه أنْ يقيم فى كل حين لهذا العالم الغافل عِبْرة من العِبَر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت أنت عبرة هذا الدّهر وموعظته .

من باتَ بعدَكَ فى مُلْكٍ يُسَرُّ به   فإنّما باتَ بالأحْلام مَغْرور

التّعليق :

إن أهمّ مايميز هذه المقالة هو إنطباعها بالطّابع الشّخصى للأديب حيث تبدو شخصية الأديب جليّة واضحة تستهوى القارئ وتستأثر بلبّه فى ذلك الأسلوب الأدبى الذى يشعّ بالعاطفة ويثير الإنفعال بما يحتويه من أسلوب إنشائى يدلّ على إنفعال المنفلوطى وإحساسه بما يتحدث عنه .. ذلك الانفعال الذى يؤثّر فى القارئ ويهزّ مشاعره فيبدو وكأنّه يعيش التّجربة التى يتحدث عنها الأديب ... تلك التجربة التى تحكى دورة الفلك ، ويقصد بدورة الفلك هنا تقلّب الأزمان وتبدّل أحوالها على الانسان ، فمَنْ كان فيها معززاً مكرماً حاكماً يصبح - مع دورة الأيّام وتقلّب أحوال الزمان خلالها - ذليلاً مهيناً محكوماً ، وقد نقل لنا الأديب ذلك فى حلّة أدبية قشيبة تحلّق فى سماء الخيال بما ترسمه من صور جميلة ممتعة تلذّ للقارئ وتطربه ، فها هو يخاطب القصر بقوله :-

(أيّها القصر :

أين الكوكب الزّاهر الذى كان يتنقل فى أبراجك ، أين

النّسر الطّائر الذى كان يحلّق فى أجوائك ؟ أين الملك القادر الذى كان يطلع شمساً فى صباحك وبدراً فى مسائك ؟ ...) الخ . (١)

فالمنفلوطى فى عبارته السابقة يجمع بين صور بيانية ، وأساليب بديعية تزيد المعنى جمالاً وتكسبه رونقاً وجلالاً ، فهو يعمد إلى التشبيه البليغ فى تساؤله عن السّلطان عبد الحميد فيرى أنّه كان كوكباً متنقلاً فى أبراج القصر ، ونسراً محلّقاً فى أجوائه ، ويعمد إلى التشبيه البليغ عندما تساءل عن الملك الذى كان شمساً فى الصباح وبدراً فى المساء .

أما أسلوبه البديعى الجميل فيتجلّى فى تلك الموازنة بين الجمل والسجع غير المتكلّف الذى يجذب القارئ إليه ، وقد يدفعه ذلك إلى الإعجاب والجمال إلى حفظها وترديدها .

أضف إلى ذلك تلك الموسيقى المتدفّقة التى تتجلّى فى تكرار الأسلوب الإنشائى ، والإستكثار من أدوات الإستفهام كقوله : (أيّها القصر) ... (أين الكوكب الزّاهر) ... (أين النّسر الطّائر) ... (أين الأعلام والبنود تخفق) .. (أين الصّوت الذى كان يجلجل ...) .. (كيف إستطاع الدّهر ..) .. (أين كانت أساورك) .. (وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء) .. (أيّها الدّهر) .. (ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة ..) .. (ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة) .. (لا تأسى على مافاتك) (٢)

---

١ ـ المنفلوطى . النّظرات . ج ٢ ص ٢٤ . (المقال بكامله ص١٦١ من هذا البحث)

٢ ـ النّظرات ، للمنفلوطى . ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٦

أمّا أجزاء المقال أو خطّته وفكرته وطابعه فهي خطّة مُحكَمة ناجحة لأنّها في الوقت الذي يَصْدُق عليها فيه أنّها خطرات نفسه ، فهي أيضاً مرتّبة متسلسلة تروق شعور القارئ في وحدتها وترابطها ونموّها في الحقيقة طبيعياً لأنّ القارئ يتحرّك خلالها في دائرة واحدة من الشّعور ، وهذا يذكّرنا بشبهها الكبير بالقصيدة الغنائية التي تعالج إحساساً واحداً مُعَيّناً .

على أنّ الأفكار التي يحويها المقال ليست عميقة الغَوْر أو ممّا يدقّ عن الأفهام لكنّه مع ذلك يُرضي القارئ ويَحمِله على المتابعة بفضل ما بثّه فيه من مشاعر صادقة وإنفعال مؤثّر ، وكثيراً ما ترضى النّفس عن التركيز خاصّة إذا كانت الإثارة وسيلته ، والإنفعال هو الطّريق إليه .

وهنا تبرز لنا حقيقة فنيّة في المقال الأدبي وهي أنّ قيمته ليست في أفكاره التي يحويها لأنّ الأفكار ليست كلّ شيء في المقالة ، فالعمل الأدبيّ لا يَعْتمد على صحّتها من النّاحية العقلية والعلمية ، بقَدْر ما يعتَمد على طريقة أدائها وعرْضها في حُلّة أدبية جميلة ، وهذه في الحقيقة - مِيزة النّصّ الأدبي دائماً - حيث يُقْرأ للمُتعة والطّرب لا للتثقيف والتّعليم . (١)

وهنا يدخل دور الصّياغة ، فالذي لا شكّ فيه أنّ المقالة الأدبية تعتمد إلى حد كبير ككل الفنون الأدبية على صياغتها ذلك لأنّ البَراعة في الصّياغة سبب قويّ من أسباب المُتعة التي يجدها القارئ ويطْرب لها أثناء تذوّقه للعمل الأدبي . (٢)

---

١ - د . محمد عوض محمد . فن المقالة الأدبية ص ٢٦٣ د . يوسف نجم . فن المقالة ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتصرّف .

٢ - أحمد أمين . فَيْض الخاطر ، ص ١٧٨ ط ١٩٧٣م ، د . يوسف نجم . فن المقالة ص ١٢٩ بتصرّف

وهذا القدْر من الأسلوب متوفّر كلّ التوفّر للمنفلوطي لأنّه أحد زعماء الأسلوب الأدبي العَذْب الرقيق في أدبنا الحديث فإذا أردنا أن نقف عند أسلوبه في صياغة هذا المقال بالذّات أمكن أن نشير إلى أنّه يمتاز بالسُّهولة والرِّقة على ترسّل عَذْب، وموسيقية جميلة تبدو في هبوط السَّجعة القصيرة غير المتكلّفة عليه أثناء كتابته ، وحتى في الجزء الذي يمكن أن يلمح فيه المرء صنعة خفيّة فإنّ القارئ العاديّ لا يلتفت إلى شيء من ذلك ، لأنّ المنفلوطي يعْرف بمقدرته الفنّية أن يَسْتُرَ تلك الصّنعة الخفيّة فيبدو في أسلوبه ذلك السّجع غير المقصود منه ، والموازنة العفوية بين الجُمل فتشيع فيها الموسيقا العذبة المطْربة .

هذا عن شأن الفِكرة وصياغتها وما يتّصل بها من طريقة العرض ، فإذا إنتقلنا إلى الجانب الشّخصيّ وكيف أنّ المقال يدلّ على صاحبه ، فان ذلك يتّضح كلّ الوضوح ، حيث نلمح في المقال مِزاج الأديب وطابعه النّفسي وطريقته في فَهْم الحياة ، ومدى إدْراكه لها وإحساسه بها . إنّه يلزم الجانب الحزين الباكي فجاء أسلوبه سَهْلاً متدفّقاً موسيقياً مصوِّراً تغلّفه سحابة تشاؤم وتلوّنه قطرات دمْع ، لا يَعْمد إلى فكرة صعبة فيثيرها أو جديدة فيقدّمها ، بل تكفيه اللفتة الذّكية ، والإشارة الحَسَنة مع تقديم المألوف في صورة محبّبة حيث يشدّك إليه صِدْق الشّعور وحرارة العاطفة وقوّة الإنفعال .

أشهر كتّاب المقالة العربية المحدثين :

ليس من بحثنا أن نتعرض لأدباء عصره اللهم إلا بقدر ما يسمح للموازنة بين أسلوب المنفلوطي وأساليبهم :

ولعل أشهر كتّاب المقالة المحدثين الذين تميزت أساليبهم عن غيرهم هم :- أحمد لطفي السيد ، محمد حسين هيكل ، ويعقوب صروف ، والمنفلوطي والبشري ، وطه حسين ، أحمد أمين ، والمازني ، والعقاد ، وزكي مبارك والرافعي ، والزيات وغيرهم (١)

أولاً : مكانته بين أدباء عصره :

يعتبر المنفلوطي ظاهرة جديرة بالانتباه أولاً ، وبالإعزاز والإكبار ثانياً ، ذلك لأنه جاء على فترة لم تكن الأساليب فيها قد تخلصت من مخلفات العصر العثماني الذى إنحدرت فيه الأساليب وغلب عليها التقليد والصنعة ، وكانت بداية الصحوة ، لهذا الاتجاه تتمثل فى " صهاريج اللؤلؤ " للبكري و " حديث عيسى بن هشام " للمويلحي ، و " أسواق الذهب " لشوقي (٢) ، فضلاً عن الأسلوب المقامي الذى تجلى فى كتاب " مجمع البحرين " لناصيف اليازجي .

أما أسلوب المنفلوطي ، فكما وصفه بحق الأستاذ : صلاح عبد الصبور فى قوله :- (كان فى حد ذاته خطوة بعيدة فى التطور مما يدل على خصب نفس المنفلوطي وطواعيته للتجديد ، فإن هذا الأسلوب يختلف إختلافاً هائلاً عن أسلوب المقامات الذي

---

١ - فضلاً راجع د . يوسف نجم . فن المقالة ص ٧٨ وما بعدها حيث وضح المؤلف خصائص أساليبهم مما لا مجال هنا لذكره .

٢ - فضلاً راجع " طريقة المنفلوطي " ص ٨٦ | من هذا البحث .

قلّد محمد المويلحي في " حديث عيسى بن هشام " بل وحافظ في " ليالي سطيح "

كذلك لا ننسى أنّ المنفلوطي يُعْتبر في أدبنا الحديث قمّة الإتّجاه لظهور النّثر الفنّي مُتحرِّراً من قيود الصّنعة والضّعف والرّكاكة التي كانت سائدة في عصره (١) وهو في ذلك يُغترف من البيان العربيّ زاده ومن ذوق صاحبه موسيقاه ، ومن وجدانه وعاطفته الإنسانية صدْقه وقوّة تأثيره .

نعم لقد إنطلق المنفلوطي بطريقته في الكتابة عن كلّ قيْد كان يُمكن أنّ يشدّه إلى طريقة السّابقين وبعض المعاصرين له ، فهو كما حدّث عن نفسه كان مُعْجَباً بالأساليب العربية في عهدها الذّهبي ضائقاً بالأساليب المُعاصرة والسّابقة التي امتلأت بأعراض الصّنعة وتكلّت بالزّخارف اللّفظية والتي إعتبرها كلّها أحاديث لسان ومن ثمّ فهو عنده زيْف وباطل لأنّها تَعْتمد على العبارة المنمّقة ، والجُمل المُزخرفة ،والكلمات الجامدة الجافّة . (٢) وهو يهتمّ بنوع من الأسلوب اطلق عليه (حديث القلْب) ويعني به :-

القول (المنثور أو المنظوم الذي تسمعه فتشعر أنّ صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدّث إليك كما يتحدّث الجليس إلى جليسه أو ليصور لك مالا تَعرف من مشاهد الكون ، أو سرائر القلوب ، أو ليُفضي إليك بغرضٍ من أغراض نفسه ، أو لينفّس عنك كُربة من كُرَب نفسك . . . إلى أنْ يقول :-

(حتّى ترى حجاب اللفظ قد رقّ بين يديك دون المَعنى) (٣)

---

١ - صلاح عبد الصبور . ماذا بقي منهم للتاريخ ص ١٥٩ ط ١ سنة ١٩٦١ م

٢ - فضلاً راجع الحياة الأدبية في عصره ص ٣٠ - ص ٤٦ من هذا البحث .

٣ - المنفلوطيّ . النّظرات ج ١ ص ٣١ بتصرّف .

٤ - المنفلوطيّ . النّظرات ج ١ ص ٣٩ .

وهذا الحديث عنده هو (أرقى الأحاديث وأشرفها بل هو الذى يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم وتنوعت أساليبهم عن كلمة البيان) (١)

وكانت طبيعته فى الكتابة كما وصفها هو نفسه فى قوله :-

(ماكنتُ أحفل من بين تلك الأحاديث بحديث اللسان ولا حديث العقل أى أننى ماكدت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذى يقتاده المعنى ويتطلبه ..) (٢)

والحقيقة أنه إذا كانت ثمة جهود سبقت المنفلوطى منذ جمال الدين والإمام محمد عبده فى محاولة التخلص من عناصر الضعف والقيود اللغوية ، إذا كانت هنالك جهود قبله فإن هذه الجهود قد قفز بها المنفلوطى إلى الواقع العملى ، ولم يكن الرجل حلقة من حلقات هذا الجهاد وتلك المحاولات فحسب لأن الباقى من الطريق فى هذا التعديل لم يكن بالسهل أو الميسور - بل يُعتبر المنفلوطى ظاهرة فريدة فى عصره جديرة بالإعزاز والإكبار وقد بين الأستاذ العقاد مكانة المنفلوطى بالنسبة إلى أدباء عصره فقال :-

(لقد كان المنفلوطى أحد أولئك الأدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الإنشاء العربى بعد أن ذهب عنه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد . وليس يظهر فضل هذه الخطوة المباركة إلا للذين وقفوا على بقية من أساليب الإنشاء فى الجيل الذي غبر قبل ظهور المنفلوطى ..) (٣)

ثم بين العقاد تلك الطريقة المملة التى سار عليها الكتاب قبله من صبغ وقوالب

---

١ - المرجع السابق ص ٣٩
٢ - المرجع السابق ص ٤٠
٣ - العقاد . مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٧٢ المطبعة العصرية - الفجالة

لا يعتورها التصرف والتبديل ، وأسجاع مبتذلة وأمثال مرددة وشواهد مطروقة وآيات مقتبسة من القرآن في غير مواضعها .

أما أغراض تلك الكتابة فكانت كخطب المنابر تعاد كل منها بنصها ولهجة إلقائها ووحدة موضوعاتها (وكأنها تدار من آلة حاكية لا تفقه ما تقول على آلة مثلها لا تفقه ماتسمع) (١) ، ثم ذكر الأستاذ العقاد أن هذه الأساليب قد اضطرتها الصحافة والترجمة إلى التغيير الذي لابد منه ولكنه كان تغييرا متعثراً بطيئاً يظهر عليه أثر الجمود والتفاهة السابقة ، وفقر الكتاب وعجزهم عن التصرف فيما بين أيديهم من ثروة وتعبير .

أما مزية المنفلوطي في هذا الدور - على حسب رأى العقاد - (أنه برىء من آثار تلك التفاهة المهزولة ومضى بقدمين على النهج الجديد الذى دخل فيه المعنى والقصد إلى الإنشاء العربي وقل ماشئت في تينك القدمين وفي ذرع خطوهما واستقامة سيرهما على النهج الجديد ، فليكن فيهما مافيهما من الضعف والعيب أو ليكن عندهما ماعندهما من الرخاوة والكسل ، فإنها بعد كل مايقال فيهما قدمان آدميتان وليسا بعضوين من الخشب المنجور) (٢)

ونضيف هنا رأى الأستاذ محمد أبو الانوار الذى نضم صوتنا إلى صوته في قوله معلقاً له على كلام العقاد السابق :

(وسواء اتفقنا بعد ذلك أو اختلفنا مع الأستاذ العقاد في أن ميزة المنفلوطي - كما ذكر بعد ذلك - أحرى بها أن تحسب لأيامه لا لجرأته وحسن اختياره ، فإن

---

١ - العقاد . مراجعات في الآداب والفنون ص ١٧٢
٢ - العقاد . مراجعات في الآداب والفنون ص ١٧٢

المنظوطي بحق قد برىء الأسلوب على يديه من آثار التفاهة التي تدل على مرض ملحف قد طال مداه ، ويخشى من آثاره الباقية نفس الخشية التي يتطلبها الحذر من صلب الداء وخطورته ، خاصة وأن ثمة تربصاً باللغة العربية كان يحاول الإستعمار إقناع الأمة به ، ومن هنا كان ظهور المنظوطي حدثا يمكن أن يرتبط في ذهن عشاق هذه اللغة بأحدى معجزاتها) (١)

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي في هذا الصدد :-

(إستطاع المنظوطي أن يبتدع طريقة جديدة في الكتابة الأدبية ، طريقة تخالف تلك التي إشتهرت بين الكتاب والأدباء في القرن التاسع عشر أولئك الذين كانوا يحفظون - كما ذكرنا - بالسجع وألوان البديع ، ويغلبهم على أساليبهم محفوظهم من الأدب القديم فيرددون تشابيهه ومجازاته وكناياته ، وإن كانت لا تناسب الموضوع والبيئة والعصر ، وهي طريقة تخالف كذلك النثر الصحفي الذي يكتب لساعته ، ويخوض غمار المعارك السياسية ، فلا يتأتى صاحبه إنتقاء الألفاظ وصياغة الجمل) (٢)

ولقد أنصفه الدكتور أحمد هيكل عندما اعتبره العلم البارز في أول مدرسة فنية للنثر الحديث التي يمكن أن تحمل إسمه فيقال مدرسة المنظوطي) (٣)

وفي الحق فإن أثر المنظوطي في النثر لا يقل عن أثر شوقي في الشعر ، مع الإحتفاظ بسعة الفرق بين الرجلين لأن شوقي أعلى فناً وأرسخ قدماً وأقدر على العطاء في مجال الشعر من المنظوطي في مجال النثر ولكن كليهما رافدا تطور فالمنظوطي

---

١ - محمد أبو الأنوار . مصطفى لطفي المنظوطي الكاتب ص ٦١٤ (رسالة مخطوطة)

٢ - عمر الدسوقي - بحث خاص مرسل إلى جامعة هارفرد بأمريكا عن (تطور الجمال في النثر الحديث) نقلاً عن رسالة د . محمد أبو الأنوار . المنظوطي الكاتب ص ٦١٤

٣ - د . أحمد هيكل - تطور الأدب الحديث في مصر ص ١٦٦ بتصرف

من ناحية الأسلوب كان إستجابة قويّة لحاجة عصره ولذلك قوبلت مقالاته بالإعجاب المنقطع النّظير وجذبت إليها بشدّة طلاّب الأدب والمتجولين فى حقله ، ومن ثمّ كانوا يتجمّعون حولها يقرأونها ويتمنّون وهم فى صحن الأزهر أن يربطوا إعجابهم بأسباب هذا الرّجل الذى كان قد حاد عن الطّريق ولم يعد يتردّد على حلقات الدّرس فيه (١)

ومن هنا كان تأثير هذا الأديب واضحاً فى المدرسة الأدبية التى تلت ظهوره وأعني بها مدرسة الأسلوب الموسيقى المحتفى بصياغته والتى تتمثّل فى الزّيات وطه حسين (٢)

وكما يقول الأستاذ صلاح عبد الصّبور :-

(كان فى أسلوب المنظوطى إشراق ولمعان لا تكاد تجد مايماثلها فى أسلوب طه حسين من بعد) (٣)

ويرى الأستاذ أنور الجندى أنّ فجر النّهضة الأدبيّة بزغ نوره بظهور أسلوب المنظوطىّ الذى أثر فى كتابات الرّافعىّ والزّيات وغيرهما فيقول :-

(وبدأ فجر النّهضة الأدبية بهذا اللّون الذى لم يسبق إليه أحد ومهما يكن من رأي فى أسلوب المنظوطى فإنّه قد أثّر في كتابات الرّافعى والزّيات وعبد العزيز البشرى وطه حسين) (٤)

ونرى أنّه ليس هناك شكّ فى أنّ كلّ الأجيال التى تلت ظهور المنظوطي لا بدّ وأن تكون

---

١ - أحمد حسن الزيات - وحى الرّسالة ص ٣٨٦ بتصرّف
٢ - محمد أبو الأنوار - المنظوطى الكاتب - رسالة مخطوطة ص ٦١٥
٣ - صلاح عبد الصّبور - ماذا بقى منهم للتاريخ ص ١٥٩
٤ - أنور الجندى . النّثر العربىّ المعاصر ط ١٩٦١م ص ١٩٣

قد تأثرت به وتتلمذت عليه سواء إعترف أفرادها بذلك أم جحدوه وتنكروا له وهو صاحب الفضل عليهم بعد الله سبحانه وتعالى - فها هو د . محمد مندور يعترف بأنه واحد ممن تأثروا بأسلوب المنظوطي (١)
كذلك استاذى الدكتور محمد نبيه حجاب المشرف على هذه الرسالة والأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى (٢) وغيرهم من أساتذة الأدب البارزين .

أما عن رأينا في مكانة المنظوطي الأدبية في عصره فنضعه - من غير تردد - في مقام القيادة والريادة في عصره بل لا نعتقد أن أديباً يُعتد بأدبه لم يمر على أدب مصطفى المنظوطي أولم يتأثر به ويسير على نهجه في الكتابة - مع فوارق الشخصية الأدبية بين كل منهما - بل لابد ممن أراد أن يكون أديباً حقاً أن يقرأ أدب المنظوطي ويتأثر بإشراق ديباجته ومتانة أسلوبه وسهولته مع براعة التصوير فيه .

ومن ناحية أخرى فإن هناك مسألة هامة غير الأسلوب ترفع من مكانة المنظوطي وتعلى من شأنه هي ، موضوعاته الإنسانية والقضايا الإجتماعية التي تعرض لها بالشرح تارة والذود عنها تارة أخرى وهي كلها تؤكد أنه معلم أخلاق وداعية فضيلة وصاحب نفس إنسانية قائدة إلى الصلاح والخير وما ذاك إلا استجابة أكيدة من نفسه الإنسانية لحاجات عصره الملحة إلى أمثاله من الأدباء .

---

١ - الجمهورية ١٩٢٢/٨/١٢

٢ - فضلاً راجع كتابة (نظرات أدبية) ح ١ ص ٦٩ - ط ١٩٧٠ - مطبعة زهران

موازنته بغيره من أدباء عصره :

لبيان الفرق بين أسلوب المنظوطي وغيره من الكتّاب في عصره آثرت الموازنة بينه وبين اثنين من أدباء العصر هما :-
البشري في مرآته (١) وأحمد أمين في فيض خاطره (٢)

الموازنة بينه وبين البشري :-

أمّا أسلوب البشري فكما وصفه الدّكتور نجم أنّه بصفة عامّة وسط بين الترسّل والسّجع ، أما ألفاظه ، فهو مُجَلجلة رنّانة بجرسها القوي وعباراتها الضّخمة ليستأثر بإنتباه القارئ ، وليوحي إليه أنّ الكتابة أمر صعب يحتاج إلى ذخيرة لغوية ضخمة .
ولكنْ يُلاحَظ أنّ هذا الأسلوب عنده يتفاوت بتفاوت الغرض ، فهو يميل إلى تقصير الفواصل وإيراد العبارات الرّشيقة عندما يقصد الفُكاهة (٣)
وهذا ما نُلاحظه في (المرآة)

---

١ ـ وُلِدَ عبد العزيز البشري عام ١٨٧٠م، وتوفّي عام ١٩٤٣م وله مؤلّفات أخرى هي "المختار" وبعد وفاته نشر الدّكتور طه حُسين بعض مقالاته وقدّم لها في كتاب سمّاه " قُطوف " في جزأين عالج فيه الشّؤون الإجتماعية المصرية الأدبية المختلفة
٢ ـ وُلِدَ أحمد أمين سنة ١٨٨٦م وتُوفّي عام ١٩٥٤ وله مؤلّفات أخرى هي : " فجر الإسلام " " وضُحى الإسلام " و " ظهر الاسلام " ثم " النّقد الأدبي " ، " قصة الأدب في العالم " بالإشتراك مع غيره و (قصّة الفلسفة اليونانية) و (قصّة الفلسفة الحديثة) و (يوم الإسلام)
٣ ـ د . يوسف نجم . فن المقالة . ص ٨٠ بتصرُّف

ويرى آخر : أنّ البشرى ممن يجودون في أساليبهم الرّصينة أشدّ التّجويد . ولكنه كان يخرج على القوالب العربيّة أحياناً ، فيورد كثيراً من العبارات المصريّة العاميّة ويعتذر لذلك بحجّة أنها هي وحدها التي تستطيع أن تصوّر ما يريد من أفكار وأحاسيس .

ويعلّق الدكتور الدّواخلي على هذا الاعتذار بقوله :-

(وهو إعتذار نلمح فيه مدى الحساسيّة الفنّية عند البشرى ومقدار إستجابته لروح الفكاهة التي سيطرت عليه طوال حياته) (١)

هذا وقد قدّم لنا البشرى فناً قد وجد في العربية القديمة وإن لم يكن عميقاً ووجد في الأدب العربيّ الحديث بشيء كثير من العمق والتّحليل النّفسي وهو فن التّراجم الذي قدّم فيه دراسات حافلة لكبار الشّخصيات المعاصرة له في كتابه (في المرآة) وقد مثّل لنا البشرى عمله بعمل المصوّر (الكاريكاتوري) الذي يعمد إلى الوضع البارز في الشّخص فيزيد في وصفه ويبالغ في تصويره (٢)

كما ويعلّق الأستاذ الدّكتور محمّد نبيه حجاب على وضوح شخصية الأديب في كتاباته بقوله :-

(وإذا كان أسلوب الرّجل هو الرّجل نفسه كما يقولون أو من الرجل كما يقول (بيفون Baffon) فإنّ أسلوب البشرى بجرسه ونبراته هو البشرى بذاته وصفاته ضاحك إذا داعب . لاذع إذا تهكّم أو تندّر ، صارم إذا جدّ أو احتدّ . . حتى لتحسبه مصوّراً كاريكاتوريا " يجسّم المعالم ويبرز القسمات (٣)

---

١ - د . عبد الحميد الدّواخلي - نصوص مختارة من الأدب العربي . كتاب النثر ص ١٨٧ دار الكتاب الحديث - الكويت - (بتصرّف)

٢ - د . الدّواخلي - نصوص مختارة من الأدب العربي كتاب النثر ص ١٩٧ بتصرف

٣ - د . محمّد نبيه حجاب - بلاغة الكتّاب في العصر العبّاسي ص ٤٠ ط ١٩٦٥م .

وهو قد جَمع بين جزالة القديم ورشاقة المُحْدَثين وقبل أن نُدْلي بالرأي الشّخصي في ذلك رأينا ضرورة إجراء الموازنة بين أسلوبه وأسلوب المنفلوطي ... وهنا لابدّ لنا من وضع النّماذج التي توضّح القول وتجلو الغامض منه . وحتّى تكون الموازنة أقرب إلى الحقيقة الواضحة منها إلى الحكم النّظري البحْت .

ولْيكُن هذا النموذج ما كتبه البِشْرى في مرآته عن حافظ إبراهيم فيقول :-

(حافظ إبراهيم شاعر . فهو يُحبّ الجمال ويجْتمع له (١) ، ويكْره القُبح وينعى على أهله(٢) بجابة بذلك مجابهة لا يتّقى في القوْل ولا ينحرّف (٣) ، وما إنْ طلع عليه فتى ذميم الخَلْق غير مستوى معارف الوجه (٤) ، إلاّ قال له : يافتى ليس الوِزْر عليك ، بل على أبيك لأنّه لم يؤدّ مَهْراً !

وإذا اضطردت نظريّة حافظ فلا شك أنّ المرحوم والده تزوّج على الطّريقة الإفرنجيّة فلم يدْفع مهْراً ، بل هو الذى أخذ (الدُّوطّه) (٥)

جَهْم الصّوت (٦) ، جهم الخَلْق ، جَهْم الجسم ، كأنّما قدّ من صخْرة في فلاةٍ مُوحِشَة ، ثم فكّر في آخر ساعة أن يكون إنساناً (٧) فكان والسّلام .

---

١ - أي يحتفل به ويحشد له كلّ ذات نفسه ، فلا يشغله غيره

٢ - يعيبه به ويظهره ويشهره

٣ - لا يملّ عن صريح القول إلى الكناية

٤ - قسماته وملامحه

٥ - المهر الذى تدفعه الفتاة الإفرنجية اليهودية لمن يتزوّجها

٦ - غليظ أجش

٧ - يؤخذ على أديب مسلم كالبِشْرى أن تأخذه السّخرية إلى هذا الحدّ

أمّا ما يدعى فمه فكأنما شُقّ بعد الخَلق شقاً ، وأمّا عيناه ، فكأنما دُقّتا بمسمارين دقاً ، وأمّا لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عُهِدَ به إلى " نقّاش " مُبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان ، فداف أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجيها فخرج مزّجاً من هذا كلّه لا يرتبط من واحد بسبب ولا يتصل بنسب) الخ (١)

التّعليق :-

من المعروف أنّ البِشْرى كان عذب الحديث بارع النّكتة والنموذج السّابق دليل واضح على سخرية البِشْرى اللّاذعة وتصويرة (الكاريكاتورى) الدّقيق وهو يختلف تماماً عن طريقة المنظوطى فى الكتابة ، أضف الى ذلك الفرق الكبير بين سلاسة الأسلوب عند المنظوطى وعذرية موسيقاه وجرس ألفاظه الرقيق الحانى ، وبين ضخامة ألفاظ البشرى وصعوبتها إلى حدّ ما .

ولا نقصد هنا مؤاخذة البِشْرى على أسلوبه وتفضيل المنظوطى ، فكلاهما شائق الأسلوب جذّاب ، البِشْرى فى سُخريته والمنظوطىّ فى بيانه السّاحر ، وإنّما قصدنا مجرّد الموازنة بين الأسلوبين .

وبعدُ فإنّنا نميل إلى طريقة المنظوطى البيانية المُرسلة أكثر من ميلنا إلى طريقة البِشْرى السّاخرة ، لِمَا فى الأولى من سلاسة وعذوبة وقُدرة على جذب القارئ وإثارة مشاعره بأسلوبه القصصى وقوّة أَسْره له حتّى تصطبغ عواطف ذلك القارئ بنفس

---

١ - البِشْرى - فى المرآة ص ٦٩-٧٢ سنة ١٩٤٧م لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر

اللون الذى اصطبع به شعور الأديب أثناء آدائه لتجربته الأدبية .

وفى الوقت ذاته لا نضيق ذرعاً بأسلوب البشرى ولا نعيب عليه طريقته فقد كانت كتاباته كلها نمطاً من البيان الرائع والبلاغة العالية والتحليل الدقيق والتهكم اللاذع والسخرية البارعة ، ولكن شعورنا هنا هو نفس شعور الفنان الذى يطرب للوحة وتعجبه أخرى فكلاهما إعجاب ولكنه هو ذلك الفرق بينه وبين الطرب والانسجام .

" وللناس فيما يعشقون مذاهب "

المنفلوطى وأحمد أمين :ـ

إن معظم من وصفوا أسلوب أحمد أمين وصفوه باهتمامه بمعانية أكثر من اهتمامه بألفاظه . (١)

وقد ذكر هو نفسه مايشير إلى ذلك فى مقدمة كتابه (فيض الخاطر) حيث قال :ـ

(أصدق كاتب فى نظرى من إحتفظ بشخصيته وجعل أفكاره وعواطفه تمتزج إمتزاجاً تاماً بأسلوبه ، وخير أسلوب عندى ما أدى أكثر مايمكن من أفكار وعواطف فى أقل مايمكن من عسر وغموض وإلتواء ، وراعك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه وكان كالقافية تستغنى لطبيعة جمالها عن كثرة حليها .) (٢)

وقد نقد الدكتور طه حسين أسلوب أحمد أمين فى (فيض الخاطر) فبين فى ذلك النقد ، أنه رغم تقرير أحمد أمين نفسه فى أنه من أصحاب المعانى لا الألفاظ ـ برغم تقريره هذا ـ فإنه يرى فصولاً تعجبه بحلاوة لفظها أكثر من معانيها وفصولاً

---

١ ـ د . يوسف نجم . فن المقالة ص ٨٢ ، د . الدواخلى . نصوص مختارة من الأدب العربى . كتاب النثر ص ٢٠٥ بتصرف .

٢ ـ أحمد أمين . فيض الخاطر (المقدمة) ط٦ سنة ١٩٧٣ مكتبة النهضة المصرية

تطربه بإطنابها أكثر من إيجازها ، وفصولاً تروق بزينتها أكثر مما تروق بإيثارها للقصْد وهو صادق في كلّ ماكتب ولا ضير عليه في ذلك لأنّ شعور الأديب يختلف من تجربة لأخرى فكل تجربة أدبية ظروفها وطبيعتها في الأسلوب .

ويُأخذ عليه وقوفه عند الأوليّات فيبسطها بسطاً ويفصّلها تفصيلاً (١)

ويرى الدّكتور عبد العزيز عتيق أنّ أسلوب أحمد أمين يتميّز بالبساطة وعدم تكلّف الزّينة والزّخرف فيه وحفاوته بتجويد المعنى أكثر من تجويد اللّفظ ، وبتوليد المعاني أكثر من تزويقة للألفاظ ، وقد يدعوه تقديره للمعنى إلى الإسراف في إيضاحه لشغفه بوصوله إلى القارىء صافياً وافياً حتى وإن ضحّى في سبيل ذلك ببلاغة الكلام وقد يستعمل أحياناً اللفظ العامّي إذا تأكّد أنّه أدقّ في توصيل معناه عن اللّفظ الفصيح . (٢)

هذا وقد علّل الأستاذ أحمد أمين تصرّفه ذلك بقوله :-

(ولمْ أرَ في ذلك بأساً بل لقد هممْتُ أحياناً أن أتحدث بالعاميّة لأنّي أرحم الأميّين وأشباههم ألّا يكون لهم غذاء عقلي يستمتعون به) (٣) .. إلى أن يؤكّد في حديثه هذا أنّ واجب الأدباء هو توصيل غذاءهم إلى كلّ عقل وأن يقْرع نتاجهم كلّ أذن وإلّا كانوا مقصّرين (٤)

---

١ - د . طه حُسين . فصول في الأدب والنقد ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ط٤عام١٩٦٩م دار المعارف (بتصرّف)

٢ - أحمد أمين . حياتي . المقدّمة ص ٢٩ - ٣١ ط ١٩٧١ دار الكتاب العربيّ بتصرُّف

٣ - أحمد أمين . حياتي . المقدمة ص ٣٠

٤ - المرجع السّابق بتصرّف

ويُقرِّر الزيات أنّ هدف أحمد أمين من كتابته أن يقرّر ويقنع لا أنْ يؤثّر ويُمتع ، ممّا جعله يؤثر إرسال النّفس على سجيّتها وعدم الإلتزام بأسلوب موشّى بالحلّى اللفظية أو الصّور البيانية والموسيقا الخلّابة وإنّما الذي يروق للقارئ من أسلوبه إبتكاره للمعاني والآراء الصّحيحة الجريئة والشّخصية القويّة المهيمنة فالقارئ منه بإزاء عالم يبحث وُينتِجْ ، أو مُصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصوّر يلوّن فيُعْجِب وموسيقار يلحّن ليُطْرِب (١)

ولإيضاح رأينا الشّخصي في ذلك وجدْنا ضرورة النّظر في أدب أحمد أمين ذاته وطرح نموذج منه أمام القارئ ، ثم مقارنة ذلك بنموذج من أسلوب المنفلوطي حتّى نرى سعة الفرق بين الأدبين .

وليكن هذا المثال من كتاب(فيْض الخاطر) لأحمد أمين الذى يمثّل مقالاته الإجتماعية والأدبية (٢)

يقول الأستاذ أحمد أمين في مقال بعنوان (الرّجل والمرأة) (٣)

(لعلّ الطبيعة شاءت ألّا تجعل من الرجل إنساناً كاملاً ولا من المرأة إنساناً كاملاً بل جعلت منهما إنساناً كاملاً نقّصت في الرّجل ما أكملته في المرأة ، ونقّصت في المرأة ما أكملته في الرّجل ، وقوّت في الرّجل ما أضعفته في المرأة وقوّت في المرأة ما أضْعفته في الرجل .

---

١ ـ أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه . لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٦ - ١٧ سنة ١٩٥٥م (بتصرّف)

٢ ـ د . محمد رجب البيومى . النهضة الإسلامية فى سِيَر أعلامها المعاصرين ح ١ ص ١٩٢ ط ١٩٨٠م مطابع الأزهر بتصرّف

٣ ـ أحمد أمين فيض الخاطر ح ١ ص ٢٦٢ ط ٦

فحيثما وجدت نقصاً فى المرأة فاطلب كمالة فى الرجل وحيثما وجدت نقصاً فى الرجل فاطلب كماله فى المرأة . فالمرأة والرجل كفتَي الثوب تزيد فى أحدهما ماتنقصه فى الآخر وتنحرف فى أحدهما إنحرافاً مايهيىء مكاناً للآخر ، ولكل شىء فيه عاشق ومعشوق ، يُعَدّ كلّ منهما إعداداً يجعله صالحاً للآخر أو كطاقة الزهر لا تجمل الموسيقا إلّا حيث تتعدّد الألوان وتتناسق أو كفرقة يُكمل الطّبل مانقصه المزمار ويُكمل المزمار مانقصه الطبل ولا تجمل الموسيقا إلّا بهما معاً .

فإذا رأيتَ فى الرّجل حُبّاً فى التّعميم رأيتَ فى المرأةِ حُباً فى التّخصيص ، هو تحبّ فى العِلْم المثال الجزئى ، وهو يحبّ القاعدة الكلّية ، وهو إذا تكلّمت عن المنزل تكلّمت عن منزلها وقارنته بمنازل صديقاتها ، وأمّا هو سرعان مايطفر الى ذكر قاعدة عامّة ، وهى إذا تكلّمت عن الحُبّ تكلّمت فى حبّها أو حبّ مثيلاتها ، وهو إذا تكلّم فى ذلك انتقل سريعاً إلى وضع قوانين للحبّ ، فنظْرتها - على العموم - نظرة جزئيّة نفّاذة ونظرته على العموم نظرة شاملة وقد لا تكون دقيقة .

وإذا تكلّم هو عن الجمال كفكرة مُجرّدة تكلّمت هى عن فُلانة الجميلة وفلان الجميل ، وإذا قال هو ما أحسن السّماء قالت هى ما أجْمل القمر ومن أحل هذا كانت المرأة فى العمليّات خيْر من الرّجل وكان الرّجل فى النّظريات خيْر من المرأة .

فلستَ ترى فلاسفة من النّساء فى الطّبقة الأولى لأنّ الفلسفة أساسها التعميم وهى لا تُحسنه وأساسها النظريات وهى لا تجيدها وأهمّ أبوابها ما وراء المادّة والنّظر الجزئى يتطلّب المادّة ، وقد تجد طالبات فلسفة ، وقد تجد حائزات لشهادات فلسفية ولكن قلّ أنْ تجد فيلسوفة خالقة لنظريات فلسفية ، فذلك ليس من طبعها عادة) .. إلخ (١)

---

١ - أحمد أمين . فيض الخاطر . ح ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ومابعدها

وهكذا يمضي الأستاذ أحمد أمين فى تفصيل الفوارق الموضوعية الدّقيقة التى تدلّ على فكر العالم أكثر من دلالتها على مشاعر الأديب التى تصبغ أسلوبه بصبغة مشوّقة لما يحطه ذلك الأسلوب من جمال الصّورة وعذوبة الموسيقا .

نقول إنّنا لا نجد ذلك عند أحمد أمين.لأنّه كما بيّنا - (١) من أولئك الذين يهتمون بالمعانى أكثر من إهتمامهم باختيار اللفظ وتجميله وقد صرّح هو نفسه بذلك فى مقدّمة (فيض الخاطر) و (حياتى) (٢) ، كذلك لا يبدو على أسلوبه حرارة العاطفة التى لها الدور الفعّال فى إثارة مشاعر القارىء ، واستجابة عاطفته لقول الأديب ، بينما نجد ذلك كله فى أسلوب المنفلوطى العذب ، فهو فى تناولة لموضوع الرجل والمرأة (٣) فى " النّظرات " يتناولة بطريقته الخاصّة والتى تختلف إختلافاً واضحاً عن تناول أحمد أمين فبينما نجد الموضوعية تطغى على أسلوب أحمد أمين نجد حرارة العاطفة وقوّة الإنفعال طاغيين على أسلوب المنفلوطيّ فهو يقول فيه مثلاً :-

(يعتقد كثير من النّاس أنّ الرّجل والمرأة سواء فى الذكاء والعقل وعندى أنّهم أصابوا فى الأولى وأخطأو فى الأخرى .

تستطيع المرأة أن تُجارى الرّجل فى سرعة الفهّم وحضور البديهة ولا تستطيع أنْ تجاريه فى الأناة والرّفق وإمتلاك هُدى النّفس والأخذ بفضيلة الصّبر على ما تكْره وما تُحبّ .

---

١ - فضلاً راجع ص ١٨٠ من هذا البحث
٢ - سبق أن أوردنا قوله فى هذا المجال ص ١٧٨ من هذا البحث
٣ - المنفلوطيّ . النّظرات ج ٢ ص ٤٤

تستطيع المرأة أنْ تدركَ مايُدْرِكه الرجل من الشّؤون والأطوار وأنْ تستخرجَ كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنّها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لأنّ بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوىً غير هواه ولأنّ لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال مايحتمله عقله الكبير .

يمشي الرّجل وراء عقلْه فيهديه ، وتمشي المرأة وراء قلْبها فيُضلّها ، فما وقفت معه في موقف إلاّ سقطت بين يديه عجزاً وضعْفاً لأنّه يعرف السّبيل إلى قلبها ولا تعرف السّبيل إلى عقله . (١)

لولا أنّ الرّجل أعقل من المرأة ماكان له عليها هذا السُّلطان وذلك القلب ، ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يُقاد الجَنيْب ولا أنْ يملك عليها أمْر فقرها وغناها وحبّها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضْع القوانين والشّرائع الخاصّة من حيث لا نرى قوّة لدفعها والخروج عليها .

القويّ يملك على الضّعيف بحكم الطبيعة كل شيءٍ حتّى نفسه وهواه وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان وشأن الرّجل مع المرأة) (٢)

(يخدع الرّجل المرأة عن شرفها فيسلبها إيّاه ، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنسانيّ عليها رجاله ونساؤه . . وملأ قلبها هَولاً ورُعباً وأوسع نفسها تقريعاً وتأنيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأجّجة . . لأنّه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشّريعة . . وماكان له أن يقصّر في مُحاباة نفسه ومحاباتها ، لأنّه

١ - المنفلوطيّ . النّظرات ج ٢ ص ٤٥

٢ - المنفلوطيّ . النّظرات ج ٢ ص ٤٦

شرّه طمّاع مُحِبّ لذاتِه ، ولا أن يَعْدِل في القضاء في قضية هو الخَصْم فيها والحَكَم ، لأنّه ظالم جبّار) .

وهكذا نلمح في أسلوب المنفلوطي شعاع العاطفة المتوهّجة وحرارة الانفعال الصّادق مع جمال اللّفظ وعذوبته ورقّة الموسيقا وانسياب العبارة وقوّة أسْرِها ، كلّ ذلك يأخذ من غير شك بلبّ القارئ وعاطفته إلى عالم الأدب الحقّ لا الفكر المحْض الذي رأيناه في أسلوب أحمد أمين .

طريقة المنفلوطي

لقد أثمرت تلك الجهود التى بذلها الشيخ محمد عبده وأنصاره والتى سبقت الإشارة اليها ، حتى تبلور الإتجاه الذى راده فى طريقة فنيّة للمقالة ، تُعتبر الطريقة الفنّية الأولى - من حيث الزّمن - فى الأدب الحديث ، وقد كان مصطفى لطفى المنفلوطى هو العَلَم البارز فى تلك الطّريقة التى يمكن أن تحمل اسمه فيقال " طَريقة المنفلوطى " (١)

وطريقة المنفلوطى هذه لها سِمات وخصائص أسلوبية منها ما انفردت به ومنها ماشاركت فيه غيرها من الطُّرق(٢) وهذا ماسيتمّ تفصيله فى الصّفحات القادمة إن شاء اللّه (٣)

أما المثل الأعلى لهذه الطريقة ، فهو ذلك النّثر المُرسل الجيّد الذى خلفته عصور الازدهار العربيّة ، ولكن أخذ المنفلوطى منها لم يكن ذلك الأخذ الذى يمحو الشّخصية الأدبية عنده (وإنما كانت كتاباته برغم محافظتها - فيها كثير من الإبداع والأصالة - وعليها طابع الكاتب وملامح شخصيته .) (٤)

وهذه الطّريقة التى أوضح معالمها المنفلوطى ، إنّما هى طريقة مُحافِظة بيانيّة تُشبه إلى حدّ كبير طريقة شوقي فى الشّعر وقد قيل إنّ المنفلوطي قمّة من كتبوا بها بعد رِيادة محمد عبده لها . كما كان شوقي قمّة من اتّجهوا إلى الأسلوب المُحافِظ

١ - فضلاً راجع ص١٩٢ من هذا البحث .

٢ - أحمد هيكل تطور الأدب الحديث فى مصر . ص ١٦٦ بتصرّف .

٣ - فضلاً راجع ص١٩٣ إلى ٢١٢ خصائص أسلوبه .

٤ - د . أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث فى مصر.ص ١٦٦ .

البيانى بعد ريادة البارودى لها فى الشّعر (١) .

وقد ساهمت تلك الطريقة فى النّضال بكل ميادينة السياسية والإجتماعية والإصلاحية تماماً كما كان الشّعر البيانى المُحافظ ، وأبرز ما يُظْهِر هذه الطريقة هو أسلوبه فى " النظرات " و (العبرات) الذى جذب القرّاء بطريقة تشويقة الفذّة للعامّة منهم والنّاشئين من طلاب المدارس أو غيرهم من متذوّقى الأدب ، ولذلك بقيت مؤلفاته إلى وقتنا الحاضر - حيّة مقروءة تعاد طبعاتها إلى اليوم وغداً على حين اختفت معظم الكتابات التى كانت تهاجم صاحبها وذلك لأنّها كانت أكثر تمثيلاً لروح العصر .

ورغم ما أُخِذَ على هذه الطَّريقة من مآخذ حاقدة (٢) ، فقد كانت المقالات التى خلّفها هذا الأديب ، تُعدّ أوّل نماذج فنّيّة للمقالة ، لما تمتاز به من الإمتاع النّفسى والأدبى وليست مجرّد كتابات أخلاقية أو إجتماعية فحسب ، ككتابات غيره من الكُتّاب - (٣)

ويرى د . هيكل أنّ طريقة المنفلوطى هذه جاءت وَسَطاً بين إتجاهين آخرين فى كتابة المقالة فى تلك الفترة ، ولكن لم يكونا من الوضوح والدّقة حينذاك .

أولهما : الإتّجاه التّقليدى

والآخر : هو الإتّجاه التّجديدى .

أما الإتّجاه التقليدى ، فقد كان أكثر تشبّثاً بالتّراث والتّمسك بمخلفاته من حيث إصطناع السّجع والمحسّنات البديعية كما هو فى أُسلوب المقامات (٤)

---

١ - د. أحمد هيكل . تطوّر الأدب الحديث فى مصر ص ١٦٦ بتصرّف

٢ - فضلاً راجع هذه المآخذ فى ص ٢٢١ الى ص ٢٣٤ من هذا البحث

٣ - د . أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث فى مصر ص ١٦٧ - ١٦٨ بتصرّف

٤ - فضلاً راجع تعريف المقامة فى هامش ص ٣١ من هذا البحث .

أما موضوعاته فكانت كموضوعات المنظوطى ، منها ماهو فى الأدب ومنها ماهو فى الأخلاق ومنها ماهو فى إصلاح المجتمع ،

ويرى د . هيكل أن إمتداد تأثير هؤلاء السّجاعين الشّكليين من جانب والتّشبّث الشّديد بالتراث وبفن المقامات من جانب آخر ، بالإضافة إلى محاولة بعض الشعراء كتابة نثر فيه بعض خصائص الشعر من جانب ثالث ، يرأى أن كلّ هذه العوامل قد أوجدت هذا الإتجاه فى كتابة المقالة المسجوعة ، رغم إنطلاق لغة المقالة وتحرّرها أو ميلها إلى طريقة الفن النّثري الحق (١)

ويمثّل هذا الإتجاه التقليدى كتاب " صهاريج اللؤلؤ " (٢) للسّيد توفيق البكرى وكذلك كتاب " أسواق الذّهب " (٣) للشاعر أحمد شوقى ، فكل من الكتابين يحوى مقالات فى موضوعات مختلفة وإن غلب عليها طابع التأمّلات والإنطباعات والوصف كما تعتمد كل مقاله أساساً فى أسلوبها على السّجع ، وحشد المُتراد فات وإيراد الإشارات التّاريخية ، وبثّ الحِكَم والأمثال .

أمّا " صهاريج اللؤلؤ " فيزيد على ذلك تضمّن بعض المقالات ما يناسب المقام من الشّعر ، سواء كان ذلك الشّعر من وضع المؤلّف نفسه ، أو مأخوذاً من التّراث ، كذلك يزيد هذا الكتاب عن غيره اشتماله على بعض القصائد المُستقلة التى هى من وضع المؤلّف ولا تتخلّل النّثر المكتوب ويذكر د . هيكل فى هذا الإتّجاه التقليدى :-

---

١ - أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث فى مصر ص ١٦٩ بتصرُّف

٢ - ظهر عام ١٩١٢م

٣ - ظهر عام ١٩١٦ . فضلاً راجع كتاب المحافظة والتّجديد فى النثر العربى المعاصر لأنور الجندى ، ص ٢٤٣، وكتاب نشأة النثر الحديث لعمر الدسوقى حـ ١ ص ١٢٧

(وليس من شك فى أنّ هذا الإتجاه - رغم جودة بعض نماذجه - كان صحوة الموت بالنّسبة للنثر البديعى المتكلّف الذى لَفَظَ آخر أنفاسه بعد سيطرة الإتجاه المُرسل ، وتطوّر طُرقه وتنوّعها ، منذ الفترة التالية) (١)

ويطيب لنا هنا أنْ نورد نموذجاً من كتاب " أسواق الذهب " لشوقى ليظهر مدى التّباين الكبير بين أسلوبه المسجوع ، وطريقته فى عرض الموضوع وبين اسلوب المنظوطى بطريقته البيانية المُرسله .

يقول شوقى تحت عنوان (المَال)

(يامالُ الدّنيا أنت ، والنّاس حيث كنت ، سحرْت القرون ، وسخرت من قارون ، وسعّرت النّار يانيرون ، تعوّد الحقّد أنْ يحالفك ، وكنت على الشّر أن يخالطك ويوءّلفك ، الفتنه إن حرّكتها اتّقدت ، وإن تركتها رقدت ..) (٢)

ونورد هنا أمثالا من كتاب " صهاريج اللوءلوء " لنبين أيضا الفرق بين أسلوبه وطريقة المنظوطى فى الكتابة :-

يقول البكرى تحت عنوان (العُزْلَةَ) مُتحدّثاً عن عوامل هجرة الحياة الإجتماعية الحضرية ومافيها من مفاسد ... (٣)

(... وأما الأخْلّاء والصّحب والشجراء (٤) ، فحَسْبك من رجل يموت فى كلّ أمر لم ترده ، ونصير فى كل مطلب لم تقصده فإن عُرِضَ لك بعض الحاح ،

---

١ - د . أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث فى مصر ص ١٧

٢ - أحمد شوقى . أسواق الذّهب ص ٦٧ ، دار الهلال القاهرة ط ١٩٣٢م

٣ - السيد توفيق البكرى " صهاريج اللوءلوء " ص ٤٢ ام ومابعدها ط ٢

٤ - ج . شحير وهو الخليل الوفىّ

فالعلوى يسترقد الحجاج .. الخ) (١)

وهكذا بدا لنا في المثالين السابقين كيف كان السجع غالباً على هذا الاتجاه غلبة واضحة مخالفة كل الاختلاف لأسلوب المنفلوطي المرسل في " النظرات " أو " العبرات " فيقول مثلاً في مقال بعنوان " أيها المحزون " :ـ

(إن كنت تعلم أنه أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك ، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي لجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب ، وإن كنت تعلم أن أخلاق الأيام في أخذها وردها ، وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها ، حتى تكر عليها راجعة فتستردها ، وأن هذه سنتها وتلك خلقها في جميع أبناء آدم سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ..) (٢)

وهكذا يبدو للقارئ مدى الفرق بين طريقة الاتجاه التقليدي في المثالين السابقين وبين أسلوب المنفلوطي في الكتابة .

أما الاتجاه التجديدي ، فقد كان كرد فعل للاتجاهين السابقين لأنه لم يكن شديد الكلف بالصياغة وتحسينها أو رعاية جانب البيان وبالتالي لم يكن متكلفاً للسجع أو مصطنعاً لأسلوب المقامات لأن السائرين في هذا الاتجاه كانوا غير متعلقين بالتراث

---

١ - السيد توفيق البكرى ، " صهاريج اللؤلؤ " ص ١٤٢ ط ٢ (بدون تاريخ)

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٧٦

ولا من المؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية التى تشد إليه ، وإنّما يمّموا وجوههم شطْر المغرب مؤمنين بالحضارة الغربية أشدّ الإيمان ، فلم يهتمّوا بالبيان كما فعل المنفلوطى ولا بأنواع البديع والسّجع كما فعل البكري ، وإنّما وجّهوا اهتمامهم إلى الجانب الفكرى ، فمالت كتاباتهم إلى المَوضوعيّة واصطناع المنطق .. كما جنحوا إلى الوضوح والدّقّة والترسّل الكامل مع تجميل مايكتبونه بالفكر والثقافة الغربية .

وخير من يمثّل هذا الاتّجاه فى تلك الفترة أحمد لطفى السّيد (١) ونورد هنا مثالاً لِمَا كتبه تحت عنوان غرض الأمّة هو الإستقلال فقال :-

(إستقلال الأمّة في الحياة الإجتماعية ، كالخير فى الفردية ، لاغنى عنه ،لأنّه لا وجود إلّا به وكل وجود غير الإستقلال مَرَض يجب التداوى منه ، وضَعف يجب إزالته ، بل عار يجب نفْيه ، إستقلال الأمّة عن من عداها ، أو حريتها السياسية حقّ لها بالفِطرة ، لا ينبغى أن تتسامح فيه أو أن تنى فى العمل للحصول عليه ، بل ليس لها التنازل عنه لغيرها ... إلخ) (٢)

وهكذا سارت هذه الإتجاهات الثّلاثة فى كتابة النَّثر فى تلك الفترة ، ولكن مع غَلَبة الأسلوب البيانى المُرسل الجانح إلى حُسن الصّياغة وجمالها حتى فى غير المقالة من الفنون النثرية يُمكن أنْ يُقال :_

---

١ ـ د . أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث فى مصر ص ١٧٣ بتصرّف

٢ ـ عن كتاب شوقى ضيف ـ الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٥٧ ، ٢٥٨

(إنّ تلك الفترة قد شهدت ـ بظهور أول طريقة فنّية للمقالة ـ ظهور أول طريقة فنّيـة للنّثر الحديث ، وهو" طريقة المنفلوطي") (١)

---

١ ـ د . أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث في مصر ص ١٧٤

خصائص أسلوب المنفلوطي

لقد بيّنا فيما مضى من الصفحات أنّ للمنفلوطي طريقة خاصة في كتاباته (١) والذي لا شكّ فيه أنّ لهذه الطريقة سمات وخصائص أسلوبية تميّزت بها عن غيرها من الأساليب فاستحقت لذلك أن تضاف لإسم صاحبها فسُمّيت بـ (طريقة المنفلوطي) .

ولإبراز هذه السّمات لابدّ من ذكرها مقرونةً بنماذج من أدبه سواء في ذلك ماكتبه في (النّظرات) أو ماجاء في (العبرات) والقصص المترجمة بأسلوبه . وقد ذُكرت آراء كثيرة في أسلوب المنفلوطي نذكر مثلاً قول الدكتور أحمد هيكل في ذلك فيقول :-

(وطريقة المنفلوطي لها سِمَات أسلوبية واضحةٌ أهمّها :-
البُعد عن التكلّف ، والنّأي عن التّقليد ، والقَصْد إلى الصّدق ، والإهتمام بحُسن الصّياغة ، وجمال الإيقاع ، ورعاية الجانب العاطفي ثُمّ الميْل إلى السّهولة والتّرسُّل وترك التعقيد والمحسّنات ، فيما عدا بعض السّجع المطْبوع ، الذي يأتي بين الحين والحين للإسهام في موسيقا الصّياغة .) (٢)

وللدكتور شوقي ضيف رأي قريب من الرأي السّابق في أسلوب المنفلوطي وهو أنّ المنفلوطي لا يعني باختيار مواضيعه فحسب بل يَعْمد إلى العناية باختيار اللّفظ وجرسه الموسيقي تقليداً للقدماء في عنايتهم به .

---

١ - فضلاً راجع طريقة المنفلوطي ص ١٨٦ من هذا البحث

٢ - د . أحمد هيكل . تطور الأدب الحديث في مصر ص ١٦٦

(والمنظوطى لا يسجع ، ولكنه يعنى عناية شديدة بموسيقا ألفاظه ، وكأنّ النـــاس لا يقرأون بأبصارهم فى الصّحف بل هم يقرأونه أو يسمعونه بآذانهم على طريقـــة القُدماء قبل أن تتحوّل القراءة من السمع إلى البصر) (١)

كما يرى أنّ المنظوطى يكرّر فى معانيه على نفس طريقة الخطباء .

ونـرى أن هذا التكرار راجع إلى اهمية المعنى الذى يتحدّث عنه الأديب ورغبته فـــى تثبيت ذلك فى ذهن السامع وإثارة مشاعره ليهبّ إلى تنفيذ ما أراد من مقاله ، كحديثه عن الرّحمة والشفقة مثلاً والذى تكرر فى النّظرات بعناوين مختلفة وقصص متقاربة كلهـا تنتهى إلى هدف واحد وهو أن يكـون جميع النّاس رُحماء فيما بينهم حتى لا يشـعر أحدهم بالشّقاء والتّعاسة .

وممّا لاحظة الدكتور شوقى ضيف أيضًا على أسلوب المنظوطى التّكرار فـــى الألفاظ - وهذا مالاحظناه أيضا - كتكراره لفظ (إرحم . إرحم) وهذا فيما نـرى راجع إلى حرارة العاطفة وشدّتها أثناء كتابته ورغبته الأكيدة فى نقل هذه المشـاعر كاملة إلى السّامع للإستجابة السّريعة .

ولاحظ أيضا د . شوقى ضيف كثرة الفواصل فى عباراته فقال فى ذلك :-

(كما نرى عنده كثرة الفواصل بين العبارات إذ كثيراً مايقطع المعاني ويستأنفهـا ، وقد يكون ذلك بسبب إنفعالاته العاطفية ، ولكن نظنّ ظناً أنّه يتأثّر بأسلوب الخطابة فى عصره ، عند مصطفى كامل وأضرابـه) (٢)

---

١ - د . شوقى ضيف . الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٣٢

٢ - د . شوقى ضيف . الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٢٣٢

ذلك مُجمل ماقيل عن أسلوب المنظوطى دون تأييده بنماذج من أدبه لتجلو غير المفهوم أو الغامض منها . هذا وقد طاب لنا ماوجدناه فى رسالة (المنظوطى الكاتب) (١) طاب لنا ما وجدناه عن أسلوب المنظوطى من أقوال يمكن أن تأتى بها فى موضعها من هذا البحث .

ولعلّ أهم ماتمكنّا من ملاحظته على أسلوب المنظوطى هذه الخصائص :-

أولها :-

الأسلوب المُرسل السّهل ، فمن المعلوم أنّ أسلوب المنظوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، فكما أنّ ابن خلدون ثار على الأسلوب المقامى وحرّر أسلوبه - الذى كتب به مقدّمته - من السّجع والمحسّنات وانطلق به فى سلاسة وسُهولة كذلك كان صنيع المنظوطى فى عصره ، وإن كان رائد هذه النّهضة والبعث فى كتابة النّثر الشيخ رفاعة الطّهطاوى والشيخ محمد عبده فى أسلوبهما (٢) - إلّا أنّ المنظوطى قد سار فى اتجاههما سيراً حثيثاً رفعه إلى المكانة اللائقة بين أدباء عصره ، ولا شكّ أنّ خير دليل على أسلوب المنظوطى السّهل المُرسل الخالي من السّجع المتكلّف والمحسّنات المحقوننه ، هو كلّ ماكتبه فى (النظرات) أو (العبرات) أو القصص التى ترجمها بأسلوبه والتى لا تحسّ أثناء قراءة شيئاً منها ذلك التّعقيد اللّفظى أو السّجع المُتعمّد الذي يُضيع المعنى ويشوّه الأسلوب ، وإنّما سهولة وعذوبة وسلاسة وجمال توحى بالشّعر وهو ليس كذلك وترتقى بالأسلوب النثرى إلى القمّة التى يسعى إليها كلّ أديب فى أيّ عصر فما بالنا لو كان فى عصر المنظوطى ؟

---

١ - محمد أبو الأنوار . المنظوطى الكاتب . رسالة ماجستير مخطوطة بدار العلوم القاهرة سنة ١٩٦٦

٢ - عمر الدسوقى . نشأة النثر الحديث وتطوره من ص ٢٦ الى ص ٤٥

ولنأخذ على ذلك مثالاً مما كتبه هذا الأديب فى النظرات لنرى مدى هذه العذوبة وإلى أى حدٍ استطاع المنفلوطى الترسل فى كتابته ؟

فيقول المنفلوطى فى مقالة (إحترام المرأة)

(نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ، ولكن المرأة عماد الرجل وملاك أمره ، وسر حياته من صرخة الوضع إلى أنة النزع .

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم ، فهى التى تحوطه بعنايتها ورعايتها وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها ، وتسكب قلبها فى قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد ، يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد ، وهى التى تسهر عليه ليلها وتكلأه بنهارها وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها فى سبيله ، غير شاكية ولا متبرمة ، بل تزداد شغفاً به ، وإيثاراً له ، وضناً بحياته بمقدار ماتبذله من الجهود فى سبيل تربيته ، ولوشئت أن أقول لقلت إن سمو الحياة الإنسانية وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذى تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر فى كلمة واحدة هى (قلب الأم ..) (١)

كذلك لأدب المنفلوطى سمه ثانية ، وإن كانت تبدو للقارىء فى مقابل السمة الأولى ، وتبنى هذه السمة هو السجع والإزدواج (٢) ذلك السجع الذى لا يؤدى المعنى ولا يشوه الأسلوب وإنما هو السجع الذى يقول فيه الدكتور أبو الأنوار :-

(يمكن القول بأن السجع والإزدواج لدى المنفلوطى ليس تقليداً لسابقيه، فهو

---

١ - المنفلوطى . النظرات . ح ٣ ص ١٠٢

٢ - فضلاً راجع فى معنى السجع والإزدواج .. كتابى (الصناعتين) للعسكرى ص١٩٩ ومابعدها كذلك كتاب سر الفصاحة للخفاجى ص ١٦٣-١٦٩ ط سنة ١٩٣٢

فهو أساساً كان يحتّم عليهم اللجوء إلى الصّنعه فى الأسلوب بل إن أدبه قضى نهائياً على بقايا مدرسة الصّنعـة) (١)

ويضيف الباحث أنّ سجع المنظوطى وازدواجه يمثّلان مِزاجه بل مِزاج اللغة العربية فى الميل إلى الموسيقا اللّفظية التى تجمّل الأسلوب وتُقوّى المعنى (١)

ولتأييد هذا القول نُورد شاهداً من النّظرات ورد تحت عنوان (عِبْرة الدّهر)

يقول فيه الأديب :-

(بنى فلان فى روضة من بساتينه الزّاهرة قصراً فخماً يتلألأ فى تلك البُقعة الخضراء تلألُؤ الكوكب المُنير فى البُقعة الزّرقاء ، ويطاوِل بشُرفاتِه الشّمّاء أفلاك السّماء كأنّه نسر محلّق فى الفضاء ، أو قِرط معلّق فى أُذنِ الجوزاء ، وكأنّ شُرُفاته آذان تفضى إليها النجوم بالأسرار وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشُّموس والأقمار ..) (٣)

وثالث سِمَة فى أسلوب المنفلوطى " موازنة الجُمَل " وهى أبرز ظاهرة أسلوبية فى كتاباته (٤) بل هى لديه أكبر من أن يشملها الإحصاء (٥)

---

١ - محمد أبوالأنوار . مصطفى لطفى المنظوطى الكاتب . رسالةِ ماجستير مخطوطه ص ٥٣٢

٢ - محمد أبو الأنوار . المنظوطى الكاتب . ص ٥٣٢ بتصرُّف

٣ - المنظوطى . النظرات . ج ١ ص ١٠١

٤ - عرّف صاحب " زهر الربيع " " الموازنة " بقوله : وهى تساوِى الفاصلتين فى الوزن دون التّقنية كقوله تعالى (ونمارق مَصفُوفةٌ وَزَرابِىّ مبثوثة) فضلاً راجع زهر الربيع ص ٢٥٣ احمد الحملاوى ط ٤

٥ - محمد أبوالأنوار . مصطفى المنظوطى . الكاتب ص ٥٧٨

ونكتفى هنا بقليل عن كثير منها ، فنُورِد مثالاً واحداً يؤيد ذلك ، يقول المنفلوطى :-

(كنّا وكان الأدب حالاً قائمة بالنّفس تمنعُ صاحبها أن يُقدِم على شرّ أو يحدّث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه ، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس ، أو نـزْوة من نزواتِ العقل ، وجد فى نفسه عند غشيانه من المَضض والإرتماض ما ينغّصه عليه ويكدّر صفوه وهناءه ، ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم ، وحركات وسكنات وإشارات والتفاتات لا دْخل لها فى جوْهر النّفس ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها فأحسن النّاس عند النّاس أدباً وأكرمهم خُلقاً وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على أن يكون كذِبُه سائغاً مُهذّباً ، ومَنْ يُخلِف الوعْد على أن يُحْسِن الإعتذار عن إخلافه ومن يبغض النّاس جميعاً بقلبه على أنْ يحبّهم جميعاً بلِسانه ، ومن يقترفُ ماشاء من الجرائم والذّنوب على أنّ يُحْسِنَ التّخلّص من نتائجها وآثارها .. إلخ) (١)

ورابع تلك السّمات إستهال أُسلوبه على المقابلة والمطابقة وكانت أكثر نجاحاً فى أسلوبه من السجع والإزدواج وبذلك يتسنى لنا أن نجمع السّجع والإزدواج والمُقابلة والموازنة فى أسلوبه - فى صنعة بديعية واحدة .

هذه الصّنعة هو التفويف . (٢)

وباستقراء أدب المنفلوطى أو نثره خاصّة يبدو مدى إرتياحه إلى هذا التفويف " حتى نجده قد غلب على أسلوبه فبدا ذلك الأسلوب كالشّعر عذوبة وسلاسة وبهاء ولِمَ لا ؟ وهو القائل :-

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ ص ٢٩

٢ - وهو أنْ يُؤتَى فى الكلام بمعان متلائمة فى جمل مستوية المقادير أومتقاربتها . فضلاً راجع البلاغة الفنّية للأستاذ على الجندي ص ٦٣ ط ١٩٥٦م

وهل الشعر والإنشارة من الدرّ ينظمها الناظم إن شاء شعراً وينثرها الكاتب إن شاء نثراً ، أو نغمات الموسيقا يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض وقافية ، أو خافيتين من فقر وإسجاع . (١)

ومع وجود هذه الظاهرة البديعية فى أسلوبه نستطيع أن نشاطر الأستاذ عمر الدسوقى رأيه الذى أثبت فيه ، أننا لا نعيب على المنفلوطي عدم تخلصه التام من السجع والمحسنات البديعية لأن أسلوبه فى جملته يعدّ أنجح خطوة فى النهوض بالنثر فى العصر الحديث بعد فترات الضعف والانحطاط التى مرّت به وبعد محاولات التخلص من أسرها ، فيعدّ المنفلوطي - من غير شك - رائد هذه النهضة إلى أسلوب جديد (٢) (ذلك الأسلوب الذى مثّل الدفعة القوية التى دارت على أثرها عجلات اللغة العربية ولم تتوقف ، وإن الموجه العارمه التى تشكلت فى الإقبال على قراءته والتأثر به تمثّل القنطرة العظيمة التى عبر عليها الأدب إلى عالمه اليوم) (٣) وقد بينّ الأستاذ على الجندي دور المنفلوطي فى الأدب الحديث وتطوّر أسلوبه بقوله :-

(ثم كانت الضربة الثانية - فيما بعد - كتب المنفلوطي التى ملكت على نشء المدارس والمعاهد ألبابهم بديباجتها الموثّقة وأسلوبها السهل الممتنع فانكبّوا عليها يقتبسون منها ويحتذونها إلى وقت قريب) (٤)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ١٦٠

٢ - عمر الدسوقى . فى الأدب الحديث ج ٢، ص ١٧ بتصرّف

٣ - محمد أبوالأنوار . المنفلوطي الكاتب - رسالة ماجستير مخطوطه ص ٥٧٩

٤ - على الجندي - صور البديع فن الإسجاع جـ ١ ص ١٦٧

كذلك لا نعيب على المنظوطى تزويقه لأسلوبه بتلك الأسجاع العفوية أو المقابلات التى لا تخلّ بجمال الأسلوب أو صحّة المعنى ، لأن الأسلوب العربى بطبيعته ميّال إلى التّجمّل بالنّغمات الموسيقية ظاهرةً وباطنةً فى غير تكلُّف يجعل الصّحة مرضاً والزّينة قُبحاً وسمةَ التجمل - غير المتكلّف - هذه لا يبرأ منها الأسلوب الرّفيع ، بل ربما زاد المعنى جمالاً وإعجاباً ، فالمعنى الجميل إذا وُضعَ فى أسلوب جميل ، كالفتاة الحَسْناء يزيدها التجمّل حُسناً وبهاءً ، ولا أدلّ على ذلك من القرآن الكريم ذا المعانى الخالدة والمعارض السّامية وقد أشار الأستاذ العقاد إلى أنّ اللّغة العربية لغة شاعره بطبيعتها فقال :-

(اللغة الشّاعرة هى اللّغة العربية وليس فى اللّغات التى نعرفها أو نعرف شيئاً كافياً عن أدبها لغة واحدة تُوصَف بأنّها لغة شاعرةٌ غير لغة العقاد أو لغة الإعراب أو اللغة العربية) (١)

وعلى حسب القول السّابق يكون المنظوطى فى تزويقه لأسلوبه ببعض السّجعات أو المقابلات غير المتكلّفة خاضعاً لطبيعة عصرٍ من جهة - وإن كان رائد النّهضة النثرية فيه - وخاضعاً لطبيعة اللّغة التى يكتب بها من جهة أخرى .

وسمة خامسة فى نثر المنظوطى هى توفيقه فى الإقتباس من القرآن الكريم ، أو مما حفظه من أشعار العرب بما يناسب المَقام الذي يتحدّث عنه كذلك تضمينه لبعض الآيات

---

١ - العقّاد - اللغة الشّاعرة صـ ٠٧ ط ١٩٦٠م

والأحاديث النبوية ولعل هذا التوفيق منه فى الإقتباس من القرآن أو الحديث إنما يدل على ذوق أدبي رفيع وعلى سعة ثقافته الدينية وإطلاعه الواسع على أشعار العرب وحفظه لما أحب منها .

كذلك نلمس فى أسلوبه تمثله بالحكايات والنوادر والأمثال وما إلى ذلك من أخبار السابقين ، أما ما يدل على إقتباسه من القرآن الكريم قوله :-

(إن الإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فإن بذل الضنين بماله فى مواقف الرحمة والشفقة والشحيح بنفسه نفسه فى سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه ... وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد فى مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها ، فذلك المؤمن الذى لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب أولاً ، فما هون بمهمته ومسواكه وسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب أجدر منه بعنوان التقي الصالح .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (١)

هكذا بدا لنا فى المثال السابق كيف أتى المنفلوطي بآية من القرآن الكريم ليؤيد حديثه عن الإيمان ، وهذا يدل دلالة واضحة على حفظه للقرآن الكريم كما ذكرنا ذلك فى روافد ثقافته (٢)

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٢ ص ٧٥ .

٢- فضلاً راجع ص ١٣ من هذا البحث

وللمنفلوطي مقالات أخرى إقتبس فيها نصّ الآية الصريح لتأييد حديثه (١)

ونجد المنفلوطي أحياناً لا يُصرّح بنصّ الآيـة الصّريح وإنّما يأخذ معناه فقط فيذكـره في مقاله فها هو ذا يقول في الخُطبة التي ترجمها (لفيكتور هيجو) في تأبين (فولتير) (ماتات فولتير حتّى احدودب ظهره تحت أثقال السّنين الطّوال وأثقال جلائل الأعمال ، وأثقال الأمانة العُظمى التي عُرِضَت على السّموات والأرض فأبين أنْ يَحْمِلْنَهَا ، فَحَمَلَهَا وحده ، وهي تهذيب السّريرة الإنسانية فهذّبها فاستنارت ، فاستقام أمرها) (٢)

فالأديب في النّموذج السّابق قد استفاد من معنى الآية القائلة :-

(إِنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) (٣) صدق الله العظيم

وتضمينه السّابق لمعنى الآية الكريمة المذكورة دليل أكيد على تصرّف المنفلوطي في ترجمته التصرّف اللائق بالمعنى الذي يُترجمه لأنّ عرض الأمانة على السّموات والأرض وإبائهن لحملها وقبول الإنسان لها معنى إسلامي خالص من غير شكّ .

أمّا عن إقتباسه من الحديث النبوي الشريف ، فكثيراً ما كان يصوغ فكرته متضمّنه لمعنى حديث نبويّ كريم وخاصّة أثناء دعوته إلى فضيلة من الفضائل مثال ذلك ماجاء في مقال :-

(إحترام المرأة) حيث تحدث عن الرجل ومسؤوليته اتجاه أسرته قائلاً :-

(لا يستطيع الرّجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشّجاعة والهمّة ، وتغرس في قلبه كبرياء التّبعة وعظمتها وحسب المرء أنّه يعلم أنّه سيّد

١- المنفلوطي - النظرات . ج٤ ص ١٨١

٢ - المنفلوطي . النّظرات ج ٢ص٢٧

٣ - آية رقم ٧٢ سورة الأحزاب

وأنّ رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه ، وتستظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شؤون حياتها عليه ، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السّيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتمّ له ما يريد) (١)

ففي النّموذج السّابق نلاحظ أنّ الأديب أخذ معناه من الحديث الشّريف الذي حضّ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم - على مسؤولية المرأة في بيتها ومسؤولية الرجل في أسرته حيث قال صلى الله عليه وسلم :-

(ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيّته فالأميرُ الذى على النّاس راعٍ وهو مسئولٌ عن رعيّته والرّجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئولٌ عنه ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته) (٢)

كذلك يظهر إتخاذه المعاني السّامية في أدبه من الحديث الشّريف ، يظهر ذلك في دعوته إلى الفضيلة والتّحلي بالآداب العامّة قوله في مقال (الآداب العامة) داعياً فيه الشّباب إلى عدم إفساد أخلاق الفتيات بمغازلتهنّ لأنهنّ سيصبحن أمهات المستقبل فقال :-

(أين تجدون الزّوجات الصّالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم ، وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوّثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً) (٣)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج٣ ص١٠٣

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي المجلد ٦ ج ١٢ ص ٢١٣ ط ٢ سنة ١٩٧٢م دار الفكر بيروت

٣ - المنفلوطي - النظرات ج ٣ ص ٢٣٩

فنلاحظ أن هذا المعنى مأخوذ من الحديث الشريف الدّاعى إلى حُسن اختيار الزّوجة من البيئة الصّالحة والذى نذكر معناه هنا إذ جاء فيه :-
إياكم وخضراء الدِّمَن فقيل له وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء (١)

هذا عن أخذ المنفلوطى لبعض معانيه وألفاظه من الكتاب والسُّنة ، فماذا بعد عن أخْذِه من أشعار العرب بما حفظه فى ذاكرته من تلك الأشعار ؟

لقد ساعده ذلك المحفوظ - من غير شكّ - على تجميل أسلوبه وتأييد معناه الذى يتحدث عنه بالاستشهاد ببيت أو بيتين من الشّعر كلّما أمكن ذلك فها هو ذا مثلاً يقول فى مقال بعنوان (مدرسة الغرام) (٢)

(أيها الزّنجى إن كنت أسود اللّون ، فالفضيلة أعلى قدراً من أن تَتَنزّل لاعتبار السّواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة لا تغتفرها ، وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنّن فى فجور الحياة وقسوتها تفنناً لا أحسبك تحنّ إليه إذ تتقطع نفسك حسرات عليه؟ وإن كنت عارياً فربّما لبسْتَ من الفضيلة ثوباً يحسُدك عليه - لو يعقِل - ذلك الذى يفْخَر عليك بخزّه ودِيباجه ودِمَقسه وحريره .

ولو بِتّما عِنْدَ قدْرِيكُما لبِتّ وأعلاكُما (الأسفل)

---

١ - أوردنا الحديث بالمعنى وليس بالنّص

٢ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ ص ١٦٧

ومعنى البيت هو : لو أن صاحب الفضيلة وصاحب المال الكثير - لو أن كلٍ منهما نزل المنزلة التى يستحقها لأخذ الاعلى فى نظر نفسه وفى رأي النّاس - وهو صاحب المال - مكان الأسفل - وهو صاحب الفضيلة - الذى ليس له أى احترام فى نظر كثير من الموسرين .

كذلك نلاحظ أن المنفلوطي قد يصوغ معنى بيت من الشّعر فى مقاله دون التّصريح بنصّ البيت فيقول مثلاً فى مقالٍ له سمّاه (دورة الفلك)

(لا تأسيَ على ما فاتك ، فإنّما كان وديعةً من ودائع الدّهر أعاركها برهة من الزّمان ثمّ استردّها) (١)

فالقول السّابق أُخِذ معناه من البيت الآتى :-

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ولا بدّ يوماً أن تُردّ الوَدائعُ

ثم يتمّ المنفلوطي حديثه فى هذا المقال موجّها الخطاب للسّلطان عبد الحميد - الذى زال عنه ملكه بقوله :-

(قضى الله أن يقيم فى كل حين لهذا العالم الغافل عِبرةً من الدّهر تُزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت أنت عبرة الدّهر وموعظته .

من بات بعدك فى مُلْك يُسرّ به

فإنما بات بالأحلام مغرور (٢)

---

١ - المنفلوطى - النظرات ج ٢ ص ٢٦

٢ - المنفلوطى . النظرات ج ٢ ص ٢٦

أمّا عن تمثّله لبعض أخبار التراث فنلاحظ ذلك مثلاً في مقاله (عجائز بوشنج) (١) الذى انتقد فيه الأديب كل إنسان تناسى ماضيه الشقى إذا عاش فى حاضر سعيد ، مما يدفعه إلى التنكر لأهله وذويه بل حتى زوجه التى شاطرته حياته الأولى وماضيه التعيس ، ويرى الأديب أن من الحرىّ بشخص كهذا أن يضع ماضيه نصب عينيه حتى يشعر بلذة السعادة فى أيامه الحاضرة ، ويتمثل المنفلوطى هنا بقصة (خالد بن برمك) جد البرامكه فيقول :-

(ويعجبنى كثيراً قصة خالد بن برمك جدّ البرامكه وكان رجلاً أعجمياً من قرية من قرى فارس إسمها (بوشنج) وفد إلى بغداد وحظى عند الخليفه فولاّه الوزارة فلمّا ركب فى الموكب الذى إعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم ، وقف النّاس له صفوفاً على جانبىّ الطّريق ، وأطلّ النساء من نوافذ الدّور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه الا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟
قال : نعم أراهنّ ولكنّنى أفضّل أن أرى بدلاً منهن عجائز (بوشنج)

أى أنه يتمنّى أن العيون التى رأته بالأمس وهو وضيع تراه اليوم وهو رفيع) (٢)
كذلك يجدر الإشارة إلى سمة غالبة على أدب المنفلوطى بل هى السّمة التى وضحت فى أدبه وضوحاً شديداً فعرف بها وعرفت له تلك هى :-

---

١ - المرجع السابق ح ٣ ص ١٩٤

٢ - المنفلوطى - النظرات ح ٣ ص ١٩٧

النغمة الحزينة الباكية فى أدبه ، تلك النغمة الممتزجة بالعاطفة الجياشة التى يملؤها الأسى ويغمرها الألم لحزن المنكوبين أو ظلم المظلومين ، والتى تستذرف عبرات القرّاء والسامعين لأدبه ، ولا أدلّ على ذلك من قصصه الباكية الحزينة التى أوردها فى " العبرات " ذلك الكتاب الذى يدل عليه عنوانه وما العبرات إلا دليل أكيد على بالغ الحزن والأسى ..

وأبرز مثال على مافى هذا الكتاب من أسلوب حزين قصة اليتيم التى لا يقرأها قارئ إلا واهتزت نفسه ألماً وحزناً .. فها هو ذا يقول فى القصة :ـ

(فأحزننى أن أرى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه فى غرفة عارية باردة لا يتقى فيها عادية البرد ، بدثار ولا نار ، يشكو هماً من هموم الحياة أو رزءاً من أرزائها قبل أن يبلغ من الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت البناء المقوض فلم أزل واقفاً مكانى لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعى ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده فى صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتى عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك فى كثير من الليالى إمّا باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره أو منطوياً على نفسه فى فراشه يئن أنين الواله الثكلى ، أو هائماً فى غرفته يذرع أرضها ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه منتحباً فأتوجع له وأبكى لبكائه .. إلخ). (١)

---

١ ـ المنظوطى " العبرات " ص ٨

ونلمس هذه النغمة الحزينة أيضاً قصة " الشهداء " (١) فيقول المنفلوطي على لسان الأم التي أرتحل عنها ابنها وقطعت أخباره :-

(في أي بطنٍ من بطون الأرض مضجعك يابني ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟

لو يعلم الطير الذي مزق جثتك أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك تحت جوفه أن وراءك أماً مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي ؟

عد إلي يابني فقيراً أو مقعداً أو كفيفاً فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة لأقبلك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخفف بزورتك عني ضمة القبر ، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة .

ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيباً وهي لا تعلم هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها) (٢)

وعلى هذه النغمة الحزينة الدامعة يمضي المنفلوطي في قصته ، تلك النغمة التي يفجرها الشعور الصادق والإحساس العميق بمصاب الآخرين وأرزائهم والذي لا شك فيه أن معظم ماكتبه المنفلوطي حافل بمثل هذه الشواهد المؤثرة

---

١ - فضلاً راجع تلخيص هذه القصة في ص ٩٧ من هذا البحث .

٢ - المنفلوطي، العبرات، ص ٢٨ .

ولعلّ ذلك راجع إلى ميل نفسه إلى مواطن البؤس والشقاء أنّى كانت وتتبّعه لها حيثما حلّت سواء كان ذلك في مجتمعه الذي يعيش فيه أو في القصص الحزينة التي يقرأها أو تحكى له ، فكل ذلك من غير شكّ ينعكس على أدب الأديب ويظهر تأثّره به ، هذا بالإضافة إلى إعجاب النّاس واستجابتهم لهذا الأسلوب الباكي كل ذلك قد أدّى أخيراً إلى استمرار المنظوطي على هذا الأسلوب الحزين المحرّك للمشاعر الإنسانية ، وماذاك إلا دليل واضح على تمتّع المنظوطي بكل العواطف الإنسانية الصادقة التي تدعو بحرارة وإصرار إلى الخير والفضيلة دائماً .

أما اذا أضفنا إلى ذلك أنّ (كل عاطفة قوية فعّالة تحمل صاحبها على العمل بمقتضاها ، وعلى السّرور عند رؤية من يخضع لأوامرها ، وعلى التألّم إذا لم يجد الفرصة الكافية لتنفيذ رغباتها أو إذا رأى من يخرج عليها ويتعمّد إهمال شأنها (١) إذا أضفنا ذلك إلى قولنا السّابق - أمكن التنبه إلى أنّ ظروف عصره التي لم يكن راضياً عنها حيث لم يجد فيها المثال الذي ينشده لبني قومه - قد ساعدت على نموّ هذه الحساسية لديه والتي سال بها قلمه محركاً برقتها مشاعر الآخرين .

وثمّة ظاهرة أسلوبيّة أخرى في أدبه هي :-

تمتّع ذلك الأسلوب بالحكمة الخالدة ، فيلاحظ القارىء له اهتمام الأديب بتدعيم وجهات نظره - المبثوثة في مقالاته - بالحكمة من حين إلى آخر ، وكان يلتقط معناها حيناً من الشّائع العام بين النّاس ويلجأ حيناً آخر إلى حسّه وملاحظاته ، فيكتب فيها

---

١ - حامد عبد القادر دراسات في علم النفس الأدبي ص ٥٤ ، ٥٥ . ط ١٩٤٩م

ما يلذّ القارئ ويطربه كقوله :-

(لو وفّيت لزوجتك لوفّت لك ، لو أدّبت ولدك لعناه أمرك ، لو أحسنت اختيار صديقك ماخانك ،لو رحمتَ نفسك ماخسرتَ حياتك) (١)

ويقول في مقال آخر :-

(... لا يمكن أن تجتمع رحمة الرّحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد ، الا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملَك الرّحيم والشّيطان الرجيم) (٢)

ويقول في موضع آخر :-

(العرض أغلى من الحياة فان كان مَنْ يَمنح الحياةَ فاقدَها شريفاً فأشرف منه من يردّ المالَ إلى صاحبه المفجوع فيه) (٣)

كذلك من خصائص أسلوبه ،قوة الحجّة وبراعة الإستدلال ، وقد أورد صاحب رسالة "المنفلوطي الكاتب" إحصائية عن كثافة هذه الظّاهرة فيما كتبه الأديب مثال ذلك قوله للزوج الذى سأله في شأن زوجته التي كُفَّ بصرها ويريد طلاقها :-

(أعيذك أيها الإنسان بالّله ورحمته والعهد وزمانه ألا تجعل لهذا الخاطر السّيء خاطر الطّلاق والفراق - سبيلاً إلى نفسك ، فإنها لم تسيء إليك فتسيء إليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فإن كنت لا بدّ ثائراً لنفسك فاثأر لها من القدر إن استطعت إليه سبيلاً ، ان عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٠٨

٢ - المرجع السابق ص ٨٧

٣ - نفس المرجع ص ٢١٢

فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه ويعتدي عليه) (١)

وقبل هذه السمة وغيرها ، فإن أسلوب المنظوطي يمتاز بقوة الأسر مع جمال العبارة وبراعة التصوير ودقته نلاحظ ذلك مثلاً في أقواله الآتية :-

(فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حباً شديداً ووجدت في عشرتها السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين إلى حين ...) إلى أن يقول (وقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحله إلا ريب المنون ..) (٢)

وقوله :-

(الوجوه مرايا النفوس تضئ ، بضيائها وتظلم بظلامها) (٣)

وقوله :-

(والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها) (٤)

وقوله :- (صفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع المسرح بعضها إلى بعض) (٥)

وقوله من الملاعب الهزلية :-

(إن هذه الأماكن التي تطؤها أقدامكن إنما هي مقابر المجد والشرف ، ومدافن الفضائل والأخلاق ومصارع الأعراض والحرمات) (٦)

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٢ ص ١١٩
٢ - المنظوطي . العبرات ص ١١
٣ - المرجع السابق ص ٧٦
٤ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ٢٢٤
٥ - المرجع السابق ص ٢١٣
٦ - // // ص ٤٠

أضف إلى تلك الخصائص خاصة واضحة فى أدبه دعته إليها حاجة العصر وأحواله الإجتماعية تلك الخاصة هى تميز أسلوبه باللهجة الخطابية المثيرة المشوقة كقوله مثلا :-

(فيا طالب العلم كن عالى الهمة ، ولا يكن نظرك فى تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث فى قلبك الرهبة والهيبة فتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، أو خرافة من خرافات الجان وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم إستسلام العاجز الضعيف وتقول : من لى بسلم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال ؟

يا طالب العلم أنت لا تحتاج فى بلوغك الغاية التى بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل غير عقلك وأداتك ، ولكنك فى حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل وأوسع من رقعة الارض وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك فى خلواتهم من وصفك بالوقاحة وبالسماجة ، فنعم الخلق هى إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم فى غيهم يعمهون) (١)

وهكذا ... بدت لنا خصائص أسلوب المنفلوطى السابقة فى ثوب قشيب من تراكيب مشتملة على جمال الصورة وقوة العبارة مع سهولتها وسلاستها الواضحة .

---

(١) المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ٢٣٦

ألفاظ المنفلوطى :- أما إذا نظرنا إلى ألفاظ تلك العبارات الجميلة الصحيحة لوجدنا أن المنفلوطى لم يكن متقعّراً فى ألفاظه ولا باحثاً عن الصعب منها بل هى ألفاظ سهلة التناول عذبة الموقع معبّرة عن الموقف، حزينة مؤثّرة تدلّ على نفس قريحة معذّبة وتعاطف إنسانىّ بديع وما ذاك إلّا دليل أكيد على صدق العاطفة عند الأديب وقدرة واضحة على تخيّر اللّفظ والتّحكّم فى نظمه ممّا يؤكّد خبرة المنفلوطى واطّلاعه الواسع على علوم اللّغة العربية الجميلة وقد صدق قول الأستاذ عمر فروخ عن المنفلوطى القائل فيه :-

(والمنفلوطى مقتدر فى فهم عبقرية اللّغة عارف ببلاغتها وبيانها ، أديب ، فهو من أجل ذلك كله يتخيّر كلماته تخيّراً كبيراً لأنّه فى الحقيقة لا يهتمّ بالآراء والأفكار بقدر ما يهتم بحسن التّعبير عنها) (١)

ومثال الألفاظ الموحية بالموقف والمؤثّرة فى نفس السّامع قوله :-

(حشرجة الموت (٢) (ينشج نشيجاً) (٣) - معبّراً عن شدّة البكاء المؤلم - (شعرت برأسه يلتهب التهاباً) (٤) (نفس قريحة معذّبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوّض) (٥)

(يئنّ أنين الوالهة الثّكلى) (٦)

---

١ - عمر فروخ - أربعة أدباء معاصرين ص ٢٢ ط سنة ١٩٤٤م

٢ - المنفلوطى النظرات ج ٢ ص ٢٠١

٣ - المرجع السابق ص ٢٠٨

٤ - المنفلوطى العبرات ص٩

٥ ، ٦ - المرجع السابق ص ٨

وكنا نأخذ على المنظوطي استعماله فى تعبيرة لبعض الألفاظ غير الصحيحة كقوله :-

(وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الإبانة عن أغراضه ومبراميه كأفضل مايتقدر فتقدر على ذلك (١)

يريد كأفضل مايقتدر قادر او مقتدر (٢)

وكقوله :-

ولم أر سائلاً دخل إليه يشكو حاجة من الحاج صادقاً كان فيها أم كاذباً . .) (٣)

فقد جمع حاجة على حاج والأصوب جمعها على حاجات ويجمع المنظوطي أيضا كلمة نظام على نظامات (٤) والأشهر جمعها على أنظمة .

ولكن . . . ينبغى ملاحظة أن تلك الأخطاء لا تتجاوز عدد أصابع اليدين والخطأ لابدّ أن يقع فيه البشر وجلّ من لا يُخطىء .

وجملة القول فى أدب المنظوطي ، إنه أدب إمتاز بخصائص أسلوبية إستحقّ بسببها أن تنتسب طريقته فى الكتابة له فسميّت بـ (طريقة المنظوطي) (٥) تلك الطّريقة التى جاءت وسطاً بين الأسلوب التّقليدى والأسلوب التّجديدى فى الكتابة والتى امتازت بسهولة عباراتها مع صدْق العاطفة وقوّتها تلك العاطفة التى فجّرت أسلوبه حُزناً وألماً وشفقةً على الآخرين بالإضافة إلى انعكاس ثقافته الإسلامية عليه فبدا استشهاده بالآيات الكريمات والأحاديث الشّريفة ، ولا يفوته بعد ذلك الإستشهاد أيضاً بما أودع ذاكرته من أبيات شعرية تؤيّد المعنى وتقوّيه مع اهتمامه بالتّمثل بقصص

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ٥

٢ . ونرجّح أن يكون ذلك خطأ فى الطّبع

٣ - المنظوطي . النظرات ح ٣ ص ٥١

٤ - المرجع السابق ح ١ ص ١٤٨

٥ - فضلاً راجع ماقيل فى هذه الطريقة ص ١٨٦ من هذا البحث

السّابقين ونوادرهم أضف إلى ذلك تجميلة لمعانيه بالحكمة الصائبة وقد نلاحظ أحياناً براعة الحُجّة والإستدلال فيما يكتُب ، وكثرة الأسلوب الخطابي فى أدبه نظراً لحاجة العصر إليه ورغبته فى إثارة المشاعر لسُرعة الإستجابة لفكْرته .

هذا وقد استطاع الأديب أن يجمع كل خصائصه الأسلوبية السّابقة فى تراكيب تمتاز بقوة الأسْر وجمال العبارة مع براعة التّصوير ودقّته ، بألفاظ سَهْلَة عذْبة يفْهمها العامّة والخاصّة ، باكية حزينة تهزّ المسّامع وتقْرع القلوب ، وماذاك إلّا لصدْق عاطفة الأديب وتعاطفه الإنسانىّ الفاضل .

ثانياً: مكانته في تاريخ الأدب العربي

إنّ حديثنا عن مكانة المنظوطي في تاريخ الأدب العربي ليس منقطع الصّلة بحديثنا عن مكانته بالنسبة إلى عصره لأنّ عصر المنظوطي هو جزءٌ من هذا التاريخ ومكانته في عصره هي تحديد لقيمته في هذا الجزء الزمني من تاريخ الأدب العربيّ .

ونحن لا نُريد أن نقف عند هذا الحدّ في تقييم أدبه ومكانته بل نُريد ان تتسع نظرتُنا فنقيسه بأدباء العرب الذين برزوا على مرّ العصور - من حيث أثره وصيته (وعندئذ سيقف في الصّف في مكان لا يكون فيه فريداً بل يشغله مع كثيرين ويتقدّم عليه غيره من أمراء البيان العربيّ في عصوره الزّاهره) (١)

ومن المعروف أنّ المنظوطي قد استمدّ ثقافته من كُتب ومؤلفات عصور العربية الزّاهرة يحفظ منها ويأخذ عنها ولكن هذا الأخذ قد حدّده بقوله :-

(إني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه إلا لأني إستطعت أن أنفلت من قيود التمثّل والإحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ، مانفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها علي وعجزها عن أن تُمسك إلا قليلاً من المفردات التي كانت تمرّ بي ، فلقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ثم لا ألبثُ أن أنساه فلا يَبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حُسنه ورقة الطّرب به وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي أو أستعين به على تهذيب بياني ، أو تقديم لساني ، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب ..) (٢)

---

١ - د . محمد أبو الأنوار . المنظوطي الكاتب . رسالة مخطوطة ص ٦٢١

٢ - المنظوطي . النظرات . المقدمة ص ٥ ، ٦

ومن هذا التصريح من المنفلوطي نفسه وقراءتنا لأدبه نستطيع القول أن المنفلوطي إمتداد للتراث العربي العملي ، ولكنه لم يكن مقلداً لشخص يعينه أو لمدرسة يعينها وإنما كان إمتداد للأسلوب البياني المشرق الديباجة .

وقد بدا لنا صدق ذلك في طريقته الخاصة به والتي إمتازت بسمات خاصة قد سبق إيضاحها (١) وقد كتب الزيات في مجلة الرسالة عن ذلك فقال :-
(كان المنفلوطي أديباً موضوعياً حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة والنثر الفني كان على عهده لوناً حافلا من أدب القاضي الفاضل أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون يتمثل الأول في طبقة المويلحي ، وحفني ناصف ، ويظهر الثاني ضعيفاً في طبقة قاسم أمين ، ولطفي السيد ، ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال والفرق أن بلاغة النظرات مرجعها إلى القريحة وبلاغة المقدمة مرجعها إلى العبقرية .) (٢)

ومعنى ذلك أن المنفلوطي له أثر شخصي في تاريخ الأدب العربي عند مروره بهذه الفترة لأنه رد إلى الأسلوب العربي حيويته ونضارته وخلصه من داء عضال قد أصابه ردحاً من الزمن .

وهنا يحضرنا جهد البارودي في رد الشعر العربي إلى قوته بفضل مختاراته التي وضعها بين يدي شعراء عصره . وإنما الفرق بينهما أن البارودي لم يضف جديداً

---

١ - فضلاً راجع طريقة المنفلوطي ص ١٨٦ وخصائص أسلوبه ص١٩٣ـ ٢١٥

٢ - أحمد حسن الزيات . الرسالة ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٧م

أمّا المنفلوطي فقد أسبغ على الأدب فيض شخصيّته بالقدر الواضح وإن سبقته محاولات أخرى وطرأت مؤثّرات كجهود الشيخ محمد عبده وجمال الدّين الأفغاني في تحرير النّثر من قيوده الى حدّ ما .

وقد ادّعى صاحب رسالة المنفلوطي الكاتب أن المنفلوطي في موقفه من النّثر كشوقي من موقفه من الشّعر ، كلاهما تلقّى عن القديم وتصرّف على الحديث بقدر ما أتيح له وكلاهما ترك طابعه الشخصي على انتاجه الفنّي ولكن يبقى فرق واسع بين الرّجلين يتركّز ذلك الفرق في أنّ شوقي في مكانه من الشّعر أرسخ قَدماً وأعلى فنّاً وأخصب فكراً وأغزر طبعاً ووجه الشّبه هو أنّ كلاهما صنع ذهباً - كما يقول - ولكن بينما صنع المنفلوطي رطلاً صنع شوقي قنطارا (١)

هذا وإذا تقدمنا خطوة في محاولة تقويم أدب المنفلوطي بالنّسبة الى أمراء البيان العربي في مجال النّثر أمثال الجاحظ وأضرابه - اذا قارنا أدبه بأدبهم وجدنا الجاحظ وأضرابه في مقام الأستاذيّة الرّفيعه على مرّ العصور بينما يتواضع المنفلوطي عن هذه المرتبة قليلاً ولكن ليس الى الحدّ الذي يراه الاستاذ أبو الأنوار وهو أنّه يقتصر في عطائه على مراحل التّعليم الأولى ليرفّق أساليب التّلاميذ وأذواقهم وليكون نموذجاً سهلاً مناسباً كالغذاء الذي يناسب سنّاً معيّنه في حياة الإنسان (٢)

نقول إنّنا لا نوافق الباحث على رأيه السّابق وإنّما نرى أن المنفلوطي يمكن أن يقف موقف الأستاذيّة الرّفيعه لأدباء عصره ومابعد عصره. وليس لطلاّب المراحل الأولى من التّعليم . بل لا يكون الأديب أديباً حقاً اذا لم يمرّ على أدب المنفلوطي الرائق

---

١ - محمد أبو الأنوار . المنفلوطي الكاتب ص ٦٣١ بتصرّف

٢ - نفس المرجع والصّفحه .

فيتأثر به وبطريقته وصَدَقَ سلامة موسى فى قوله :-

(إن أفضل ما يوضع بين أيدى الطلبة هذه الكتب القيّمة التى ألّفها المنظوطى وأنعِم بجيل ينشأ وقد قرأها وتذوّق حلاوتها وتأثّر بطريقتها واحتذى أسلوبها) (١)

ولا ننسى هنا قيمة المضمون الإنسانى والأخلاقى الرّفيع الذى تناوله المنظوطى فى أدبه (٢) ذلك المضمون الذى يحلّ جانباً هاماً من مشكلة الأخلاق الإنسانية التى نفتقدهما اليوم بين الناشئه وبعض المثقفين .

هذا المضمون الذى يرفع من قيمه أدبه إلى مقام الاستاذية الحقّه فأدب المنظوطى - فى رأينا - أدب يجمع بين جمال المظهر وحُسْن المخبَر ، وصفاء الجوهر ولا غرو إن كان أديباً أريباً وأستاذاً قديراً سواء فى عصره أو فيما تلاه من عصور .

---

١ - سلامة موسى . مجلة الهلال السنة الثانية والثلاثين ص ١٥٦

فضلاً راجع الباب الثالث من هذه الرسالة

موقف النقاد من أدبه

خلال الصفحات السابقة من البحث والدراسة (١) ، تبين لنا أثر المنظوطي الواضح في تخليص النثر العربي بصفة خاصة من قيود الركاكة والانحطاط فكان نثره إستجابة ناجحة لحاجة عصره ، وقد تجلى ذلك في كل كتاباته ، ولكنه بقدر ما أصاب من تقدير في حياته على ذلك الجهد المشكور ، وامتد هذا التقدير بعد وفاته من جانب المنصفين له ،- بالرغم من كل ذلك ،- فقد صادف حملة شعواء ضده .

وإذا تأملنا الذين نقدوه نقداً لاذعاً ، وجدنا نقدهم - في الغالب - لحاجة في نفوسهم ، وسيتبين ذلك في موضعه من هذا البحث (٢) إن شاء الله .

وقد اتجهت آراء النقاد حوله إلى اتجاهين :-

أولاً : إتجاه معارض له ولطريقته

ثانياً : إتجاه مؤيد لأسلوبه مقدر لجهوده كل التقدير .

أما الاتجاه المعارض فيتمثل في رأى كل من :-

د . طه حسين ، العقاد ، والمازني ، ومارون عبود

وأما أنصار الإتجاه الآخر فكثيرون أمثال :-

---

١ - فضلاً راجع ص ١٠٧-١٧٤ من هذا البحث ، ص ١٩٣

٢ - فضلاً راجع ص ٢٢٤ من هذا البحث

د . شوقي ضيف . د . أحمد هيكل ، د . محمد رجب البيومي .

الأستاذ عمر الدسوقي ، والأستاذ علي الجندي ، الأستاذ صلاح عبد الصبور ، السيد أحمد شفيع ، والدكتور طه حسين (قبل تحامله عليه) كذلك رأي العقاد (قبل تحامله).

وفيما يلي من الصفحات وجهة نظر كل من الفريقين (١) ، ولنا بعد ذلك تعقيب على هؤلاء كما أن لنا أيضاً رأينا الخاص في أسلوبه وبيان الأسباب التي أدت إلى تحامل بعض المتحاملين عليه .

أولا : الإتجاه المتحامل عليه :-

أ - بين د . طه حسين والمنفلوطي :- إعترف د . طه حسين في مقال له ، أنه كان يُقبل على قراءة المؤيد يوم تنشر مقالاً للمنفلوطي ، وذكر أن مقالات ذلك الكاتب الكبير كانت تبلغ من قلبه مبلغاً عظيماً فقال فيه :-

(لقد كنا نقرأ النظرات والأسبوعيات فتبلغ من قلوبنا أضعاف ما تبلغه منها اللزوميات الآن ، ولقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تُنشر فيه نظرة أسبوعية فقد علم الله أني كنت أشغف به كل الشغف وأُقبل عليه كل الإقبال ، ولا بدع فإن الذي كلفني عرق القربة إلى مغني البسفور ، والبيلفيدير ، ومهرجان النيل هو بعينه الذي يكلفني قراءة المؤيد يوم تنشر فيه مقالات هذا الكاتب الكبير ...) (٢)

ولم يمض على هذا الإعتراف عام واحد حتى بدأ يكتب سلسلة مقالات تحت عنوان . نظرات

---

١ - فضلاً راجع ص٢٣٤ من هذا البحث

٢ - مصر الفتاة ٣١ / ٨ / ١٩٠٩م .

فى النظرات . إتّهم فيها المنفلوطى بالجهل والسَّرقة الأدبية والكذب والتغرير وتضليل القرّاء ، وحشا كتابه بالألقاب النّابية والعبارات الجارحة (١)

فقال مثلا فى النظرة الثانية :-

(أول عيب آخذه على صاحب النظرات أنّه مشغوف كل الشغف بذات غيره ، كما أن العيب الثانى فيه أنّه منكر كل الإنكار لذات نفسه ، فإن السَّرقة فى كتابه شائعة شيوعاً فاحشاً ، ولست غالياً ان قلت إن اسم كتابه مختلس من ديوان النّظرات للرافعى ، ولقد أرى كما سيرى القارئ . أن فى الكتاب فصولاً سُلبت قسراً من أصحابها ونُسبت إلى صاحب النّظرات مَيْناً وزوراً بينما أبحث عن كثير من فصول الكاتب الخاصّة التى كانت تذاع فى المؤيد ولا سيما السياسة فلا أجد لها فى الكتاب أثرا) (٢)

ويقول الدكتور طه حسين فى النّظرة السادسة من كتابه :-

(... فقد أخذنا عليه أنه يدعو الناس إلى مالا يحبّ وينكر ذات نفسه ، إبتغاء رواج ما يكتب وينتحل الأكاذيب فى طلب الصّيت والشهرة) (٣)

ونرى أنّ من المتعارف عليه لدى أى أديب يلجأ إلى التّعديل فيما يكتبه كلما أعاد النّظر فيه وقد يكون هذا التّعديل والتغيير لغرض ما ، كتعديل الألفاظ أو العبارات مثلاً ، أو تناول الفكرة وعرضها ، أما الذي لا نعرفه ولا نرضاه أن يغيّر الناقد إتجاهه لغرض شخصي قد يكون الدّافع اليه أوضاع سياسية معيّنة كما سنرى (٤)

---

١ - محمد سيد كيلانى - طه حسين الشاعر الكاتب ص ٩٩ ط ١ سنة ١٩٦٣م

٢ - الشعب فى ٢٠/٤/١٩١٠م

٣ - المرجع السابق فى ٩/٥/١٩١٠

٤ - فضلاً راجع ص ٢٢٤ من هذا البحث .

فقول د . طه حسين : (إن المنظوطى مشغوف كل الشغف بذات غيره)

فلا ندرى ماذا يقصد ؟ هل قصد بذلك الإيثار أم التقليد فى الأسلوب ؟

فأمّا إن كان يقصد الإيثار الذى يتمثّل فى انشغاله فى مشاكل المجتمع ومعالجة قضايا الإنسانيّة ، فهذه ميّزة يجب أن تُحْمَد للمنظوطى ويُشكَر عليها ولا نعتبرها عيباً فيه .

وأما إن أراد تقليد الأقدمين فى أسلوبهم فما الذى يضير الأديب إذا كان قد قلّد الأقدمين فى سلامة الأسلوب مع عرضه فى ثوب جديد وطريقة خاصّة إستحقت أن تُنسَب إلى إسمه فعُرِفَ بها وعُرِفت له حتّى سُمّيت (بطريقة المنظوطى) كما سبق أن أشرنا . (١)

وأمّا السّرقة التى اتّهم بها د. طه حسين ز، المنظوطى فمن أين كانت هذه السّرقة ؟ وعن مَنْ أخذ ؟!

أمّا أنْ يتّفق اسم ديوان الرّافعى مع كتاب النظرات فما الذى يضير الأديب فى ذلك إذا كان واضح الشّخصية فيما كتب ؟

وقول د . طه حسين ، (إن كثيراً من فصول النظرات قد سُلِبَت قسْراً من أصحابها)

فلا نستطيع إن نقول ذلك بقول مُرسَل على عواهِنه .

أما قول د . طه حسين - (إن المنظوطى يدعو النّاس إلى مالا يُحبّ إبتغاء رواج كتابه ورغبةً فى الصّيت والشُّهرة) ؟ ، فهو قول مردود من أساسه ، لأنّه لو كان صدْقاً ما يقول لما لمسنا حرارة العاطفة وصدقها فى كتابات المنظوطى ودليل ذلك إستجابة القراء وإقبالهم على أدبه كما ذكر ذلك د . طه حسين نفسه فى حديثه السّابق (٢)

---

١ - فضلاً راجع ص - ١٨٦ - من هذا البحث (طريقة المنظوطى)

٢ - فضلاً راجع ص - ٢٢١ من هذا البحث

ولا أدلّ من أنّ الباعث على هذا النّقد هو تحامله عليه وأنّ نقده ليس موضوعياً محضاً لا أدلّ على ذلك من قوله مُخاطِباً المنفلوطي :-

(أيها الكاتب إصْغ إليّ واسمع لقولي فإنك وإن نيّفْتَ على الثلاثين أحوج إلى النّصيحة مِمَّنْ لم يبلغْ العشرين إعلمْ أن الكاتب المُصلح لا يرغَب في الكَذِب والخِداع ولا يَجْنح إلى الخَبّ والرّياء) ولا يأنفُ أن يعترف للنّاس بما عنده من كواذب الأخْلاق مادام عاملاً على إجلائها عن نفسه .

أيّها الكاتب المغرور ليس بنافعك أن تحرك لنفسك من الحَمْد بروداً وتنظم لها من الثّناء عقوداً .) (١)

نقول :-

لقد اتضح تحامل الدكتور طه حسين على المنفلوطي وضوحاً تاماً لأن النّقد الصحيح يجب أن يكون موضوعياً لا شَتْماً .وتجريحاً .

وإذا بحثنا عن الأسباب التي أدّت إلى ذلك التجريح عنده ، وجدنا أن السّبب الرئيسي في ذلك هو عُداء المنفلوطي ومُخالفته للحزب الوطني الذي كان د . طه حسين على اتصال به ويثق فيه ، فأغرى رجالة الدكتور طه حسين بنقد المنفلوطي وتجريحه لأنّه كان من أبرز كتاب المؤيد المقروئين ومثل هجوماته على الحزب الوطني يجب أن تقلّم أظافرها ، فانبرى د . طه حسين لمهاجمته في جرائد الحزب الوطني ، وقد تجاوزت مقالاته

---

١ - الشّعب في ٩/٥/١٩١٠م

فى هذه الحملة النّقدية القاسية على المنظوطى الثلاثين مقالة (١) والتى عرضنا فيما سبق نماذج منها .

---

١ - أحمد حسن الزيات - وحى الرسالة ح ١ ص ٣٨٦ بتصرُّف

مثلاً النظرة (٢) فى الشّعب ١٩١٠/٤/٢٠م

النظرة (٣) فو الشّعب ١٩١٠/٤/٢٦م

النظرة (٤) فى الشّعب ٤ /٥/ ١٩١٠م

النظرة (٥) فى الشّعب ٩ /٥ / ١٩١٠م

النظرة (٦) فى الشّعب ١٠/٥/ ١٩١٠م

النظرة (٧) فى الشّعب ١٢/٥/١٩١٠م

النظرة (٨) العلم ٢٠/٥/١٩١٠م

النظرة (٩) " ٢٦/٥/١٩١٠م

النظرة (١٠) " ٢/٦/١٩١٠م

وذلك نقلاً عن رسالة الدكتور أبو الأنوار المخطوطة ص ٢١٥

ب ـ بين العقّاد والمنظوطي

لقد اعترف الأستاذ العقّاد ـ كما سبق أن أشرنا ـ (١) ـ بمكانة المنظوطي بالنسبة إلى عصره وفضله في تخليص النثر الحديث من قيود السجع والمحسّنات اللفظية الموروثة عن العصر العثماني ، ودوره العظيم في جعل الأسلوب مُرْسلاً سَهْلاً بعيداً عن التعبيرات الموروثة والقوالب المحفوظة في العصر الحديث (٢) .

أما مكانة هذا الأديب في عالم الأدب بصفة عامة ، فذاك ما يتعرّض له العقاد برأى خاص يقول فيه :

(.. ولكن ما مكانته في عالم الأدب عامّة اذا أردنا أن ننظر إلى الأدب من وراء البيئة والظروف بل من وراء الأجناس واللُّغات ؟

أول : أولاً إنّ المنظوطي منشئ وليس بكاتب ، وهو يُحسَب على أصحاب الإنشاء إذا قسّمنا الأدباء النّاثرين إلى كُتّاب ومُنشِئين) (٣)

ويُعَرِّف الكاتب على حسب رأيه ـ بقوله :-

(إنّ الكاتب هو إنسان قبل أن يكون حامل رقلم وصائغ كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة مُدركة لا فضيلة لسان وعبارة ...) (٤)

---

١ ـ فضلاً راجع ص ١٧١ من هذا البحث

٢ ـ العقاد ـ مراجعات في الآداب والفنون ص ١٧٣ بتصرُّف

٣ ـ العقاد ـ مراجعات في الآداب والفنون ص ١٧٣

٤ ـ نفس المرجع والصفحة

كما يعرف المُنشئ بقوله :-

(أما المُنشئ فيختلف عن الكاتب في هذه الخِلال ، فإنك تقرأه وكأنما تشعر بالقِشْرة المطلية تحت يدك ويؤتى إليه أنه يخدعك ويحاول أن يبيعك الشئ الزهيد الذى تراه في كل مكان باسم غير إسمه وقيمة أغلى من قيمته .. إلى أن يقول :

(فليست فضيلتهُ فضيلة إنسان يخاطِب جميع النّاس بلغة الحياة ولكنّها فضيلة حروف لاحياة فيها ، وأصداء لا ارتباط لها بمعانيها) (١)

هذا نموذج لبعض ما أخذه العقّاد على المنفلوطي .

ولا نرى فرقاً بين الكاتب والمُنشئ في عالم الأدب ، لأن الكاتب أو الأديب هو في الحقيقة منشئ للأدب ، والمنشئ للأدب هو الأديب أو الكاتب .

هذا خلاصة مانراه في قضية كهذه ، أما إذا سلّمنا جدلاً بما قاله العقاد وفرقنا بين الكاتب والمنشئ وفقاً للتعريف الذى عرّف به العقاد كلاً منهما إذا اسلّمنا بكل ذلك - نقول للعقاد ولن نحانحوه :-

ألم يكن المنفلوطي صاحب رسالة إنسانية تدعو إلى الخير والفضيلة وتنصر الحق وتنبذ الرذيلة وتنفّر النفس عن الآثام والخطايا - كما أثبتنا ذلك في أدبه (٢) ؟

إذاً فما المانع أنْ نعتبره كاتباً على رأى العقاد نفسه ؟

هذا ويأخذ الأستاذ العقاد على الذين يرون أن المنفلوطي كاتب النفس الإنسانية لأنه كان يبكي آلام النفس المحزونة ويشاركها مآسيها ويستبطن أهواءها ويعطف على آمالها وهمومها ويكشف عن فضائلها وأدوائها ، وقد استبعد ذلك عن المنفلوطي

---

١ - العقاد . مراجعات في الآداب والفنون ص ١٧٦

٢ - فضلاً أنظر الباب الأخير من هذا البحث من ص ٢٣٨- ٤٠٥

فقــال :-

(ولست أرى في كل ما وُصِفَ به ذلك الفقيـد صفة هي أبعد عن الحقيقـــة وأدلّ على الجهل بالنّفس من هذه الصِّفــة التي يُظَنّ لأول نظـرة أنّها أصدق صفاتــه وأحراها بالقبــول) (١)

كما يرى أن غزارة الدّموع في قصصـه ومقالاته والإحساس بمصائب النّفس الإنسانية أمران لا يتلازمان لأن الاطفال أكثر الناس بكاءً ومع ذلك فهم أغرب النّاس عن الحـــزن وأنآهم عن لواعـج الآلام (٢)

وأرى أنّ الأستاذ العقّاد قد جانبه الصّواب في تعليله أو في تشبيهه السّابق لأنّ دموع الرّجل المتّزن العاقل في المواقف المؤثّرة لا يصحّ أن تُقارَن بدموع الطّفل الـذي لا يَفْقَـه شيئاً من أمور الحياة ، ولأنّنا لمسنا من صِـدق عاطفة المنفلوطي وحرارتهـا مايجعلنا نقرّ ونؤكـد أنّه كاتب له إتجاهه الإنساني الذى لا يُنكَر في أدبه وهو عميـــق التأثّـر بمصاب النفس الانسانية ، عالي الصّوت في دعوته إلى الفضائل التي تسـمو بهـا معارضاً كل الرّذائل التي لا تقبلها .

ولا أدلّ على ذلك من مقالاته في النظرات ذات الإتجاه الإنسانيّ البـــارز ، ومن قصصـه التي ألّفها أوحتى التي ترجمها (٣)

كما يرى العقاد أن أبطال المنفلوطي في قصصه ومقالاته من الذين كانوا في حـال مـن البؤس والضّنك تستدرّ العطف لأول وهلـه ويرى أنّ هذه الآلام القاسية عامّة يتأثر بهـا

---

١ - العقاد . مراجعات في الاداب والفنون ص ١٧٨

٢ - المرجع السابق ص ١٧٩ بتصرف

٣ - فضلاً راجع الباب الأخير من هذا البحث ص ٢٣٨ - ٤٠٥
والفصل الثاني من الباب الثاني (كتبه . مؤلفه . ومترجمه)

عامّة الناس وحتى أقساهم قلباً وأن هناك آلاماً أخرى تعلو آلام الجوع والضنك وهذه ينفرد بها الإنسان الشاعر وهى آلام النفس ، فقد تتم للإنسان نعمة المال والبنين ، وتدين له المتعة والصحة ، ومع هذا يشعر بثورة ضميره لا تهدأ ولا تستقر (١) ويريد العقاد بذلك أنّ المنظوطى لم يتناول ذلك فى أبطاله مُطلقاً .

ونرى هنا ما رآه الأستاذ أحمد عبد الحميد السّحرتى فى محاضرته عن المنفلوطى ، وهو (أنّ المنفلوطى له عُذره فى ذلك ولا عيب عليه ، لأنّ العقاد يقرر ذلك فى عصر غير العصر الذى كَتَبَ فيه المنظوطى قصصه ويقدّر للشعب ذوقاً لم يكن قد وصل فيما مضى إلى هذه الدّرجة من الرُّقىّ وفى إمكاننا أن نقدّر ذلك جيداً لأنّ لكل عصر ذوقه وقيمة فى الحكم على أدبه) .

كذلك للأستاذ السّحرتى رأى آخر نقرّه عليه وهو :-

(أن هناك قاعدة مقرّرة كان لابدّ للمنفلوطى أن يخضع لها وهى أن الإنسان الذى لم يَرتَقِ فى شعوره بعد لا يتأثر أول الأمر إلاّ بالشّئ القوىّ الأخاذ الذى يلمسه ويكاد يحسّ بوقعه عليه وأنه كلّما ارتقى شعوره كان أقرب إلى التأثّر بما هو أقلّ (٢)

ويرى السّحرتى كما نرى معه أنّ المنفلوطى اضطر إلى ذلك لأنه كان يكتب إلى الشعب لا إلى خاصة الناس ، وكان عليه أن يلجأ إلى المواقف القويّة الأخّاذة التى تلفت نظر الأفراد فيه فتؤثّر فيهم الأثر المطلوب (٣)

---

١ ـ العقاد مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٨٢ ، ١٨٣ بتصرُّف

٢ ـ أحمد عبد الحميد السّحرتى . محاضرة بعنوان (المنظوطى) ألقاها بدار العلوم العليا عام ١٩٢٩ م (طُبِعَت هذه المحاضرة بمطبعة الطّلبة عام ١٩٣٠ م) ص ٢٧

٣ ـ المرجع السابق ص ٢٧ بتصرُّف

ج ـ بين المازني والمنفلوطي.

لقد أفرد المازني في كتاب (الدّيوان) الذي أصدره برفقة العقّاد ، لقد أفرد فصلاً فيه بعنوان (الحلاوة والنّعومة والأنوثة) وتناول في هذا الفصل نقد أسلوب المنفلوطي وطريقته في الكتابة ، وعاب على مَنْ ينسب لأسلوبه الحلاوة ويرى أن أنسب وصف له هو الأنوثة أو النّعومة (١)

وهنا يطيب لنا أن نسأل الأستاذ المازني ماذا تُراه يقْصد بالنّعومة والأنوثة ؟
هل تراه يقصد رقّة قلب المرأة وسُرعة تأثرها أم أن أدب المرأة لا يتّسم بالحلاوة والجمال ؟
فأما إذا كان يقصد رقّة قلب المرأة فنقول له :-

وما الذي يضير رجلاً متّزناً وأديباً عاقلا كالمنفلوطي أن يرقّ شعوره وتلين عاطفته في المواقف المؤثّرة إلى الحد الذي لمسناه منه وعرفناه عنه ؟! وهل الأديب في ـ نظر المازني ـ يجب أن يكون قلبُه قطعة من الصّخر أو الفولاذ حتى يتّسم أدبه بالحلاوة ؟!

وهل علمنا عن مشاعر الأدباء الناجحين إلاّ هذه الرّقّة والشّفافية وتلك الحساسية المُفرطة التي تدفعهم إلى أجمل ما يسطّرونه من شعر أو نثر ؟!
ذلك الإحساس الذي لولاه ما انفعل قارئ ولا استجاب له كاتب ، وهل الدّافع لأي فن إلا رقّة إحساس الفنّان وهل الأدب إلا فنٌ من هذه الفنون ؟!

---

١ ـ العقّاد والمازني ـ الديوان ص ٨٤ ط ٣ دار الشّعب القاهرة

وأما إذا أراد بالنعومة والأنوثة أن أدب المرأة أدب رث تافه لا يتسم بالحلاوة والجمال فنقول له :-

ألم يشهد تاريخ الأدب لأديبات قديرات - أمثال الخنساء ومي زيادة وعائشة عبد الرحمن وغيرهن - ألم يشهد لأدبهن بالحلاوة والجودة والجمال ؟

أم أن جمال الأدب في نظره موقوف على الأدباء فقط دون الأديبات ؟!

وهل الذين انفعلوا بأدب المنفلوطي واستجابوا له وقرظوه من النساء فقط ؟ أم أن أدبه طرب به رجال منهم ، الأدباء وغير الأدباء من متذوقي الأدب وطلابه أو حتى عامة الناس ؟!

وعينُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كَمَا أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِئا

أما إذا تتبعنا آراء المازني في هذا الفصل وجدنا فيها كل ما هو غريب وعجيب حقاً ، فها هو ذا يأخذ على المنفلوطي - مثلاً - بكاءه مع المحزونين ورحمته لهم ويصفه بالندابة ، ويرى أن وظيفة المرء في الحياة هي مصارعتها ومغالبة قواها فيقول :-

(ولكن وظيفة المرء في الحياة ليست أن يكون ندابة . فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتفي إذا امتنع وبطل) (١)

وإذا سلمنا جدلاً للمازني برأيه القائل ان وظيفة المرء مغالبة قوى الطبيعة ومصائب الحياة . نقول إذا كنا نوافقه على ذلك ، فلا نوافقه على تطاوله على المنفلوطي

---

١ - العقاد والمازني . الديوان . ص ٩٠

ووصفه بالنّدَابة لأنَّ النّقد لا يكون شتماً ولا تجريحاً ، ولا يخرج إلى هذا المجال إلا إذا كان ذاتياً محضاً تمليه الغيرة ويحركه الحسد . (١)

والنّقد الذّاتي لا يُعوّل عليه .

ونقول للأستاذ المازني أيضاً :-

هل مغالبة أرزاء الحياة ومصائبها يتنافى مع وقوف المرء مواقفه الإنسانيّة الفاضلة عند الحاجه إليها - كما فعل المنظوطي - حينما جنّد قلمه وقلبه وجهده لها . ؟؟!

ولعلّ أعجب من ذلك أن يشتم المازني قرّاء المنظوطي والمعجبون بأسلوبه فيقول :-

(فبالله ما لهذا الحانوتي النّدّابة وللأدب الذي هو حياة الأمم وباعث القوّة فيها ونافث الحرارة في عروقها وحافزها الى أجلّ المساعي ..) الخ (٢)

نقول أيصل الحقد بالمازني للدّرجة التي يحجر فيها على القُرّاء آراءهم الخاصة فيتهمهم بسُقْم الذّوق ومرض النّفوس ؟

ونسأل المازني أيضا ترى ما هو مقياس الحياة العالية في نظره عندما يقول :-

(وإن أخوف ما تخاف على هذه الأمّة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحاً في نفوسها في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى من يبذر فيها بذور القوّة ويدفعها إلى تطلّب الحياة العاليـة) (٣)

---

١ - لقد ورد في الديوان شتماً في أخلاق المنظوطي من الأستاذ المازني يؤكّد ماذكرناه فضلا راجع ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ من الدّيوان ط ٣

٢ - فضلاً راجع الديوان ص ٩٦

٣ - المرجع السابق نفس الصفحة

نقول ماهو معنى الحياة العالية أو مقياسها في نظر المازني ؟

وهل هناك سموّ للحياة أعلى وأعظم من الدّعوة الصادقة المُلحّة إلى نصرة المعاني الإنسانيّة الفاضلة ، من حب للخير ، ونشر للفضيلة بكل صورها ونبذ الرذائل بشتّى أشكالها تلك المعاني التي لا نرى سواها لدى هذا الأديب المظلوم الذي أُتّهم أدبُه بالسّخف والتكلّف .

كذلك من أغرب ما وجدناه من تحامل المازني على المنفلوطي هو ماكتبه في الفصل الذي عقده لنقد أسلوب المنفلوطي إذ قال فيه :-

(وقد عدّدنا له إلى الآن ٥٧٢ مفعولاً مُطلقاً ولا ندري إلى أي رقم يرتفع العدد ....؟) (١)

ثم يعيب على المنفلوطي كثْرة النّعوت في أسلوبه ويرى أن هذه الكَثْرة لا توضّح الغرض عند الأديب وتدلُّ على الضعف وفقْر الذّهن (٢)

وأرى أن هذا الإحصاء من النّاقد للمفاعيل المُطلقة عند المنفلوطي في قصة (اليتيم) ، لا يعني سوى إنشغال هذا الناقد بها ومحاولته تصيُّد السّقطات وهذا ما يدلُّ بدوره على عدم تذوّقه لأدب المنفلوطي بكل مافي كلمة التذوّق من معنى .

ولا يخفى - من غير شكّ - على متذوّقي الأدب مافي أسلوب هذا الأديب من عذوبة وقوّة أسر تأخذ بلبّ القارئ وقلبه ، ولا أرى في كثْرة هذه المفاعيل الا تأكيداً للمعنى وتثبيتاً له في ذهن القارئ ، كذلك في كَثْرة النّعوت وتواليها عيباً على الأديب

---

١ - العقاد والمازني . الديوان ص ١٠٦

٢ - العقاد والمازني . الديوان ص ١٠٧ بتصرّف

مادامت تنقل لنا أحاسيسه ومدى انفعالاته بالمواقف التي يتحدث عنها .

كذلك نقد المازني هذا الأديب في عدم إهتمامه بسبر أغوار نفوس شخصياته واستبطانها وإقتصاره على النواحي الشكلية منها (١)

وهذا رأي نوافق المازني عليه ، ولكن ... للمنفلوطي عذره في ذلك لأنه ليس كاتبا قصصيا - كما نعلم - وإنما هو كاتب مقالة ، ولا يخفى علينا أن لكل فن مواهبه وقدراته اللازمة لنجاحه .

تلك هي بعض آراء المازني في المنفلوطي بدا لنا منها مدى تحامله عليه - كما بدا لنا من قبل مدى تحامل الدكتور طه حسين والعقاد أيضاً على هذا الأديب وبهذا ينطبق على هذا الإتجاه المعارض له قول طه حسين نفسه في إهدائه أحد كتبه : -

(إلى الذين لا يعملون ويؤذي نفوسهم أن يعمل الناس)

---

١ - العقاد والمازني . الديوان ص ١١١ بتصرف

ثانياً - الإتجاه الآخر (المُنْصِف للمنفلوطي :

وأصحاب هذا الإتجاه كثيرون فبالإضافة إلى ماسبق ذكره - في الفصل الخاص ببيان شخصيته الأدبية (١) نورد هنا بعض الآراء المنصفة لهذا الأديب ، فمثلاً ورد في الوسيط في الأدب العربي وتاريخه هذا القول ، الذي يبيّن مصدر ثقافة المنفلوطي وبراعته في شعره ونثره :-

(تعلّم بالأزهر وعني بدراسة الأدب ، وملازمة دروس الشيخ محمد عبده ، وكثر إختلاطه بكبار الأدباء ، فقال الشّعر الرائع وأبدع فيه ، ثم عدل عن الشّعر إلى الكتابة وأعدّ نفسه لها بقراءة كثير من القصص الممتعة ، المكتوبة بالعبارات الرّائعة ثم عكف على الأغاني فاختار أصفى عباراته وأكثرها حَوْكاً في الصّدر وقرعاً للسّمع ، ثم كتب بطريقته هذه كثيراً من المقالات في الصّحُف فكانت تشرئب لها النّفوس ، وترتاح إليها العقول ، لما فيها من التّراكيب المُختارة والأساليب الرّقيقة ، وكتابة النّظرات هو زبدة هذه المقالات ونتيجة هذه الدّراسات الطويلة) (٢)

ففي القول السّابق دليل واضح على تعدّد موارد ثقافة الرّجل العربية ، وبهذا يمكن أن نُثبت أن أدب المنفلوطي أدب رفيع المعاني جميل الأسلوب ، وليس ذلك الأدب المجوف التّافه كما أدعى المازني وغيره من حُسّاد المنفلوطي (٣)

---

١ - فضلاً راجع الصفحات ١٤٤ - ٢٢١ من هذا البحث

٢ - الشيخ أحمد الإسكندري ، الشيخ مصطفى العناني : الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٤٠٧ ط ٤ دار المعارف .

٣ - فضلاً راجع قول المازني في الديوان ص ١٠٧

ولفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد رأى في أدب المنفلوطي يشير فيه إلى ذيوع أدبه وشغف قارئيه به لما فيه من عذوبة وجمال إذ يقول :-

(والمنفلوطي كان ذا طريقة كتابية خاصة رفعت في الكتاب منزلته وأنبهت ذكره وخلدت أثره وقد رأى معاصروه مدى سبقه وذيوع فضله وإقبال المتأدبين على أدبه فهالهم أمره وراعهم تقدمه فحاول كثير منهم نقده ونشر ذلك النقد في جرائد ذلك العهد حوالي سنة ١٩١٠م وما بعدها ...... إلخ) (١)

وقد أنصفه سعادة الأستاذ الدكتور الدواخلي عندما وصفه برحمة القلب ورقة العاطفة وشدة الحساسية وجمال الذوق الأدبي ورفعته وعندما وصف أسلوبه بالأسلوب الإنشائي الذي تأثر فيه بكبار كتاب العربية ، أمثال ابن المقفع والجاحظ ، وابن خلدون ومحمد عبده ، وأن أسلوبه جاء واضحاً رشيقاً يحسن فيه اختيار الألفاظ والتأليف بينها حتى تكون بمثابة نغمات موسيقية هادئة تارة وصافية تارة أخرى ، وأن هذا الأسلوب كان مع ذلك سهلاً مرناً لا يتكلف فيه ، ولا يلتزم السجع وإن لم ينج أحياناً من المترادفات في الألفاظ والتراكيب ، وإن جمال ذلك الأسلوب كثير ما أخفى عن معظم قارئيه ماينقص أشخاصه من حركة وحياة ، وضعف في تحليل العواطف والأهواء والنزعات البشرية تحليلاً نفسياً دقيقاً (٢)

وبالقول السابق يمكن الرد على المازني الذى عاب على المنفلوطي عدم سبره لأغوار نفسيات أبطاله في قصصه . (٣)

---

١ - أحمد شفيع السيد ، النصوص الأدبية ط١ ١٩٥٨ دار الكتاب المصري

٢ - د . عبد الحميد الدواخلي - نصوص مختارة من الأدب العربي ص١٨١ بتصرف

٣ - فضلاً راجع المازني ص ١١١ من الديوان

ويطيب لنا هنا ـ بعد الإطلالة السّريعة السّابقة على أقوال النّقاد في أدب المنفلوطي ـ يطيب لنا هنا أن نختتم هذا الفصل بقول الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عن المنفلوطي :-

(إن أكبر دليل على قوّة المنفلوطي وإبداعه ، هو خلود أدبه ، فقد مر أكثر من أربعين عاماً على وفاته ، ومازالت كتبه ورواياته تُطبع وتُكرر طبعاتها الواحدة تلو الواحدة ، ومازال الشباب يجدون في " نظراته " مايغذي عواطفهم الجانحة أو يروي مشاعرهم الصّادية ، كما يحسّون في رواياته البديعة سِحراً أخّاذاً يستولي على النّفوس ولا أكاد أعرف أديباً لامعاً ممن عاصر المنفلوطي ومن جاء بعده لم ينتفع بأدبه ، حتى وصل إلى القمة على نبراس بيانه ، بل إن التلاميذ في المدارس والمعاهد والكليات ، يضلّون السّبيل إلى الأدب الجذّاب ، فتتعثّر بهم الخطوات وتصارعهم الرّكاكة والتّفكك والإسفاف ، فإذا اتّجهوا إلى أدب المنفلوطي قادهم سحره الأخّاذ إلى الرّوعة والقوّة والصّفاء) (١)

وهكذا بدا لنا من العرض السّابق إتجاهان متناقضان من النّقد حول أدب المنفلوطي .

أولهما : ذاتي هدّام يحرّكه الحقد ويلهبُ حماسه الحَسَد والتّحامُل

ثانيهما : موضوعي بنّاء مبني على أصول العلم ومؤازر بالحق .

---

١ ـ د . محمد رجب البيومي . نظرات أدبية جـ١ ص ٦٤ ط ١٩٧٠م

" الباب الثالث "

المظاهر الإنسانيّة فى أدبه

تمهيد :

الإنسانيّة لغة وآراء النُّقّاد فى الأدب الهادف

١ - فى مقالاته الإجتماعيّة

٢ - فى العطف على البائسين

٣ - فى انصاف المظلومين

٤ - فى حملته على الأغنياء وطبقة الحكام

٥ - فى دعوته الى التمسُّك بأهداب الفضيلة

تمهيد :-

معنى الانسانية وآراء النّقاد فى الادب الهادف :

أ ـ الإنسانيّة لغة :

(خلاف البهيمية وهى أيضاً جُملة الصّفات التى تميّز الإنسان عن سواه ، وقد تُطلق على جُملة أفراد النّوع البشريِ التى تصدق عليها هذه الصّفات) (١)

وعلى المعنى الأوّل ـ وهو المراد هنا ـ تكون مصدراً صناعياً ، كالشعوبيّة والطّفولية ، وعلى المعنى الثانيِ تكون اسم جنس يُطلق على بنيِ الإنسان وهم السّلالة البشريّة .

ب ـ هذا وقد انقسم نقاد الأدب إلى فريقين : .

١ ـ فريق يرى أنّ جمال الأدب يكون فى حُسْن الصّياغة وتجويد الفنّ فى ذاته دون ربطه بأهداف دينيّة ولا خُلُقيّة ، وهذا ماعُرِف حديثاً فى المذاهب الأوربيّة بمذهب الفنّ للفنّ .

٢ ـ وفريق آخر ربط بين الأدب والدّين ، فدعا أصحابه الى توخّيِ القِيَم الخُلُقيّة والفضائل الإنسانيّة فيه وهذا الإتجاه هو مايعنينا فى هذا التّمهيد ، فنجد مثلاً أبا العلاء المعريّ ـ وهو أحد أدباء العصر العباسي يدعونا هذا الأديب الى تجنُّب الدّعوة الى المفاسِد فى الشّعر ،أو حتّى انشائه لمجرّد التّكسُّب به ونهى عن قذف الفاضلة أو محاولة اغرائها بواسطته للوقوع فى الخطأ فيقول :-

---

١ ـ مجمع اللّغة العربية القاهرة ـ المعجم الوسيط ـ مادة أنس ص ٣٠

(والشِّعر إذا جُعِل مكسباً لم يترك للشاعر حسباً واذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب ، مالم تُسَب المُحْصَة وتعد للعار العُصنه) (١)

ثم بُيِّن أبو العلاء قيمة الشعر ومهمَّته في الحياة فيقول :-

(لا تجهلوا فضيلة الشِّعر فإنَّه يذكِّر النَّاسي ، ويحلّ عزّمة الفاتك ، ويعطِفُ مودَّة الكاشح ، ويشجِّع الجَبان) (٢)

ويعلِّق الأستاذ الدكتور السعيد عبادة على هذا النص بقوله :-

(إنه لم يبعد عن جوهر النَّقد الأدبي ، لأنَّه في الحقيقة تقويم لأهداف الشِّعر ولموقف المجتمع منه على نحو يهيب بالشَّاعر أن يتسامى في شعره ، وأن يلتزم بأمانة الكَلمة في مجتمعه ، كما يهيب بالمجتمع أن يحترم الشَّاعر وأن يعرف رسالته وأن يساعده على آدائها) (٣) .

وقد أكّد لنا موءلّف الكِتَاب أن نصّ أبي العلاء السَّابق إنما يدلّ على أنّ الدَّعوة إلى الأدب الهادف لغاية سامية إنما هي مدينة لأبي العلاء المعرّي الذى دعا إليها قَبْل الفِكر الأوروبيِّ الحديث بقرون . (٤)

كذلك يقرر موءلف كتاب (الأسس الجمالية في النقد العربي) أن موقف النُّقَاد قد تغيَّر في صدر الإسلام حيث وُضِعَت للشِّعر مقوِّمات دينية وكان يلقى القبول أو الرفض بحسب مايُوفَّر فيه من هذه المقوِّمات التي منها :

---

١ - إبن عبد الغفور الكلاعي . إحكام صنعة الكلام . تحقيق محمد رضوان الدَّاية ص ط عن كتاب د . السَّعيد السيد عبادة . نصوص من نقد أبي العلاء ص ٢٦ ط ١

٢ - المرجع السابق نفس الصفحة

٣ - المرجع السابق ص ٣٢

٤ - المرجع السابق نفس الصفحة - بتصرُّف .

الأخلاق القويمة ، الفضائل ، المواعظ ، العفة ، الهمة والمروءة .... إلخ (١)

ومايطبق على الشعر ولا شك إنه من الأولى أن ينطبق على النثر لسهولة كتابته وبعده عن قيود الوزن والقافية .

وهذا الإتجاه الداعي إلى الخلق القديم يعرف بمذهب الكمال في الأدب (الذي يرى أن الفن يمثل المناظر الأصلية أو الأخلاق الفاضلة والآراء العظيمة بخير مما هي في الواقع ، فيجعلها أعظم تأثيراً في العقول من حقيقتها) (٢)

وعلى هذا الأساس الكمالي وضع بعض الكتاب كتبهم في المدن الفاضلة ، أو كما يسميه الإفرنج (اليوتوبيا) مثل يوتوبيا توماس مور ، وآراء أهل المدنية الفاضلة للفارابي ، فقد تخيل مؤلفو هذه الكتب عالماً خلا من كل هذه العيوب ورسموا عالماً مثالياً كاملاً خلا من كل عيب .

وفيما يلي من الصفحات نورد خلاصة مادعا إليه المنفلوطي من قيم فاضلة ومعان إنسانية سامية ترقى بالإنسان إلى أرفع الدرجات وتسمو بالأدب الى أرقى المنازل وأسماها ، إلى جانب إهتمام هذا الأديب بتجويد صياغته وحسن آدائه لتلك المعاني الفاضلة .

---

١ - عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ص ١٨١ (بتصرف) ط

٢ - أحمد أمين ، النقد الأدبي ص ٥٠ ، ٥١

مقالاته الاجتماعية

(لا أستطيع أن أتصوّر أن الإنسان انساناً حتّى أراه مُحسِناً لأنّي لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الإحسان)

(ان الاحسانُ عاطفةٌ كريمة من عواطف النّفس تتألّم لمناظر البؤس ومصارع الشّقاء ، فلو أنّ جميع مايبذله النّاس من المال ويسمونه احساناً عن تلك العاطفة الشريفة لما تجاوز محلّه ولا فارق موضعه)

إنّ لكلّ مجتمع ظروفه ومشكلاته ، وقد رأينا في التمهيد (١) كيف كان المجتمع المصري في عصر المنفلوطي يعجّ بالمشكلات التي تحتاج إلى علاج .. والمنفلوطي كما يتراءى لنا في كتبه ومقالاته ، أديب حسّاس رقيق الحاشيه يشعر بشعور الآخرين من بني جنسه ، يفرح لفرحهم ، ويأسى لأحزانهم ، فيكفكف بيده الآسية دموع البائسين والمساكين .

ومن مقالاته في هذا الجانب مافيه إصلاح للمجتمع وشفاء لأرواح النّاس :-

الكأس الاولى (٢)

يعالج هذا الأديب الإنساني الكبير قضية من أهم القضايا الاجتماعية وهي الإقدام على شُرب الخمر والدّاء يكْمُن أول مايكمن في الكأس الأولى منه ، وقد خصّ الأولى دون سواها ، لانّها سبب الفساد وبداية الطّريق ولولا الإقدام على تجريبها ، لما وقع مجرّبها في الشّرك الذى لا مفرّ منه .

فها هو ذا المنفلوطي يدخل على صديقة وهو في أسوأ حالة صحّية فيسأله (مم تشكو) ؟

فيجيب الصّديق بعد زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه : (أشكو الكأس الأولى .. الكأس التى أودعتها مالي وعقلى وصحّتي وشرفي ، وها أنا ذا أودعها حياتى ...

فيذكّره المنفلوطي بنصائحه التي أسداها له في بداية الطّريق والتي أعرض عنها ، وكان جزاؤه النّدم بعد فوات الأوان .

---

١ - فضلاً راجع التمهيد لهذا البحث ص ١

٢ - المنفلوطي النظرات ج ١ ص ٤٧

فيقـول :-

(ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكـد أكثر مما أعلـم ، ولكنّي كنت شـربت الكأس الأولـى فخرج الأمر من يـدي .) (١)

والمنفلوطي عندما يتناول قضية كهذه ، نلاحظ أنه يأتي بها عـن طريق القصّـة والحوار ، فتكون أقرب إلى ذهن السّامع وقلبه ثم يغتنمهـا فرصة لبث نصائحـه بطريق غير مباشر ليضمن عدم ملل السّامع منه ، وبهذا تجد طريقها إلى القلوب ، وهذا بالتالي يؤدي إلى أن تأخذ مقالاته قيمتها الإجتماعية التي اشتهرت بها لدى قرّائه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٤٩

مدينة السّعادة (١)

ملخّص هذا المقال ، أن المنظوطى رأى فى منامه مدينة جميلة ، يتجوّل فى جنباتها ويجول أرجائها الشّاسعة والحائطة بحدائقها ، تغمرها السّعادة ويحفّها الهناء ، لتفاهم أهلها وقناعتهم وصفاء نفوسهم ووفاء وعودهم ليس فيها غنى مستذل للفقير ولا فقير حاسد لغنى ولا كبير يحقّر صغير ولا صغير شاتم لكبير ، فالكلّ فيهم سواء فى منازلهم ومساكنهم ورغد عيشهم .

وهذا مقال إجتماعى ، أرى أنّ المنفلوطى استوحى فكرته من قصة المدينة الفاضلة التى تحدث عنها الفارابى ، ومن موضوع جمهورية أفلاطون المثالية .

والفرق بين ماكتبه هذا الأديب والفارابى أن المنظوطى عبّر عن رغبته فى وجود مثل هذه المدينة عن طريق الرؤيا التى رآها ، وهذا أكبر دليل على ماتمنّاه المنظوطى للمجتمع حوله من محبّة ، وتفاهم ووئام تلك المثل الإنسانية العليا التى تخيّلها فى مقاله فكتب يقول :-

(وأغرب ما استهوى نظرى أنّنى لم أر فى تلك المدينة ذلك التّفاوت الذى أعرفه فى مدائننا بين النّاس فى منازلهم ومراكزهم ، ومطاعمهم ومشاربهم وهيآتهم ، وأزيائهم وكأنّ جميع سكانها سواسية فى حالة المعيشة ودرجة الثروة) (٢)

---

١ ـ المنظوطى . النّظرات ج ١ ص ٦٨

٢ ـ المنظوطى . النّظرات ج ١ ص ٧٢

ويقول ايضاً :

(تلك هي مدينة السّعادة التي يعيش أهلها سعداء ، لا يشكون همّاً لأنهم قانعون ، ولا يُمسِكون على أنفسهم حقداً ، لأنّهم متساوون ، ولا يستَشْعِرون خوفاً لأنّهم آمنِون) (١)

وهكذا ثبت لنا بالدّليل الواضِح - من المقالة نفسها - تأييد ماقلناه عن أمنية المنفلوطي الدفينة في قرارة نفسه عن إصلاح المجتمع والتي تدلّ على اتّجاهه الإنساني النّبيل في أدبه . ولا شكّ أنّ هذه الأُمنية تُنبئ عن عاطِفة كريمة ، ونفس طيبة يُسعِدُها مايُسعِدُ البَشرِيّة .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٧٥

إلـــى الدّيــــر (١)

حدّثنا المنفلوطى هنا عن رجل شكا اليه أنّه كرر زواجه مرّتين ، ولم يُوفّق فيهمـا ثم يتساءل ماذا يفعل ؟

فما كان من المنفلوطى الا أن أشار عليه بالتّرهّب قائلاً له :-

(فإنى لا أرى لك إلا أن تترهّب ، وتتعزّب وأن تقول ما قاله هملت ، وقد زهـد فى الزّواج بعد ماعرف حقيقة المرأة وأدرك خبيّثه نفسـها :-

(إلـى الدّيـر إلـى الدّيـر) (٢)

وليس ذلك عندى برأى صحيـح ، لأنّ الإسلام لا يعرف الدّير ، ولا يقـرّ التّرهّـب : قال صلى الله عليه وسلم :-

- مامعناه - لا رهبانيّـة فى الإسـلام

وكان أحرى به وهو الأديب المُسْلم أن يغرس الأمل فى قلب الشّاكى لأنّ المجتمع لا يشتمل على النماذج السّيئة فقط بل فيه المُحسن والمسئ ، وعلى الإنسان المُسـلم ألا ييأس من رحمة اللّه لفشله مرة أو أخـرى ، بل عليه أن يظـلّ مؤمّلا فى توفيـق الله ومعونته وأن يعيد التّجربة مرّات ومرّات متوكّلا عليه سبحانه وتعالى (ومن يتوكّـل على الله فهو حسـبه) وخاصّة إذا حسُنت النّية وسَلِم القَصْد ، فقد قال تعالى :-

" وَمَنْ يَتقِ اللّه يجعل له مَخرجاً ويرزقه مِن حيث لا يحتسِب " (٣)

---

١ - المنفلوطى . النظرات . ج ١ ص ٨١ .

٢ - نفس المرجع ص ٨٢

٣ - آية رقم ٢ ، ٣ سورة الطلاق .

عِبْرة الدهر (١)

يعالج المنفلوطي في مقاله هذا مشكلة إجتماعية شائعة وهي إختلاف بعض الأزواج في شبابهم ، إلى الحانات والمقاهي ، وترك زوجاتهم يقاسين مرارة الوحدة ولوعة الفُرقة في لياليهنّ الموحشة . ينتظرنَ هذا الزَّوج الذي هو بالمَفقود أشبه منه بالموجود ، مما يؤثّر في نفسياتهنّ ، وقد يدفعهنّ ذلك إلى الحقد ثم الإنتقام ، وقد شبَّه المنفلوطي ذلك الموقف بين الرَّجل وزوجته بالدّائن والمَدين ، فالمرأة تخرج كل ليلة إلى مواطن السُّرور والبهجة تاركةً زوجها في أسوأ الأحوال وما ذاك إلا لأنّ عليه ديناً يجب أن تستردّه منه في حالة شدّته ومرضه وحاجته الماسّة إليها ، فها هو ذا المنفلوطي يصوّر لنا ذلك بلسان الخادم الذي يخاطب سيّده قائلاً :-

(إنّ بينها وبين غريمها صكّاً مكتوباً وعليه أن يؤدي ما عليه من الدّين أقساطاً في كل ليلة قِسْط ، على أن تتناوله بيدها ، وأن تكون مواعيد الوفاء في أُخريات اللّيالي ...

قال السّيد : ومن هو غَريمُها ؟

قال : أنتَ ياسيّدي

نظر إليه السَّيد نظرةَ الحائر المَشْدوه ، وقال : إنّي أكاد أُجَنّ لغرابة ما أسمع ، وأحسَبُ أنك هاذٍ فيما تقول أو هازئ

فدنا منه الخادم وقال :

والله ياسيّدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت إلا تذكر تلك الليالي الطّوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلُبها وكأس تشربها ...) (٢)

---

١ - المنفلوطي - النظرات ج ١ ص ١٠١
٢ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٠٤ مع بعض التصرُّف

وهكذا مضى الخادم يذكر سيده بأخطائه وسوء تصرفه السابق مع زوجته مؤكداً له أنه لا يجني الآن إلا ثمار ماضيه الجائر .

ويتناول الأديب في نفس المقال السابق - مشكلة أخرى يحاول أن يلفت نظر الأزواج إليها وهي :-

خيانة الرجل لصديقه في زوجه وكيف أن هذا الصديق يستوفي دين الخيانة منه الآن .

كما يشير المنفلوطي أيضاً في مقاله إلى التفريط في تربية الأبناء والتهاون في توجيههم التوجيه التربوي الإسلامي السليم وترك حرية التصرف لهم في الأموال دون تنظيم أو توجيه إقتصادي صحيح ، الأمر الذي يؤدي إلى فقد الآباء لأبنائهم وهم في أحوج الظروف إليهم .

والمنفلوطي حينما يلفت أفراد المجتمع إلى هذه الأخطاء السلوكية والتربوية ، إنما يدل على حرصه الأكيد على مصلحة المحيطين به من بني الإنسان وذلك الإهتمام بمشاكل الآخرين ماهو إلا موقف إنساني شريف يدل على نفس نبيلة وقلب رحيم . لا يريد إلا الخير والصلاح دائماً .

فها هو ذا يصرح بنصيحته الإنسانية قائلاً :-

(أيها الرجل لو وفيت لزوجك لوفت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ، ولو أحسنت إختيار صديقك ماخانك ، ولو رحمت نفسك ماخسرت حياتك) (١)

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ١ ص ١٠٨

أفســدك قومــك (١)

من المشاكل السّائدة فى المُجتمع ايضاً عدم الإهتمام بتَربيةِ النّشئ تربيــة خُلُقيّــة سديدة ، والمنظوطي بصفته كاتب إنسانيّ ، يلفتُ الأنظار إلى مُشكلةٍ هامّــة فى المُجتمعات وهى مُشكلة الطفولةِ المشرّدة فى كل مجتمع ، والتى يعزوها إلــى الآبــاء الذين ينجبونهم ويتركونهم عالة على غيرهم من أفراد المجتمع . والبيت دون توجيههم توجيهاً سليماً يقول المنظوطى :-

(شريكك فى الجريمة أبوك ، لأنه لم يتعهّدك بالتربية فى صغرك ولم يَحُلْ بينــك وبين مخالطــة المجرمين بل كثيراً ماكان يبــخبــخ لك اذ رآك هممت على تربك وضرته ، ويصفق لك إذا رأى أنك تمكنت من إختلاس درهم من جيب أخيك) (٢)

وهكذا يمضى المنظوطى فى تعداد جنايات الآباء والأبناء وهم عنها غافلون .

وينشأ ناشــئ الفتيان منّا على ماكانَ عوده أبوه ويلفت المنظوطى - أيضــاً - النظَــر إلى ضرورة تطبيــق نظام العقوبات ، وتنفيذ الحدود الإسلامية فى المجرميــن حتى لا يتمادى المُجرم فى إجرامه فيهلك المجتمع حوله لعدم هذا التطبيق .

وهذه كلّها من غير شك نظرات اسلامية صائبه لا يُنكَر دورها الفعّال فى بنــاء مجتمع آمنٍ مطمئنّ تسوده الألفــة والوئام ولذلك كان العقاب شديداً لمن يسعى فــى الأرض فســاداً قال تعالى :-

---

١ - المنظوطى . النظرات ج ١ ص ١٠٩

٢ - المنظوطى - النظرات ج ١ ص ١٠٩

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .) (١) صدق الله العظيم .

---

١ - سورة المائدة آية رقم ٣٣

الإنصـــاف (١) .

حاول المنفلوطي في هذا المقال أنْ يُصلِحَ أفراد المجتمع الَّذين سيطر عليهم النِّفاق ، فالصَّديق الذي يرى عيباً في صديقه لابدَّ أن يلفت إنتباهه إلى ذلك العيْب إن كان مُنصِفاً .

وفي الحقيقة إن هذه المحاولة إنَّما هي إنعكاس لتأثير الإسلام عليه لأنَّ هذا الدِّين يريد من المؤمن أن يكون مرآةً لأخيه وهذا مانجده فعلاً في هذا المقال الذي بين أيدينا فيقول مثلاً :-

(إنَّ صديقك الذي يبسم لك في حالَيّ رضاك وغضبك وحِلْمِك وجهلك وصوابك وسخطك ، ليس ممَّن يُغتَبَط بمودَّته ، أو يُوثَق بصداقته ، لأنَّه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفْسك ، وتَصْدُقك عن زينك وشَيْنك وحلوك ومُرِّك . .) (٢)

ولكن . . . ما الذي جعل المنفلوطي يلفت النَّظر إلى هذه الخلة ؟ ؟

إن الذي جعله يفعل ذلك من غير شكّ - هو ماشاهده من بعض النَّاس الَّذين يتعجَّبون من الشَّخص الصَّادق الذي قد يمدح فلاناً اليوم ثم مايلبث أن يعيب عليه بعض أموره غداً ظانِّين أنه يظهر مالا يُضْمِر ويُخْفِي غير الذي يُبدي . فيقول المنفلوطي :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٣٠

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٣١

(ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسَمَّوا مابدا منك إعتدالاً لا نفاقاً ..) إلخ (١)

وموقف المنفلوطي السّابق من المُنصِف يدلّ على روح إنسانية صادقة فيه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ١ ص ١٣٠

الشَّعْرة البيضاء (١)

يتألَّم المنفلوطى فى بداية هذا المقال لظهور شعرة بيضاء فى رأسه ولكنَّه مايلبث أن يُرحِّب بها ، لأنَّها رسول أمل يبشِّر ، بدنوّ فراقة لهذا العالم ، المليىء بالمفاسد الخُلُقية التى تُزهِّد المرء فى حياته وتُزهِّده فى العيش مع أمثال هؤلاء المُفْسدين وهو بذلك يُنبِّه إلى وجود هذه المفاسد فى بعض أفراد المجتمع ، ويتمنَّى لو كان يحيا فى غير هذه البيئة المكتظَّة بالحِقْد والحَسَد والنَّميمه والغَيْرة وحُبِّ الإنتقام .

كل هذا دليل واضح على ثورة المنفلوطى إتجاه مفاسد مجتمعه الَّذى يحيط به فها هو ذا يقول :-

(أليس كل ما أعدُّه عليك من الذَّنوب أنك طليعة الموت والموت هو الذى يخلِّصنى من مَنظَر هذا العالم المملوء بالشُّرور والآثام والحافل بالآلام والأسقام الذى لا أغمض عينى فيه إلا لأُ فتحها على صديق يغدر بصديقه وأخٍ يخون أخاه ، وعشير يحدِّد أنيابه لمضغ عشيره ، وغنى يضنُّ على الفقير بفتات مائدته وفقير يقترح على الدَّهر حتى بلفظة الموت فلا يَظْفر بأمنيته ومَلك لا يفرِّق بين رعيته وماشيته ، ومملوكٍ لا يميِّز بَيْن مَلِك المُلك وربوبيَّته) (٢)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٤٤

٢ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٤٧

والمُلاحظ أن حديث المنفلوطي هذا يعبّر عن الرغبة الخفيّة والأكيدة في إصلاح المجتمع وبثّ الفضائل الإنسانيّة فيه ، وإلا فالموت عنده أفضل من العيش في أحضان الرّذيلة .

الصيّـــاد (١) .

موضوع إجتماعي هادف يحكي فيه المنفلوطي أنه التقى بصديق له قصّ عليه قصّة صياد كان قد لقيه أثناء شرائه سمكاً ، وقد نقده الثّمن بلا مساومة ، ففرح الصّياد ودعا له بدعوة هي لُبّ الموضوع وجوهره حيث قال له :-

(أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك) (٢)

ففرح الرّجل فرحاً شديداً بهذه الدّعوة .

والمتأمل في هذه الدعوة يجد أنّها تناولت موضوعاً اجتماعياً ذا أهمية واضحة وهو :-

الدعوة بسعادة النّفس التي لا تتوفّر لكلّ انسان سعيد في مظهره مُيسّور في ماله مرفّه في عيشه لأنّ سعادة النّفس الإنسانية أمر معنوي ونسبيّ في نفس الوقت فما يوفّرة المال والصيت والسّمعة عند بعض النّاس من السّعادة قد لا يوفّره لغيرهم ممّن ملأت القناعة قلوبهم وقد يحصل بعض النّاس على مزيد من المال ورفعة في السّمعة ومع ذلك لا يشعرون بالسّعادة في نفوسهم ، لأنّ هذه الأمور متع زائلة ونعيم موقّت ، فلا دوام إلا للّه سبحانه وتعالى ، وكلّما حاز المرء من كثرة المال وعلو الصّيت كلما تمنى المزيد والمزيد منه إلى الحدّ الذي يعكّر عليه ماهو فيه من نعيم وخير .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٤٩

٢ - المرجع السابق نفس الصفحة

والمنظوطي عندما يتناول موضوعاً كهذا إنّما يتناوله عن طريق القصّة والحوار - كما نؤكّد دائماً - ليكون ذلك الموضوع أقرب إلى قلب السّامع وإنتباهه لأن إسداء النّصح بطريق مباشر قد يؤدّي إلى الملل والسّآمة منه أو من قائله .

والذي نرجّحه هنا أن هذه القصّة من بنات خيال المنظوطي وليست حاصلة فعلاً كما حكاها عن صديق له - وإنّما مرت بخاطره عندما رأى صيادا ما - وما أكثر الصّيّادين على نهر النيل !

فها هو ذا ينقل لنا حديث القناعة على لسان الصّياد وإجابة على سؤال سائل قال له :-

ألا تشعر بضآلة نفسك بين الأغنياء وأصحاب القصور والعربات الفاخرة ؟

فقال :-

(إنما يصغّر جميع هذه المناظر في عيني ويهوّنها عندي أني لا أجد أصحابها قد نالوا من السّعادة بوجدانها أكثر مما نلته بفقدانها) (١)

ثم يقول :

(لا فرق بيني وبين الغنيّ ، إلاّ أن النّاس لا ينهضون إجلالاً لي إذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي إذا مررتُ بهم وأهون به من فرق لا قيمة له عندي ولا أثر له في نفسي) (٢)

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ١ ص ١٥٠

٢ - المنظوطي . النظرات ج ١ ص ١٥٢

ونأخذ على المنظوطي مانقله على لسان الصّياد في قوله :-

(لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة بيني وبين ربّي فأنا أعبده حقّ عبادته وأُخْلِص في توحيده ، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك ياسيّدي إنّني لا أستطيع الجَمْع بين توحيد اللّه والإعتراف بالعظمة لأحد من النّاس ....) إلى أن يقول (حتّى ولو طَلع عليّ المَلِكُ المُتَوّج في مواكبه وكواكبه في راياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقة الرّهبة والخشية ولا شغل من نفسي مكاناً أكبر ممّا يشغله ملك التمثيل) (١)

نقول إننا نوءاخذ المنظوطي إعتقاده في أن الخوف من الملك هو تعظيم إلهيّ له ، لأن احترام الملك في الدّنيا غير تعظيم الإله عزّ وجل من غير شكّ - فشتّان بيْن العبْد وربّه مهْما سَمَت درجة ذلك الإنسان ، وهل ننظر إلى الملك في الدّنيا كنظرنا إلى ملك التّمثيل كما يقول المنظوطي ؟!

كما يتجلى في هذا المقال إتّجاه المنظوطي الإسلامي في قوله على لسان الصّيّاد أيضاً :-

(ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي وراحة نفسي من الهُموم والأحزان ، فما نزلتْ بي ضائقة ولا هبّت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكَوْن إلا انتزعني من بين مخالبها وهوّنها عليّ ، حتّى لا أكاد أشعر بوقعها

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٥٢

وكيف أتألّم لمُصاب أنا أعلم حق العلم أنَّه مقدور لا مفرّ منه وأنَّني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسُكوني إليه) (١)

نقول إن هذا المعنى معنى إسلامي قد أخذه المنفلوطي من آيات الصَّبر في القرآن الكريم وما أكثرها !

نذكر منها قوله تعالى :-

(...ولَنَجْزِيَنَّ الذِيْنَ صَبرُواْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكَانُوْا يَعْمَلُونْ.) (٢)

وآيات الصّبر كثيرة في القرآن نقتصر هنا على الآية السّابقة لبيان أن المنفلوطي مُتأثّر بالإسلام في اتجاهه الإنسانيّ الذي تحدّث بوحي منه في كلّ مقالاته أو قصصه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات جـ ١ . ص ١٥٣ .

٢ - سورة النّحل . آية ٩٦ .

الإنتحـــــار (١)

لقد تولّدت فكرة هذا المقال عند المنفلوطي من معاشرته للمجتمع المحيط به كما عهدنا ذلك في كل مقالاته الإجتماعية ونظراً لأهمّيّة هذه المشكلة وكثرة شيوعها ، نلاحظ أنّ المنفلوطي عالجها في مقالَيْن من مقالاته في النظرات . (٢)

وقد تأثّر المنفلوطي في معالجته لهذه المشكلة بالدّين الإسلامي الذي طالما حافظ على حقّ الإنسان محافظة شاملة في كل نواحي حياته .

وقد ظهر هذا التأثّر في معاني المنفلوطي وألفاظه في المقالين فلنستمع إليه مثلاً في قوله :-

(ولو رُبّي التلميذ تربية دينية ، لما هان عليه أن يخسر سعادته الأُخروية خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينل كلَّ حظّه من السّعادة الدنيوية) (٣)

فالمعنى السّابق مأخوذ من آيات قرآنية كثيرة تحضُّ على شراء الآخرة بالدنيا والوفاء بعهد الله والإيمان به قال تعالى :-

(.... إنّه لا ييأسُ من روح اللهِ إلا القومُ الكافرونْ) (٤)

وقال تعالى :-

(إنّ الّذين يشترون بعهدِ اللهِ وأيمانهم ثمناً قليلاً أُولئك لا خلاق لهم في الآخرةِ ولا يكلّمهمُ اللهُ ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامةِ ولا يُزكّيهم ولهمْ عذابٌ أليمْ .) (٥)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ . ص ١٥٥
٢ - وُجد مقال آخر بهذا العنوان في النظرات ج ٢ . ص ١٥٨
٣ - المنفلوطي . النظرات ج ١ . ص . ١٥٥
٤ - سورة يوسف . آية رقم ٨٧
٥ - سورة آل عمران . آية رقم ٧٧

ويضع المنفلوطي اللوم كله على المجتمع الذى يحيط به سواء كان هذا المجتمع أسرة التلميذ أو المدرسة أو غيرهما لأن كل واحد من هؤلاء جميعاً ، يغرس فى ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره أن الوظيفة هو الشيء الأساسي بل هي غاية فى ذاتها يجب أن يسعى لتحقيقها مهما كلفه ذلك ولو كان الثمن حياته .

وأما أستاذه فلا يقل دوره عن دور الأب والأسرة فى غرس نفس الفكرة فى ذهن الطالب ، وكذلك المجتمع لا ينظر بعين الاعتبار والتقدير إلا لمن أوتى الجاه والمنصب الحسن والوظيفة الحكومية مهما قل شأنها .

وهكذا ينشأ الفتى وهو متشبع الذهن والفؤاد بتلك الأفكار ، فاذا قدر له الفشل فى دراسته لم يطرق باباً آخراً غير باب العلم بل يلجأ إلى الانتحار ، فهو - فى نظره - أسلم طريقة للخلاص من الفشل وحديث الناس عنه . وهكذا يقول لنا المنفلوطى :-

(لا يجنو الطالب على نفسه ، وإنما يجنو عليه والده وأستاذه والمجتمع الذى يعيش فيه) (١)

وبهذا يستطيع المنفلوطى أن يهمس فى آذان الآباء والمدرسين والمجتمع كله أن يغيروا من هذا الأسلوب فى معاملة الناشئين لمنع تكرار المأساة .

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٥٦

وبهذه الطَّريقة أيضاً عالج الأديب موضوع الإنتحار الذى كتبه فى الجزء الثانى من النَّظرات والذى يحكى فيه قصة إنتحار شخص لوفاة صديق عزيز عليه .

والجميل فى ذلك أن المنفلوطى عالج أمثال هذه القضايا باتّجاه إسلامى سديد ، وعندما نقول باتّجاه إسلامي انما نقصد تلك المعاني الإنسانية الفاضلة التى تَكْفُل للمجتمع حياة سعيدة هانئة يَحُفّها الأمن والإطمئنان الدائم .

الجمـــال (١) .

تتجلى فى هذا المقال فكرة المنظوطى عن الجمال ، فالجمال فى نظـــره هو التناسب بين أجزاء الشىء أو مركباتـه فالوجه الجميل جميل للتناسـب بيـــن أجزائه ، وماكان العقد مفتوناً به لدى الحسـناء ، إلا لتناسب بين حباته ، وهكذا يوضح لنا الأديب فكرته ليصل بنا بعد ذلك إلى مشكلة إجتماعية يود علاجها وهـــو وجود بعض الأذواق المريضة فى المجتمع فيقـول :-

(إن كثيراً من الناس يستحسـنون الأنف الصغير فى الوجه الكبير ، والـــرأس الكبيـر فى الجسـم الصغير ولا يفـرقون بين البَرَصْ ، فى الجسم الأسود والخال فـى الخد الأبيض) (٢) إلى أن يقـول :-

(أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهـــم وأقوالهم مشـوهة غير متناسبه ولا متلائمــة ، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ، ولم تألفه نفوسهم فيصبح غريزة من غرائزهـــم) (٣)

وهكذا عرض لنا المنظوطى المشكلة التى يريد علاجها مع اعترافه أنه ليس مـــن الضـروري شفاء مريض الذوق من مرضــه تماماً كما أنه ليس من المحتم شفاء المجنـــون من دائه ، وإنما مـن الممكن حل تلك المشكلة بطريق غير مباشـر كأن يلفت نظـــر صاحبها إلى مواطن الجمال فى الأشـياء ومدى التناسب بين أجزائها لأن المواجهـــة

---

١ - المنظوطى . النظرات . ج ١ . ص ١٥٨

٢ - المرجع السابق . ص ١٥٨ ، ١٥٩

٣ - المرجع السابق . ص ١٥٩

فى مثل هذه الأمور قد تؤدى إلى تعقيدها أو نفور الشخص وإعراضه يقول المنظوطى :-

(كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى إبلاله كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فإن رأيت من تؤمل فى إصلاحه خيراً ، وتجد فى نفسه استعداداً لتقويم ذوقه فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤتلفاته ، وإن استطعت أن تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقا ، فإنها المقومات للأذواق والغارسات فى النفوس ملكات الجمال) (١)

والمنظوطى فى حرصه الشديد - السابق - على علاج أصحاب الأذواق المريضة إنما يهدف إلى علاج مشكلة أخرى وهى علاج الخطأ فى أقوالهم وأفعالهم التى قد تؤدي إلى نفور الناس منهم لأن سلامة الذوق وجماله يؤدى إلى سلامة اللفظ وتخيره فى الحديث مع الناس وإلى سلامة أفعال الشخص وحسن معاملاته معهم ،

وبهذا يكون المنظوطى قد أسدى عملاً إنسانياً فاضلاً للمجتمع كله عندما يحاول أن يهذب أذواق أفراده لأنه بالتالي يهدف إلى تهذيب أقوالهم وأفعالهم .

---

١ - المنظوطى . النظرات ج ١ ص ١٧٤

الحُبّ والزّواج (١)

يحكي المنفلوطي في هذا المقال عن قصّة قرأها في إحدى المجلّات لكاتب ما ، وهذه القصّة تتناول مشكلة رجل ثريّ طيّب الخُلُق بلغ الأربعين من عمره وتزوّج فتاة تصغُره عشرين عاماً ، ولكثرة حبّه لها أسبغ عليها من ماله ماشاء أن يسبغ بنفسه وماله ، ولكنّها بعد فترة من زواجهما تركت داره إلى دار عشيق لها يَقربها سِناً مدّعيةً أن تصرّفها هذا العفاف والشّرف والفضيلة ، أمّا الجريمة التي لا ترتضيها أن تعيش في دار رجل لا تحبّه ولا تقبل الحياة معه .

وهكذا عرض علينا المنفلوطي مشكلة إجتماعية متكرّرة مع إختلاف صُورها وأشكالها . .

وبعد أن عرضها علينا بدأ يُبدي رأيه فيها كعادته دائما في مقالاته - ورأيه هنا يبدو فيه العلاج الصّحيح لها .

وخُلاصة هذا الرأي أنّه لا يصحّ أنْ يكون أساس المُعاشرة في الزّواج هو الحبّ فقط بل لابدّ أن يُبنىَ على إحترام هذا الرّباط المقدّس مهما كانت الظّروف وتبدّلت الأحوال ، وإلّا لما كان هناك داعٍ لأن تُحافظ الزّوجة على زوجها ولا أن يحافظ الزّوج على زوجه ولترك كلّ منهما الآخر لمجرّد أن يجدَ من هو أجمل من الأوّل أو أثرى منه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ . ص ١٧٤

والحقيقة أن هذه الأمور تافهة لا يصحّ أن ترتبط دوام العلاقة الزّوجية بها يقول المنفلوطي :-

(إن الضجر والسآمة من الشيء المُتكرّر المتردّد طبيعة من طبائع النوع الإنساني ، فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك عنه ، وعلم أنّ نظام الأسرة لا يتمّ إلا إذا بُني على رجل وأمرأة تدوم عشرتهما ، ويطول إئتلافهما ، فوضع قاعدة الزّواج الثّابت ليهدم بها قاعدة الحبّ المضطرب ، وأمر الزّوجين أن يعتبرا هذا الرّباط رباطاً مُقدّساً حتّى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما ، وذهابهما في أمر الزّوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب من حيث الميل لكل جديد والشّغف بكلّ غريب) (١)

ويمضي المنظوطي في دفاعه عن رأيه هذا بكل ما أُوتي من وسائل الإقناع المنطقية الرادعة لكلّ زوج أو زوجة عن فعلٍ كهذا .

والمنظوطي في علاجه لهذه المشكلة وإبداء رأيه فيها إنّما يدلّنا على الرّوح الإسلامية المتعمّقة في نفسه إلى أبعد الحدود ممّا يدفعه إلى الغيرة على حدود الدّين ورفضه للزنا بشدّة إذ يقول :-

(أمّا وقد وصل الحدّ إلى تزيين الزّنا للزانية وتهوين امه عليها ، وإغراء العفيفة الصّالحة بالتمرّد على زوجها والخروج على طاعته كلّما دعاها إلى ذلك داعٍ من الهوى ، فهذا مالا يُطاق احتماله ولا يُستطاع قبوله) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٧٧

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٧٦

ويرى الأديب أن الوقاية فى كلّ الأمور خير من العلاج ولذا يطلب من الراغبين فى الزواج – ذكوراً كانوا أو إناثاً – ، أن يختار كلٌّ واحد منهم الصّفة التى يحبّها فى زوجه قبل إتمام العقد ، فإذا عُقدت عُقدةُ النّكاح فعليهم إحترام ذلك إلى درجة القدْسيّة وأنْ يتّخذ كلٌّ زوج زوجه صديقاً له لا مجرّد زوجاً .

وإنه لَنِعْمَ الرّأى رأيه لأنّه قوامه الإحترام وأساسه تعاليم الإسلام التى تدعو إلى راحة الإنْسان وإطمئنانه فى جميع أطوار حياته وظروفها ، والمنظوطى بصفته كاتب رَحيم القلب إنسانيّ المشاعر لا يألو جهداً فى الحرص على بناء الأُسَر وجمع شملها على الخيّر والوفاء دائماً .

الـــــزوجتـــان (١)

وهو موضوع يعالج مشكلة إجتماعية شائعة بتصرف إنساني بديع وهذه المشكلة هي :-

طمع بعض الرجال غير الراشدين في الإقتران بزوجات آخذات من المدنية الغربية المنحلة بأوفى نصيب حتى وإن سبق لهم الزواج وبقاء الإرتباط بزوجات صالحات ، فهم يفضلون تلك المرأة المختفية وراء ستار المظاهر البراقة على من تمتعت بأصالة الجوهر وحسن المخبر .

أما إذا تم لهم ما أرادوه من الإقتران بالأخرى ، فيهوي بهم قدرهم إلى الحضيض مطأطئي الرؤوس بعد أن كانوا شامخي الأنوف في أحضان سعادة تامة مع الزوجة الأولى الصالحة .

وهذا المقال كغيره من مقالات المنظوطي الإجتماعية ذو إتجاه إنساني رفيع لأنه يحمل العبرة والعظة لبعض فئات المجتمع من الرجال ، تلك العبرة التي يجب أن ينتبه لها كل رجل راشد وهي حسن اختيار الزوجة ، لأنها اليوم زوجته وغداً أم لأبنائه وهي في كل الأحوال أساس هام في بناء المجتمع .

وقد وجه الإسلام إلى ذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم :-

(تُنكَحُ النِّساءُ لأَربَعٍ ، لِمالِها ، ولِحَسَبِها ، ولِجَمالِها ، ولِدينِها فاظفَرْ بِذاتِ الدِّينِ تَرِبَت يَداك) (٢)

---

١ ـ المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ١٩١

٢ ـ إبن ماجه ـ سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد عبد الباقي ج ١ ص ٥٩٧ ط ١٩٥٢م

ونلاحظ أنّ المنظوطي وإن لم يأت بهذه النّصيحة بطريق مباشر ، ولكنه - كعادته - أتى بها بطريقة قصصيّة ، فحكى على لسان صديق له :

أنّ إمرأة صالحة ظلمها زوجها وتزوّج بأخرى وهي ماتزال في عصمته - وكانت هذه الزّوجة الأخرى على نصيب وافر من المدنيّة الغربيّة الفاسدة ، وترك ذلك الزّوج زوجته الأولى تقاسي مرارة الفُرقة والحرمان حتّى طلّقها أخيراً ، ثم دارت عليه الدائرة ، فساءت العلاقة بينه وبين زوجه الأخرى حتى أذاقته مرارة الحنظل بسوء معاملتها ودناءة خُلقها ، فندم على مافات وهيهات هيهات (١)

وهنا يلفت المنظوطي نظر الرّجال إلى أمثال هؤلاء الزّوجات المظلومات اللّائي يحتجن العطف والتّقدير بعد أن طلّقن من أزواجهنّ الجائرين ، فقد تزوّج ذلك الصّديق تلك المرأة الصّالحة لأنّه بحث عن امرأة عفيفه نقيّة طيّبة النّفس والخُلق فلم يجد أفضل من زوجة ذلك الرّجل الظّالم التي طلّقها ليتزوّج بأخرى - هي أرقى منها في نظره - ثم تكفّل ذلك الصّديق بالزّوجة الصّالحة وابنتها وصان كرامتها وعزّز شأنها ، فكان عمله هذا عملاً إنسانيّاً فاضلاً ، لإشفاقه على تلك المسكينة وصونه لعرضها وشرفها وابنتها .

وهو موقف قلّ من الرّجال من يقفه أو يتصرّف مثله لأنّ كثيراً من الرّجال يرفضون الزّواج من زوجات ثيّبات لهنّ أطفال من الرّجل السّابق أو حتّى ليس لهنّ ، غير مقدّرين قبل ذلك الرّفض ظروف هؤلاء النّساء مع الزّوج الأوّل .

---

١ - المنظوطي - النظرات ج ١ ص ١٩١ بتصرّف

ولنستمع إلى المنظوطي كيف يحكي ذلك الموقف الإنساني على لسان الصديق الذي روى عنه الحادثة فيقول :-

(فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعاً ، فطلقها وكنت أفكر في ذلك التاريخ - كما تعلم - في الزواج من زوجة صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها ، وماكنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها ، فأمتعت نفسي بخير النساء ، وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها .) (١)

ولا شك أن الأديب عندما يتناول أمثال هذه الظواهر في مقالاته ، إنما يدل على ميوله الإنساني وإعجابه بالمواقف النبيلة،وذلك الإعجاب هو دليل على نفسه الرحيمة ورغبته في نشر الفضائل الإنسانية العظيمة الأثر في إصلاح البشر .

---

١ - المنظوطي . النظرات.ج ١.ص ١٩٦

في سبيل الإحسان (١)

يرى المنفلوطي في هذا المقال أنّ الإحسان في المجتمع المصري قد أصبح لا يُصيب مَوضِعَه ولا يُعطَى لمُستحقّيه فيقول :-

(الإحسان شيء جميل وأجمل منه أن يحلّ محلّه ويصيب موضعه ، الإحسان في مصر كثير ، ووصوله إلى مستحقّه وصاحب الحاجة إليه قليل ، فلو أضاف المُحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظُلمة اللّيل شكاة بائس وأنّة محزون) (٢)

ثم يقصّ علينا الأديب قصّة معظم الموسرين في مصر الذّين يَهَبُون صدقاتهم لغير مُستحقّيها وما ذلك إلا رياء وسمعة كالذّين يقيمون ولائم سنوية لمشايخ الطّرق ويدفعون الأموال في ليالي موالد البيومي والعفيفي والأموال التي تُوضَع في صناديق الأضرحة وما إلى ذلك (٣)

ثم ينبّه المنفلوطي إلى ما يفعله معظم المُتسوّلين في أنفسهم من العاهات لاستدرار عطف النّاس عليهم ، كقطع أرجلهم أو تشويه أيديهم وأعينهم لجمع أكبر قدر ممْكِن من المال .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ، ص ١٩٨

٢ - المرجع السابق . نفس الصفحه

٣ - المرجع السابق . ص ٢٠٣

ونلاحظ أن إشارة المنفلوطي هذه إلى مثل تلك الأفعال التي يفعلها المتسوّلون إنما تلفت نظر معظم المتصدّقين الّذين لا يخطر في بالهم مثل هذه الأمور ويظنّون أن إحسانهم قد وُضع في موضعه وما هو كذلك .

ثم يقترح هذا الأديب حلاً للمشكلة فيقول :-

(أقترح أن يقوم جماعة من سُراة الأمّة ووجوهها ، وأصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يُسمّى مجتمع الإحسان ويكون له في كلّ مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له) (١)

ويوضّح لنا في نهاية المقال الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها هذا المُجتمع من تعليم النّاس كيفية وضع إحسانهم في مكانه المناسب ، وأن يعتبر هؤلاء النّاس أنّ هذا المُجتمع كبيت مال لهم يجمعون فيه الصّدقات ثم توزّع على مُستحقّيها من اليتامى الّذين لا كاسب لهم ، والقيام بأود العاجزين عن الكسْب وتفقّد شؤون الّذين نكبهم الدّهر ، والإنفاق على من يتوسّم فيهم الذّكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمّة (٢)

وإقتراح المنفلوطي هذا إنّما يدلّ على مشاركته الفعّالة في حلّ مشاكل المجتمع، ولا شكّ أنه أيضاً لا يحلّ المشكلة في المجتمع المصري فحسب ، بل في كل دولة مُسلمة ، وهذه المشاركة الفعّالة من الأديب إنما تدلّ على نفسٍ إنسانيّة صافية تسعى إلى الخير دائماً وترقى بالمُجتمعات البشريّة إلى أسمى الفضائل والمُثل الإنسانية.

---

١ ـ المنفلوطي . النظرات.ج ١.ص ٢٠٤

٢ ـ المنفلوطي . النظرات.ج ١.ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ بتصرُّف

الاحسـان في الـزواج (١)

مقال إجتماعيّ يُظهر موقف المنفلوطي الإنسانيّ في معالجته للمشكلة التي استُشير فيها ، وهي زواج أحد الشباب من امرأة ساقطة رحمةً بها وإنقاذاً لها من سوء حالها ، فسُئِل المنفلوطي عن رأيه في ذلك فأجاب :-

(فإن كان حقاً ماتقول من أنّ باعثه إلى ذلك الرّحمة والرأفة والحنان والشّفقة ، فقد أحسن كل الإحسان ولا أحسَب أن بين أعماله الصّالحة عملاً هو أفضل عند الله ذُخراً وأعظم أجراً من هذا العمل الصّالح .

العِرض أثمن من الحياة ، فإن كان من يَمنح الحياةَ فاقدَها شريفاً ، فأشرف منه من يردّ العِرض الضالّ إلى صاحبه المفجوع فيه.) (٢)

نعم ذلك هو رأي المنفلوطي الذي يدلّ على نفسٍ نقية رائدة إلى الخير والصّلاح ، وهل هناك أحسن من أن يتمنّى الرجل هذه الأمنية التي وردت في قوله :-

(ليتَ الرِّجال يتّفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشّريفة كلّ امرأة ساقها فقرها وعُدمها أو فَقْد عائلها إلى البغاء ، بل ليتهم يتّفقون على الزواج منهنّ قبل أن تضيق بهنّ حلقات العَيْش فيسقُطْنَ) (٣)

وهكذا يقِف المنفلوطي في مقاله هذا إلى جانب المرأة السّاقطة ويطالب النّاس - خاصة الرّجال منهم - إنقاذها من وَحل الرّذيلة التي تيعش فيها وبيّن لهم مثوبة ذلك العَمل عند الله عزّ وجلّ .

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ١ . ص ٢١٠

٢ - نفس المرجع ، ص ٢١٢.

٣ - نفس المرجع السابق، والصفحة .

وإن كنا نقدّر في المنظوطي عاطفته الحسّاسة وتمكّن الإحسان من نفسه . إلّا إنّنا ننتقده في غلبة تلك العاطفة على العقل ، لأنّه نسي أو تناسى بسبب تلك العاطفة الشّرط الأساسيّ في الزّواج وهو اختيار المرأة الصّالحة المؤمنة قبل كلّ شيء ثم النّظر إلى ما تطلبه رغبته فيها من صفاتٍ خُلقيّة لا الاندفاع وراء عاطفة الشّفقةِ نحوها ، لأنّ ارتباط الزّواج بأمور كهذه قد يؤدي إلى فشله في يوم ما ، وبذلك لا يُؤتي هذا الزّواج ثماره المرجوّة ، بل ربّما أدّت الشّفقة إلى قِصر الحياة الزّوجيّة وعدم استمرارها لمجرّد حدوث أيّة هفوة من تلك المرأة فيطلّقها الرّجل ويفقد مع طلاقها ثواب الإحسان الذي بذله بل ربما تحمّل إثماً لمنّه عليها لأنّه أنقذها من عذابها السّابق .

أمّا عن التماس المنظوطي العُذر للمرأة المومس وأنّها لم تقع في الخَطأ إلا لأنّها لم تجد من يقوم على نفقتها ، فلا نقبله منه لأنّ كثيراً من السّيدات اللّائي دار عليهنّ الزّمن دورته ، فأصابهنّ في أزواجهنّ وترمّلن مع وجود أطفال لهنّ لا مُعيل لهم ولا مُعين - إلا اللّه - ومع ذلك وجدنَ العمل الشّريف كالخدمة في المنازل مثلاً أو غيرها من الأعمال الشّريفة وقُمْن على تربية أبنائهن تربيّة طاهرة سليمة بعيدة عن الوقوع في الإثم والرّذيلة .

ويبدو أن نفسّ المنظوطي الرّحيمة وعاطفة الإحسان المتأصّلة فيها وقلبه المتعاطف مع المحتاجين في كلّ ذلك أنساه الاعتبارات الواجبة عند الرّغبة في الزواج .

الجـــزء (١)

مقال يعالج مشكلة إجتماعية شائعة بطريقة المنظوطي الإنسانية المعروفة وهـــذه المشـكلة هي قصـة شاب رسب في امتحان البكالوريا ، ولا يعلم كيف يتصرف مع أهلـــه وذويه . فهو لا ينفك باكياً منتحباً رغم مواساة الأصـدقاء لــه .

الأمر الذي جعل المنظوطي يواسيه بكلمات مثلجة للصدر مريحة للنفس والفؤاد فيقول :-

(مالك تبكي بكاء الواثق بمواسـاة الأيام ، ومطاوعة الأقدار ؟ وهل تسـتطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي ؟ وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك ، ولا يجـري إلا بجدك ؟ وعلى القلم أن لا يكتب في لوحه إلا مـا دللته عليه وأوصيت به إليه في غدك ماخسرت في أمسك ؟) (٢)

ويمضي المنظوطي في مواساة الطالب على طريقته الإستنكاريه هذه ، ويؤكد لــه ولأمثاله من الراسبين ، أن الشهادة التي يسعون إليها لينالوا بها وظيفة حكوميـــة ليست هي كل مايجب أن يسعى إليه الإنسان في حياته ولا منتهى مايسعى إليه الشاب بل لابد أن يسعى كل فرد إلى اكتساب الفضائل المعنوية من شرف وكرامة وحسن خلـق ، حتى يكتسب بها حب الناس بل واحترام نفسه لنفسه ـ قبل كل ذلك ـ لأن هـــذا أحسن مايمكن أن يسعى إليه الإنسان .

ولا شك أن مواساة المنظوطي هذه موقف إنساني واضح المعالم رفيع الهدف .

---

١ ـ المنظوطي . النظرات . ج ١. ص ٢٣٠

٢ ـ نفس المرجع . ص ٢٣٢

الشـــهيدتـــان (١)

يحكي الأديب في هذا المقال قصة امرأة زوّجها والدها - رغماً عنهـــا - من رجلٍ مِزواج مِطلاق ، أساء عشرتها ثم طلّقها بعد أن أنجبت طفلتها الأولـــى ثم تـرك لها هذه الطّفلة تقوم بشأنها وتسهر على راحتها في منزل جدّها حتى قبضه الله ، فزادت مأساة الأم المسكينة لأنّها فقدت من يعيلها ويقوم بشأنها وشأن ابنتها.

وماهي إلا أيام حتّى جاء الزوّج الظّالم فاختطف من زوجته أعز ماتملك ، ليرزأها رزءاً أشدّ وأعظم من الأول ، فتركها تقاسي ألم فُرقة الإبن وتعاني من لوعة الحُـــزن والحرمان وبؤس الجوع والوحدة في لياليها اللّيـلاء ، حتّى سمع المنظوطي في إحدى اللّيالـي صوتاً محزناً الأمر الذي أقلـق مضجعه وعذّبـه فذهب إلى حيث الصّـــوت وإذا به يجد تلك المسكينة وحيدة محزونة فجلس - كعادته - إلى جوارها يسمع شكاتهـا ويواسي لوعتها وبؤس وحدتها ، حتى أصابتها غشية لم تلو بعدها على شيء ممّـــا حولها .

والتفت المنظوطي حوله وخلفه فوجد رجلاً يحمل طفلة هزيلة لم يُبقِ منها الحُـزن والمرض أكثر من جلدٍ على عظم ، فأدرك أنّـه زوجها وأنّ هذه الطّفلة ابنتها ثم تنـاول الطّفـلة منه وألقى بها بين يديّ والدتها المحزونة ، فأفاقت من غفلتها على صـــوت فلذة كبدها .

وما هي إلّا زفرة اللّقاء حتى قبض الله روحيهما في لحظة واحدة كأنّما كانا مـــن السّرّوى على ميعـــاد (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢، ص ٢١٨

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢، ص ٢٢٢ بتصـرّف

ثم جلس الأديب يكتب مقاله هذا الذى يدلّ على نفس طيّبة وقلب رحيم يتأثر لكل موقف أليم حوله .

فها هو ذا يقول فى خاتمة المقال :

(أشعر أنّ نفسى تسيل من بين جنبىّ حزناً على تلك المرأة المسكينة ، لا بل حزناً على جميع البائسات من النّساء اللواتى يقتلهنّ الرّجال كل يوم صبراً بسيف الطّلاق الماضى ، من حيث لا يجدْن راحماً يرْحمهنّ ولا ثائراً يثأر لهن) (١)

والحقيقة أن هذه مشكلة إجتماعية شائعة وهى مشكلة زواج الرّجل أكثر من مرّة ثم الطّلاق المتكرّر لأوهن الأسباب ، ونأخذ على المنفلوطى موقفه السّلبى من الرّجل المطلاق ، فكان الحرىّ به أن يركز حديثه ودعوته ، ولو بطريق خفىّ للرّجال الذين هم على هذه الشاكلة ، أن يكونوا أكثر رأفة بالنّساء البائسات اللاتى لا حول لهنّ ولا قوة وأن يذكّرهم بتقوى الله فيهنّ ، وعدم استغلال ما أحلّ الله لهم من تعدّد الزوجات أو طلاقهنّ فى الإساءة إلى نسائهن فما أحل الطّلاق فى الإسلام إلا للضرورة القصوى وإذا أعيت الرّجل كلّ السّبل الممكنة للإصلاح وقد قال صلى الله عليه وسلم :-

(أبغض الحلال الى الله الطّلاق) (٢)

---

١ - المنفلوطى . النظرات . ج ٢ . ص ٢٢٢ .

٢ - إبن ماجه . سنن إبن ماجه . ج ١ ص ٦٥٠ .

التوبـــــة (١)

يحكي لنا المنفلوطي في هذا المقال قصة شاب مثقف كان قاضياً في المدينة التي يعيش فيها ، وقد علم هذا الشاب بوجود فتاة شابة جميلة الشكل في المنزل المجاور لهم ، فحاول رؤيتها مرة ، فتعلقها ثم راودها عن نفسها حتى

(حمّلها همّا يضطرم في فؤادها وجنيناً يضطرب في أحشائها) (٢)

فلم تجد بداً من الفرار بما حملت إلى حيث لا يراها أحد ممن يعرفها ، وكان أهون عليها أن يبكيها والداها بكاءهن على الموتى بدلاً من أن يبكياها وهي حية ، حتى جاءها المخاض في وحدتها ، فزاد همها وازدوج حزنها ، ولم تجد ما تسد به حاجتها وحاجة ابنتها إلا حليها ، فباعتها حتى لم يبق منها شيء وعلمت إمرأة عجوز بما تكابده هذه المسكينة ووجدت فيها جمالا ملموساً ، فكأنها وجدت فيها ضالتها المنشودة ، فأرسلت لها شياطينها من الرجال الفاسقين ، ولم تجد البائسة بداً من الإتجار بما سبق أن سلبها عزها وكرامتها .

وعاشت فترة من حياتها راضية بما هي فيه حتى اتهمها أحد روادها بسرقته ، ورفع عليها قضية كان قاضيها هو نفس الشاب الذى سلب منها عرضها وكرامتها ، فما أن رأته في مجلس القضاء حتى صرخت صرخة دوت لها أرجاء القاعة ورفضت أن يكون هذا الشاب قاضياً في القضية التي كان هو سببها .

---

١ - المنفلوطي - النظرات، ج ٢، ص ١٠٦ .

٢ - نفس المرجع والصفحة .

وَدُهِشَ النَّاسُ لأمرها فحسرت عن وجهها غطاءه وعرفها الشّاب ولكنّه أراد أن يخفي ذلك وينتصف لنفسه منها وأن يرفع عن نفسه جزع الموقف الذي يقفه فأدّعى أنها ذهلت عن نفسها وأضاعت عقلها ولا بدّ من معالجتها ، وصدّقه النّاس وماهي إلا أيام حتى استقال من وظيفته تلك ، ثم عاد إليها وتزوّجها واصطحبها معه إلى مدينة أخرى حيث لا يعرفها أحد من النّاس ، وعاشا مع ابنيهما فى وئام وسلام لا ينغصهما عليهما منغّص .

ولا شك أن تناول المنظوطي لمثل هذه الموضوعات يدلّ على نفس طيّبة رحيمة تبيّن مواضع الخطأ فى المُجتمع ثم تدلّ على الطّريقة الناجحة لعلاجها .

فتصرّف القاضي الشّاب هذا التصرف ، إنّما هو موقف إنساني فاضل لأن الرّجوع فى الحق فضيلة والتّمادي فى الباطل طغيان وظلم ، وقد علم الشّاب خطأه فحاول إصلاحه ، وكان من الممكن أن يتمادى فى إثمه ويسيء إلى المرأة مرة أخرى ولكن يقظة الضّمير الإنساني فى نفسه منعته من ذلك ، فأبى إلا أن ينتصف للمرأة من نفسه الشّريرة الظّالمة وكفر عن إساءته السّابقة بالإحسان إليها والزّواج منها ، وهو موقف إنسانيّ عظيم يهزّ وجدان المنظوطي فيتناوله بقلمه لتؤخذ منه العبرة والعظة .

الحســـــد (١)

يتحدّث المنفلوطى فى هذا المقال عن مرض إجتماعى شائع يودّ علاجه ، لما له من خطر على أفراد المجتمع وعلى صاحبه نفسه ، لأنّه يُورث الحِقد فى نفسه .

ويرشدنا الأديب بطريقة غير مباشرة إلى الطّريقة المُثلى لعلاج الحسد فى نفس صاحبه ويرى أنّ خير وسيلة لذلك هى :-

أن يَسْلُك الحاسد سلوك محسوده طارداً عن نفسه تلك الأحقاد المدمّرة والحسرة التى لا تُورث سوى اليأس والفشل والألم المرير ، فها هو ذا يقول لنا :-

(الحسد مرض من الأمراض القلبيّة الفاتكة ، ولكل داء دواء . ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود وليبلغ مبلغه من تلك النّعمة التى يحسده عليها ، ولا أحسب أنّه يُنفق من وقته ومجهوده فى هذا السّبيل أكثر ممّا يُنفِق من ذلك الغض من شأن محسوده والنّيل منه ، فإن كان يحسده على المال فلينظر أى طريق سلك إليه فيسلكه ، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم أو الأدب فليتأدّب فإن بلغ من ذلك مأربه ، فذلك وإلا فحسبه أنّه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيْظ الفاتك والكَمَد القاتل) (٢)

ولا شكّ أن معالجة المنفلوطى للحسد وقفة إنسانيّة فاضلة منه ، لأنه يريد بذلك القضاء على الحِقد والضّغينة التى تملأ قلوب النّاس ، ويريد من أفراد المجتمع أن يعيشوا فى سؤدد ووئام دائمين .

---

١ ـ المنفلوطى ـ النظرات ج ٢ ص ١١٦ .

٢ ـ المنفلوطى ـ النظرات ج ٢ ص ١١٦ .

الزهـــرة الذابلـــة

تحدّث المنفلوطي في مقاله هذا عن قصة شابّ في السّابعة عشرة من عمـره ، بعث إليه برسالة يخبره فيها أنّه حصل على شهادة الابتدائية ، ثم تقدّم لامتحـان الكفاءة فلم يُفلح ، فحاول الكدّ للعام المُقبل وأعدّ عدّته لذلك ، بينما لم يكن يعلـم خلال ذلك ماكان في طيّ الغيب من قضاء الله عليه فأصيب بحمّى أفقدته سَمْعَه وضاعت بذلك آماله وأظلمت الدّنيا أمام عينيه ، فأرسل إلى المنفلوطي يستشيره ويستغيـث بمواساته في مصابه هذا .

وما ان قرأ الأديب رسالته حتى شعر بشدّة الكارثة وفداحة البلاء ، فأخذ يقول :-

(لا أستطيع أنْ أعزّيك عن مصابك يابنـيّ ، فهو فوق مايحتمل المُحْتَمِل ، ويطيق الجلـد الصّبـور ولو حاولت ذلك منك لكذبتُك وغشَشْتُك ، ولكان شأني معك شـأن أولئك الخادعين من المغرين الذين يتخلّفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبيـن والمرزوئين ليقولوا للثّاكل :-

(لقد قدّمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يديّ ربّك وللباكي أباه ، ما مات من خلّف مثلك ، وللباكي أخاه إنّ في الباقي عزاء عن الماضي . .) إلخ .

ويستنكر المنفلوطي مواقف هؤلاء المُعزّيين قائلاً :-

(وكأنّما هم يحسَبون أن الفواجع والرّزايا صَفَقَات تجارية إذا قاس فيهـا المرء ربحه بخسـارته ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذاك واغتفر ما فـات

( ) المنفلوطي . النظرات، ج ٣ . ص ٧٨ .

لما هو آتٍ ، ويعلمون أنّ الحزن على الذّاهب المفقود ، إنّما هو زفرة من زفرات الحبّ ،أونفثة من نفثات الودّ ، ولا دَخْل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك ...) (١)

ويرى المنفلوطي الأمور على حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصّحيح فيضع لها ماتستحقه من تصرّف ويشعر اتجاهها الشعور اللّازم لها ، فهو يرى أنّ الأمّ التي تبكي على فقد إبنها الوحيد ليست أشدّ بؤسًا من الأم التي تبكي فقد عاشر إبن من أبنائها ، وإن فقد الزّوجة لزوجها لا يواسيها فيه وجود خطيب يترقّبها تحت كل نافذة من نوافذ بيتها ... لذا لا يفوته أن يقول للمصاب :-

(وأعوذ بالله أن أكون يابُنَيّ من الكاذبين في تعزيتك ، أو الغاشّين لك فيها ولو أردتُ نفسي على ذلك ما استطعتُ ، وكيف يستطيع أن يعزّيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزّي نفسه في مصابه فيك ؟ فقد ترك كتابك هذا بين جنبيّ لوعة من الحزن لا أحسب أنّها دون لوعتك التي تختلج بين جنبيك من الحُزن على نفسك ، حتى صرتُ كأنّي أنا الذي ابتليتَ به وكأنّ الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك ، فقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ماكان بينك وبين النّاس جميعاً من سبب وصله ، فأصبحتَ وأنت في دار الأنس والإجتماع ، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها كأنّك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجّرة من مُدن التّاريخ القديم ، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد ، ولا ترى بين يديك إلاّ نُصُباً ماثلة وتماثيل جامدة .

---

١ - المنفلوطي . النظرات.ج ٣ ، ص ٧٩ .

تحسب العين أنهم جد أحياء لهم بينهم إشارة خرس) (١)

وهكذا يمضي المنفلوطي في مواساة الشاب على طريقته هذه من المشاركة الوجدانية والشعور الصادق بمصابه الجلل وخطبه العظيم ، ذلك الشعور الذي يظنه السامع أنه تعظيم للبلاء وتثبيط للعزيمة ، وما هو من هذا في شيء ، بل هو قمة المواساة والإحساس بحقائق الأمور ، فهو بطريقته هذه إنما يريد من الشاب أن يكون جلداً ، صبوراً واقعياً في مواجهته لصدمات الحياة ، ويريد منه ألا يصدم بمعاملة الناس له أو من المواقف التي ستجابهه في حياته خلال مصابه هذا ، سواء كان ذلك من ضحك أو استهتار أصحاب النفوس المريضة من الناس أولئك الذين لا يشعرون ببلاء غيرهم ومصابهم .

ثم لا ينسى المنفلوطي في نهاية مقاله أن يواسيه أيضاً بكلمات مفعمة بالإحساس العميق والمشاركة الحقيقية له فيقول :-

(وكثير عليك يابني وأنت زهرة يافعة في روض الشباب وابتسامة لامعة في ثغر الآمال وفجر مشرق في سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيخطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء) (٢)

ثم يختتم الأديب مقاله بدعاء مخلص لهذا الشاب يشعر القارئ له بصدق شعوره وإنسانيته فيقول :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات، ج ٣، ص ٨٠ .

٢ - المنفلوطي . النظرات، ج ٣، ص ٨٢ .

(فوارحمتاه يابُنَيّ مما بك اليوم ، ومما يستقبلك به الدّهر غداً فاسأل اللـه لك أن يرفع عنك محنتك ، أو يمنحك عيناً ثَرّة لا ينضب معينها ، تسكُب منها صباح كل يوم ومساءه سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته ، وتفثأ لوعته ، فالدّموع هي الرّحمة العامّة التي يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سُبُل السّماء ، ناصراً ولا معيناً ، والسّلام عليكم من الراثي لك الباكي عليك .. ورحمة الله ..) (١)

وهكذا نلمح في كلمات المنفلوطي هذه شدّة وقع الكارثة على نفسه ومدى إحساسه بمصائب النّاس حوله

وما ذاك إلا دليل أكيد على اتجاهه الإنسانيّ في معالجته لمشاكل النّاس حوله .

---

١ - المنفلوطي . النظرات.ج ٣. ص ٨٢ ، ٨٣

أمس واليــــــوم (١)

يناقش المنفلوطي في مقاله هذا قضية إجتماعية ، كانت سبباً في خراب الطبائع الإنسانية وتغيرها ، هذه القضية هي قضية أمسنا الماضي والذي يمثل عصر الآباء والأجداد الذين كانوا لا علم لهم ينير عقولهم ولا مدنية فاسدة تهدد كيانهم وتمحو شخصياتهم ،

وبذلك حافظوا على مبادئهم الإعتقادية وقيمهم الخلقية رغم مايبدو لنا الآن من جهلهم ، يقول المنفلوطي :-

(فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضره ، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً ، وأهنأ عيشاً ، وأسد خطوات في سبيل الحياة ، وكانت المعيشة فيهم إجتماعية أكثر منها فردية ، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيره متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات ، تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي السامره ، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة النزهة يحبون الله لا يختلفون في الطريق إلى رضاه ، ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته ، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الإجتماعيه وينفرون من العادات والمشارب الغربية فرارهم من الأسد) (٢)

ذلك هو حديثه عن الأمس ، ثم يلفت إنتباه القارئ إلى اليوم ، نعم اليوم الأليم الذى هدمت فيه المدنية الغربية صرح الأمة الشرقية بإفساد شبابها ونشئها ،

---

١ ـ المنفلوطي ـ النظرات.ج ٢ . ص ١٦٨ .

٢ ـ المنفلوطي ـ النظرات.ج ٢ . ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

ففيّرت طباعهم وشوّهت أخلاقهم ، وأفسدت مُثُلهم ونهشت أعراضهم ، وجنت الأُسر الحديثة على أبنائها بإدخالهم المدارس الأجنبيّة التى أخذت تزبي النشىء لصالحها لا لمصلحة أوطانهم ، وذلك لما تغرسه فيهم من قيم خارجة عن الدّين والخُلق والصّواب ، فينشأ كل طفل فى الأسرة متخلّقاً بأخلاق أساتذته فى تلك المدرسة التى تلقى فيها علومه من المَهْد إلى اللّحد .

وكثيراً ما تتعارض هذه الأخلاق وتلك الطّباع التى رُبّى عليها الطّفل - مع أخيه أو بقيّة أفراد أسرته فى المنزل ، مما يؤدّى إلى الشّقاق والفُرقة بين الأفراد فى الأسرة وذلك لاختلاف المبادىء والقيم التى تخلّق بها كلّ ناشىء فيها .

وهكذا يتفكّك المجتمع كلّه لتفكك أُسرة وبذلك لا تجنى تلك الأسرة إلّا الخسارة والندم حيث لا يفيد النّدم . يقول المنفلوطى :-

(وأيّ شأن لهذه المعلومات الكثيرة التى حشوا بها أذهانهم ؟ وهل أفادوا بها إلّا هذراً فى المنطق وثرثرة فى اللّسان وشغلاً للأذهان لا يُغنى عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً ؟) (١)

ثم يؤكّد المنفلوطى فى نفس المقال - أن ما أُصيب به النّشىء من جمود ونكران للجميل ما هو إلّا لبُعدهم عن مُثُلهم وقيمهم الفاضلة وبيّن أنّ الأمر كان حافلاً بآباء وأجداد رغم جهلهم - إلا أنهم كانوا مؤمنين إيماناً أكيداً بحبّ الوطن وضرورة المحافظة عليه من براثن العدوان الأجنبىّ ، وكانوا رغم علمهم المشوب بالخرافات والبدع فهو عنده أفضل من لا دين أبداً . ولنستمع إلى قوله :-

---

١ - المنفلوطى . النظرات، ج ٣، ص ١٧٤ .

(وعندي أن ديناً خُرافيّاً خير من لا دين لأن لهذه المعبودات الوهميّة في نفوس العابدين سُلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشّر فيها ، ويطهّرها من كثير من الرّذائل التي تعيا بها القوانين الشّرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب والحقد والحسد ، وسَفْك الدّماء واغتيال الأموال وغير ذلك من الشّرور الإنسانيّة التي لا تُزَجُر النّفس عنها مالم يكن منها لها زاجر والتي فَشَتْ اليوم بين طبقات المتعلّميْن الذين أخذوا العِلم مُجرّداً من روح التربية وصبغة الأخلاق) (١)

وهكذا بدا لنا ومن الموضوع السّابق - ثورة المنفلوطي على المدنية لما سبّبته للبشرية من مفاسد خُلُقِيّة ودينيّة تُنافي الشّرائع الإنسانيّة وتعارض مُثلها النّبيلة الطّاهرة ، ويرى أنّ العلاج لهذه المشكلة يتركّز في استئصال السّبب الرئيسي ومحاولة الرّجوع إلى الأصول الرّاسخة والثّابتة من القيَم والفضائل الإنسانيّة الصّحيحة حتى يعود الإنسان إنساناً وإلا سيكون الغدّ أشدّ شرّاً من اليوم .

وحرص المنفلوطي الواضح على إصلاح النّفوس البشرية دليل أكيد على نفسه الإنسانيّة الرّاقية التي تنشُد الخير دائماً وتحرص عليه بين البشر .

---

١ - المنفلوطي . النظرات، ج ٣، ص ١٧٥ .

فى العطف على البائسين

(ليتك تبكي كلّما وقع نظرك على محزون أو مفئود ، فتبتسم سروراً ببكائك واغتباطاً بدموعك لأن الدّموع التى تنحدر على خدّيك فى مثل هذا الموقف إنّما هى سطور من نور تسجّل لك فى تلك الصّحيفة البيضاء أنّك إنسان)

(إحسن الى الفقراء والبائسين وأعدك وعداً صادقاً أنّك ستمرّ فى بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدّث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك)

أيُّهـا المحـزون (١)

يتّضح فى هذا المقال الرّوح الإنسانيّة السّامية ـ نحو هؤلاء المحزونين ـ وضوحاً ظاهراً إذ يحاول فيه تخفيف آلامهم والتّرويح عن أنفسهم بما يُهَوِّن عليهم مصابهم ، كأن يجلو لهم حقيقة الأمور فى هذه الحياة ، وأنّ ما فيها من نعيم إنّما هو سراب زائل ، لذا وجب على الإنسان ألّا يطيل الأمل فى سعادته الحاضرة ، وأن يتوقّع زوالها بين لحظة وأخرى ، لأنّها ما هى إلا سراب لامع فى فيافى الحياة الزائلة ، مستمع إليه يقول :

(إن كنتَ تعلم أنّك أخذتَ على الدّهر عهداً أن يكون لك كما تُريد فى جميع شؤونك وأطوارك ، وألّا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحبّ وتشتهى ، فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحُزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب .

وإنّ كنتَ تعلم أخلاق الأيّام فى أخذها وردّها وعطائها ومنعها ، وأنّها لا تنام عن منحه شمنحها ، حتّى تكرّ عليها راجعةً فتستردّها ، وأن هذه سنّتها وتلك خلقها فى جميع أبناء آدم سواء فى ذلك ساكن القَصر وساكن الكوخ . . ومن يطأ بنعله هام الجَوزاء ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفّض من حزنك وكَفْكف من دمعك فما أنت بأوّل غرض أصابه سهْم الزّمان ، وما مصابك بأوّل بِدْعةٍ طريفةٍ فى جريدة المصائب والأحزان) (٢) إلى أنْ يقول :ـ

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات . ج ١ . ص ٧٦ .

٢ ـ المنفلوطى . النظرات . ج ١ . ص ٧٦ .

(أسعد النّاس فى هذه الحياة مَنْ إذا وافته النّعمة تنكّر لها .. ونظر إليها نظرة المستريب بها .. وترقّب فى كل ساعة زوالها وفناءها فإن بقيت فى يده فذاك ، وإلا فقد أعدّ لفراقها عدّته من قبل) (١)

والمنفلوطى بنفسه الإنسانيّة المُشرقة لا يألو جهداً فى مواساة المحزونين والعطف على البائسين ، وقد عبّر بصدق عن هذه العاطفة الرّاقية فى نفسه فى كلّ مقالٍ من مقالاته .

---

١ - المنفلوطى . النظرات، ج ١ . ص ٧٧ .

الرّحمـــــــــة (١)

تظهر في هذا المقال سموّ الرّوح الإنسانيّة في أدب المنفلوطي إذ يدعو إلى الرّحمة ، والرّحمة عاطفة إنسانيّة راقية بل هي الينبوع الذي يتفجّر منه كل العواطف الإنسانيّة الشّريفة ، وهي الأساس أو الرّكيزة الأولى التي يعتمد عليها السّلوك الإنساني الموجّه للخير والدّاعي إلى الفضيلة والسّلام .

فها هو ذا المنفلوطي الذي تغمر أمواج الرّحمة قلبه يدعو إليها صراحة ، ضمن مايدعو إليه من مبادئ إنسانيّة نبيلة فيقول :-

(أيّها الرّجل السّعيد ، كُنْ رحيماً ، أَشْعِر قلبك الرّحمة ليكن قلبك الرحمة بعينها) (٢)

ولا يكتفي المنفلوطي بطلب الرّحمة فقط بل يُبيّن أن الرّحمة والشّفقة عبارة عن بلسم شاف لجرح المكروبين فيقول :-

(ستقول إني غير سعيد ، لأن بين جنبيّ قلباً يلمّ به من الهمّ مايلمّ بغيره من القلوب ، أجل ، فليكن ذلك كذلك ، ولكن أطعِم الجائع واكسي العاري وعزّ المحزون ، وفرّج كُربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزّيك عن همومك وأحزانك ولا تعجب أنْ يأتيك النّور من سواد الحلك ، فالبدر لا يطلع إلاّ إذا شقّ رداء اللّيل . والفجر لا يدرج إلا من مهد الظّلام .) (٣)

---

١ - المنفلوطي + النظرات، ج١، ص ٨٤ .

٢ - المرجع السابق نفس الصفحة .

٣ - المرجع السابق نفس الصفحة .

ثم بيّن لنا الفئات التي تستحق الشفقة والعطف والتي يجب أن تستدر الرحمة والحنان فيذكر فئة فئة وهم :-

الفقراء والبائسون فيقول فيهم :-

(أحسن إلى الفقراء والبائسين ، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ...) (١)

وكذلك تجب الرحمة للمحزونين والمفئودين فيقول :-

(ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفئود فتبتسم سروراً ببكائك .. واغتباطاً بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان) (٢) .

ثم يذكر الأرامل واليتامى في قوله :-

(أيها الإنسان إرحم الأرملة التي مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار ، إرحمها قبل أن ينال منها ويعبث الهم بقلبها ، فتؤثر الموت على الحياة ! (٣)

وكذلك الزوجات ممن هن أجدر بالرحمة بالعطف فيقول :-

(أرحم الزوجة أم ولدك ، وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها إليك وماكان لك أن تكذب ثقته بك) (٤)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ، ج١ ، ص ٨٥ .

٢ - نفس المرجع ص ٨٥ ، ٨٦ .

٣ - نفس المرجع ص ٨٨ .

٤ - نفس المرجع ص ٨٩ .

وكذلك الإنسان من مهده إلى رشده يحتاج تلك الرحمة وذلك العطف حتى ينشأ نشأة سليمة فيقول :-

(إرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين) (١)

ويتسع قلب المنفلوطي بما فيه من رحمة وعطف ليشمل كذلك الجاهل والحيوان ، والطير لأن كلاً من هؤلاء لا يستطيع أن ينتصف لنفسه ولا أن يعبر عما يطيق عليها من ظلم وعذاب (٢)

ويختتم المنفلوطي مقاله بدعوة عامة إلى كل السعداء أن يحسنوا إلى الأشقياء في الأرض ليظفروا برحمة السماء فيقول :-

أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وأرحموا من في الارض يرحمكم من في السماء) (٣)

وهنا نلاحظ أن المنفلوطي استمد من الحديث النبوي الشريف معناه السابق إذ قال صلى الله عليه وسلم :

(لا يرحم الله من لا يرحم الناس) (٤)

وقال صلى الله عليه وسلم (من يحرم الرفق يحرم الخير) (٥)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ، ص ٨٩ .

٢ - نفس المرجع والصفحة . بتصرف

٣ - نفس المرجع والصفحة .

٤ - الإمام البخاري، الأدب المفرد، ص ٣٦ ، صحيح البخاري . (التوحيد) ص ٢ .

٥ - إبن ماجه - سنن ابن ماجه - تحقيق محمد عبد الباقي - باب الرفق .

أبو الشمقمق (١)

يذكر لنا المنفلوطي في هذا المقال قصة (أبي الشمقمق ، ذلك الرجل الذي كان يجلس في جمع من الأغنياء الذين أجمعوا على أن السعادة التي ترفرف بأجنحتها عليهم ، إنما هي ثمرة من ثمرات النماء المالي الذي تدره عليهم أرباح سلعهم وكان كل واحد منهم يدلي بحديث يختص بتجارته وربحها ، أما أبو الشمقمق فكان صامتاً لا يحرك شفتيه بكلمة واحدة ، ومازال كذلك حتى انتهوا من حديثهم المطول .

وقد حاول المنفلوطي أن يستدرج الرجل ليعرف سبب صمته هذا ، فأشار أبو الشمقمق إلى عدم اغتباطه بما سمع لأن شيئاً من هذا ليس في يده ، فلا أموال الأغنياء له نصيب منها ولا سعادة السعداء له اشتراك فيها فها هو يقول :-

(إن لم تبيّن لى سموهذه السعادة وتطيبي من ذلك الإرتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء ، ومادمت أرى أن لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطناً لا يمتلئ ، بما تمتلئ بطونهم ومادمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق وقميصي المخرق ، ويقاسمني إياها ويشاطرني فقري فهيهات أن أسعد بسعادتهم ، وأسر بسرورهم) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ١٩ ، وهو أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ، ص ٢١ .

والمنفلوطي عند ما يأتي بقصة كهذه إنّما يريد أنْ يلفتَ نظر الموسرين - بطريق غير مباشر - إلى ضرورة العطف على البائسين ومُراعاة شعورهم .

ثم يمضي أبو الشمقمق في حديثه مبيّناً أنّ الإحسان في الأمّة التي يعيش فيها إنّما يبذل ابتغاء الرّياء، والسّمعة ، فمعظم الأموال تُنفق في بناء المدارس والمستشفيات والمكاتب دون النّظر إلى مَنْ يحتاج لُقمة العيش التي يسدّ بها أودَه وأود أسرته يقول :-

(أنا رجل ضعيف البَصَر ، ضعيف القوى كما ترى . . فلا قُدرة لي على العمل ، وعندي صِبْية صغار ، ليس بينهم مَنْ يستطيعُ عملاً أو يُحسن صُنعاً ، ولقد كان بي في الزّمن الذي تذمّونه والعهد الذي تنقمون عليه منفسح عظيم في منازل المحسنين ومَوْرد غَيْر من صدقاتهم وحياتهم ، وظلّ ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهنّ بالفقراء والبائسين . . أما اليوم فإنّي أبيتُ طاوياً وأُصْبح باكياً وأغدو راجياً وأروح بائساً) (١)

هكذا نرى كيف أنّ المنفلوطي عرض لنا هذه المشكلة التي تدلّ على مدى إنسانيّته ، تلك الإنسانيّة التي تنظُر بعين العطف والشّفقة لمواطن البؤس والشّقاء في المجتمع فتحاول علاجها بطريقة غير مباشرة ، فهو يلفت بهذا المقال بهذا المقال نظر الأغنياء والموسرين إلى ضرورة العطف على هؤلاء البائسين والتخلّص من حُبّ الذّات والأنانية التي كثيراً ماتدفعهم حتّى في إحسانهم إلى الرِّياء . فيقول :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢، ص ٢٢ .

(نعم قد يكون الوَلَع برضاء النّاس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضّالّ عنها لو أن الفضيلة هي الخُلُق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ولو كان الأمر كذلك لآثرتُ أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي لا من حيث تشخيصها في أذهان النّاس وقولهم ، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطتْ قلبه وأخذت مستقرّها من نفسه جعلها ميزاناً يَزِن به أقواله وأفعاله كما يَزِن به أقوال النّاس وأفعالهم ، ثمّ لا يبالي بعد ذلك أرَضَواْ عنه أم سَخِطُوا عليه أحبّوه أم أبغضوه فإنّما يبكي على الحبّ النّساء) (١)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ١١٨ .

الوفـــــــاء (١)

الوفاء معنى من المعانى الإنسانيّة السّامية ، يهتف به المنفلوطى ويدعو إليه فى هذا المقال ـ أولئك الذين لا يضعون له اعتباراً فى حياتهم ، فلا تنطبع به تصرفاتهم ولا يوجّه سلوكهم فى الحياة .

فهذا رجل أُصيبت زوجته برمد أفقدها بصرها بعث إلى المنفلوطي ليستشيره فى أمر طلاقها لأنّه أصبح لا يحتمل استمرار الحياة معها .

وهنا يقف المنفلوطي موقفه الإنساني النّبيل الذى عهدناه فيه ، فيناشده الوفاء بحقّ هذه الزّوجة عليه بل بحقّ الإنسانيّة وماتمليه عليه من عطف وإحسان للبائسات مثلها ممن أصابهنّ القدر ببلائه حيث لا مفرّ لهنّ من هذا البلاء فيقول :-

(أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، وبالعهد وزمامه ألّا تجعل لهذا الخاطر السّيّء ـ خاطر الطّلاق والفراق ـ سبيلاً إلى نفسك ، فإنّها لم تسيء إليك فتسيء إليها ، ولم تنقض عهدك ، فتنقض عهدها ، فإن كنت لا بدّ ثائراً لنفسك فاثأر من القدر إن استطعت إليه سبيلاً) (٢)

ولم يكتف هذا الأديب الإنساني بذلك بل يذكّره بالعواطف الإنسانية وقيمها الفاضلة النّبيلة فيقول :-

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٢ . ص ١١٩ .

٢ ـ المرجع نفسه والصفحة .

(إن لم يكن احتفاظك بزوجك وإبقاؤك عدلاً يسألك عنه فليكن إحساناً تحاسبك الإنسانية فيه .)

ثم يتعمّق المنفلوطي موقف الزّوجة وهي وحيدة في ليلها الدّامس الدّائم ، اذ لاتجد مؤنساً لها في وحدتها ولا سميراً يخفّف عنها حِدّة وحشتها ، أو حتى خادماً تقدّم لها جرعة ماء تبل بها رمقها أو كسرة خُبز تسدّ بها جوعها .... الخ

كل هذه المواقف يلفت إليها المنفلوطي بنظرته الإنسانيّة ونفسه الرّحيمة سائله ثم لاينسى أن يقول له بعد ذلك :-

"(أيها الإنسان إن لم تكن عادلاً ولا وفيّاً ولا مُحسناً فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لابدّ أنْ يساورك ، يفتّ في عضدك ويزعجك من موقدك ، فان لم تكن هذا ولا ذاك فغيرك أخاطب لأني لا أُحْسِن إلا مُخاطبة الإنسان) (١)

كذلك لاينسى هنا المنفلوطي رغبات الإنسان وحاجاته كتطلّعه إلى لذّة العيش ورفاهه ، فيؤكّد له أنّه اذا وفّى لزوجته تمام الوفاء فسيجد اللّذّة في ذلك التي لاتَعْدِلها لذّة غيرها لأنّ كل نعمة أو لذّة في الحياه يعقبها كدر وألم إلا لذّة الإحسان فإنّها تزيد صاحبها نَشوة وسعادة وحُبور . (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ١٢٠ .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ١٢١ . بتصرُّف

وا رَحمتَــــــاه (١)

يصف المنفلوطي - في هذا المقال - بروحه الشَّفافة وعاطفته الرَّقيقـــة وأسلوبه المعبِّر الحال التي وصلت إليها أُسَر المُسلمين في ليبيا إثر الحرب التي دارت بين إيطاليا وطرابلس ، والتي بدت الدُّور فيها ترِنّ بنحيبها ، والمــرأة المُسلمة المحتشمة حاسرة الرَّأس كاشفة الوجه حائرة ذاهلة تُسائل عن زوجهـا أو ابنها أو أخيها أو ربَّما عنهم جميعا ، فإمّـا استمرّت على حيرتها وإما عادت بما يزيدها حُزنـاً وألماً .

فترى الشّيوخ والأطفال والعاجزين والضّعفاء ، لائذين بالتِّلال والآكام يحاولون اتقاء صواعق الحرب ورعودها فلا تَتيهم ، أو لائذين بالمضايق والشعوب محاولين الفرار من وجوه الخيل وسنابكها فلا تقيهم شرَّها .

أما أولئك الذين يدعون أنفسهم قوّاداً عظاماً من المُستعمرين ، فإنّمـــا يمشون في اختيال وتيه بين بيوت المسلمين ناظرين إلى الثّكلى واليتامى والأرامل نظــرة السّيد المغرور إلى مولاه الذى استعبده باله ، وكما يقول المنفلوطي :-

(وربّما رَموا إليهم في تلك السّاعة بلُقيّمات كتلك التي يُلقيها سيِّد الكلب إلى كلبه ، أو الرّاعي إلى ماشيته ليُشْهِدُوا العالم الإنسانيّ أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنّهم ما سفكوا الدّماء ولا قطّعوا الأوصـــال ولا أيّمـوا النِّساء ، ولا يتّمـوا الأطفال ولا انتهكوا الحُرُمات إلا خدمةً للإنسانيّة

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ١٧٧ .

العامّة وإجلالاً لشـأنها) (١)

وبعد .. فما هو موقف المنفلوطي إزاء هذه المحنة ؟

لا شكّ أنّه سيدعو بملء فيه إلى مناصرة هؤلاء البائسين والعطف عليهم وهذا فعلاً ما قام به المنفلوطي :.

فها هو ذا يناشد المسلمين بإيمانهم ودينهم الواحد الذى يربطهم ، وقبلتهم الواحدة التى يتوجّهون إليها جميعاً فى كلّ يوم خمس مرات ليعبدوا إلهاً واحداً ، يناشدهم بكل ذلك الإحسان إلى هؤلاء قائلاً :ـ

(لا أحسب أنّ مسلماً دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحساناً وعطفاً وحناناً ، يستطيع أن يتّخذ لجنبه فى ظلمة اللّيل مضجعاً ، أو يجد لنفسه فى صحوة النّهار قراراً ، حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يديرون بأعينهم فى مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم إلاّ أمماً إسلاميّة قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهى تعجز عن النّظر لنفسها فأحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبقَ بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرّحمة التى يعتقدون أنّها باقية فى قلوب الأفراد . من إخوانهم المسلمين أن يمدّوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوّهم ويعودون بما بقى منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم) (٢)

ثم يذكّرنا المنفلوطى بالأجر والمثوبة التى تنتظر المحسنين عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلبٍ سليم .

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٢، ص ١٨٠ .

٢ ـ المرجع السابق والصفحة .

نعم يذكّرنا بالمثوبة في ذلك اليوم إذا قدمنا لهم كل مايُمكننا من معونة سواء بالمال أو الكساء أو السّلاح أو حتى مجرّد مواساة معنوياتهم إذ يقول :ـ

(إنّكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب إلى الله ، وأوفى إلى رحمته وإحسانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضُّعفاء المساكين يطعمون جائعهم وتكسون عاريهم وتسلّون أعزلهم وتخلفون قتيلهم في أهله وولده) (١)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ، ج ٢ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

قتيلة الجوع (١)

كتب المنفلوطي هذا المقال إثر قراءته - في بعض الصحف - خبر سيدة وجدت قتيلة على جبل المقطم ، وبعد فحصها أكد الطبيب أن الجوع كان سبباً في وفاتها .

والمقال يبدو لنا شديد اللهجة عالي الصوت لأن الكاتب يستنكر فيه أن تموت إنسانة وسط بني جنسها لعدم حصولها على لقمة عيش تسد بها جوعها فيقول :-

(لم تمت هذه المسكينه في منارة منقطعة أو بيداء مجهل ، فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره ، كما تفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة ، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديهم ورائحهم ، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها ، فما أقسى قلب الإنسان وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .) (٢)

ثم يمضي المنفلوطي في استنكاره هذا لما حدث لهذه المرأة المسكينة ، فيرى أنها لم تلجأ إلى جبل المقطم في ساعاتها الأخيرة إلا لأنها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الناس الذين قصدتهم فلم يستجيبوا لطلبها .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ . ص ٢٦ .

٢ - نفس المرجع والصفحة .

ويبدو انفعال المنفلوطي الشديد في هذا المقال وتأثره الواضح بالحادثة في كثرة الإستفهام التعجبي الذي طغى على أسلوبه في هذا المقال إذ يقول :-

(ألم يلتق بها أحد في طريقها ؟ ..)

(ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ؟ ..)

(أأقفرت البلاد من الخبز والقوت ؟ ..) (١)

ثم يرجع المنفلوطي هذه القسوة إلى سبب واحد وهو أن المجتمع أصبح لا ينفق إلا إذا أعلن عن هذا الإنفاق وتلك المساهمة ، ولو كلف الفرد منهم الملايين من الجنيهات فيهون مايهون عليه في سبيل الرياء والسمعة .

أما الصدقة في السر والخفاء فأصبحت غير منتظرة ، وبذل المال من أجل المحافظة على الإنسانية والشرف أصبح أمراً مستبعداً حصوله يقول :-

(لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من النفوس ، فأما اليوم وقد أصبح كل أمرىء موكولاً إلى نفسه أو مسوءولا أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدها فها هم الفقراء يموتون جوعاً بين كثبان الرمال وفوق شعاب الجبال حيث لا راحم ولا معين (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ ، ص ٢٦ ،

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ . ص ٢٨ .

ويُحرِّك المنفلوطي بانفعاله هذا في مثل هذا الحادث المؤلم - المشاعر الإنسانية الظاهرة في نفوس البشر التي لولاها ما سُمِّيَ الإنسان إنساناً ولما استحقّ أن يعيش بين البشر بل حقّ له أن يكون بين الحيوانات والجمادات بل ربما كان هذا قليلاً على أمثاله من غير الراحمين .

يـوم العيــــد (١)

في ليلـة كل عيد يُخيّم على بعض الأسَر شعور يكاد أصحابه يطيرون فرحة وحبـوراً ، بما أعدّوه لأبنائهـم من فاخِر الثّياب وجميل الهدايا بهجةً بهـذا اليـوم المُقبل .

ويخيّم على بعضهـا الآخـر شـعور أليم يذيب القلـوب حسْرة ولوعةً لمـا يكابدونه من مرارة الحـرمان ، فلاهم سعداء ، ولا يستطيعون توفير ذرّة من السّعادة التي تغمرغيرهم ولو لأحـد أبنائهم .

وينقُل لنا المنظوطي هذه الصـورة كاملة في هذا المقال (يوم العيد) إذ سـرد لنا فيه قصّـة أرملة فقيـرة لها طِفل صغير ، أرادت أن تُهيّئ له في ليلـة العيد مايهيّئ الآبـاء والأمّهات لأبنائهم من جميل الثّياب ومختلف الألعاب ، ولكن الحاجـة أعوزتها أن تقف حائرة على حانوت بائع التماثيل .

أجَل .. لقد كانت حيرة هذه المرأة بين أمرين أحلاهما مرّ ، فإما أن تسرق تمثالاً أعجبها لأبنـها لتُضفي عليه بهذا التّمثال - فَيْضاً من السّعادة ، وإمّـا أن تعود له صِفْـر اليَدين ، فيشعُر بشقائه ونقص مافي يديه بين أترابه .

ولابدّ هنا أن يقع أحد الأمرين البغيضين ، فسـرقت التّمثال في حين أن صاحب الحانوت كان من اليَقظـة والإنتباه إلى الحدّ الذي لا تفوته فيه صغيرة ولا كبيرة تـدور حول حانوته . إلا أحصاها .

---

١ - المنظوطي . النظرات.ج ٣.ص ٦٣.

وما ان برحت السيّدة موقفها ذلك حتى تَبِعها صاحب الحانوت يرافقه جنديان للقبض عليها ، وبينما هى سائرة فى طريقها كان ينتابها شعوران ، شعور النّدم وتأنيب الضّمير على سوء تصرّفها وسرقتها ، وشعور الفرحة والسّعادة لما ستجده من غبطة ابنها ونشوته لامتلاكه هذه اللّعبة

وما أن وصلت الى منزلها وألقت باللعبة المسروقه بين يدىّ الطّفل حتى ألقى القبض عليها ، وما إن ارتسمت بَسمة الفَرح على شفتيّ ابنها حتّى محتها صرخة التقاط اللّعبة من يديه وشدّ أمّه أمام ناظريه إلى مكان لا يعلم عنه إلا أنها ستفارقه إليه .

وفى هذه اللّحظات المؤلمة تتحرّك فى نفس صاحب الحانوت عواطفه الإنسانية النّبيلة فاعتذر للشّرطيين لأنّه أخطأ فى ادّعائه هذا ، إذ أنه لا يبيع هذا النّوع من التماثيل الذى بيد الطّفل .

وهكذا أُفرج عن السيدة ، ولم يكتفِ هذا الرّجل بما فعل من خير أخيراً بل لم يفارق الأم وابنها حتّى أضفى عليهما من نعمة اللّه عليه ما جعل عيدهما أسعد الأعياد وأبهجها .

وبعد أن سرد المنظوطى قصّته المؤثّرة هذه ، وجد الفُرصة سانحة ليدعو أولى الجاه والسّلطان والموسرين وكل من كان مثلهم أن يساهموا فى إدخال السّعادة إلى قلوب هؤلاء البائسين ، بما يمدّونه إليهم من معونة وعطاء فى ليلة كهذه أو فى أى مناسبة سعيدة على الأقل فيقول :ـ

(فهل لأولئك السّعداء أن يمدّوا إلى هؤلاء الأشقياء يدَ البرّ والمعروف ويفيضوا عليها فى ذلك اليوم النّزر القليل ممّا أعطاهم اللّه ليسجّلوا لأنفسهم فى

المروءة والإحسان ماسُجِّل لصاحب حانوت التماثيل .) (١)

وهكذا يمضي المنفلوطي في ترغيبه لفضيلة الإحسان والعطف على البائسين من الأرامل واليتامى والمعوذين من الفقراء وذوي الحاجات وهو لا يُطالب بهذا الإحسان كل يوم أو كل شهر بل يكفيه من ذلك أن يكون في المناسبات السّعيدة كأيام الأعياد وغيرها فيقول :-

(حَسْب البائسين من مِحَن الدّهر وأرزائه أنّهم يَقضُون جميع أيّام حياتهم في سجن مُظلِم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقلّ من أن يتمنّون رؤية أشعّة السّعادة في كل عام مرّة أو مرّتين .) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات.ج ٣،ص ٦٥ .

٢ - المرجع السابق ص ٧٦ .

اليتيــــــم (١)

قصّــة صغيرة من تأليف المنظوطي ، وضعها ضمن كتابه " العبرات "

وهي تحكي قصّــة شابّ فقد أبويه وهو في السّــادســة من عمره . وقد كان فقيــراً معْدَماً لأنهما لم يتركا له إرثاً يعيش منه فضمّــه عمّه إلى كنفه ليكون أخاً لابنتــه التي تقربه سنّاً ، فنشأ في بيت واحد ، يرتشفان من ثدي الطّفولة ما شاء الله لهمــا أن يرتشفا من سعادة وهنــوه لا ينغّصها عليهما منغص طفقــي الطّفل في رفقة ابنــة عمّه من السّعادة ما أنساه فقد أبويه ، وكانا لا يُريان إلا في رفقــة بعضهما إما ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، وإما لاعِبَيْن في فناء المنزل أو لاهيَيْن في الحديقــة أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدّثين في غرفة نومهما ، حتى حان وقت حجابهـــا فالتزمت خدرها بينما ، استمرّ الشابّ في دراسته .

هذا وقد ربط الودّ بين قلبيهما رباطاً لا يحلّه إلا رَيْب المَنــون ، فكانــــــت سعادتهما بلقائهما لا يَعْدِلها سعادة

وكانت الفتاة مثالاً في الذكاء والحلم والرحمـــة والحنــان بينما كان فتاهـــا مثــلاً في الشــجاعة والكــرم والوفاء ،

وقد استمرّ الحبيبان على حياتهما هذه حتى أراد اللّه لهما ما أراد ، فقُبِــض العَمّ ولم يترك شــيئاً لهذا الغُلام يستطيع به أن يضمن له حياة طيبة ، فلم يَنْســَ ساعة احتضاره أن يُوصي زوجته التي كان يَظُنّ بها خيــراً - لم ينسَ في تلك الساعة أن يرجوها الاهتمام به والقيام بشأنه فوعدته بذلك .

---

١ - المنظوطي . العبرات، ص ٧ .

وماهي إلا أيام قلائل حتى بعثت هذه الزوجة الخادم للشّاب في غرفته تخبره أن يترك هذا المكان لأن بقاءه به سيضع ابنة عمّه في ريبة أمام خطيبها المُنتظَر، ووعدته أن تقوم بإمداده بالمال كلّما احتاج إلى ذلك لأنّها تريد هذا الجناح الخاص به في المنزل لابنتها وزوجها .

تظاهر الشّابّ بقبول ذلك الخبر وتحامل على نفسه حتى تركت الخادم غرفته ثم أخذ يسكُب من عبراته ماشاء الله له آن يسكبه ، ثم جمع ملابسه وكتبه وأودعها حقيبته وخرج في ظلام اللّيل الدّامس حيث لا يعلم به أحد فكان آخر عهده بالدّار الذي رُبّي في أحضانه . أن يُلقي نظرةً أخيرةً على ابنة عمه من وراء خبائها وهي تغطّ في سُبات عميق .

خرج المسكين حائراً شريداً طريداً مُلتاعاً قد اصطلحت عليه الهُموم والأحزان فراقاً لا لقاء بعده وفقراً لا سادّ لخلّته وغربةً لا يجد فيها مُواسياً ولا مُعيناً (١)

أما عن مسكنه ومأكله ، فقد كان لديه صبابة من المال ، ففتش عن مأوى له ، فوجد غرفة في الطابق العُلوي المجاور لمنزل (المنظوطي) وكانت هذه الغرفة أشبه بالقبور في ظلمتها ووحشتها منها لسكن الأحياء .

فسكنها وحيداً مكلوماً وكان (المنظوطي) يُلاحظ وَحدته ويشعر بغربته تلك على بعده عنه ، وودّ لو يكون له صَديقاً أو حميماً فيكشف له حقيقة أمره ، ولكنّه لم يفعل مخافة أن يُوقعَه في حرج لا يريده له .

---

١ - المنظوطي . العبرات. ص ١٤. بتصرُّف.

وهكذا مكث هذا الشابّ المسكين فى مأساته تلك حتّى نفذ ماعنده من مال فلم يجد بُدّاً من بيع بعض كتبه بأبخس الأثمان حتى يسدّ جوعه ، وشعر عندها أنه مُشْرِف على الهلاك لا محالة .

وبينما هو كذلك إذ قدمت عليه الخادم العاملة فى منزل عمّه السّابق ، وكان يبدو على وجهها علامات الحَسرة والألم ، فما أن رآها حتى ارتعد قلبهُ فرقاً على أن يكون قد أصاب المنزل الذى أحبّه وتركه مكروه ، فسألها عن شأنها ، فأخبرته أنّها كانت تبحث عنه منذ ثلاثة أيام حتى وجدته ثم دفعت إليه بخطاب كانت تخفيه فى جيبها .

قرأ الشّاب الرّسالة ، فعلم أن ابنة عمّه فى اللّحظات الأخيرة من حياتها ، وأنّها مابعثت إليه هذه الرّساله إلا لترجوه الحضور إليها حتّى تودّعه الوداع الأخير ، طالما أنّه عزّ عليها أن تودّعه قبل تركه منزلهم ، فما أن قرأ الشّاب آخر كلمة فى الرّسالة حتى اندفع إلى الباب بسرعة ، فسألته الخادم عن وجهته ، فأجابها أنّه ذاهب لرؤية ابنة عمه ، وهنا أعلمته مالم يكن فى الحُسبان .

نعم لقد أخبرت الخادم أن قضاء الله كان أسرع منه إليها فدارت به الأرض لذهوله ، وما أن انفرد بنفسه حتى أخذ يمزّق القلوبَ أنيناً ونحيباً ، فسمعه المنفلوطى (جاره) فسرعان ما اتّجه إليه ، وإذا به يجده فى حالة يُرثى لها من حُمّى وهذيان وألم ، فلم يجد بُدّاً من استدعاء الطّبيب وبقى ليلته إلى جوار هذا المريض يعالجه مرّة ويبكى لحالة أخرى حتى انفرج ستار اللّيل ووضُح نور الفجر ، وبدأ المريض يصحو من غفوته ، ثم سأله المنفلوطى عن أمره ، فأخذ يقصّ عليه مأساته ، ثم طلب منه فى آخر حديثه أن ينفّذ له وصيته التى أوصاه بها وهى أن يدفنه مع ابنة عمّه ويضع معه رسالتها

الأخيرة له ، علّهما يجدان في لقاء الموت تعويضاً عن فُرقةِ الحياة ولوعتها .

نفّذ المنفلوطي وصية الشّاب وكان تنفيذه لوصيته سلوى له عما سمعه من مأساة هذا الشّاب اليتيم المُعْدَم .. يقول المنفلوطي :-

(لقد هوّن وجدي على هذا البائس المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسَعَيتُ في دَفْنه مع ابنة عمّه ، ودُفِنت معه تلك الرّسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبّي نداءها حيّاً فلبّاها ميتاً .) (١)

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذلك الصّديقان الوفيّان اللّذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حُفرة القبر

---

١ - المنفلوطي . العبرات ، ص ٢٠ .

المواقف الإنسانية فى القصة :

القصة - كما لاحظنا - قصة حزينة مؤثرة ، فبطلها يتيم الأبوين حُرِمَ جنان الأمومة وعطف الأبوة منذ نعومة أظفاره ، ثم حُرِم وهو شاب من شريكة طفولته وبسمة شبابه ، فعاش وحيداً ليس له من يواسيه ويخفف آلامه مُعدماً من المال حتى يقيم به أوده ، ثم فارق حياته بعد أن فُجِع فى أعز ما يملك فيها وهو ابنة عمه وشريكة الطفولة وبسمة الشباب .

هذا هو بطل قصة المنفلوطى الذى يستحق الشفقة والعطف فلا يجد مواسياً له فى لحظاته الأخيرة إلا كاتب هذه القصة ذا القلب الرحيم الذى لا تجذبه إلا مواطن البؤس والشقاء ولا يريحه إلا أن يصور مآسيها أحسن تصوير منها هو ذا يصور لنا حالة اليتيم بقوله :-

(فأحزننى أن أرى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه فى غرفة عارية باردة لا يتقى فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكوهما من هموم الحياة أو رزءاً من أرزائها قبل أن يبلغ من الهموم والآلام من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفساً قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض) (١)

ولا يكتفى المنفلوطى بهذا التصوير الذى يهز المشاعر الإنسانية ويحركها بالشفقة على أمثال هؤلاء البائسين ، بل يقف ليستطلع أمر هذا المسكين فيراه فى كل ليلة إما باكياً أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره أو منطوياً على نفسه فى فراشه يئن

١ - المنفلوطى . العبرات، ص ٨ .

أنين الثكلى أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً) (١)

ويتمنى هذا الأديب لو يداخله مداخلة الصديق لصديقه ليستبثه ذات نفسه ويشركه في همه لولا أنه كره أن يفاجئه بما لا يحب وأن يهجم فيه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في دخيلة صدره .

ولكن المنفلوطي كانت شفقته أعظم من تماسكه لنفسه ، فما أن سمع أنين المريض وتوجعه حتى شعر أن دقات قلبه قد تحولت إلى ذلك الأنين ، وشعر بوحدته في مرضه فاتجه إليه مسرعاً يسمع شكاته ويخفف عنه آلامه (٢)

فها هو يدخل عليه ويقترب منه قائلاً :-

(أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة ، فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟) (٣)

ويستمر المنفلوطي في ملاطفته والعطف عليه ثم أحضر له الطبيب ، ثم اضطر إلى المبيت عنده في تلك الليلة لتطبيبه والعمل على راحته حتى أفاق من غفلته فقال له :-

(أرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل ... هل تأذن لي ياسيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في

---

١ - المنفلوطي . العبرات،ص ٨ .

٢ - المنفلوطي . العبرات،ص ٨ . بتصرف

٣ - " " ص ٩ .

هذا البلد ؟ أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همّاً باطناً ..)

إلى أن يقـول :-

(فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إلى بهمّك كما يُفضي الصّديق إلى صديقه فقد أصبحت معنيّاً بأمرك عنايتك بنفسك) (١)

ثم يُنصِت هذا الأديب الشّفيق إلى شكاة المحزون حتى علم حقيقته كلّها ، ولم يَكتَفِ بهذا بل حاول جهده إنفاذ وصيته التي أوصاه بها ، إذ بحث عن قبر ابنـة عمّه ودفنه معها ووجد في تنفيذ هذه الفُرصـة خير مواساة له بعدما ناله من تلـك المأساة الحزينة .

هذه هي قصة اليتيم الحزينة وتلك هي مواقف الأديب الإنسانيّة فيها ، فعسى أن تكون نموذجاً صادقاً لدفع القلوب الرّحيمة إلى العطف على أمثال هؤلاء البائسين كما فعل أديبنا ذو القلب الرّحيم .

فى إنصاف المظلومين

(الحرّيّة شمس يجب أن تشرق فى كلِّ نفس ، فمَنْ عاش محروماً منها عاش فى ظلمة حالكة .)

(صنع الإنسان القوىّ لأخيه الإنسان الضّعيف سلاسل وأغلالاً وسمّاها تارةً ناموساً ، وأخرى قانوناً باسم العدل ويسلب منه جوهرة حرّيّته باسم النّاموس والنّظام .)

الحريّـــــة (١)

يؤكّد المنفلوطي في هذا المقال أهمّية الحريّة سواء كانت هذه الحريّة للإنسان أو الحيوان والطّير ويرى أنّها ضروريّة بل هي فطرة كل مخلوق في هذا الكون ، أما إذا سُلبت منه فهذا راجع إلى تغيّر الظّروف والأحوال المارّة به .

فها هو ذا يبدأ مقاله بحديثه عن قطّة تموء إلى جوار فراشه حتى أيقظته وتمسّحت به تمسّحاً غريباً ، ممّا جعله يرتاب في أمرها وظنّها جائعة ، فقدّم لها طعاماً وشراباً ولكنّها لم تلتفت إلى شيء منه ، وكل ما استطاعت أن تفعله هو إطالة النّظر إلى باب الغرفة مع المواء الشّديد .

فعلم حاجتها وأسرع ليفتحه لها ثم تبعته ، وماكاد يفتحه حتى انطلقت منه مسرعة وهي تطير فرحاً وسروراً فعلم أنّها تدرك معنى الحرّية وقيمتها ولولا إدراكها لذلك ماكان طول حزنها وعلوّ موائها ، وكثرة تمسحها ، حتى تبلغ هذه الحريّة ، فما كادت تبلغها حتى طارت فرحاً وسروراً .

وهنا يجد المنفلوطي متنفّساً للحديث عن أسرى الاستبداد والظّلم الذين طغى عليهم تبلّد الشّعور إلى الحدّ الذي تبلّدت فيه مشاعرهم ، وأصبح الحيوان الأعجم أكثر منهم شعوراً بالظّلم وتطلعاً إلى الحُرّية فيقول :-

(من أصعب المسائل التي يُحار العقل البشريّ في حلّها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته وهل يجمل به أن يتمنّى الخَرس والبلَه ليكون سعيداً بحرّيته كما كان سعيداً

---

١ - المنفلوطي . النظرات.ج ١.ص ١٢٣ .

بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركاً) (١)

ثم يمضي المنفلوطي في مقاله ، معبّراً عن ظُلم الإنسان لأخيه الإنسان بقوله :-

(صنع الإنسان القوي للإنسان الضَّعيف سلاسل واغلالاً وسمَّاها تارة ناموساً ، وأخرى قانوناً ليظلمُه باسم العَدل ويسلب منه جوهرةَ حريته باسم النّاموس والنّظام) (٢)

ثم يعدِّد المنفلوطي أنواع الاستبداد وتطوره منذ بدء الخليقة حيث كان يعيش عارياً طليقاً فوضعت له قيود الطبس وقيل له هكذا نظام الأزياء ، وعندما كان يأكل ويشرب بلا قيود أو نظام ، فأصبح رهناً لإشارة الطّبيب وخُوّف من المرض والموت .

وقيِّدت حُريّته في حديثه فلا ينطق إلا مالا يثير عليه غضب من هو أعلى منه مَنصباً وأفضل منه جاهاً ، ولا يتحرّك إلا كما تتطلّبه قوانين العادات والمصطلحات (٣)

وبعد .. ماذا أضاف لنا المنفلوطي في مقاله بعد كل ذلك ؟

لقد طالب بحرِّيّة الإنسان وحضّ على التمسّك بها وحرّم سلبه إياها ، لأنّ هذا هو الطّريق الصّحيح إلى السّعادة الفردية ، فهي حق من حقوق الإنسان ، لذا يجب ألا يُظلَم فيه أو يسلب منه . (٤) ولنستمع الى قوله :-

(الحُريّة شمس يجب أن تُشرق في كلّ نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظُلمة حالكة ، يتّصل أولها بظلمة الرّحم وآخرها بظلمة القبر .)

---

١ المنفلوطي . النظرات ج ١. ص ١٢٤ .

٢ - نفس المرجع . ص ١٢٥ .

٣ - نفس المرجع . ص ١٢٦ . بتصرّف

٤ - نفس المرجع والصفحة . بتصرّف

الحرية هي الحياة ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدى الأطفال بحركة صناعية . . .) إلى أن يقول :-

إن الإنسان الذى يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية ، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لأحد عنده) (١)

وهكذا يبدو لنا المنفلوطي فى هذا المقال عالي الصوت قوي النبرات ليطالب بحق فطري من حقوق الإنسان المسلوبة وهي حريته التى طغى عليها الاستعمار فأنساه حتى الإحساس بهذا الظلم ، وهو بهذا النداء العالي إنما يريد إنصافاً لهؤلاء المظلومين من ضحايا الإستعمار الغاشم سواء كان ذلك فى وطنه أو فى أى مكان يقطنه بنو الإنسان وهذا مبدأ سامٍ من مبادىء الإتجاه الإنساني فى الأدب .

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ . ص ١٢٦ .

البائســـــات (١)

ما أصعبَ أن يكون الأهل سبباً في تعاسة ابنتهم وضياعها ، وما أشدّ مرارة الظُّلم عندما يكون من ذوي القربى والأحبّة ، وهذا مانقله لنا المنفلوطي في مقاله (البائسات) إذ حكى لنا قصة فتاة في الثانية عشرة من عمرها ، زوّجها والدها رغماً عنها من رجل عجوز وحشيّ الخُلُق ، وبعد أن زُفّت إليه أبَت الإنقياد له ، فحاول أن يُخضِعَها لأمره ومشيئته ، ولكنه لم يُفلح ، فضربها ضرباً مبرّحاً ، ففرّت إلى منزل أهلها الذين استنكروا امتناعها عنه وَسمّوا ذلك بلادة وغفلة ، ثم أعادوها إلى منزلها الزّوجيّة فعاد زوجها إلى عادته معها ، وفرّت منه مرة أخرى بينما استمرّ الأهل في أسلوبهم معها وموقفهم منها ، فلمّا يئست من مناصرتهم ، خرجت هائمة على وجهها في الطّريق لا تعلم وجهتها ، حتى رُفِعَ أمرها إلى الحاكم الذي مالبث أن استدعاها وآواها في منزله رحمةً بها ورأفةً بحالها حتى خلّصها من ذلك الرجل وماهي إلا دقائق حتى عُرِضَت عليه قضيّة أخرى مشابهة لهذه القضيّة من جميع وجوهها إلا أنّها أشدّ بلاءً ونكبةً لأن الزّوج خدع زوجته وسقاها مخدّراً أفقدها صوابها فلم تعد تدري مايدور حولها حتى نال منها بغيته .

وهكذا عرض لنا الأديب مشكلتين متشابهتين هما نموذجان للظُّلم الذي يقع على المرأة المسكينة التي يظنّ أهلها أنّها قد بلغت سنّ الزّواج وأن بقاءها في منزلهم عبء ثقيل وعار ذميم ، ولذا يجب زواجها مهما كانت النّتائج والظُّروف دون احترام لرغبتها واستعدادها النّفسي والطّبيعي لهذه الحياة الجديدة والتغيُّرات الطارئة .

يقول المنفلوطي :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٢٤٠ .

(متى بلغت الفتاة سنّ الزواج سواء كان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجُهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين :إستثقل أهلها ظلّها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقومة والقعدة ، ورأوا أنها عالة عليهم وأن لا حقّ لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً وودّوا لو طلع عليهم وجه الخاطب أى خاطب كان ، يحمل في جيبه آية البشرى بالخلاص منها .

وإنّ قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزّوج ، أو يحسنوا الإختيار لها حين يختارون ، فاذا دخلت هذا المنزل الجديد الذى لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شؤون أهله دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل) (١)

ثم تناول قضية ظلم المرأة من جانب آخر وهو ظلم زوجها لها حيث سرد علينا قصة امرأة رآها واقفة بجوار منزل صديق له كان يريد زيارته ، فرآها رثّة الثياب بائسة الحال يتعلّق بأذيالها صبية صغار كأنهم الخِلال ، رقّة وذبولاً يتألمون لألمها وتتمسّح بطرف إزارها عبراتها خوفاً من أن يبكوا لبكائها ، فسألها عن شأنها فأخبرته أنها طلّقت من زوجها وترك لها هؤلاء الصّبية على أن يقوم بالنفقة على أولاده ، وواظب على ذلك مدّة ثم توقّف مدة طويلة حتى أصبحوا على حالهم تلك ، وأنها ما أتت إلى هذا الرجل إلا لتسأله أن يذهب إلى صديقه ليبعث لها ما تسدّ به جوع أبنائه ، فخفّف عنها ما بها من ألم ثم ذهبت لشأنها وفى صبيحة اليوم التالي سمع عن امرأة ماتت على إثر حمى أصابتها وحاول أن يعلم من هى ؟

---

١ - المنفلوطى . النظرات .ج ١. ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

فعلم أنها تلك المرأة البائسة التى كانت تشكو له حالها بالأمس ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ورثى لحال أبنائها من بعدها لأنهم فريسة ظلم الأب بل فريسة الزوجية الفاسدة .

وهكذا بعد أن وقف المنلوطي على نماذج الظلم فى المجتمع وأشهدنا عليها بدأ يقف موقفه الإنساني منها فأخذ ينطق بلسان عاطفته المنصفة للمظلومين على وجه البسيطة فيقول :-

(أيها الرجل :

إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكرة وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التى تلبسها ، وإن كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ، ولا تلق بها فى حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها ، ثم يلقى إليك بعظامها ..

ويا أيها المحسنون ، والله لا أعرف لكم باباً فى الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم مثل المدرسة وأدبوها لينشأ فى حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .) (١)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ٢٤٣ .

هكذا تبدو لنا كلمات المنفلوطي تفيض حناناً وشفقة وتعمر بالقيم الإنسانيّة السّامية وماذاك إلا لأنّه إنسان بكل ماتحمله هذه الكلمة من معانٍ نبيلة قديرة .

خداع العناوين (١)

يرى المنفلوطي في هذا المقال أن العناوين ما هي إلا ستار تكمن خلفه الأكاذيب وأنماط الظلم في الإنسانية ويأتي لنا بنماذج متعددة للعناوين الكاذبة الخداعة سنتناول كل منها في مكانه من البحث إن شاء الله .

ومما يناسب هذا الفصل ما يتناوله تحت عنوان (المجرمون) (١) اذا حكى لنا أنه حضر حكماً لقاضٍ مرتشٍ قد حكم على متهم سرق رغيفاً بحكم ظالم ، فتمالك المنفلوطي نفسه من الحديث وكان يود أن يهتف صارخاً مستنكراً لظلم هذا الرجل المسكين الذي جاع فسرق ذلك الرغيف ليسد به جوعته ، أما القاضي فما أخذ رشوته إلا ليشبع طمعه الذي لم يقنع معه بثلاثين ديناراً يتقاضاها في طلعة كل هلال .

وهنا يتساءل المنفلوطي مستنكراً أيهما أحق بمجلس القضاء يا ترى ؟

أيكون ذلك الفقير الذى سرق الرغيف ليأكل ؟ أم القاضي الذى قبل الرشوة لأنه لم يقنع بما يتقاضاه كل شهر من وظيفته ؟؟

وها هو ذا المنفلوطي يحدث نفسه بما يجب أن يقال للقاضي في هذا الموقف :-

(إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين ديناراً ، فلم ترتشِ إلا لأنك شره طماع ولم يسرق ذلك السارق الرغيف إلا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط مافعل فعلته التي فعل ، فأنت مجرم إلا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف إلا أنه

---

١ ـ المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٧٤

٢ ـ المرجع السابق ص ٧٧

شـــطة مُجـــرِم) (١)

والأديب في حديثه هذا إنما يدلّنا على نفس طيّبة تكره الظّلم وتودّ الإنتصــــاف لهؤلاء المظلومين مهما كلّفها ذلك من مشقّة وعناء ، بل ولا يكتفي بهذا الألم عليهـــم وإنّما يجلي للقــارئ معظم الحقائق المُختفية وراء ستار العناوين الكاذبة المضلّلــــة فيقـــول :-

(رُبّ نفسٍ بين جُدران السّجون أطهر قلباً ، وأنقى رداناً ، وأبيض عِرضاً ، مـــن مثلها بين جدران القصــور ، ورُبّ طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القـــدر الذي لا مفرّ منه إلى وقفة بين أعواد المشـــنقة ،كان أجدر بها ذلك المرابي الـــــذي ينصب حبالهُ ماله لخراب البيوت العامرة وقتل النّفوس الطّاهرة ، أو ذلك القائـــــد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون ، في غير سبيل ســــوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع ، أو ذلك السّياسي الذي يدبّر المكيدة للقضـــاء على أمّة ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها فيستبدّ أحرارها ، ويســـــتذلّ أعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ماتملك يمينها من حرّيتهـــا واستقلالها ، وسعادتها وهنائتها ..) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٧٨ .

٢ - نفس المرجع والصفحة.

الرّجل والمرأة (١)

ويتناول المنفلوطي هنا فكرة " إنصاف المظلومين في صورة جديدة وإطار آخر هو إطار نظرة المجتمع إلى إساءة الرجل على أنّها مسيء لا يستحقّ العقاب لأنّه رجل لا يضيره شيء .

أما إساءة المرأة فهي الخطيئة الكبرى والجُرم الفادح الذي يجب أن تُعاقب عليهما ، لأنّها (مرأة) في نظر كل فرد من أفراد مجتمعها ولا يُقبل الخطأ منها .

نقول يتناول المنفلوطي هذه الفكرة في مقاله هذا ليعلن رأيه - صراحة " - ودفاعه الإنساني عن حقّ المرأة ودفع الظّلم عنها ، فيؤكّد أنّ المرأة وإن تساوت مع الرّجل في قدرات معيّنة كالذّكاء وسُرعة الفهم وحضور البديهة فإنّها لا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرّفق وامتلاك هوى النّفس ، والأخذ بفضيلة الصّبر على ماتكره وماتُحب (٢)

ويرى أن سرّ عدم مساواة المرأة للرجل في الصّبر والأناة والحلم إنما يرجع إلى أنّ اندفاعها وراء العاطفة دون تحكيم عقلها ، وهذا معنى إنسانيّ واضح مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم :

(النّساء ناقصاتُ عقلٍ ودين .) (٣)

فيقول المنفلوطي :-

(يمشي الرّجل وراء عقله فيهديه ، وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلّها ، فما وقفت

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٤٤ .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٤٥. بتصرُّف

٣ - صحيح مسلم . بشرح النووي. باب الإيمان .

معه موقف إلاّ سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً .. لأنّه يعرف السَّبيل إلى قلبها ولا تعرف السَّبيل إلى عقله) (١)

ثم بيّن ضعف المرأة أمام الرَّجل وقوة تأثيره عليها وظلم المجتمع الإنسانيّ في الحكم عليها إذا أخطأت فيقول :-

(يخدع الرَّجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنسانيّ عليها رجاله ونساؤه .. وملأ قلبها هَوْلاً ورُعْباً ، وأوسع نفسها تقريعاً وتأنيباً من حيثُ لا تصبر على شرارة واحدة من النَّار المتأجِّجة لأنَّه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك التشريعة وماكان له أن يُقَصِّر في ممالأة نفسه ومحاباتها لأنه شَرِه طمَّاع مُحِبّ لذاته ، ولا أنّ يعدل في القضاء في قضيّة هو الخصم فيها والحكم، لأنّه ظالم جبَّار) (٢)

ثم يؤكّد الأديب مدى ظُلْم المرأة في هذا المجتمع عندما يقضي على المرأة الزَّانية بالعقاب في حين أنّه لا يعاقب الرَّجل على ذلك بقوله :-

(ولو أنّه أنصفها لعرف فرق مابينهما في القوَّة العقلية فجعل عقاب الرَّجل القوي المُهاجم فوق عقاب المرأة الضَّعيفة المدافِعة ، ولكنّه لم يفعل ذلك لأنّ رجاله ظلمة جائرون ولأنّ نساءه ساذجات بسيطات ، يصدّقن الرِّجال في أقوالهم ..) (٣)

ولا يكتفي المنفلوطي بالإستصراخ لظُلم المرأة والإنتصاف لها بإعلان رأيه هذا ، بل يعالج هذه المشكلة علاجاً واضحاً فيدعو إلى تعليم المرأة لتستطيع أن تأخذ بلبّ الرَّجل وتعرف السبيل السَّليمة إلى امتلاك قلبه وإقناع عقله .. فيقول :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٤٥.
٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٤٧.
٣ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٤٨.

(فإن أردنا أن تنالَ المرأة حقّها من الرّجل وأن تنتصف منه ، فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمُصارعة ، فإنّها أضعف منه جسْماً وعقلاً ، بل السَّبيل إليه أن نعلّمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها ، وأن تعلّمه ليستطيع أن يكون شخصاً كريماً وإنساناً رحيماً) (١)

وهكذا بدا لنا المنفلوطي في مقاله هذا مُنصِفاً للمرأة من ظُلم المجتمع ، وهذا من غير شكّ - ما أكتسبه من القرآن الكريم الذي ساوى في عقابه بين المرأة والرّجل في حدّ الزّنا وغيره من الحدود الشّرعية فالنّساء شقائق الرجال في الأحكام ، ولا يُفضّل أحدهما على الآخر قال تعالى :-

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ٢ . ص ٤٨ .

٢ - القرآن الكريم . سورة النور . آية رقم ٢ .

خُطْبَــةُ الحَــرْب

تُحرّك الحمية الإسلاميّة والعاطفة الإنسانيّة قلمَ المنفلوطى ، فيتأجّج لهبـــاً ليشعلَ حماس الرّجال فى الحرب التى يهبوا لقتال العدوّ الأجنبىّ ويستعمل فـــى سـبيل هذا الإلهاب كل ما أُوتىَ من وسائل التأثير والإقناع ، كتزكيرهم بظلم الأرامل والأطفال وأحوال الظّلم والحرمان التى يقاسونها ، فيطالبهم بالإقدام السّـــريع طى الجهاد حتى وإن استشهدوا ، فهو أهون عليهم من الموت حتف أنوفهـــم ، تاركين وراءهم أُسَراً محرومــة وعاراً محتوماً ، لأنّ الموت فى ظلال السيوف لنصرة الدّين والوطن خير من العيش بين جدران القصور فى ظلّ الهَوان والعار .

والمنفلوطى بموقفه الحماسىّ هذا إنّما يريد إنصافاً لهؤلاء المظلوميـــن من الأُسَـرِ المحرومة بما فيهم من يتامى وأرامل لا عائل لهم ولا مُعين إلا الله سبحانـــه وتعالى ثم المحسنين من بني البشر .

نقول إن موقف المنفلوطى هذا موقف إنسانى فاضل ، لأنّ الأديب شـــعر بمشاعر هؤلاء المظلومين فهبّ صارخاً فى مقاله هذا ليلهب الحماس فـــى نفـــوس الرّجال والجنود ولولا وجود هذا الشّعور النّبيل فى نفس هذا الأديب لما ســـمعنا كلماته القائلـــة :-

(لا تحدّثـوا أنفسـكم بالفـرار ، فوالله إن فررتم لا تفرّون إلا عن عِـــرْض لا يجد له حامياً ، وشَرَف لا يجد له قائداً ، ودين يشكو إلى الله قوماً أضاعوه وأنصـــاراً خَذلوه) (١) كما يقــول :-

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٢ - ص ١٨٢ .

(إنكم تعتمدون على الله وتثقون بعدله ورحمته فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم إلى أنفسكم وأنتم من القوم الصادقين) (١)

ويقول مذكرا الرجال بمصابهم :-

(إن أعداءكم قتلوا أطفالكم ، وبقروا بطون نسائكم وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بأنفسكم ، أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم واصدقوا حملتكم عليهم وجمجموا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء ، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين) (٢)

وهكذا بدا لنا المنفلوطي صارخاً بصوت المظلومين ملهباً به حماس المقاتلين رغبةً منه في إغاثة المنكوبين .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ١٨٣.

٢ - المرجع نفسه والصفحة .

مدرسة الغرام (١) .

هذا هو عنوان المقال الذي خصّه المنفلوطي لنقد المفاسد الخُلُقية المتسترة بستار المدنيّة الغربية .

ويرى أن المدنيّة الغربيّة والمفاسد الخُلُقيّة أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر (٢)

كما يذكر هنا أمثلة للمفاسد الخُلُقية التي كانت ثمرة من ثمار هذه المدنيّة الغربيّة المخرّبة . كحوادث الإنتحار وحوادث غرام الشواذّ بالحيوانات وغيرها . .

كذلك منها افتتاح مدارس الغرام وهي المدارس التي فُتحت خصّيصاً لإفساد النّشء والشّباب وتعليمهم في كل يوم من أيام الأسبوع درساً من دروس الغرام كالغزل والمُطارحة واختيار مواعيد اللّقاء (٣)

ثمّ بعد أن عدّد لنا الأديب هذه المفاسد الشائعة - المتخذة لقب المدنيّة الغربيّة - بعد أن عدّدها رقض هذا الظّلم الموجّه في أمريكا للزّنوج ، لأنّهم أكثر حفاظاً على نسائهم وأعراضهم فيقول عنهم :-

(إنّهم لا يتركون عزّابهم ينامون وسط البيوت مخافة أنْ يكون لهم سبيل إلى مخالطة النّساء ، فيأخذونهم جميعاً إلى مكان خاصّ بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينشرون حولها تراباً معبّداً ، حتّى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل ، غيرةً تمّ أثره عليه) (٤)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ ص ١٦٢ .

٢ - المرجع نفسه والصفحة (بتصرّف)

٣ - المرجع نفسه ص ١٦٥ (بتصرّف)

٤ - المرجع نفسه ص ١٦٦ .

إلى أن يقول مصرّحاً بهذا التضجر من ظلمهم :-

(فيا أيّها الزّنجي المسكين ، لقد ظلمك من سمّاك متوحّشاً ويا أيّها الأمريكي المتوحّش لقد كذبك من سمّاك متمدّيناً ، أيّها الزّنجيّ الأسود إن كنت أسود اللّون فالفضيلة أعلى قدراً من أن تتنزّل لاعتبار السّواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة تفتقرها ، وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنّناً لا أحسبك تحنّ إليه أو تتقطّع نفسك حسرات عليه ؟) (١)

ثم يستمر المنفلوطي في حديثه ممتدحا لباس الفضيلة الذي يتحلّى به الزّنجي بما يتمسّك به من حفاظ على عرضه وأهل بيته ، منتصراً له من الأبيض بحديثه هذا ذلك الإنسان الذي حجبت الرذيلة عينيه وبصيرته فلم يعد يدري أين الطّريق إلى الصّواب أو الحقّ .

وحديثه هذا إنّما يدلّ على موقف إنسانيّ نبيل لأنّه لا يبغي من ورائه إلا إصلاح الذّات الإنسانيّة وتقويم الخير فيها .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ ص ١٦٦ .

إحتـــرام المـــرأة (١)

مقال يُعالج فيه المنفلوطي قضيّة إنسانيّة فاضلة وهى ضرورة النّظر إلى المرأة على أساس أنّها إنسان متكامل له حقوقه واحتياجاته كالرّجل تماماً ، مع عدم إنكاره لقوامة الرّجل عليها ، ولكنّه يؤكّد أن المرأة عضو فعّال فى بناء المجتمع وفى سعادته فيقول :-

(نعم إنّ الرّجال قوّامون على النّساء كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز، ولكنّ المرأة عماد الرّجل ، وملاك أمره ، وسرّ حياته من صرخة الوضع إلى أنّة النّزع ..) (٢) إلى أن يقول :-

(وجملة القول ان الحياة مسرّات وأحزان ، أما مسرّاتها ، فنحن مدينون بها للمرأة ، لأنّها مصدرها وينبوعها الذي تتدفّق منه ، وأمّا أحزانها فالمرأة هي التى تتولّى تحويلها إلى مسرّات ، وترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل ، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلّها) (٣)

وتظهر نظرة المنفلوطي الإنسانيّة إلى المرأة التى كان للإسلام فضل كبير فى تكوينها عنده فى قوله عنها :-

(قد تحنو عليها وترحمها ولكنّها رحمة السّيد بالعبد لا رحمة الصّديق بالصّديق ، وقد تصفها بالعفّة والطّهارة) ـ إلى أن يقول :-

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٣ . ص ١٠٢ .

٢ ـ المرجع نفسه والصفحة .

٣ ـ المرجع نفسه ص ١٠٤

ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد تهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق فى الوصول إلى ذروة الإنسان التى تريدها ، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل لتعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة أو لتتخذ منها ملهاة لأنفسنا ، ونديماً لسمرنا . .)

إلى أن يقول :-

(إنها لا تريد شيئاً من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته ، إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه) (١)

وهذه المطالبة من الأديب . . بالمساواة فى الحقوق بين كل من الرجل والمرأة إنما هى أثر من آثار الإسلام الحنيف حيث يقول الله تعالى فى كتابه العزيز الطاهر :-

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) (٢)

والمنفلوطى حريص كل الحرص على دعوته إلى هذه المساواة وفى الوقت نفسه لا يطالب بالتبرج والسفور والخروج إلى مجتمعات الرجال وأنديتهم ، بل جل مايريده هو حسن معاملة المرأة كما قال صلى الله عليه وسلم :-

(خِيَارُكُم خِيَارُكُم لِنِسَائِهِم) (٣)

ولنستمع هنا إلى قول الأديب فى هذا المجال :-

(لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهتر وتهيم على وجهها فى مجتمعات الرجال

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ . ص ١٠٥ .

٢ - القرآن الكريم . سورة النساء . آية رقم ١٢٤ .

٣ - ابن ماجه . سنن ابن ماجه - باب حسن معاشرة النساء ج ١ ص ٦٣٦ تحقيق محمد عبد الباقى .

وأنديتهم ، وتمزّق حجاب الصّيانة والعفّة المُسْبل عليها ، كذلك لا أحبُّ أن تكون جارية مستعبدة للرّجل ، يملك عليها كل مادّة من موادّ حياتها ويأخذ عليها كلّ طريق حتى طريق النّظر والتفكير) (١)

وبعد فإن المنفلوطى يدعو فى هذا المقال - كإنسانٍ له مشاعره وحرّيته وتفكيره الخاص - يدعو إلى حُسْنِ معاشرة النّساء وتقدير إنسانيتهنّ ، وهذه من غير شكّ دعوة إنسانيّة كريمة أفاءتها عليه تعاليم الإسلام الفاضلة ، لأنّنا قلّ أن نجد مثل هذا التّكريم للمرأة إذا تتبّعنا تاريخ النّظرة إليها منذ أقدم العصور سواءً كان ذلك عند العرب أو عند غيرهم من الأُمم ، أو فى الأديان الأخرى ، وحتّى يومنا هذا ، لا نجد ذلك الفضل والتّكريم للمرأة إلا فى دين الإسلام الحنيف .

والمنفلوطى - كما نعرفه - رجل مُسلم حافظ للقرآن مُلِمّ بمعظم الأحاديث النّبويّة ولابدّ أن يكون لها تأثير واضح فيه (٢)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ . ص ١٠٦ .

٢ - فضلاً راجع ص ١٣ من هذا البحث (ثقافته)

عجائـــز بوشـــنج (١)

كثيراً ماتطغى النعمة أصحابها ، وربما كان أكثرهم طغياناً من كان قبل ذلك في حالة فقر مدقع .. بل كثيراً مايحاول هذا الشخص - الذى نقله الله من العسر إلى اليسر والرخاء - كثيراً مايحاول أن يتنكر لكل مايذكره بهذا الماضي التعيس فيغير من مسكنه وملبسه وطريقة حديثه ولو استطاع لغير اسمه وصورته .. ويلتمس المنفلوطي العذر لهذا الشخص في كل مايفعله ، إلا أن تكون الزوجة شيئاً من الأشياء التى يستبدلها بغيرها ويرى أن ذلك ظلم فادح وعمل غير إنساني لا يليق بمثله أن يفعله ، وكان الأجدر به أن يتمسك بها بعد تبدل حاله وتحسنها ليرى في وجهها صورة ماضيه وحاضره بل عليه أن يتمسك بها لأنها أول من كانت تدعو له بهذا اليسر والرخاء ، وهو أكثر من عاش في الشدة وضنك العيش ، فليس بكثير عليها أن تشاركه سعادته الحاضرة ونعيمه الزاهر يقول المنفلوطي :-

(إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرائه وضرائه ويسره وعسره ، وشبعه وجوعه وريه وظمئه ، وأحسب أنها كانت إذا خلت إلى نفسها وخلالها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً ، وضيقه وشدته رخاء ، فليس من الرأى ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقى نعله وأداته) (٢)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣. ص ١٩٤ .

٢ - المنفلوطى . النظرات ج ٣. ص ١٩٥ .

ولكن ما الذي دفع المنفلوطي إلى هذا الحديث ؟

لا شك أن الأديب الحق لا يعيش بمنأى عن مجتمعه وأمته ولا يتخذ لنفسه برجاً عاجياً بعيداً عن مصائب الناس وأرزائهم ، وهذا ماكان يفعله المنفلوطي حقيقة فها هو يكتب هذا المقال بعد أن سمع من صديق له قصة امرأة رآها واقفة على باب رجل موسر كان قد دعاه في ذلك اليوم إلى وليمة كبيرة ، وكانت تلك المرأة زوجته السابقة وقد حاولت أكثر من مرة الدخول إلى ذلك القصر لتطلب من زوجها السابق الذي بدل الله عسره يسراً وفقره غنى والذى هو أب لابنها ، حاولت الدخول إليه لتطلب منه مايقوم بسد حاجتها وحاجة ابنه من الطعام والشراب فلم يسمح الخدم بدخولها ، لأنه كان يرفض ذلك لتزوجه من امرأة أخرى تناسب حالتها حاله الحاضرة) (١)

ولم يكتف هذا الأديب الإنساني بسرد هذه القصة ضمن مقاله بل أبدى ألمه اتجاه هذه الزوجة المسكينة وأمثالها فقال :-

(إنه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها مايمنح السائلين المتكففين) (٢)

ثم يتبع المنفلوطي في نصحه الطريقة المنطقية المقنعة التي عرفناها عنه فيقول للرجال :-

(أيريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل الى ذلك) (٣)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ . ص ١٩٦ .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ . ص ١٩٧ .

٣ - المرجع نفسه . ص ١٩٦ .

وإنّنا لنشاطر المنفلوطي رأيه الذى ارتآه وهو أنّ من الحريّ بالرّجل الذي يسُرت حاله وكثرت أمواله ألا يقطع الصّلة بماضيه بل عليه أن يتّصل بكل مايذكّره بذلك الماضي حتى يشعر بلذّة الحاضر وحتّى يحرّك العواطف الإنسانية فى نفسه ، فيعطف على من هو أدنى منه ويمنحه مما أفاء اللّه عليه من فضله (١)

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات.ج ٣. ص ١٩٧ .

العقـــــاب (١)

قصة قصيرة وضعها المنفلوطي ضمن ماوضعه في كتابه " العبرات " وهي تـــدور حول ثلاث شخصيات كان عقابهم القتل ظلماً وعدواناً واهتزّت نفس المنفلوطي حزنـــــاً عليهم ورثاءً لحالهم وبدا ذلك التأثير على أسلوبه .

والقصّـــة من غير شكّ - من بنات أفكار الكاتب وضعها على نَسَقْ قصّة أمريكيـــة باسم " صراخ القبور " (٢)

إذ يحكي فيها أنّه رأى فيما يرى النّائم أنّه هبط بمدينة كُبرى فيها أُجناســـاً من البشر ينطقون بلغات مختلفه وكأنّ الدّنيا جُمِعَت في تلك المدينة ، وبينما هــــو يسير في تلك المدينة اذ رأى بناء كبيـراً قد وقف عند بابه عدد غفير من النّاس فدخلــه فإذا الأمير جالس في وسط القاعة كالشّمس عظمةً وضياءً وعن يمينه كاهن يلبس مســـوحه وعن يساره قاضٍ يمُنيــه في جبروته وعنفوانه ، وماهي إلا دقائق ، حتى طلب الأميـــــر إحضار المجرمين بين يديه بحشـــدٍ هائل يطلّ من باب السّجن ، وإذا بشيخ هـــرم كأنه الخـــلال - لضعفه وسوء صحّته - يقف بين يديه لم يكن له جريمة يُعاقَب عليهـــا إلا لأنّه سرق كيساً صغيراً من الدّقيق من بين الأكياس المخزونة للفقراء والمساكين أمثاله فكان عقابه القتل ، بعد أن شهد عليه أشـــدّ النّاس ظلّما وكذّباً وهم رهبان الدّيـن ، وليت هذا القتل نُفّذ فيه دفعة واحدة ، وإنما أمر الأمير بقطع يمناه ثم يســـراه ثـــم بقيّة أطرافه ، وأخيراً يقطَع رأسه ، ويُقطّع بعد ذلك جثّته إرباً إرباً للطّيور والوحوش ، فنفـذ فيه الحكم .

---

١ - المنفلوطي . العبرات،ص ٩٩ .

٢ - المرجع نفسه والصفحة .

وأُتِيَ بصاحب الجريمة الثانية وكان شابّاً في عُمْر الزّهور ، وكانت جريمته هي قتله لأحد قوّاد الأمير الذين كانوا يجمعون الضّرائب من قريته فحُكِمَ عليه بالصّلب على أعواد شجرة ، ثم تقطّع عروقه كلّها حتى لا يبقى في جسمه قطرة من الدّم فنفذ في المُجرِم الحُكم بعد شهادة الشّهود عليه وهم أعوان خصمه وشركائه .

أما الجريمة الثّالثة فكانت أكثر الجرائم ظلماً لأنّها كانت صادرة عن فتاة حُكِمَ عليها بالرجم عارية لأن أحد أقربائها وجدها مختبئة في دار رجل مغرم بها فنفذ الحُكم في المجرمة بعد شهادة عمّها عليها .

وهكذا قصّ علينا المنظوطي قصّة هؤلاء المُجرمين الثّلاثة في ـ نظر ظالميهم ـ ثم بات يفكّر في قضاياهم تلك واستبعد إجرامهم كلّ البعد لأنّه لم يستمع إلى دفاع المُجرم عن نفسه وإنّما حُكِمَ عليه إثر حديث المُدّعي عليه .

ثم يستمرّ المنظوطي في تتبّع القضيّة ، كما تدفعه نفسه النّبيلة إلى المكان الذي حُمِلَ إليه القتلى وأشلاؤهم ويقف على جثّة الشّيخ الهرم وهي تسبح في دمها سبحاً فإذا به يرى امرأة عجوز في ثياب بالية تقف على تلك الجثّة تلمّ أجزاءها وتضم بعضها إلى بعض بينما تفيض عيناها دمعاً وينذب قلبها ندباً ثم تقول مودّعة صاحبها :ـ

(في سبيل الله مالقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشّهيد المظلوم ، وفي ذمّة الله وكنفه روح طار عن جسدك وجسد ضمّه قبرك ، فقد كُنت خير النّاس زوّجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم قلباً ونفساً ..) الخ (١)

---

١ ـ المنظوطي . العبرات ص ١٠٤ .

ولم يكتف الأديب بما سمعه من المرأة بل يتقصّى الحقيقة ويسأل المرأة عن أمرها ، فاذا به يعلم أنّ هذا الرّجل كان جدّاً لخمسة أحفاد صغار أكبرهم في سنّ العاشرة ، قد توفّى عنهم والدهم وهو في رَيعان شبابه ثم تركهم تحت رعاية هذا الجدّ العجوز ، فلما كبر سنّه واجتمع عليه همّ الشّكل وهمّ الشّيخوخة أعياه ذلك عن العمل فأصبحت الأسرة في حالٍ يُرثى لها ، لا مال ولا مُعيل ، فلم تجد المرأة بُدّاً من الخروج لطلب الإحسان والمعونة من المارّة والمتجوّلين ، ولكنّها عادت خلوة اليدين لأنّ الرّحمة نُزعت من قلوب النّاس ، ولم يعطوها ولو رغيفاً تسدّ به جوعة الأطفال البائسين ، ولكن الجدّ الرحيم لم يطِق الصّبر أمام أطفال يصرخون وزوجة يقطُر وجهها حُزناً وألما لذلك العويل والصّراخ ، فلم يكن أمامه إلاّ أن يتّجه إلى دير المدينة الذى كان يحتوي على مال للصّدقات يجب على الكاهن توزيعه على المحتاجين إليه من النّاس ، فأتى الدّير وشكا للكاهن مصابه ،فالتفت إليه ولم يُلْقِ له بالاً بل نهَرَه وشتمه ثم طلب منه القيام بجريمة السّرقة ليسدّ حاجة أطفاله الجياع ، ثم طرده من عنده ، فخرج الرّجل العجوز حزيناً مكلوماً لا يلوي على شيء حوله ولا يملأ خاطره إلا شيء واحد هو أن يحصل - مقابل أي تضحية - على شيءٍ من المال أو الطّعام من أجل زوجه وأحفاده ، فلمح على بُعْدٍ منه كيساً من الدّقيق ، فراودته نفسه بأخذه ولكنّه حارب هذه الرّغبة فيها حتى اقترب من الدّقيق ، فعاودته نفسه بما كانت بدأته به ، فلم يجد بُدّاً من حَمْل الكيس والهروب به ولكنّ كان حمله ثقيلاً عليه وشعر أنّ روحه تخرج من بين أضلاعه حتّى ألقاه أرضاً وسقط بجانبه وهو لا يلوي على شيءٍ فرآه القسّ في الوقت الذى سمعوا فيه صوت حراس الدّير يصرخون سائلين عن الدّقيق ، فعلموا الأمر وقُبض على الشّيخ متلبّساً بجريمته التي اضطرته إليها الحاجة والفقر .

أما الشابّ ، فكانت تهمته التي أُلصقت به وتسبّبت في قتله هو أنّ رجلاً من أتباع الأمير الذين كانوا يجمعون الضّرائب في البلدة التي يسكُنها الغلام - رأى ذلك الرّجل أخت الشابّ التي تنطق بهاءً وحُسناً ، فطمع فيها ولكنّه أخفى ذلك في نفسه وطالب الشابّ بالمال ، ولكنّ الشابّ لم يستطع دفعه في تلك الأيام وطلب منه أن يُمهلَه حتى يبيع غلّته ويعطيه المال المطلوب غير أن الرّجل أبى ذلك وطالبه بالدّفع فوراً أو تكون أخته رهينةً عنده حتّى يسدّ ماعليه من ضرائب ، فرفض الشابّ ذلك لما سمعه عن أولئك النّساء الرهينات من فساد أحوالهنّ بعد خروجهنّ من عند الأمير ، ولم يكن أمامه إلا نفسه فعرضها رهينةً بدلاً من أخته ، ولكن المسئول عن هذه الضّرائب رفض هذا العرض واشترط أن يكون هو صاحب الرأي في نوع الرّهينة لاغيره ، ويجب أن تكون الفتاة الحسناء هي رهينته وألّا تكون حياة أخيها فداءً لها ، فغضب الشّاب لشرفه ورأى أن فَقْدَ نفسه خيرٌ من فقد شرفه فحمل سيفه على الرّجل وقتله صيانةً لعرضه وشرفه ثم أُخذ مغلولاً إلى حيث نفذ فيه الحكم الظّالم دون أن يُسأل عن سبب ذلك .

أما الفتاة فكانت ظُلامتها أنّها أحبّت شاباً طيّب النّفس كريم الخُلُق مثلها فخطبها من والدها الذي وافق مسروراً سعيداً بذلك ، ثم نزلت بالأب نازلة الموت فاضطر الخطيبان إلى تأجيل الزّواج لمدّة عام كامل ، حتى إذا انقضى العام أوشارف على الإنتهاء ذهبت الفتاة إلى قاضي مدينتها في أمر يتعلّق بميراثها ، فرآها القاضي وتعلّقتها نفسه فأرسل إلى عمّها الذي كان ولياً لأمرها بعد وفاة والدها ثم خطبها منه ، ولما كان ذلك العم قد ملأ الطّمع نفسه استطار فرحاً لهذا الطّلب لأنّه بُشْرى سعيدة لمستقبل حياته فزفّ هذه البُشرى إلى الفتاة الحسناء ولكنّها رفضت

ذلك لأنَّها لا تستطيع أن تترك خطيبها الأوّل فأجبرها العمّ على الموافقة وحــدَّد موعد الزّفاف ، فما جاء ذلك اليوم حتَّى هربت الفتاة الى حيثُ لا تعلـم أيــن وجهتها فأعلم عمّهـا القاضي الّذي خطبها ، فأرسل عيونه وراءها في كل صـوب وطريق حتَّى لحقوها فألقتْ بحقيبتها أرضاً وأفلتتْ منهم فارَّة إلـى حيث لا تعلـم فالتقت في طريقها بخطيبها وهو عائد الى منزله فقصَّت عليه قصَّتها ورجتـه أن يحميهـا من ظلم هؤلاء .

وهنا لم يجد الشَّاب بُـدَّاً من إخفائها في إحدى غرف منزله ، فأنكـر وجودها وفتَّشـوا المنزل حتى وجدوها فألقـوا القبض عليها وكان عمُّهـا معهـم الذى صـرخ بأعلى صوته اقبضـوا على الزَّانيـة فحُملت إلـى حيث نُفـّـذ الحكم الظالـم فيها .

هذه هي قصَّـة ثلاثة مُجرمين - في نظر عدالة ظالمه - كتبهـا لنا المنفلوطـي وهو يعتصـر ألماً وحُزنا لهـذا الظُّلم السَّـائد بين البشـر بل وفـي الطَّبقة الحاكمة التى كان ينبغي أن تكون مثـالاً للعدْل بيـن أفـراد المجتمـع .

المواقف الإنسانية فيها :-

القصة - كما رأينا - تعكس لنا أفكار المنفلوطي الإنسانية وتعاطفه مع المظلومين ورغبته في إنصافهم ، يظهر ذلك من المواقف الإنسانية الآتية :-

لعلّ أول موقف إنسانيّ يواجهنا في هذه القصّة هو موقف المنفلوطي نفسه - كاتب هذه القصة - اذ رأى في منامه أنه وقف إلى جانب هذه الجثث الثلاثة مغشياً عليه لهول ما رأى حتّى اذا أدرك ما حوله ، رأى امرأة عجوز تقترب من جثة الشّيخ وهي تذوب بكاءً وحزناً ، فلم يطق الصّبر بل اتّجه نحوها ، وأخذ يسألها عن حالها وقصة هذا الشّيخ الذي تقف إلى جواره منتحبة والتي حاولت أن تخفي الأمر عنه لخوفها من المسؤولين ، ولكنّه استمرّ في محاولته ، فأخبرها أنّه رجل غريب عن المدينة وأنّه ليس له شأن في معرفة حالها إلا لغرض التّخفيف عنها ولنستمع إلى قوله لها :-

(لا تُراعِي ياسيّدتي فإنّني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيتُ السّاعة موقفك على هذا القبر وتفجّعك على ساكنه ، فرثيتُ لك وبكيت لبكائك ، وتمنّيتُ لو أفضيتِ إليّ . بذات نفسك علّي أستطيع أن أكون لك عوناً على همّك) (١)

فلا شكّ أنّ وقوفه إلى جوار السّيدة ومحاولته أن يعرف شكاتها وألمها هو موقف إنسانيّ نبيل لابدّ أن يكون الدّافع إليه ماتحمله نفس المنفلوطي من

---

١ - المنفلوطي . العبرات.ص ١٠٥ .

عواطف نبيلة سامية موجّهة لنصرة الخير دائماً .

وشبيه بهذا الموقف موقفه من أخت الشّاب الذي قُتِلَ فداءً لشرفه وصيانة عِرْضه ، إذ رأى الأديب أخت ذلك الشّاب منتحبة باكية على قبره ، فسألها عن أمره فأخبرته بقصّته مع مبعوث الأمير ، وسمع منها ثمّ خفّف عنها مأساتها وسألته مساعدتها في مواراة جثّته بالتّراب فنفّذ لها ما أرادتْ وها هو ذا يقول :-

(فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرةً بجانب حفرة الشّيخ فواريتُه فيها) (١)

ويرى المنفلوطي بعد ذلك جثّة الفتاة العارية - التي قُتِلَت رجماً - رآها باقية مكانها فحرّك ذلك المنظر مشاعره الطيّبة فأخذ يحدّث لنفسه بقوله :-

(إنني لا أدّخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة اللّه وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة بالتّراب) (٢) ثم احتفر لها حفرة ستر فيها جثّة هذه المظلومة التي مالبث أن رآه خطيبها السّابق وهو يواري جُثّتها فتعرّف عليه وشكره على جميله معها ، ثم سأله المنفلوطي عن ظلامتها وخفّف عنه مصابه فيها .

ولا يكتفي المنفلوطي بمارواه ، بل يُعْلِن صراحة عن تأثّره لهذه المصائب التي رآها وذلك الظّلم الذي كان سبباً فيها فقال :-

---

١ - المنفلوطي . العبرات ص ١١٠.

٢ - المرجع نفسه ص ١١١

(ليتَ شعري ألا يوجد في هذه الدّنيا عادل ولا راحم ، فإن خلت منها رقعة الأرض فهل خلت منها ساحة السّماء ؟

أجْرَم الزّعيم الدينيّ لأنّه ضنّ على ذلك الشّيخ المسكين بدرهم من مال يسدّ به جوعته وجوع أهل بيته ، فاضطر الرّجل إلى ارتكاب جريمة السّرقة فعُوقب السّارق على سرقته ، ولم يُعاقَب القاضي على قسوته ولولا قسوة القاسي ماكانت سَرِقة السّارق .

وأجْرَم الأمير لأنّه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرّة لا تؤثر أن تجود بعِرضها فاضطر أخوها إلى الذّود عنها ، فارتكب جريمة القتل ، فعُوقب الفتى على جريمته وَسلِمَ من العقوبة مَنْ دفعه إلى الإجرام .

وأجرم القاضي لأنّه أراد أن يُكْرِه فتاة لا تحبّه على الزّواج منه ، ففرّت من وجهه فعاقبوها على فرارها ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المُجْرم بريئاً والبريء مُجْرماً ، بل أصبح المُجرم قاضي البريء وصاحب الحقّ في معاقبته) (١)

نعم هذا موقف المنفلوطي من قضايا الظُلم التي رآها أو سمعها أو حتّى تخيّلها فدوّنها على هيئة مقالٍ أو قصّة .

ولاشكّ أنّ رجُلاً يقف مثل هذه المواقف في قضايا الظُّلم - التي ذكرنا نماذج منها في هذا الفصل من البحث - لاشكّ أنّ رجلاً كهذا ، إنّما يحمل في طيّات نفسه روحاً إنسانياً عالياً تتجلّى في صفحتها معاني الإنسانيّة الحقّة ، وهذا مانسعى جاهدين لإثباته في هذا البحث المتواضع .

---

١ - المنفلوطي . العبرات ص ١١٤ .

حملته على الأغنياء وطبقة الحكام

(الشرف فى كمال الأدب لا فى رنين الذهب)

(لا مجد إلا مجد العلم ولا شرف إلا شرف التقوى ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة رحمة بها وحنانا عليها)

لا شكّ أنّ المنفلوطي أديب منصف مدافع عن الحقّ ، ولو كلّفه ذلك مهاجمة ذوي الجاه والسّلطان ولا أدلّ على ذلك من قصيدته " قدوم " التي سبق إيرادها وتحليلها في بداية هذا البحث (١)

ويستمرّ هذا الهجوم منه على كلّ ذي سُلطة في المجتمع سواء كان موسراً أم حاكماً ، طالما أنّه متسلّط ظالم متناسٍ حقّ الفضيلة عليه ، وحقّ الإنسانية النّبيل على ماله أو على منصبه وها هو ذا المنفلوطي ينشُر آراءه هذه في مقالاته إما بطريق التّلميح ، أو بطريقة التّصريح كما سنجده في مقالاته الآتية في هذا الفصل من البحث :-

---

١ - فضلاً راجع قصيدة " قدوم " وتحليلها ص ٤١-٤٦ من هذا البحث .

خِداعُ العَناوين (١)

(الأمْجَاد) (٢)

يرفض المنفلوطي - تحت عنوان " الأمجاد " - برفض العناوين الزّائفة والحُجُب الكاذبة ، فلا يقبل أن يُقال ان الإبن ماجد ما دام أن ورِث نَسَباً شريفاً ومركزاً رفيعاً عن أبيه وجَدّه ، حتى ولو كان سلوكه سَيِّئاً وتصرُّفه خاطئاً ، ويرى أنّ المجدَ الحقيقيّ في العلم المُنتفَع به وفي تقوى اللّه وحُسْن الخُلُق لأنّ هذه الصّفات إذا توفرت للشّخص استحقّ أنْ ينتمي لجنس الإنسان وهي تغنيه عن كلّ جاهٍ وسلطان ، فالعظمة كلّها في الأخذ بيد الإنسانيّة المُعَذّبة (٣) فيقول :

(ثُمّ مازال النّاس يعبثون بعنوان الشّرف ، ويتوسّعون في معناه حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمّونهم أمراء والظَّلمة الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأ في فهم الشّرف إلى الخطأ في فهم المجد ، فسمّوا ماجداً كل من وُلِدَ في فِراش ملك وإن كان الحاكم بأمر اللّه ، أو أمير وإن كان الحجّاج ، أو وزير وإن كان بن الزّيّات ، أو قائد وإن كان " تيمورلنك " أو غنيّ وإن كان قارون) (٣)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٧٤ .
٢ - المرجع نفسه . ص ٧٥ .
٣ - المرجع نفسه . ص ٧٦ بتصرّف
٤ - المرجع نفسه . ونفس الصفحة

هذا هو حديث المنفلوطي الذى يحارب فيه ذوي الجاه والمال الظّالمين ولا يكتفي بذلك بل يُعَرِّف لنا المجد - في نظره - بقوله :-

(لا مجد إلاّ مجد العلم ولا شرف إلاّ شرف التّقوى ولا عظمة إلاّ عظمة الآخذين بين الإنسانيّة المُعَذَّبة رحمةً بها وحناناً عليها) (١)

ولا شكّ أنّ محاربة المنفلوطي هذه تدلّ على نفسٍ إنسانيّة طيّبة تكمُن في ذاته ، وتُحرّك كيانه فيلفظ بما تأمره به هذه النّفس ، فيسيل قلمه معبّراً عن حديثها ، ذلك الحديث الذى ترفض فيه الظّلم بكل صُوَره وأشكاله وتطلب الفضيلة أنّى كانت وحيثما حلّت .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٧٦ .

خـــداع العنـــاوين

الأغنيـــاء (١) ويبدي المنفلوطي تحت عنوان (الأغنياء) رأيه في التعريـــف الحقيقيّ بالأغنيـاء لأنه لا يعترف بمقاييس النّاس الباطلة في الحُكم على بعضهـــم بعضاً ، بل يرى أنّ الأغنياء أشدّ النّاس شقاءً على وجه الأرض وأنّهم لو استطاعوا أنْ يشقوها ليُخْرجوا الكنوز من باطنها لفعلوا .. وليتهم يُؤتون النّاس مما آتاهـم اللّه من فضله ، ولكنّهم بخلوا حتّى على أنفسهم بهذا المال فاشرأبّت نفوسُهـم إلى ما تطلّع إليه الفُقراء من الرّغبة في المال أو الطّعام (٢)

ولا يكتفي هذا الأديب ببيان هذه الحقائق اللاذعة بل يُعرّف لنا الفقـــر والغنيّ في رأيه - بقولـه :-

(الغَنيّ هو الغَنيّ بما في يده عمّا في أيدي النّاس والفقر هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ولا تغفّ به نفسه عند مطمع) (٣)

فالقناعة - في نظره - شرط أساسيّ للإنسان ولا عبرة لديه بزيادة المـــال عند الشّخص أو نقصه فالغِنَى ما هو إلّا صفة خُلقيّة يجب أن يتحلّى لها الشّـخص ليستحقّ أن يُسمّى غنيّ .

ولا نشكّ في أن هذا الرأي رأي صائب صحيح لأنّه لا قيمة للمال إذا لم يكن هناك بذل منه في سبيل الخير ، ولا عبرة بكثرته إذا لم تكن هناك قناعة باليسير منه فالقناعة في ذاتها كنز لا يفنـــى .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢. ص ٧٦ .
٢ - المرجع نفسه . ص ٧٧ . بتصـرّف
٣ - المرجع نفسه . ص ٧٧ .

الكبرياء (١)

وحملة أخرى من حملات المنفلوطي على الأغنياء وذوي الجاه والسلطان نلتقى بها مع سطور هذا المقال ، تتجلى هذه الحملة فى رده على الرجل الذي شكا إليه جرأة أحد الفقراء الصعاليك - فى نظره - لوقوفه إلى جواره فى صلاة الجمعة دون أن يحترم منصبه وسلطانه ، ثم يسأله هذا الشاكي عن حكم الشريعة فى هذا الأمر .

وهنا يجد المنفلوطي الفرصة أمامه سانحة ليسخط على مثل هؤلاء الأغنياء ومن نحا نحوهم ، فيخاطبهم بالهوادة مرة وبالشدة والعنف أخرى ، علّ ذلك يحرك مشاعرهم المتبلدة أو يخفف من حدة تعاليهم وكبريائهم فيقول :-

(رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك لا تضن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك علّه يجد فيها روح الحياة ...) الى أن يقول :-

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٢)

ثم يمضى المنفلوطي متدرجا فى حديثه من اللين والهوادة إلى التهكم بهذا السائل لعلّ ذلك يصرفه عن كبريائه فيقول :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ١٥٤.

٢ - نفس المرجع ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(ليفرخ روعك وليثلج صدرك ، وأعلم أنّ هذا المسكين الواقف بجانبك لايستطيع مهما نال منه العدم ، وبرح به الشقاء أن يقتطع قطعة من سعادتك ، أويفتلذ فلذة من شرفك ، فشرفك كالصباح تستمد منه المصابيح نوره نوره وبهاؤه بهاؤه) (١)

ثم يتتبع الأديب تهكمه هذا برأى الشريعة فى هذا التعالي والكبرياء والذى سأل السائل عنه ، فيخبره أنّ هذا الكبرياء الذى يغلفه وتلك العظمة التى تكتنفه وتشمخ أنفه وذلك التعالي الذي يقفز به إلى عنان السماء لايعادل ذرة واحدة من عظمة ملك الله وجبروته ، الذى يقف بين يديه فى كل يوم وليلة خمس مرات ليعبده ، ويرى أنه من الحري به وهو يقف بين يديّ هذا الملك العظيم أن تلهيه عظمته عن كلّ شيء حوله فلا يرى صعلوكاً ولا عظيماً فى موقفه ذلك .

ولكن أنّى له ذلك ؟ وقد غشّى كبرياؤه عينيه وحجز صلفه مشاعره تجاه خالقه فلم يعد يرى أو يشعر بشيء سوى هذه العظمة وذلك الكبرياء وتلك السلطة القاهرة (٢) ولنصغي هنا إلى قول المنفلوطى :-

(إن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أنّ الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ولا يعلم أواقف هو فى صفوف الملوك أو فى زمرة الصعاليك؟) (٣)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٢ ص ١٥٥ .

٢ - نفس المرجع ص ١٥٥ / ١٥٦ بتصرف

٣ - نفس المرجع ص ١٥٦ .

ثمّ يؤكّد في خاتمة مقاله أنّ هذه العظمة التي يعيشها معظم الأغنياء والعُظماء في دورهم وقصورهم ماهي إلاّ قشور جميلة تحمل في أحشائها لباباً سيئة وحقائق مفجعة وأنّ عليهم تلافي ذلك بالإحسان إلى أنفسهم فيعملوا على ترويضها وتمرينها على الفضائل حتّى تؤتي أُكلها (١)

ولنستمع إلى حديثه لهم :-

(أيُّها العُظماء :-

لاعذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فإن كُنتُم من أرباب الفضائل فحريٌّ بالفاضل أن لا يشوّه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء ، أولا ، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهاً ، ولا أصلب خدّاً من جَهلة المتكبّرين ، فانظروا أين تنزلون وفي أيِّ مقامٍ تقيمون ؟) (٢)

نعم هذا هو موقف المنفلوطي من كلّ متكبّر شامخ بأنفه إلى عنان السّماء لأنّه ملك من زخرف الدُّنيا الزّائل وسرابه البرّاق الذي لايلبث أن يصلَ إلى ماورائه الظّامئ ، فيجد الحقيقة القاتلة .

والذي لاشكّ فيه أنّ أديباً يحارب الأغنياء ، المتصلّفين هذه المحاربة الواضحة ، إنما هو يدعو إلى الخير ويحارب الشّر بكلّ وسائله وصوره ، وهو بهذا أديب له اتّجاهه الإنسانيّ الذي لامراء فيه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج٢ ص١٥٧ بتصرُّف

٢ - المرجع نفسه والصّفحة.

الكُوخ والقَصْر (١)

نعم هذا هو عنوان المقال الذى بسط فيه المنفلوطى حديثه عن الفقراء والأغنياء فغبط الأول لأنّه أروح بالاً ، وأسعد حالاً ، ورثى للآخر لأنّه يغوص فى بحر ليس لأمواجه استقرار ولا لهديره سكون ، فهو دائم القلق دائم التّفكير فى الحاضر والمستقبل .

أما تفكيره فى الحاضر فيتركز فى حرصه الشّديد على ثروته الحاضرة ، فيحرم نفسه من لذّة الاستمتاع بها ويكون ذلك أتعس حالاً من ذلك المُعْدَم الفقير .

وأما تفكيره فى مستقبله ، فهو لا يقلّ خوفاً ولا قلقاً عن تفكيره فى حاضره ، فهو مازال يفكّر فى أنجح الطُرق لإستثمار أمواله حتى تكون أضعاف ما هى عليه وذلك يزيد احترام النّاس له ، وتَكْثِر نظرات الإعجاب والتقدير لما يملكه ، وهكذا تفلت منه لذّة العيش ومتعة الحياة التى كان ينبغى أن ينعم بها والتى يحسده النّاس عليها لعدم علمهم بفحوىٰ الأمور وحقائق الأشياء ، يقول المنفلوطى متهكّما :-

(لقد بلغ الضّعف وصِغَر النفس بكثير من النّاس أنّهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء ، ولئن كانوا لا ينالون منهم ما يبلّ غلّةً أو يسيغ غُصّةً ، وليت شعرى إن كان لا بدّ لهم من إجلال المال وإعظامه جثُوجِد ، فلم لا يقبّلون أيدى الصّيارفة ، وينهضون إجلالاً للكِلاب المطوّقة بالذّهب وهم يعلمون ألا فرق بين هٰؤلاء وهٰؤلاء ؟)

فالمنفلوطى كما نرى يرفض أن يحترم الرُّجل لماله ومنصبه فهذه مظاهر وعرض زائلة لا قيمة لها فى ميزانه الإنسانيّ الرفيع ، لذا لا يفرّق بين الشّخص المالك

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٢ ص ٢٢٨ .

للمال وبين الحيوان المُطوّق بالذّهب فكلاهما - عنده - يبدو أنّه يملك المال ولكنّه لا يستطيع أن يتصرّف فيه ، لأنه الغنيّ يمنعه بخله وضنّه به حتّى على نفسه ، وأهله .

ولأنّ الحيوان جاهل به وبقيمته ، وكأنّه هنا يريد أن يقول :-

إن الحيوان لو عقل ذلك لتصرّف فيه ، ولم يكن مجرّد شكل لا يمكن الانتفاع به .

ثُمّ لا يكتفى هذا الأديب بتهكّمه هذا بل يلجأ إلى تحريض الفُقراء عليهم بقوله :-

(لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة ، ولشعروا أن بدرات الذّهب التي يكنزونها إنّما هي قيود ملتفّة على أقدامهم ، وأغلال آخذه بأعناقهم ، ولعلموا أن الشّرف في كمال الأدب لا في رنين الذّهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في أحمال المال ، فليعظّم الناس الكُرَماءَ وليحتقروا الأغنياء وليعلموا أنّ الشّرف شيء وراء الغنى والفَقْر وأنّ السّعادة وراء الكوخ والقصر)(١)

وهكذا بدا لنا المنفلوطي - كما عهدناه دائماً - رجلاً فاضلاً وإنساناً نبيلاً بكل ما تحمله كلمة الإنسانيّة من معانٍ سامية فلا عِبْرة عنده بالمال إلّا إذا أُنفِق في وجوه الخَير والبرّ فها هو ذا يقول معبّرا عن هذا الرأي :-

(أنا لا أغبط الغنيّ إلّا في موطن واحد من مواطنه إن رأيته يُشْبع الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم ، الذي سلبه الدّهر أباه

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٢٣٠ .

والأرملة التي فجعها القدرُ في عائلها ، ويمسح بيده دمعه البائس المحزون ، ثُمَّ أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى) (١)

---

١ ـ المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٢٢٨ .

النّاشـــيء الصّغيـــر (١)

مَن مِنّا لا يراود ذهنه التّفكير في شأن ناشئه الصّغير ؟ سواء كان هـذا النّاشـــيء ابناً أو أخاً أو حفيـــداً ؟

لا شكّ أنّ هذا تفكير عام يشترك فيه الغنيّ والفقير وغيرهما . فهذا رجـل يبعث إلى المنفلوطي رسالة ليسأله فيها :-

أيّهما أصلح للإنسان ، أن يُولَد فقيراً أو غنيّاً ؟)

وكان ردُّ المنفلوطي عليه في مقالٍ طويلٍ تَحـــلّى فيه منحى الصّراحة والوضـــوح فيما يتمنّاه لمستقبل ابنه الصّغير الذي كان في السّابعة من عمره - في ذلك الموقف - ذلك الإبن الذي لن يترك له ثروة من مال وإنّما من العقل والأدب هـــي خير عنده ألف مرة من الفضّة والذّهب (٢)

فهو لا يريد له أن ينشأ معتمداً على ثروة أبيه وجاهه بل يريد أن ينشأ بكيان مستقلّ وشخصية متميّزة غير متأثّرة بمال سابق أو جاه موروث . بل شخصيّة تصـــارع التجارب فتصرعها مرة وتُصْرَع بها مرّات حتى ترسم لها طريقاً خاصّاً تسلكه في هـدوء واطمئنان ناظرة إلى جميع الطبقات في المجتمع مختلطة بكلّ النّاس ، فتزوق مـــرارة وبؤس الشّقاء حتى تقدّر بؤس البؤساء وتعاسة الأشقياء ، فتمدّ لهم يد المعونـــة والمساعدة إذا ما أزهرت لها الأيام ومدّت إليها يد الدّهر بالرّخاء والرّفاه .

ولا ينسى الأديب هنا - أثناء تعداده لأمانيه في ابنه - لا ينسى أنْ يُقارن

---

١ - المنفلوطي . النظرات.ج ٣ . ص ١٤ .

٢ - المرجع نفسه بتصـــرّف

بين مايريده لابنه من مصارعة الأيّام وتجاربها ، وبين الغَنيّ المُترَف الذى ورث السّعادةَ الماديّة من أهله وذويه ، فلا يشعر هذا الوارث للمال بما يدور حوله من شقاء كما يشعر الذى جرّب مرارة الأيام فها هو ذا يقول :-

(ذلك خير له من أن يجلس في شُرفةٍ من شُرَفِ قَصْره مُطِلّاً على العاملين ، والجاهدين ، يمتّع نظره بمرآهم كأنّما يشاهد رواية تمثيلية فى أحد ملاعب التّمثيل) (١)

ويمضي المنفلوطى فى حملته على الغِنى والأغنياء معدّدا مساوىء المال وإتلافه لنفوس وارثيه وأهله حيث تستحيل فطرة هذه النّفوس الطّيبة إلى نفوس جامدة متحجّرة تطغى عليها المادّة ويوجّهها المال فتتحجّر فيها المشاعر وتجمد بها الأحاسيس ، فلا يعطف أحدهم على منكوب ولا يرحم بائساً ولا يرثي لتعاسة أمّته أو غيرها من الأمم ، بل لا يعنيه إلا أمر نفسه وحَسْبُه من الحياة فوزه وفلاحه فيها (٢)

ولكنّه مع ثورته هذه على الأغنياء وأصحاب المال ، لاينسى أن يكون صريحاً معتدلاً فى رأيه فيقول :-

(لا أكره أن ينشأ ولدى غنيّاً ولا أحبّ أن أعرّضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكنّي أخاف عليه الغِنى أكثر مما أخاف عليه الفقر) (٣)

وهكذا نستطيع أن نَخْلُصَ من حديث المنفلوطي هذا بخلاصة نستشفّ فيها نفس المنفلوطى العالية وروحه الإنسانية الفاضلة ، هذه الخلاصة هي :-

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ . ص١٥ .

٢ - المرجع نفسه . ص ١٨ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٧ .

إنّ المنفلوطي يرجّح نشأة الناشــئ في بيت فقر على أن ينشأ في بيت ترفرف أطيار المال في أرجائه لأنّ وفرة المال قد تدفعه إلى الإستكانة إلى ما عنده منه فــلا يحاول أن يعمل لمستقبله حياته ولا حتى لاستثمار هذه الثّروة التي بين يديه بل ربّمـا دفعه هذا إلى الضّياع والخسران لأنّه على حسب استقرائه وتجاربه في حياته ـ لاحـظ أن كثيراً من أبناء الفُقراء ناجحون في حياتهم ، ولم يَرَ إلا قليلاً من أبناء الأغنيـاء عاملين (١)

وهذا أمر ملموس في أغلب الأحيان ، فقد تدفع الحاجة الإنسان إلى العمل الجادّ والإنتاج المثمِر خاصّة في فئة الشّباب الواعي حتى يتمكّن من سدّ ثغرة النّقص التي عانـى منها طوال حياتـه .

ولا ينسى المنفلوطي هنا أن يشـير إلى الصِّراع الدّائر في المجتمع الإنسـاني وتكالب الناس على الثّروة والجاه ، ويرى أنّ السّبب في ذلك هو اعتقادهم أنّ المال هـو سرّ السّعادة في هذا الكون ، بينما يعتقد أنّ العلاج الوحيد لذلك هو أن يفهـم النّاس ألّا علاقة بين السّعادة وبين المال وأن سعادة العيش وراحة البال واطمئنـان النّفس وسكونها لا يتأتّى إلّا عن طريق الإعتدال ، لأنّ الإفراط في الطلب لا يقلّ وبـالاً عن التّقصير فيه (٢)

وهذا موقف إنسانيّ من الأديب من غير شكّ لأنه ينمّ على نفس فاضلة لا ترجـو إلا الخير ولا تنشد سوى الصّلاح والرّفاهية ، لكلّ ما يحيط بها من بشر .

---

١ ـ المنفلوطي . النظرات ج ٣ . ص ٢٣ . بتصرّف

٢ ـ نفس المرجع ص ٢٤ . بتصرّف

الوُجَهَـــاء (١)

ناقش المنظوطي في هذا المقال أحد الوجهاء الذي رأى علامات الحُزن والكآبة ترتسم على وجهه وتحف أطرافه ، فلم يعد يدري عن شيء سوى التفكير في ماله الزّائل وملكه الضّائع وجاهه المفقود .

لقد أسرف هذا الوجيه في أيّامه الخوالي وبذّر المال رغبةً في التّقرّب إلى الحُكّام وذوي السّلطان فاشترى جميع تذاكر الجمعيات الخيرية وساهم في بناء المدارس والمكتبات وأقام الولائم والحفلات وقدّم المعونات تلو المعونات لا رغبة في فضيلة الإحسان بل تقرّباً وزلفى للسّلطان ، وعندما نضبت معينه وفرغ صندوقه من كلّ ما يملك وأثقلت كاهله القروض ، انتبه من غفلته وعاد إلى رشده من سكرته وندم حيث لا ينفع النّدم ، واعترف بخطئه الفادح وجُرمه العظيم لأنّه أنفق المال لا رغبةً في هذا الإنفاق وحُبّاً فيه ، فيكسب بذلك سعادة الإحسان وثوابه ، بل أنفقه رغبة في الرّياء والفخر ، فأضاع كل ماجمع وضاع بضياعه كلّ أمل حتّى الأمل في ذلك المال المجموع ، والذي سُمّي من أجله وجيهاً والذي لم يبق له منه إلا تلك الأرقام السّوداء في صفحات سجلات البنوك التي أصبح الآن طريداً لها (٢)

هذه هي حقيقة الوجيه كما وصفها المنظوطي ولم يكتفِ بذلك بل انتهز فرصة ندمه على حاله الجديدة فأخذ يؤنّبه وأمثاله على معرفتهم للحقّ وجهلهم عنه فها هو ذا يقول له مؤنّباً :-

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ٨٤ .

٢ - نفس المرجع ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ . بتصرّف

(أعجب ما رأيتُ من أمرك فى حديثك معي أنّك تعرف الحقّ وتتنكّر له كأنّك لا تعرفه ، وتمدّ يدك إلى الصّواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقد زعمت أن مجد القُربى من أولياء الأمور باطل ، ولقد أصبْتَ فيما تقول فما شأنك به ، وما نهوضك إليه ، ومالك واللصوق بأمر أنت تعلم قلّة جدواه ، وسوء مغبّته ، ولقد كان طريق مختصر إلى المجد الصّحيح والشّرف الصّميم ، لو كنتَ أكبر منك همّة ، وأصحّ رأياً وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس بأقلّ شأناً من مجد السّيف والقلم ، ولا أرى أنك كنت تنفق فى سبيله إلا بعض ما أنفقت فى هذا المجد الكاذب وماكان يصيبك فى الأوّل من الشّقاء ما أصابك فى الثاني ، فالكريم مُعَانٌ على أمره ومُبارَك له فى عيشه ، متى صحّ له معنى الكرم ، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقّد الضّعفاء ومواساة الفقراء من حيث لا يبتغى على ذلك أجراً سوى ماوعد اللّه به المُحسنين من حُسْن المثوبة والأجر ، رفع الذكرى فى الآخرة والأولى ...) (١)

وهكذا مضى المنظوطى فى حديثه ثائراً على أمثال هؤلاء الوجهاء وذوي المال والسُّلطان ، لما يتوّج أعمالهم من رياء وزيف ليس له أيّ اعتبار بالنّسبة إلى مقياسه الإنسانيّ السّامي الذي يقيس به جلائل الأمور وصغائرها فما وافقه فهو تصرُّف إنسانيّ يستحقّ التّقدير منه ورفع شأن صاحبه والثّناء عليه وماخالفه ، فليس من الإنسانيّة فى شيء ، ويستحقّ عند ذلك تأنيبه والسُّخط عليه .

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٣ ص ٩٠.

دعوته الى التمسك بأهداب الفضيلة

(نحن فى حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم النّاس عنّا فى كل مكان أنّنا أمة أخلاق وآداب ، وأن فى نفوس أفرادنا من الصّفات والمزايا مايرفعنا الى مصافّ الأمم العظيمة ومقياس عظمة الآمم عند العالم إنّما هو لصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأيِ شيءٍ غير ذلك ...)

(الفضيلة الفضيلة أيها القوم ، فهي العزاء الوحيد لهذه الأمّة المسكينة فى جميع آلامها ومصائبها ...)

أيّ دعوة هي أفضل من هذه الدّعوة ؟ إنّها الإنسانيّة عينها - ولا أتجاوز الحقّ إن قلتُ - إنّ معظم ماكتبه المنفلوطي من مقالات أو قصص أو حتّى المُترجم منها ، ماهو إلاّ صالح لأن يندرج تحت هذا العنوان ، وإنْ كنتُ لجأت لتقسيم المقالات إلى عناوين متباينة في ذاك إلا لتحقيق حاجة البحث إلى عونة الفصول .

أمّا ما أدرجه في هذا الفصل فهو دعوة المنفلوطي الحارّة إلى التّمسّك بأهداب الدّين الإسلاميّ الحنيف ، ثُمّ بالفضائل التي يدعو إليها من ترك الكذب والخداع وغشّ الناس ، وتحرّي الصّدق في كلّ شيء والحرص على الفَضيلة بشتّى صُوَرها ، أو ترك ماينافيها مهما كان ذلك شاقّاً على المرء لأنّها السّبيل الوحيدة للحفاظ على إنسانيّة الإنسان بكلّ ماتحمل هذه الكلمة من معانٍ سامية رفيعة .

وفيما يلي من الصّفحات أتناول كل مايمكن أنْ يَضُمَّهُ من أقوال المنفلوطي تحت هذا العنوان الشّامل ، تاركة كل ماسبق تناولة - مما يمكن أنْ يضمّ في هذا الفصل أيضاً - حرصاً منّي على تجنُّب التّكرار والفصل الدّقيق بين متشابهات الأمور .

الكـــــذِب (١)

ما أسوأ هذه الرّذيلـة وما أسـوأ نتائجها على صاحبها وعلـى من يحيـط بـه ، ولا يفرّق المنفلوطى بين كذب القَول أو كذب الفعل ، بل ربّما كان كَذِب الفعـل أشدّ وبالاً ، وأسـوأ خالاً - فى نظـره - من كذب القول ، لأنّ الكاذب فى فعلـه غاشّ لمجتمعه ، مُراءٍ فى تصـرّفه وسلوكه حتى يُؤْمَن جانبـه ، ويُعطَى الثّقـة التى ليس أهلاً لها يقول المنفلوطـى :-

(لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعـال فى تضليـل العقول ، والعبث بالأهواء وخـذلان الحقّ واستعلاء الباطل عليه ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول : إنّي ثقـة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالاً أردّه إليك ثُمّ لا يؤدّيه بعد ذلك ، وبيـــن أن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفـاء فيخدعك فى الثّانية كما خدعك فى الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخـدعك ألف مرّة قبل أن يخدعك كاذب الأقـوال مرّة واحدة ، لأنّه لا يكتفى بقول الزّور بلسـانه حتى يقيم على قضيّته بيّنـة كاذبة من جميع حركاته وسكناته) (٢)

ثُمّ يُعدّد المنفلوطى أشكال الكَذِب المُختلفة وصُوره المتبايّنة من نفاق وفسـق وكِبْر ونميمة وتملّـق (٣)

ويرى أن هذه الأشكال والنّماذج قد شاعت بل طَغَت على المجتمع وأفسـدت الطّبائع الإنسانيّة فى أفراده إلى الحدّ الذى أصبح فيه الحديث عن الصّادق نوعـاً

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٦١ .

٢ - نفس المرجع ص ١٦١ ، ١٦٢ .

٣ - نفس المرجع ص ١٦٢ ، بتصـرّف .

من النّوادر والطّرف وأعجوبة من عجائب الأمور ، بل أصبح يخاف على الصادق من حياة نكده ، لأن كل ماحوله كذب وخداع ، فلا صديق صدوق ، ولا رفيق وفيّ ولا مستشار أمين ولا مخلص في الحفاظ على السرّ ولا عالم صادق أو تاجر لا يغشي في تجارته أو يحنث بيمينه (١)

لكلّ الأسباب السّابقة يرى المنظوطي أن الكذب أسّ الشّرور وعمادها الأوّل فيقول :-

(ليس الكذب شيئاً يستهان به ، فهو أسّ الشّرور ورذيلة الرّذائل فكأنّه أصل الرّذائل فروع له ، بل هو الرّذائل نفسها ، وإنّما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثّل في صور متنوّعة) (٢)

ولا يفوت المنفلوطي أن يحذّر من مخالطة الكاذب لأنّه جليس سوء لا بدّ أن يضرّ جليسه بأيّ وسيلة كانت فيقول :-

(كذب اللّسان من فضول كذب القلب ، فلا تأمن الكاذب على ودّ ولا تثق منه بعهد ، واهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك الرّجل الكاذب) (٣)

وهكذا نلمس حرص المنظوطي الشّديد على سلامة الفرد قبل سلامة المجتمع ، فالمجتمع ما هو إلا مجموعة أفراد فإن صلح كل واحد منهم كان الصّلاح المؤكّد للمجموعة كلّها وإذا صلحت المجتمعات باختلاف أجناسها وجنسياتها وأوطانها ، صلحت

---

١ - المنظوطي . النظرات . ج ١ .ص ١٦٢ . بتصرّف
٢ - المرجع السابق. نفس الصفحة .
٣ - المرجع السابق .ص ١٦١ .

الإنسانية جمعاء . ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ تأثر المنفلوطي في دعوته إلى عدم مخالطة جليس السوء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :-

(إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالح والجَليسِ السُّوءِ كحَامِلِ المِسْك ونَافِخِ الكِير فحامل المِسْك إمَّا أنْ يُحذِيك وإمَّا أنْ تَبْتاعَ مِنْه وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحاً طَيِّبَةً ، ونافخ الكِير إمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيابَك وإمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبيثةً)

١- الإمام مُسلِم - صحيح مُسلِم بشرح النَّووي - جزء ١٦ . ص ١٧٨ - ط ٢ ١٩٧٢م .

الشـــــرف (١)

الشّرف معنى إنسانيّ رَحْب يُخطِىء فى فَهْمه كثير من النّاس ، فمنهم من يعتقد أنّه فى كثرة المال أو علوّ الجاه والسُّلطان ، فيسعو جاهداً للحصول عليهما وإن أخطأ سُبُل الوصول ومنهم من يعتقد أنّ الشّرف فى المصانعة والخداع ، أو فى الرّيــاء والنّفاق ، ليكسب بذلك محبّة مَنْ حوله وإنْ كلّفــة ذلك جُرماً ظاهراً وخطأ فادحاً .

كما يرى أديبنا أنّ هذا الخطأ فى فَهْم حقائق الأشـياء هو الذى يؤدّى إلــى خطأ السُّلوك الإنسانيّ كلّه ومايَنتُج عن الأفـراد من تصرُّفات نتيجة ذلك التّصــوُّر الخاطىء ، ويرى أنّ مَنْ أراد أن يهذّب أخلاق النّاس ، عليه أن يهذّب تصوراتهم ومفاهيمهم أولاً ، كما يرى أنّ المجتمع الإنسانيّ مصاب بالسُّقم فى فهمه والتخلخــل فى تصـوُّره فلا ثقة بوزنه وتقديره . (٢)

أما الشّرف الحقيقى - فى اعتقاد أديبنا - هو الذى يناله الإنسان بتفانيــه فى خدِمة هذا المُجتمع البشريّ بكلّ ما أُوتِى من علم أو جاه أو حُسْن خُلُق .

وها هو ذا يعدّد لنا النّماذج البشريّة التى تتّصف بالشّرف حيث يقول :-

(فالعالِم شريف ، لأنه يجلو صـدأ العقل الإنسانيّ ويصقل مرآته ، والمجاهـد فى سبيل الذّود عن وطنه شريف ، لأنّه يحمى مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عاديــة الفَناء ، والمُحسِن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف لأنّه يأخذ بأيدى الضّعفـــاء

---

١ - المنفلوطى . النظرات.ج ١.ص ١٧٠.

٢ - نفس المرجع.ص ١٧٢. بتصرُّف

ويحمى أنفس البائسين .

والحاكم العادل شريف ، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغى عليهم الظالمون ، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه ، ويلقى عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس فى الأخلاق والآداب والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرى ويحتملون فى سبيل ذلك مايحتملون من المؤنة والمشقة حذراً عليه من التهافت والسقوط .) (١)

تلك هى النماذج الشريفة فى نظر المنفلوطى ، ولا شك أن نظرته سديدة لا جدال فى صحتها ، لما لهذه الجماعات من أثر فى إصلاح المجتمع فرداً فرداً ، ولما تحمله من قيم إنسانية فاضلة ، فلا يكون الشريف شريفاً إلا إذا اجتمعت له كل الصفات الإنسانية القيمة التى دعا إليها هذا الأديب فى كل ماكتبه من مقالات أو ترجمه من قصص وروايات

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ١ ص ١٦٣ .

الإسلام والمسيحية (١)

لا وقع أشدّ على سمع المسلم من وقع حديث المعادي لدينه ، سواء كان ذلك العدوّ يهوديًا أو نصرانيًا.

وهذا ماشعر به المنفلوطي حقًا عندما علم بماكتبه اللّورد (كرومر) في شأن الإسلام .

وخلاصة ماكتب أنّ الإسلام دين موضوع من قِبل رجل بدويّ لا عِلم له بحكمة اليونان أو بمدنية الرومان ، ولا حتّى تلقى شيئًا من علوم الشّرائع والعمران .. إلى آخر مانقرأه من الطّعن في الإسلام وفي نبيّه المرسل وشريعته السّماوية المنزلة ولنستمع إلى المنفلوطي في قوله :-

(يقول اللورد كرومر ، إنّ الدّين الإسلاميّ دين جامد لا يتّسع صدره للمدنيّة الإسلامية ، ولا يصلح للنظام الإجتماعي) ويقول :-

إنّ مالا يصلح له الدّين الاسلامي يصلح له الدّين المسيحي ويستدلّ على الإسلام بالمسلمين وعلى المسيحية بالمسيحيين) (٢)

وبعد أن نقل لنا المنفلوطي كلام اللّورد(كرومر)الطّاعن في الإسلام أنكره إنكارًا شديدًا واستشهد في دفاعه عن الإسلام بالحرب التي دارت رحاها الطّاحنة بين الأرثوذكس والكاثوليك تارة وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى ، بصورة وحشيّة اسود لها وجه الإنسانيّة ، كما استشهد على ذلك بما كان عليه المسيحي من إمّعية مطلقة وإذعانٍ شديد الرأي الكاهن الجاهل حتّى انّه كان يحرّم عليه النّظر في كتابٍ غير الكتاب المقدّس أو أن يتلقّى علمًا في غير مدرسة الكنيسة واستدلّ على ذلك أيضًا بفزع

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١.ص ١٧٩.
٢ - المرجع نفسه.ص ١٨١.

الشّعب المسيحيّ عندما رأى السّاعة الدّقّاقة التى أهداها هارون الرّشيد خليفة المسلمين آن ذاك إلى شارلمان والتى ظنّها المسيحيون أنّها مُشْتعلة على الجنّ والشّياطين ، كما كان من بين استدلالاته على فساد العصر ورجاله المسيحيين تلك المحاكمات التى صدرت عن محكمة التّفتيش ، والتى قضت بإعدام ثلاثمائة وأربعين ألف بين عَشيّة وضُحاها لأنّهم يزاولون العلوم الحديثة .

وهكذا أخذ المنفلوطى يُعدّد مساوىء المسيحيّة وحَجْرها على العلم والعلماء إذ عاناً للكنيسة وأوامر الكاهن والبابا فى حين أنّ الإسلام ، جاء بتعاليمه السّماويّة فأمر بالتآخى بين أفراده ـ سواء كان منهم الخطيب أو الحاكم أو الفقيه أو الكيميائيّ أو القاضي أو المتعبّد أو الذكيّ ، فكلّهم يجب أنْ يكونوا إخوة أصفياء متعاونين على البرّ والتّقوى إلى جانب ما أتى به الإسلام من شرائع قامتْ على خدمة الجنس البشريّ فى جميع مايحتاج إليه فى مَعَاده ومعاشه ومايفيدُه فى وحدته أو اجتماعه فهذّب العقائد وطلب من الإنسان تسريح فكره وعقله للتأمّل فى ملكوت السّموات والأرض ليقف على حقائق الكون والوجود وليدرك طبائعه وكُنهه ، حتّى يزداد إيماناً واقتناعاً بخالقه وموجده وحتّى لا يكون آلة صمّاء يحرّكها الدّاعي كيف شاءت نفسه .

ولم يَكْتَفِ الإسلام بذلك بل أطلق له الحرّية فى كلّ شيء فى القول والعمل وبيّن له جزاء الخير أو الشّرّ ليختار بينهما ، كما علّمه أنّه لا فرق فى شَرْع الإنسانيّة بين فقيرها وغنيّها ، كبيرها وصغيرها إلاّ بالتّقوى والعمل الصّالح ، ثمّ بيَّن نظام الأسرة وعلاقات أفرادها وبَيّن نظام المجتمع المُسلم ونَظّم اقتصاده وطبيعة المعاملات الإنسانيّة بين البشر سواء كان منهم المسلم أم غير المسلم .

ونظراً لعلم المنظوطي أنّ حديثه عن نِعَم الإسلام على معتنقيه وغيرهم لا تُحصَى[١] ولا تُعَدّ ـ لعلمه بذلك ـ لجأ إلى القول :ـ

(وجُملة القول أنّ الدِّين الإسلاميّ ماغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خُطوة من مَهْدِه إلى لَحْدِه إلاّ مدّ يده إليه ، وأنار له مَوضِع أقدامه وأرشده إلى سواء السّبيل) (١)

ولم ينسى المنفلوطي أنْ يُثبِت أنّ شمس الحضارة الإنسانيّة لم تُشرق أشعتها الأولى إلا بين المسلمين في أوطانهم وأماكن تواجدهم ثُمّ بعد ذلك اجتازت مواطنهم إلى دول أوروبا عن طريق انتقالات المسلمين أنفسهم وعن طريق رحلات الأوربيين إليهم وابتهارهم بما وجدوه لدى المسلمين من تطوّر وازدهار ثم تناسيهم لفضل المُسلمين والعرب عليهم .

كما لا يتعصّب المنظوطي للإسلام مُطلقاً فيذكُر ما أصاب المسلمين من فتور في الآونة الأخيرة مَرجِعه المسيحيون أنفسهم وأشباههم ممن لبسوا لباس الإسلام وتزيّوا بزيّه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس بعض ملوكه الضُعفاء أو بعض أمرائه مما أمدّهم بشيء من السّطوة والقوة حتّى تمكّنوا من نشر مذاهبهم السّقيمة ومعتقداتهم الخُرافية بين المسلمين فأفسدوا عليهم أصالة مذاهبهم وصحّة عقائدهم ، وأوقعوا الفتنة بينهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوّته ، فكان من أمرهم بعد ذلك ـ ما رأيناه ـ

---

١ ـ المنظوطي . النظرات ج ١. ص ١٨٦ .

من تدهوُر وضَياع .(١)

ويوجِّه المنفلوطى فى نهاية مقاله ـ الخطاب إلى اللّورد(كرومر)نفسه قائلاً :ـ

(أيّها الفيلسوف التّاريخى : لا تقُلْ إنّنا متعصّبون تعصُّباً دينيّاً فإنّك قد أسأت إلينا وإلى ديننا فلم تَرْبُدّاً من الذّبّ عنّا وعنه بما تعلم أنّه حق وصواب على أنّه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التّعصُّب الدينيّ إلاّ اتّحاد المسلمين يداً واحدة على الذّود عن أنفسهم والدّفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتّى يكون الدّين كلّه لله) (١)

وهكذا صرّح لنا المنفلوطى فى نهاية حديثه أنّه عدّد بعض محاسن الإسلام وبيّن فضائله على المسيحية خاصّة والبشر عامّة ليدافع عن حقّه بما هو فيه حقيقة ولم يُرسِل القَوْلَ على عواهِنه بل أيّده بالأدلّة المادّيّة والمنطقيّة بما يكفِ للذّبّ عن دينه وأهله وحضارته المتفوّقة السّبّاقة التى لا سبيل لأحد إنكارها .

١ـ المنفلوطي . النظرات . ج ١ . ص ١٨٨ بتصرّف .

٢ـ نفس المرجع والصّفحة .

أينَ الفضيلة (١)

الفضيلة ، تلك الدُرّة الثمينة التي أعيا المنفلوطي الحصول عليها وفتّش عنها في كلّ مكان فلم يجدها .

نعم .. لقد كتب المنفلوطي هذا المقال ليُشعرنا بعجزه عن الحصول على ضالّته المنشودة في الأماكن التي كان يتوقّع وجودها فيها ، لقد فتّش عنها في حوانيت التُجار فلم يجد الا تاجراً لصاً يأخذ الدينارين على ماقيمته أقل من دينار بحجّة ربحه الذي لا يُنكره عليه المنفلوطي بل يريد الاعتدال فيه ، كما فتّش عنها في مجالس القضاء فلم يجد إلاّ قاضياً مقيّداً بقوانين وضعية لا يستطيع الزحزحة عنها حتى وان كانت لا تنصف مظلوماً ولا تأخذ الحقّ من ظالماً يقول :-

(فتّشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أنّ أعدل القضاء من يحرص الحرص كلّه على أن لا يهفوا في تطبيق القوانين الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها مَنْ مَنَحَه هذا الكرسيّ الذي يجلس عليه مخافة أنْ يسلبه إيّاه .

أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظّالم وإزاحة الحقوق على أهلها وأنزل العقوبات منازلها من الذّنوب فهو عنده ذيول أذناب لا يأبَه لها ، ولا يحتفل بشأنها إلاّ إذا أشرق عليها الكوكب بسَعْده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً ، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه ، حكم بغير مايعتقد ونطق بغير ما يعلم ، ودانَ البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتبٌ كانت معذرته إليه حُكْم القانون عليه ، كأنّما يريد أن يجعلَ العَقْلَ أسير القانون ، وما القانون إلا حَسَنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٦٠ .
٢ - نفس المرجع ص ٦١ .

ثمّ فتّش المنفلوطي عن ضالّته في بيوت الأغنياء فوجدهم نموذجين ، إمّا شحيحاً أو تار قلبه لمناظر البؤس والشّقاء ، وإمّا مُضيّعاً لماله أسيراً بين ثغري الحسناء والصّهباء (١)

كما فتّش عنها بين السياسيين ورجال الدّين ، فوجد الأمم السياسية تسعى كلّ منها جاهدة لتوفير المال والعتاد لقهر أختها من بني الإنسان لتحظى بالفوز وبنحر عدوّها دون مراعاة منها لحقّ البشريّة والإنسانيّة عليها ، أمّا رجال الدّين - إلّا من هداهم اللّه - فهم في رأيه - ليسوا إلا مبتزّين لأموال النّاس وخزائنهم تحت شعار الدّين المزعوم .

وهكذا عدّد لنا المنفلوطي النّماذج التي كان يتوقّع أن يجد الفضيلة ترفرف بأجنحتها عليهم فتظلهم بظلّها الظّليل ، فلم يجدها بينهم فهل تراه يتوقّع وجودها في الحانات وأماكن الفساد ؟!

لا شكّ أنّ هذا مستحيل ولعلّ ذلك هو السّبب الذي أفقد المنفلوطي أمله في الحصول على ضالته ثم استرسل قائلاً :-

(سيقول كثير من النّاس ، قد غلا الكاتب في حلّه وجاوز الحدّ في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من النّاس صدراً رحباً وموردا عذباً ، وإنّي قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم : إنّي لا أنكر وجود الفضيلة ، ولكنّي أجهل مكانها فقد عقد رياء النّاس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري ، حتّى ما أجد في صفحة السّماء نجماً لامعاً ولا كوكباً طالعاً كلّ النّاس يدّعي الفضيلة وينتحلها ، وكلّهم لبس لباسها ويرتدي رداءها ويعدّ لها عدّتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء ، ومظهر يخدع أسوأ

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١ ص ٦٢ . بتصرّف .

النّاس بالنّاس ظنّاً ، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظّلام الحالك واللّيل الأليل ؟) (١)

وقد سيطر هذا اليأس على المنفلوطي حتّى أصبح لا يشعر بلذّة العيش ورغده ولا حتّى لجمال الطّبيعة وسحرها لأنّه لا يجد بين جنباتها ما يشعره بلذّة تلك السّعادة لأنّ مقياس السّعادة في نظره أن يجد صديقاً صدوقاً يعينه على شدّة الدّهر وأرزائه ولا ينتظر منه جزاءً ولا شكوراً أو مقاصد وأهدافاً خاصّة . وأن يكون صادق النّصيحة غير مُراءٍ ولا مُداهن فلا يُحِب فيه إلّا الفضيلة ولا يكره منه إلا الرّذيلة .

نعم هذه هي السّعادة التي نشدها المنفلوطي ولم يُفلح في طلبته وبحثه فتمنّى لو فقد إحساسه وقلبه حتى يفقد الشّعور بما حوله من رذائل . يقول :-

(لقد سمج وجه الرّذيلة في عيني وثقُل حديثها في سمعي حتى أصبحت أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرّها وسرورها وحُزنها) (٢)

ولكن تُرى - بعد هذا اليأس - ما الذي يُرغم المنفلوطي على البقاء في هذه الحياة والمحافظة على استمرارها ؟

إنّه ذلك القلب الرّحيم في عُنفوان ثورته تلك على المجتمع المحيط به الذي طغت عليه الحيوانية وضاعت منه المُثُل والقيم الإنسانيّة . . نعم ذلك القلب الذي يرأف لبُنيّاته الصغيرات اللاتي سيفقدن بفقده طيب العيش ولذّته (٣)

وهكذا بدا لنا هذا الأديب ثائراً على الرّذيلة بكلّ صُورها وأشكالها وأزيائها مُحبّاً للفضيلة باحثاً عنها متشوّقاً إليها شغوفاً بها متمنّياً وجودها ليهنأ بلذّة العيش في أجوائها ولكن هل إلى وصوله لضالّته من سبيل ؟

وَمَا نَيلُ المَطَالِبِ بِالتَّمَنّي وَلَكِنْ تُؤخَذُ الدُّنيَا غِلَابَا

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ١، ص ٦٣
٢ - نفس المرجع ص ٦٤ .
٣ - نفس المرجع والصفحة . بتصرف

دَمْعَةٌ على الإسْـــلام (١)

كتب المنفلوطي هذا المقال إثر رسالة وصلته من أحد علماء الهند الذى شـــكا إليه ماقرأه فى كتاب ظهر عندهم فى ذلك العصر بلغة (التأميل) (٢) موضوعـــه (تاريخ حياة السّيد عبدالقادر الجيلانى (٣) وذكر مناقبه وكراماته) شكا إليـــه ماقرأه من الصّفات والألقاب التى وُصِفَ بها ذلك الولي والتى تكاد تكون لائقة بالإلـــه لا بالسّيد المذكور كقول المؤلّف عنه : (سيّد السّموات والأرض والنّفّاع والضّـــرّار ، والمتصرّف فى الأكـــوان والمطّلع على أسرار الخليقة ومحييّ الموتى إلى آخر هذه الصّفات الخاصّة بالخالق سبحانه وتعالى .

وقد ذكر له الشّاكى أنّ مؤلّف ذلك الكتاب لم يكتَفِ بهذا بل عقد فصلاً فى كتابـــه بيّن فيه الهيئة والشّروط التى يجب أن يلتزم بها زائر قبره كالوضوء السابغ والصّـــلاة

---

١ ـ المنفلوطى . النظرات ج ٢،ص ٦٥ .

٢ ـ لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس

٣ ـ عبدالقادر الجيلانى (٤٧١-٥٦١هـ = ١٠٧٨-١١٦٦م) عبدالقادر بن موســى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسنى أبومحمد محيى الدّين الجيلانى ، أو الكيلانى، أو الجيلي، مؤسّس الطّريقة القادرية من كبار الزّهاد والمتصوّفين ، وُلِدَ فى جيلان (وراء طبرستان وانتقل إلى بغداد شابّاً سنة ٤٨٨ هـ فاتّصل بشيوخ العِلْم والتّصوف وبرع فـــى أساليب الوعظ ، وتفقّه ، وسمع الحديث وقرأ الأدب ، واشتهر وكان يأكل من عمـــل يده ، وتصدّر للتدريس والإفتاء فى بغداد سنة ٥٢٨هـ وتُوفّى بها له كتب ، منهـــا لطالب طريق الحق و " الفَتْح الرّبّانى " و " فتوح الغَيْب " و " الفُيوضات الرّبّانيّـــة " وللمستشرق مرجليرت الإنجليزى رسالة فى ترجمته نشرها ملحقة بالمجلة الآســـيوية الإنجليزية ، ولموسى بن محمد اليونينى كتاب " مناقب الشيخ عبدالقادر الجيـــلانى

ركعتين بخشوع واستحضار ثمَّ بعد ذلك يتوجّه إلى تلك الكَعبة المشرّفة (على حدِّ قوله) (١)

وهكذا مضى الشّاكي في حديثه عن ذلك الكتاب الذي امتلأ بالكفر والإشراك باللّـه .

فما أن قرأ المنفلوطي رسالة الشّاكي حتى اسودّت الدّنيا في عينيه ، واستُطِير غضباً وغَيرةً على الإسلام وما آل إليه من حالٍ بعد عزّته وعظمته السّابقتين فها هو يقول :-

(هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب ويعلم اللّه أنّي ما أتممت قراءة رسالته حتّى دارت بي الأرض الفضاء ، وأظلمت الدّنيا في عيني فما أُبصِر عمّا حولي شيئاً .. حُزْناً وأسفاً على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوامٍ أنكروه بعد ما عرفوه ووضعوه بعد ما رفعوه وذهبوا به مذاهب لا يعرفها ولا شأن له بها .) (٢)

ثمّ يستنهِض المنفلوطي هِمم المسلمين وغَيْرتهم على دينهم فيحثّهم على الرثاء للإسلام وحالته الراهنة لأنّ ضياعه يعني ضياع المسلمين أنفسهم فيقول :-

---

= خ - ولعليّ بن يوسف الشطوفي "بهجة الأسرار" ط - في مناقبه ولمحمّد بن يحيى التازفي "قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر" وترجم عبد القادر بن محيِ الدّين الاربلي عن الفارسية "تفريح المخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر" - ط
الأعلام - مجلد ٤ ص ٤٧ ط ٤ . سنة ١٩٧٩ م

١ - يقصد بها قبر عبد القادر الجيلاني

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ ص ٦٧ .

(أيّ عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدّمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثّر المُحزن منظر أولئك المسلمين ، وهم رُكّعٌ سُجّد على أعتاب قبر ربّما كان بينهم من هو خير من ساكنِه في حياته فأحر به أن يكون كذلك بعد مماته .

أيّ قلب يستطيع أن يستقرّ بين جنبيّ صاحبه ساعة واحدة فلا يطير حُزناً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التّوحيد أكثر من المشركين إشراكا بالله وأوسعهم دائرة في تعدّد الآلهة وكثرة المعبودات) (١)

وبعد استنكار هذا الإستنكار الذي نلمحه في عبارات الأديب السّابقة وفي بقيّة مقاله لا يفوته أنْ يدعو دعوة مُخلصة صادقة كلّ مسلم غيور على دينه وعقيدته إلى ضرورة التّمسّك بأهداب الدّين والعضّ على مبادئه بالنّواجز لأنّ صلاح المسلمين لا يكون إلا بالمحافظة على هذا الدّين الذي كان أساس عزّتهم وركيزة عظمتهم التّليدة يقول المنظوطي :

(والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها إلاّ إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التّوحيد ، وإنّ طلوع الشّمس من مغربها ، وانصباب ماء النّهر من منبعه ، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده مادام المسلمون يقفون بين يديّ الجيلاني كما يقفون بين يديّ اللّه ويقولون له " أنت المتصرّف في الكائنات وأنت سيّد الأرضين والسمٰوات) (٢)

ويرى أديبنا الكبير أنّ قادة الأمّة هم أوّل المسئولين عن هداية الضّالّين فيقول :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٦٧ .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٦٩ .

(ياقادة الأمّة ورؤساءها ، عذرنا العامّة في إشراكها وفساد عقائدها وقلنا إنّ العاميّ أقصر نظراً وأضعف بصيرة من أن يتصوّر الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النّصب والتماثيل والأضرحة والقبور ، فما عذركم أنتم و أنتم تتلون كتاب اللّه وتقرأون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى : " قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّه " وقوله مخاطباً نبيّه " قُلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً " وقوله " وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ") (١)

وهكذا نرى تأثر المنفلوطي بتعاليم الإسلام في غيرته السّابقة ودعوته الملحّة إلى الإستقامة على الطّريق السليم ونبذ كلّ ماهو من الشّرك والبدع حتى لا يضيع الإسلام وسط أهله وفي موطن ذويه .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٢ . ص ٦٩ .

خداع العناوين (١)

وتحت هذا العنوان يتناول المنظوطي عناوين مختلفة خَدَعَ النَّاسَ بها أصحابُها وأتناول هنا العنوان اللائق بهذا الفصل والذى كتب المنظوطي تحته مقاله هذا العنوان هو (الأتقياء) .

ويرى المنظوطي فى هذا المقال القصير أنّ معظم النَّاس لا يسمون التَّقِى تقيًّا إلاّ إذا كان ذا عمامة ملتفَّة على رأسه وسبحة لا تفارق يده ولحية تكسو وجهه وجبَّة يسبح فيها جسده حتّى وإن كان هذا الشَّخص سيّئ الخُلُق والمعاملة قليل التَّضحية من أجل راحة الجماعة وما ذاك إلاّ لأنّ هيئته هى عنوانه الخادع وستاره المضلّل لحقيقته ، يقول المنظوطي :_(لولا خداع العناوين ماسمعنا (٢) صالحاً تقيّاً كلّ من حرّك سبحته وأطال لحيته ، ووسّع جبّته وكوّر عمامته ، ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان كتاباً أسود الصَّفحات كثير السَّقطات وإنّ تحت هذا السِّتار الحريرىّ الرَّقيق نَفْساً سوداءُ مُظلمةً ، لا ينفذ إليها شُعاع من أشعّة الرَّحمة ، ولا تهبّ عليها نسمةٌ من نسمات الإحسان) (٣)

ويرى أديبنا الإنسانىّ المُسلم أنّ الإيمان الحقيقى فى الإيثار والتَّضحية فى سبيل الله أو فى سبيل الجماعة لا فى تحريك الشِّفاه بالهمهمة والأنامل بالمسبحة ، ويتجلّى صدق دعوته إلى التضحية والإيمان الحقيقى فى تعريفه للإيمان فى هذا المقال بقوله :_

---

١ ـ المنظوطي . النظرات ج ٢ ص ٧٤ .

٢ ـ أرى أنه خطأ فى طبعة النظرات والأصوب ماسمّينا

٣ ـ المنظوطي . النظرات ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(إنّ الإيمان مواقف يمتحن اللّه فيها عبادَه ليعلم الّذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فإنّ بذل الضّنّين بماله في مواقف الرّحمة والشفقة ، والشّحيح بنفسه نفسه في سبيل الذّود عن حوضه ، والذّبّ عن عشيرته وقومه .. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مُغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها ، فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دِهان ، ولا يخالط يقينه خِداع ولا كذب أولا فأهون بهمهمته وسواكه وسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب أجدر منه بعنوان التّقي الصّالح ، " أحسب النّاس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ") (١)

ما أجمل هذه النّفس الطّيبة عند المنفلوطي وما أقوى تأثير الإسلام على تلك النّفس الرّحيمة وذلك القلب العَطوف وإلا لما لمسنا من ألفاظه السّابقة تلك الرّحمة الفيّاضة والإيمان الصّادق وهل هناك دليل على تأثره بالإسلام في دعوته السّابقة أفضل من اقتباسه الصّريح من القرآن الكريم ؟

---

١ - المنفلوطي - النظرات ج ٢ ص ٧٥.

الأدب الكاذب (١)

يدعو المنفلوطي في هذا المقال إلى ضرورة التمسك بأدب النفس بحيث يكون هذا الأدب موجِّهاً لسلوك الإنسان في حياته وبين مجتمعه وأن يكون قبساً وهاجاً ينير له طريق سلوكه فلا يفعل إلا ما يمليه هذا الخلق المتأصل في النفس ، وبهذا لا يضل طريقه في معركة الحياة الصاخبة كذلك كانت الأجيال السابقة لا يردعها إلا ضميرها الإنساني وخلقها القويم عن الخوض في أدران الرذيلة والشرور ، يقول المنفلوطي :- (كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس ، أو نزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه ...) (٢)

ولعل الذي دفع المنفلوطي إلى هذه الدعوة الصريحة ما وجده من سيادة الشكليات والقشور على الجواهر والألباب ، فأصبح الخلق الكريم والأدب الحقيقي يتلخص في إشارات والتفاتات لا دخل لها في جوهر النفس ولا علاقة لها في شعورها ووجدانها ، وأصبح معنى الأدب أن يكذب الإنسان دون أن يشعر الناس بكذبه فيأتي سائغاً مهذباً وأن يحسن الإعتذار إذا لم يبر بوعده وأن يظهر للناس محبته على لسانه ويبطن لهم الكره والحقد في نفسه ولعل المنفلوطي يقصد بذلك أن يقول إن معنى أدب النفس في وقتنا الحاضر هو حسن المصانعة والمداهنة ، والمنفلوطي - كما عهدناه - لا يكتفي بطرح القضية أو إبداء الرأي دون حجة أو برهان قاطع فضرب لنا مثلاً

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ ص ٢٩ .

٢ - نفس المرجع والصفحة

لرجلين عرفهما يجمعهما مركز واحد ووظيفة واحدة ويرى أنّ أحدهما خير النّاس في نظره وثانيهما أشدّهم شرّاً أمّا عن رأى النّاس فيهما فعكس رأيه تماماً .

أولهما رجل اطّلع على خِيار الكُتُب من الأدب والأخلاق فأخذ نفسه بكلّ ماقرأ عن الصّدق والأمانة والعِفّة والزّهد والسّماحة والنّجدة والمروءة والكرم والسّماحة والرّحمة ... وافتتن بتلك الفضائل أيّما افتتان حتّى وجّهت سلوكه ومعاملته للنّاس لأنّه قد استقرّ في ذهنه أنّ النّاس قد عرفوا من أدب النّفس ماعُرِف وفهموا من معناه مافُهِم ، فغضب في وجه الأشرار ، وابتسم في وجه الأخيار ، وامتدح إحسان المُحسن ، وذمّ إساءة المسيء وبذل معروفه للعاجز ومنعه عن القادر وقال لمن يساومه أحبّك ولكنّني أحبّ الحقّ أكثر منك فكثر أعداؤه وقلّ أصدقاؤه . أما الآخر فكان لا يفي بوعدٍ ولكن يُحسن الإعتذار عن تأخّره ، ولا يعطف على بائس أو مسكين ولكنّه يحب الرّثاء لحالهم ، وكثيراً ماكان يأكل أموال اليتامى ولكنّه يُكثِر المَسْح على رؤوسهم ولا يفتأ ليله ونهاره ينال مِنْ أعراض النّاس ويستنزِل من أقدارهم ، إلاّ أنّه يخلِط جدّه بهزله فلم يقل النّاس عنه شيئاً سوى أنّه الماجن الظّريف (١) .

ثم يعلّق لنا المنفلوطي على المثالين السّابقين بقوله :-

(ذلك هو الأدب الذى أصبح في هذا العصر رأياً عامّياً يشترك فيه خاصّة النّاس وعامّتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ويعلّمه الوالد ولده ، والأستاذ تلميذه ..) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣.ص ٣٢. بتصرّف

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٣.ص ٣٢.

وهكذا يمضي المنظوطي في تعليقه الذي يبيّن فيه مدى تبدّل الحقائق وانعكاسها في عصره فأصبح الرّجل المُخْلِص أحرج النّاس بهذا الصّدق وذلك الإخلاص فلا يعلم أيكذب فيُسْخِط ربّه ويُرضي النّاس أم يَصْدُق فيُرْضِي عنه ربّه ويُسْخِط النّاس أم يهجر هذا العالم إلى عزلة فيها الرّاحة والسّكون وفيها الوَحْشَة والغُربة الأبدية ؟

لذا يدعو المنظوطي بقلبٍ صادقٍ ونفسٍ مُحبّة للخير والفضيلة إلى ضرورة التّحلّي بأجمل الفضائل وأسماها ليحلّق المرء في أُفُق الفضيلة الرّحب بعيداً عن آثام الرّذيلة والشّرور ، ولنستمع إلى قوله :-

(يجب أنْ يكون أدب النّفس أساس أدب الجوارح ، وأنْ يكون أدَب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره فإنْ أبى النّاس إلاّ أنْ يجعلوا أدب الحَركاتِ والسّكنات أساس صلاتهم وعلائقهم ، وميزان قِيَمهم وأقدارهم فليعترفوا أنّ العالَم كلّه مسرح تمثيليّ ، وأنّهم لا يؤدّون فيه غير وظيفة الممثّلين الكاذبين) (١)

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ٣٢ .

المَلاعب الهَزْلِيَّة (١)

يشير المنفلوطي في هذا المقال إلى مشكلة تورّط فيها مجتمعه ، فحرّكت مشاعره للكتابة بعد أن آل على نفسه أن يترك قلمه آمناً مطمئناً في مكانه فلا يحرّكه في أيّ شأن من الشّؤون العامّة .

هذه المشكلة هي انتشار الملاعب الهَزْلِيَّة في عصره والتي ليست من التّمثيل أو التّصوير ولا من الجدّ أو الهزل في شيء كما أنّها ليست تنتمي إلى فنٍّ من الفنون الأدبية ، وإنّما هو - في نظره - عبارة عن مَضْيَعة للوقت والمال ومَفْسَدة للخُلُق والدّين ومقابر للمجد والشّرف لأنّها لا تشتمل إلا على الهُزْء والسُّخرية بالطّبقات الشّريفة العاملة في الأمّة كالفلاحين الكادحين للكسب الحلال ، وحَفَظَة الدّين من الشّيوخ والأئمّة وأفاضل الأمّة وعيونها من المحامين والأطبّاء والمعلّمين كما أنّها تشتمل على ما هو أسوأ من ذلك وأكثر ضرراً كتمثيل الشّهوات البدنيّة والنّفسيّة بجميع ألوانها وضروبها على مشهدٍ من الجمهور الشّامل للرّجال والنّساء والأطفال .

والمنفلوطي كما عهدناه رجل غيور على خُلُق مجتمعه وسيرة وطنه وعزة أمّته ، فلم يستطع أن يتحمّل وطأة هذه الكارثة الخُلُقيّة التي تنخُر أخلاق الشّباب والطّلبة وهو أكثر النّاس ضنّاً بهم لأنّهم نواة الأمّة ودعامتها - لذلك يستنكر ارتياد مثل هذه الأماكن الهزلية ليس لهذا فحسب بل لخوفه أن ينزل بوطنه زائر من الزّوار فيفجأ بما يراه في وطنٍ عربيّ مسلم وخاصّة إذا زار مسارح (أَبْيَض أو عُكاشة ورُشْدِي) وغيرهم ممّن تقوم على مسارحهم مشاهد التّمثيل الجدّيّ الشّريف ، فلا يجد الكمّيّة الضّخمة من الجمهور

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣. ص ٣٨.

المثقف الناشئ كما وجدوه في الملاعب الهزلية كمراقص (الكشكش والبربري) وغيرهما وإنما يجد ذلك الجمهور مكون من العامة والسوقة والأميين والجاهلين .

نعم إن المنظوطي يخشى حكماً عاماً يصدر من هؤلاء الزوار على الأمة المصرية أنها أمة غريبة الأطوار ، يقول المنفلوطي مخاطباً الشباب المتعلم الواعي :-

(ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان - مشهدكم في الأجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة - أن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ، ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول : ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء ، موفوراً لها حظها من الأخلاق والآداب ، فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار) (١)

لهذا يخشى المنفلوطي على الشباب المتعلم ارتياد أمثال هذه الأماكن وخاصة أن المشاهد لأمثال هذه الملاعب قد يقص ما شاهده على أسرته إن لم يصحبهم معه فيكون بذلك قد أفسد من في المنزل جميعاً وهكذا يفسد المجتمع بأسره لتقليده ما يسمع من شتائم وألفاظ بذيئة مبتذلة .

ولا يكتفي المنفلوطي - كعادته - بعرض المشكلة ونقدها وبيان مفاسدها وآثارها السيئة بل يختتم حديثه بوصف الدواء الناجع لذلك الداء المتفشي فيهيب بالطلبة أن يبتعدوا عن إرتياد أمثال هذه الملاعب حفظاً لخلقهم وكرامة وطنهم وسلامة أسرهم من العار وأن ينتدب فريقاً نفسه لنصح إخوانهم المتهافتين على أمثال هذه الأماكن

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣، ص ٤٣ .

حتّى تنتشر النّصيحة بين أفراد المجتمع وحتّى ينقذ هذا الفريق المُصلح أسرته ثمّ أمّتـه من الضّياع المُحقق والخُسران المُبين وحتى يظلّ رأس أمّته مرفوعاً وأنفُها شامخاً عاليـاً بحُسْنِ أخلاقها علواً يرتقي بها إلى ذَرْوَة المَجْد يقول المنفلوطي :-

(نحن في حالة نحتاج فيها إلى أنْ يعلم النّاس عنّا في كلّ مكان أنّنا أمّة أخـلاق وآداب ، وأنّ في نفوسِ أفرادنا من الصّفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصافّ الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنّما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غيـر ذلك ...) (١)

ويستمر المنفلوطي في دعوته الجمهورية الصّوت من أجل الحفاظ على الفضيـلة والتمسّك بأهداب الأخلاق السّامية فيذكر هؤلاء الطّلبة بالأمانة الملقاة على عاتقهـم قائـلاً :-

(إنّني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامّة من أجل أنفسكم فقط ، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم ، ومن أجل مستقبل الأمّة المصريّة كلّها الـذي أعتقد أنّه أمانة في أيديكم ، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم وشرف ضمائركم .

اهدموا هذه الأماكن هدماً بالإعراض عنها واحتقارها ، ثم قِفُوا بعد ذلك على أطلالها هاتفين صائحين صياح الظّافر المنتصر قائلين : ها قد نجت الأمّة من خطـرٍ عظيم وها نحن قد قُمْنا جميعاً بالواجب علينا لوطننا) (٢)

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣. ص ٤٥ ، ٤٦ .

٢ - نفس المرجع والصفحة .

نعم ما أشدّ حماس المنفلوطي في مثل هذه المواقف والتي لا يرجو منها إلّا انتشار الفضيلة وانعكاس أضوائها على المجتمع ثُمّ على الإنسانيّة جمعاء . ولم لا وهو كاتب إنسانيّ مناضل بقلمه وكلمته في سبيل الحقّ والخير والفضيلة .

الآدابُ العامّــة (١)

يستنكر المنفلوطي في مقاله ما يتحدث عنه النّاس في مجتمعه عن فئة من الشُّبّان المصريين المتعلّمين الذين ظهروا في تلك الأيّام متّخذين لأنفسهم في حياتهم العامّة طريقاً غير الطّريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبالعلم الذي يتعلمونه وذلك لتبذل هؤلاء الشّباب في شهواتهم وتطرّفهم في أهوائهم وميولهم وانتهاكهم لحُرمات الأعراض دون مخافة لومة لائم أو حتّى معتبّة أخطائهم فيتعرّضون للطّالبات المُراهِقات وهنّ في طريقهنّ إلى مدارسهنّ أو في عودتهنّ إلى منازلهنّ ملقين إليهنّ بالرّسائل الغرامية المغرّرة ثم لا يكتفون بذلك بل قد يشركونهنّ في جلسات شُرب الخمر أو المخدّرات وما أشبه ذلك من وسائل إفساد الخُلق وإلحاق العار بهنّ وبسُمعتهنّ حتّى إذا ما تمّ لهم ذلك ابتعدوا عنهنّ غير راضين بالزّواج من إحداهنّ ، ولا يقف بهم الأمر إلى هذا الحدّ من الضّرر بها بل قد يبعث أحد هؤلاء الشّباب بصورة الفتاة التي أهدتها إليه في لحظة سعادتها معه إلى الرّجل الّذي ينوي الزّواج منها . وقد قصّ لنا المنفلوطي قصة مماثلة سمعها وهو أنّ فتاة أهدت لحبيبها صورتها مُوَقّعة عليها بتوقيعها فلمّا تزوّجت بغيره - وكان لا يحبّ ذلك منها - قصّ رأس الصّورة فألصقها بصورة جسم فتاة عارية وأرسلها إلى زوجها في ليلة عرسهما ، فما لبث أن خسرت الفتاة في لحظة واحدة سُمعتَها وسعادَتها .

وهكذا عرض علينا المنفلوطي هذا الدّاء المتفشّي في شباب عصره في صيغة الإستنكار الشّديد وما أكثر الاستفهام الإنكاري في هذا المقال (٢) كقوله :-

---

١ - المنفلوطي . النظرات . ج ٣ . ص ١٣٦ .

٢ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ . فضلاً راجع الصفحات ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

(أصحيح مايقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التى هو أشرف الصلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات وأن الحبالة التى تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هى حبالة القلم الذى هو أفضل اداة للخير ، وأعظم وسيلة للفضيلة وخير واسطة للأدب والكمال ؟) (١)

(أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتى يقعن فى مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا موقعا عليه بتوقيعاتهن ، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم ، والحياة بعيداً عنكم فى جو غير جوكم وجوار غير جواركم عذارى أو متزوجات) (٢)

ولا يكتفى أديبنا الفاضل بهذا الإستنكار لأفعال الشباب المشينة فحسب بل يذكرهم بأن هذا سيؤدى بهم إلى المهالك لأنهم سيكونون سبباً فى إفساد فتيات المجتمع اللائى سيصبحن فيما بعد أمهات المستقبل يقول المنفلوطى :-

(أين تجدون الزوجات الصالحات فى مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم أو فى أى جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً . لا تتكون أخلاق الفتاة فى عهد طفولتها أو فى عهد شيخوختها بل فى عهد شبابها ، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج ، وخير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل) (٣)

---

١ - المنفلوطى . النظرات ج ٣ . ص ١٣٧ .
٢ - نفس المرجع ، ص ١٣٨ .
٣ - نفس المرجع . ص ١٣٩ .

ثمّ يحاول المنظوطي إيقاظ ضمائر الشّباب في استنكاره للفساد ودعوته الطُلحّة إلى التزام الفضيلة فيذكّرهم بضمائرهم وماستحدّثهم به في خلوتهم فيقول لهم عن حديث الضّمير :-

(إصغوا إليه تسمعوه يقول لكم : إنّ هؤلاء الفتيات اللّواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهنّ أعينكم وأيديكم إنّما هنّ أخواتكم الحميمات يجمعكم وإياهنّ أب واحد وهو النّيل وأمّ واحدة وهي البلد . وشرف الأخوّة وهو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهنّ .) (١)

ويختتم المنظوطي مقاله السّابق بالدّعوة إلى تعليم الفتيات حتّى لا يخدعهنّ الشّباب بمعسول الحديث وحتّى لا يلتفتنَ إلى طُرق الغواية والفساد . كما يدعو الشّباب والرّجال جميعاً إلى إفساح الطّريق للمارّة وخاصّة من النّساء فيقول :-

(إفسحوا الطّريق لهنّ ، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها والأرمل المسترزقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذّاهبة لصلة رحمها ، والسّائرة لزيارة قبر فقيدها ولا تكونوا حجر عثْرة في سبيل حرّية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سَعْياً وراءْ رزقها ، وقضاءِ مصالحها فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنّكم أعداؤها القُساة المتوحّشون لأنّكم تأبون عليها إلا إحدى الخطّتين القاتلتين ، إمّا الجهل الدّائم أو السّقوط العظيم .

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ١٤١ .

الفضيلة الفضيلة أيها القوم ، فهو العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ، والأمل الباقي لها إن ضاعت - لا قدر الله - جميع آمالها وأمانيها والشرف فربما جاء يوم تدير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد ما تملك أيدينا شيئاً سواه) (١)

وهكذا نلاحظ تأثر المنظوطي بالدين الإسلامي في دعوته إلى إفساح الطريق للمارة من النساء حيث قال صلى الله عليه وسلم :-

(إياكم والجلوس في الطرقات قالوا يارسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (٢)

---

١ - المنظوطي . النظرات ج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي . جزء ١٤ ص ١٠٢ . ط ٢ ١٩٧٢ م

الماضي والحاضر (١)

يرى المنظوطي في مقاله هذا أنّ الفضيلة والرّذيلة أمران اعتباريان يختلفان من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان ، ولذا فهو ينتقد مؤلّفات علماء الأخلاق الذين لا يفوتهم في مؤلّفاتهم أن يضعوا جدولاً لبيان الفضائل كالوفاء والكرم والإحسان والسّماحة وجدولاً آخر للرذائل ، كالغدر والخيانة والبخل والكذب ... الخ

وسبب انتقاد المنظوطي هذا راجع إلى اعتقاده الأكيد أنّ معايير الفضائل والرّذائل تختلف من جماعة إلى جماعة ومن عصرٍ إلى عصرٍ ، فما كان فضيلة في عصر البداوة مثلاً قد أصبح في عصر المدنية ، ففي عصر البداوة مثلاً كان العربي يذبح ناقته الوحيدة ليكرم ضيفه فيحمد على عمله ولا يعدم من يعينه على حياته ورزقه بعد ذلك ، أمّا في عصر المدنيّة الحاضرة لو تصرّف أحد النّاس مثل هذا التّصرف لانهالت الملامات عليه من كلّ حدب وصوب ولا نصرف النّاس عنه لغفلته - في نظرهم - وسوء تصريفه للأمور .

وكانت القناعة فضيلة في نظر النّاس عندما كانت التّقوى والعمل الصّالح أساس المفاضلة بين النّاس ، أمّا في عصر السّيطرة المادّية فقد أصبح الغنى هو مقياس المفاضلة بين الناس حتّى وإن التوت الطّرق في سبيل الحصول على المال يقول المنظوطي :-

(وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به النّاس أقدار النّاس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة الشّريف إذا عقدت يده وعزفت نفسه ، والغنى معرّة للدّنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه ، أمّا اليوم وقد مات كلّ مجد في العالم إلا المجد المالي ،

---

١ - المنظوطي . النظرات . ج ٣ . ص ١٨٣ .

وأصبح النّاس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم فالقناعة ذُلّ الحياة وعارها أو بؤسها الدّائم وشقاؤها الطّويل) (١)

ومضى المنفلوطي يعدّد هذه المُثل والقِيم التي اختلفت معاييرها في عصر المدنيّة الحاضِرة عن العصور السّابقة كما بيّن في مقاله كيف أصبحت الفضيلة ستاراً يتستّر به الأدنياء ليوهموا النّاس أنّهم فضلاء وماهم بفضلاء . إستمع إلى قوله :-

(إنّ الدّعاء إلى البرّ والإحسان والشّفقة والرّحمة والعدل والإنصاف والصّدق والإخلاص في هذا العصر إنّما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرين للضّعفاء السّاذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها فيد تأثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الدّاعي إلى الكرم إلّا لينقل ما في جيوب النّاس إلى جيبه ولا إلى العفو إلّا ليصيب بشرّه من يشاء دون أن ينالة من الشّرّ شيء ، ولا إلى القناعة إلّا ليقلّل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها ولا إلى الصّدق إلّا ليتمتّع وحده بثمرات الكذب ومزاياه) (٢)

ثُمّ يذكر لنا المنفلوطي كيف ينبغي أن يعرف الطّفل هذا التّغيُّر في معايير الأخلاق والفضائل باختلاف المكان والزّمان ، ويرى أنّ تلك المَعرفة تحفظ هذا الطّفل في شبابه من الإصطدام بالمفاجآت السّيئة التي هي بعكس ما نشأ عليه من قراءة فضائل رجال التّاريخ السّابقين ومحاولة التّقلّد بهم في حياته اليوميّة مع النّاس فيحدُث له مالا تُحْمَد عُقْباه ويؤثِر العُزلة عن النّاس على الحياة الاجتماعية المليئة بالآثام والشّرور .

---

١ - المنفلوطي . النظرات ج ٣ ص ١٨٥ .

٢ - نفس المرجع ص ١٨٦ .

ويتمنّى لو كانت السّبيل لتعريف الطّفل ذلك تأليف الكتب المناسبة لعقليّته والتي تبيّن كيف يمكن أن يغشّ الصّانع ، ويكذب التّاجر ، ويلفّق المحامي ، ويختلس المرابي ، ويصانع السّياسي ... الخ (١)

وبذلك يمكن أن يعلم النّاشئ إمكان حدوث أمثال هذه المتناقضات في الحياة فيقبلها على علاّتها ويكون حذراً في مواقفه منها .

ثمّ لا ينسى المنفلوطي في خاتمة مقالة أنْ يبيّن أنّ طريق الفضيلة واضح المعالم وأنّه لا يحتاج الى أيّ التواء في سبيل الوصول اليه فيقول :-

(من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدّس الشّريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش في عصر مثل هذا العصر . وناس مثل هذا (٢) الناس ، فليعلم أنّه قد أخطأ الطّريق وضلّ السّبيل .

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها لولا أنّ شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة اللّه عليها وأسفاً على أيّامها وعهودها) (٣)

وهكذا نجد المنفلوطي حزيناً على ضياع تلك الفضيلة وذهاب عصورها الزّاهرة .

---

١ - المنفلوطي - النظرات ج ٣ ص ١٨٧ . بتصرّف

٢ - ورد في كتاب النظرات ج ٣ ص ١٨٨ . هذا اللفظ وأرى أنّه خطأ مطبعي الصّواب فيه قولنا (هؤلاء النّاس)

٣ - المنفلوطي - النظرات ج ٣ ص ١٨٨ .

الـــــكلمات (١)

وتحت هذا العنوان تناول المنفلوطي مجموعة عناوين جانبية تناول فيها موضوعات متعددة يهمنا هنا التعليق على مايختص بهذا الفصل من الدراسة ، فمثلاً تحت عنوان (الدين) (٢) بيّن المنفلوطي أن بعض الناس لا يستطيع تحمل أحكام الديـــن والوقوف عند حدوده الشرعية فلا يجدون بداً من إنكاره وجحوده والخروج على طاعته ، ظناً منهم أن فعلهم هذا هو العذر الذي يعتذرون به إلى الناس في تقصيرهم عن العمل بحدوده والحفاظ عليه ، وهم في الحقيقة غير منكرين له ولا جاحدين ، ولذا ينبه المنفلوطي قارئه إلى أنه سيلتقي بمثل هؤلاء الناس في حياته ومجتمعه وعليه أن يكون حريصاً فـــي الأخذ بكلامهم لأنهم سيزينون له مازعموا أنهم منكروه بل ربما أوهموه أنه لن يبلغ حظه مـــن المدنيـــة الحاضـــرة إلا بالإعراض عن الدين .

والمنفلوطي - كما ثبت لنا - رجل مسلم حريص كل الحرص على الدعوة للديـن والتمسك بأهداف الشريعة السمحة لذا يؤكد في مقاله هذا على ضرورة التمسك بالعقيدة والعمل بأحكام الدين وعدم الإنسياق خلف سراب المدنية البراق لأن العقيدة الراسخـــة والدين الصحيح هما خير معين على تحمل أرزاء الدهر ومصائب الزمان يقول المنفلوطـــي لقارئه عن هؤلاء الناس المزينون للفساد :-

" فأعلم أن الله سيلقيك بهم ، وأنهم سيزينون لك إنكار مايزعمون أنهم ينكرونـــه ، ويخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ماتريد من هذه المدنية الحاضرة ، وأن تنـــال

---

١ - المنفلوطي - النظرات - ج ٣ . ص ٢١٢ .

٢ - المنفلوطي - النظرات - ج ٣ . ص ٢١٥ .

الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها إلا إذا تنكرت لدينك وتسلبت منه ، وخفرت زمته فاحرص الحرص كله على أن لا يَعْلَق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وأنواع الآلام ، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة إلى غمرة ، ولا يُقل من عثرة إلا إلى عثرة ولا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته ، وتداركت عثراته ، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب) (١)

وهكذا نلاحظ تأثر المنفلوطي بالإسلام في دعوته الملحة السابقة إلى ضرورة تمكن العقيدة الصحيحة من نفس الإنسان حتى لا تزعزعه محن الزمان وأرزاء الدهر لأن تمكن العقيدة من نفس المسلم يعني صبره على البلاء والصبر على الشدائد هو دليل الإيمان الصادق الذي ليس جزاءه عند الله إلا الجنة قال تعالى :-

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) (٢)

ومما يؤكد لنا موقف المنفلوطي الغيور على الدين قوله تحت عنوان جانبي آخر سماه (الدين والوطن) يقول فيه :-

(من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لأنه إن كان ينقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً فهو ينقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للإنسان

---

١ - المنفلوطي - النظرات ج ٣، ص ٢١٥ - ٢١٦.

٢ - آية ٢٢ من سورة الرعد.

أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألاّ يحرص على وطن السّقوف والجدران)(١)

ثم لنرى حديثه تحت عنوان الأخلاق الذى يرى فيه أنّ الخُلق الحسن مطلوب من الإنسان قبل علمه وألاّ فائدة من العلم المجرّد من حُسْن الخُلق يقول المنفلوطى :-

(مَثَلُ المتعلّم غير المتأدّب كمثل شجرة عارية لا تُورِق ولا تُثمِر قد انتصبت للنّاس فى مُلتقى الطُرق تعترض الرّائح ، وتصدُّ سبيل الغادي فلا النّاس يظلّها يستظلّون ولا هم من شرّها ناجون) (٢)

وحديث المنفلوطى السّابق يذكّرنا بالقول القائل : (علم بلا عمل كشجر بلا ثمر)

---

١ - المنفلوطى - النظرات - ج ٣ . ص ٢١٨ .

٢ - المنفلوطى - النظرات - ج ٣ . ص ٢١٩ .

الحجـــاب (١)

وهذه قصّة قصيرة وضعها المنفلوطي ضمن ماوضعه من قصص ألّفها من بنات أفكاره في كتابه (العبرات)، وهي تحكي قصّة صديق له سافر إلى أوربا ، وهو على خُلُقٍ كريم ونفس طيّبة ووجه حيي ونفس عالية شريفة لا تطأ مواطن الشّبهة والفساد ، ثمّ عاد من أوربا بعد أن لبث فيها بضع سنين ولم يَبْقَ ممّا يعرفه عنه النّاس ولا أصدقاؤه شيء.

يقول المنفلوطي مُقارناً بين حاله في ذهابه وبعد إيابه :-

(ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصّخرة الملساء تحت اللّيلة الماطرة ، وذهب بقلبٍ نقيّ طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العُذْر ، وعاد بقلبٍ ملفوف مدخول لا يفارقه السُّخط على الأرض وساكنها ، والنّقمة على السّماء وخالقها ، وذهب بنفس غضّة خاشعة ترى كلّ نفس فوقها وعاد بنفس ذهّابة نزّاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ماتحتها ، وذهب برأسٍ مملوءة حِكَماً ورأياً وعاد برأسٍ كرأس التّمثال المُثقب لا يملؤها إلاّ الهواء المتردّد ، وذهب وما على وجه الأرض أحبّ إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منها) (٢)

وكان المنفلوطي مازال يظنّ بأمثال هؤلاء الشّباب خيراً إذ أعتقد أنّ مايصيبهم بعد عودتهم ماهي إلا سحابة موقّتة ماتلبث أن تُشرِقَ عليها شمس المشرق فتُبدِّد غيومها وتزول ، ولذا لم يحاول أن يترك صديقه بل قبله على علاته آملاً فيه الصّلاح القريب والعودة السّريعة وظلّ على حُسْنِ علاقته له إلى أن جاءه ذات ليلة واجماً مكتئباً قد جُنّ

---

١ - المنفلوطي - العبرات ص ٣٩

٢ - نفس المرجع والصفحة

جنونه فسأله عن حاله ، فعرف أنّه على خلافٍ مع زوجته التي طلب منها أن تتخلّى عن حجابها وسترتها لتظهر بالمظهر اللّائق به بعد عودته من أوروبا ولتختلط بأصدقائه وتشاركه سهراته وحفلاته التي لا عدّ لها ولا حصر ، فرفضت الزّوجة الصّالحة الحييّة ذلك فلم يجد أمامه إلّا أن يفكّر في الخلاص منها لأنّها أصبحت غير لائقة به وخاصّة أنّه يريد أن يكون أوّل هادمٍ لصرح الحجاب الذي سيطر على جميع النّاس في وطنه فأصبح عادة ذميمة ينبغي الجُرأة في الخروج عليها ثمّ الخلاص منها .

فإذا بأديبنا يُدْهِشُه ماسمعه من صديقه وظنّ أنّها مجرّد فكرة لا يعلم عواقبها ولا نتائجها الوخيمة فأخذ يحاوره ويناقشه آملاً منه الإحجام عمّا عزم عليه وبيّن له أنّ ما يطلبه من زوجته اليوم ويصرّ عليه قد يكون سبباً في ضياعه وهدم بيته دون شعور منه ، ولكنّ الصّديق كان مملوءاً بالخدعة التي يخدع بها الشّيطان معظم الرّجال وهي أن المرأة الشّريفة تستطيع أن تعيش بين الرّجال ولها من شرفها وعفّتها حصن حصين لا تمتدّ إليه المطامع ، وهكذا دار نقاش طويل بين المنفلوطي وصديقه لم يُنْهِهِ إلّا ابتسامة الشّابّ الهازئة من ناصحه تعني إصراره على ما ارتآه من خلع حجاب زوجته وهتك ستار الحشمة والوَقار الذي كان يجمّلها .

فعزم المنفلوطي على قطيعة منزل صديقه حفاظاً على شرفه من الدّنس والرّيبة .
وماهي إلّا أيّام قلائل حتى سمع الأديب أن صديقه نفّذ ماكان قد ناقشه فيه وأن بيته أصبح مغشيّاً بالأصدقاء حافلاً بمن هم على شاكلته من الشّباب والشّابّات ومرّ على هذه الحال ثلاثة أعوام والمنفلوطي مقاطع لصديقه لا تزاور بينهما ولقاؤهما لا يكون إلّا صُدفة يحيّي فيها كلّ منهما الآخر تحية الغريب للغريب دون أن يدور بينهما أيّ حوار

وفي منتصف ليلة من اللّيالي كان المنفلوطي عائداً إلى داره ، فرأى صديقه ذاهلاً مشدوهاً يصطحبه جنديّ إلى مخفر الشّرطة في تلك السّاعة من اللّيل فأهمّه أمره واقترب منه ثمّ سأله عن حاله فأجابه أنّه لا يعلم من أمره شيئاً وطلب منه في تلك اللّحظة الحرجة أن يصحبه إلى المخفر لأنّه يحتاج إلى مساعدته فنزل عن المنفلوطي لرغبته ، وبينما هما في الطّريق كانت علامات الخجل والرّغبة في الحديث تظهر على وجه صديقه فشعر المنفلوطي بذلك ثمّ بدأه بالحديث وأعاد عليه سؤاله عن حاله وسبب دعوته إلى المخفر في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل . فتحيّر الصّديق في الرّدّ وأعلمه بأنّه أن تكون زوجته هي سبب ذلك الإستدعاء فقد رابه أمر عدم وجودها في المنزل إلى هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل ، فسأله ألم يصحبها أحد في خروجها أو يعرف مكان ذهابها فأجابه بالنّفي ثم سأله المنفلوطي وهل يخاف عليها من شيء معيّن فأجابه أنه لا يعلم من أمرها سوى أنّها امرأة غيور شرسة وربّما حاول أحد اغتصابها فوقعت بينهما الواقعة التى ألجأتها إلى المخفر ، وما أن وصلا إلى المخفر حتى جاء فتى يقول له : يؤسفني ياسيّدي أن أقول لك إنّ رجال الشّرطة عثروا على امرأة ورجل في مكان من أمكنة الرّيبة في حال غير صالحة فاقتيدا إلى مخفر الشّرطة وادّعت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لنتأكّد من دعوتها فإن كان صدقاً قولها تركناها وشأنها حفاظاً على شرفك وإلاّ فهو امرأة كاذبة ليس لها إلاّ عقاب السّاقطات أمثالها ، فنظر الرجل إلى المتّهمين فوجد المرأة زوجته والرّجل الذى معها صديقه فصرخ صرخة دوّت في أرجاء المخفر وسقط مغشياً عليه فأشار المنفلوطي على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل ، وأطلق سبيل صاحبها ، وحمل أديبنا صديقه ومع جماعة من الحاضرين إلى العربة ثمّ إلى منزله حيث استدعى له الطّبيب الذى وجد أنّه أصيب بحمّى شديدة واستمرّ

الطّبيب بجانبه وهو يكابد ليلة ليلاء حتّى أشرقت شمس الصّباح فانصرف الطّبيب ثمّ استُدعِي له مرّة أخرى ، ولبث المنفلوطي بجواره يستلطف اللّه في حاله حتّى أفاق من غفلته وصحا من رقدته ونظر إلى صديق عمره وناصحه وأراد أن يقول شيئاً ولكنّه لم يستطع فحاول أن يدنُو منه ليعرف حاجته فسأله ألّا يدخل عليه أحد وسأله عن مكان زوجته فدُهِشَ المنفلوطي وسأله ما الذي يريده منها بعد ذلك؟ فأخبره أنّه يريد أن يخبرها أنّه عفا عنها خطيئتها لا أنّه السّبب الأوّل والأخير فيها فقد كانت امرأة عفيفة طاهرة وأهلها شُرفاء أمجاد لم يلحقْهم العار إلّا بمصاهرتِه ، وتذكّر اليوم الأوّل الذى رفضت فيه الزّوجة خلع حِجابها وهتك سترتها ثمّ تذكّر كيف أرغمها وهدّدها بالطّلاق إن لم تُجبّ رغبته ، ودار ماكان يراه من اجتماع صديقه معها في داره وفرحته بذلك اللّقاء في غيبته أو حضرته وظنّه أنّ ذلك هو التّجديد الحق يقوّيك هو السّعادة الأكيدة والذّكاء النادر ، فاعترف اليوم ببلاهته وغفلته وتعاسته الفذّة ، وتمنّى رؤية أهل زوجته ليعلمهم بندمه على فعلته وليعتذر منهم لأنّه تسبّب في تدنيس عِرضهم وشرفهم ولأنّه حنث بيمينه معهم يوم خطبها أن يصون عِرْضَها وشَرَفَها ويحافظ على مجدهم وكرامتهم ، واعترف أنّها قتلته حقّاً ولكنّه هو الذى وضع لها الخنجر الذى أغمدته في قلبه فكان في هذه الطّعنة هلاكه ومصرعه لأنّ البيت بيته والصّديق صديقه والزّوجة زوجته وهو الذى فتح باب بيته بيده لصديقه ، وتأكّد أن معظم مَنْ كانوا يتودّدون إليه إنّما كان غرضهم الوصول إليها لا صدق محبّتهم وإخلاصهم له ، وبينما هو يعالج آلام أحزانه ويكابدها فقد صوابه وعاد سيرته الأولى من الغيبوبة والهذيان ، وفي تلك اللّحظة دخلت عليه مرضع ولده تحمله بين يديها حتّى وضعته بجوار أبيه وتقلّب الطّفل حتّى علا صدر أبيه فأيقظه عطف الأبوّة من غفلته واحتضنه وقبّله ثمّ تذكّر مامرّ به فرمى الطّفل وتنكّر له فسمعت المُرضع صياح الطّفل فعادت لأخذه ، فأحزن الأب صوت ابنه وهو

يبتعد عنه فطلب إعادته إليه مرّة أخرى فقبّله واحتضنه حتّى بلغ الجهد منه مبلغه فعاد إلى غشيته وعاودته الحمّى فاستدعى أدبينا له الطبيب مرّة أخرى الذى علم بدنوّ أجله وبينما الموت يسبل أستاره على المريض وفراشه إذا بامرأة مؤتزرة تدخل عليه الحجرة وتتقدّم نحوه ببطء ثمّ ركعت بجانبه وقبّلت يده الموضوعة على صدره قائلة :-

(لا تخرج من الدّنيا وأنت مُرتاب فى ولدك فإنّ أمّه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربّك أنّها وإنْ كانت قد دنت من الجريمة ولكنّها لم ترتكبها ، فاعف عنّى ياوالد ولدى وأسأل اللّه عندما تقف بين يديه أن يُلحِقنى بك فلا خير لِى فى الحياة من بعدك) (١)

ثمّ انفجرت الزّوجة باكية وابتسم المريض ابتسامة كانت آخر عهده بالدّنيا .

فأخذه أدبينا إلى المقبرة ثمّ عاد حزيناً واجماً لا يخفّف حزنه وألمه على فراقه إلّا أنّه كان المشجّع الأوّل على هتك حجاب المرأة وكشف ستارا لحياء عنها .

---

١ ـ المنفلوطى . العبرات . ص ٥٤ .

المواقف الإنسانيّة فى القصّة :

لا شكّ أنّ القصّة حافلة بالمواقف الإنسانيّة الجليلة كمحاولة الحفاظ على الشّرف والدّعوة إلى الفضيلة والتّمسّك بأهداب الدّين والشّريعة وكان بطل هذه المواقف والدّاعي إليها فى القصّة من أوّلها إلى آخرها هو المنفلوطى كما سنرى ...

أوّل هذه المواقف يتجلّى فى محاولة المنفلوطى أن يحتفظ بصديقه رغم ماعلمه عنه من تغيّر أفكاره وتصرّفاته بعد عودته من أوروبا وظنّه أن مايسمعه عنه ماهو إلا سحابة طارئة لابدّ أن تنقشع بعد حين (١) ، وأهمّ هذه المواقف الحوار الذى دار بينه وبين صديقه عندما جاءه عازماً على كشف حجاب زوجته ورغبته فى طلاقها إن لم تزعن لرغبته حيث يظهر فى هذا الحوار مدى رغبة المنفلوطى الأكيدة فى الحفاظ على الشّرف والكرامة وصيانة العرض بشتّى الوسائل يظهر ذلك من انفعال المنفلوطى الشّديد أمام صديقه وطول حديثه معه محاولاً إقناعه وإزالة تلك الفكرة الهدّامة الباطلة من رأسه إستمع إلى قوله لصديقه :-

(أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيّها شئتم ودعوا هذا الباب موصداً ، فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاءً طويلاً .

أرونى رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم فى نفسه أنّه يملك هواه بين يديّ امرأة يرضاها ، فأصدّق أنّ امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدى رجل ترضاه .

إنّكم تكلّفون المرأة ماتعلمون أنّكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها فى معركة الحياة مُخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها

---

١ - المنفلوطى - العبرات . ٣٩ - ٩٠ بتصرّف

أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلاّ خاسرين .

ماشكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدّمت إليكم فى أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟) (١)

وهكذا يمضى المنفلوطى فى دفاعه عن المرأة المحتشمة بكلّ ما أوتى من وسائل التّأثير ، وما ذاك الانفعال منه إلى جانب المرأة إلا موقف من المواقف الإنسانيّة التى تدعو إلى الحفاظ على الشّرف والفضيلة أينما حلّت والحفاظ على سُمعة المرأة وحشمتها وإبعاد كل ما يشينها عن طريقها موقف انسانىّ نبيل بل هو لبّ النُّبل والشّرف وهو شىء فى دم المنفلوطى وخُلُقِه كما ثَبت لنا فى ماعرضناه فى هذا الفصل من البحث ولننظر إلى قوله الذى يوجّهه لأمثال هؤلاء الشّباب الذين يطالبون بكشف الحجاب عن المرأة :-

(إنّا نضرع إليكم باسم الشّرف الوطنى والحُرمة الدينيّة أنْ تتركوا تلك البقيّة الباقية من نساء الأمة مطمئنّات فى بيوتهنّ ، ولا تزعجوهنّ بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم مَنْ قبلهنّ ، فلكلّ جرح من جروح الأمّة دواء إلاّ جرح الشّرف ، فان أبيتم إلاّ أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيّام من صدوركم هذه الغَيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين) (٢)

نعم إنّ حديث المنفلوطى السّابق لصديقه والذى يوجهه إلى الشّباب أمثاله إنّما يَنمّ عن نفس شرقية شريفة تدعو إلى الخير والحفاظ على نقاء ثوب الشّرف وكرامته

---

١ - المنفلوطى - العبرات - ص ٤٣.
٢ - المنفلوطى - العبرات - ص ٤٨.

ثم ماذا نرى من المواقف الانسانية الشريفة الصادرة عن المنفلوطي في هذه القصة ؟

نعم لا زلتُ أذكر ماقرره المنفلوطي من قطيعة صديقه الحميم بعد أن تأكد من إصراره على كشف حجاب زوجته ومنعها منه فها هو يقول له بعد عزمه على رأيه :-

(لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ماتشاء ، وأذن لي أن أقول لك اني أستطيع أن أختلف الى بيتك بعد اليوم ابقاءً عليك وعلى نفسي لأنيّ أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياء وخجلاً) (١)

أيّ نبل هو أعظم من هذا وأيّ طُهر هو أحسن من طُهر الإيمان ؟ فحياء المنفلوطي من لقاء زوجة صديقه غير محجّبة هو دليل إيمانه الذي لا مراء فيه فالحياء من الإيمان .

وتستمر مواقف المنفلوطي الإنسانيّة كعادته مع صديقه رغم انقطاعه عنه وعدم زيارتهما لبعضهما فها هو يلتقي بصديقه ويصحبه الى المخفر لمساعدته إن احتاج اليه ثمّ يقوم على رعايته في مرضه وتطبيبه وتخفيف وطأة المأساة عليه حتى قبضه الله .

تلك هي وقفة المنفلوطي الطّويلة من دفاعه عن الدّين ودعوته الى التمسك بأهدابه مهما كلّف ذلك صاحبه من مشقّة وعناء .

ووقفة المنفلوطي هذه من الدّين تدلّ دلالة واضحه على تأثّر الأديب بما حفظ من قرآن كريم أو أحاديث نبويّة طاهرة ، فكان عطاءهما له عطاءً واضحاً اذ كانا رافدين جليلين لاتجاهه الانسانيّ النّبيل ، فما الإنسانيّة في أدبه الا ثمرة ذلك الدّين الحنيف وفيض ثقافته المعطاءة. جزاه الله عن الدّين والإنسانيّة خير الجزاء ورحمه رحمة واسعه .

---

١ - المنفلوطي . العبرات . ص ٤٨ .

" الخاتمـــة "

خلاصة البحث مع نتائجـة

بين مرارة الظُّلم وقَسوة الاستبداد ، وضراوة الجوع وظُلمة الجهل ، وانتشار الأمراض في نهاية العصر العثماني وبداية العصر الحديث ، وفى " منفلوط" إحدى مدن صعيد مصر ، ولد " مصطفى لطفى المنفلوطى " الذي لقّب بالسّيد لانتسابه الى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وكانت نقابة الأشراف ومرتبة القضاء يتوارثها بيت أبيه منذ مائتي عام ،

أما شُهرته بالمنفلوطي ، فترجع الى تلك المدينة التى ولِد بها عام ١٨٧٦م.

نبت ذلك الطفل فى بيت كريم بالدّين جليلٍ بالفقه ، اهتم أهله بتنشئة أبنائهم تنشئة اسلامية صادقة ، فأرسله والده فى مَيْعَة الصّبا الى الفقيه الذى يتولّى تحفيظه القرآن - كعادة أبناء عصره - وقد تلقى دروسه الأولى عن الشّيخ محمد رضوان الذي كان يدير مكتب الشّيخ جلال الدّين السّيوطى ، ثم لحق بالأزهر وبقى به قُرابة العشر سنوات ، تلقّى خلالها علوم اللّغة والبلاغة والشّريعة ، ولكنّه مالبث أن تركه وعكف على قراءة كُتب الأدب وأخذ ينهل من معينها الفيّاض وقد لزم الإمام محمد عبده الذي تلقّى عنه كتابيّ " دلائل الاعجاز " و" أسرار البلاغة " ثمّ اتّصل بسعد باشا زغلول الخطيب المفوّه والسّياسى المعروف وتقرّب من الصّحفى الكاتب علي يوسف ، كذلك كان لزيارة الشّيخ عبد الله هاشم لأبيه - فى اشراقة كلّ يوم - وانصاته لمن يتطوّعون لقراءة كتب الأدب من أمثال الشّيخ سيّد المرصفي والشّيخ حسين المرصفى ، كان لكلّ ذلك أثره الواضح على شخصيّته الأدبية وميله للأدب وشغفه بفنونه ، فاطّلع على كتب ابن المقفّع والجاحظ وبشر بن المعتمر والمبرّد والآمدي وبديع الزّمان الهمزانى وغيرهم من ذوي الثّقافات العالية ، كذلك اطّلع

على كل ما انتجته القرائح فى الأدب العربيّ شعره ونثره قديمه وحديثه ، مع عنايته الواضحة بما تُرجِم اليه من روائع الأدب الغربي .

وبهذا يكون المنفلوطي قد وقف على طرائق النّثر الغنّي في عصره والذي كان على عهده لوناً حافلاً من أدب القاضي الفاضل أو أثراً ماثلاً لفنّ ابن خلدون يتمثل الأول فى طبقة المويلحي وحفني ناصف ، ويظهر الثاني ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفي السّيد .

هذا وقد مرّت بالأديب ظروف خاصّة كانت من الأسباب التى وجّهت أدبه تلك الوُجهة الانسانيّة الصّافية ، فقد طُلّقت أمّه وهو مازال صبيّاً فاستمرّت حياته مع زوجة أبيه حتى اذا كبُر تزوّج وأنجب خمسة أولاد من زوجته الأولى ولكنّ هؤلاء ماتوا جميعًا وتلتهم تلك الزّوجة ، فتزوّج أخرى وأنجب منها خمسة آخرين مات أحدهم ثم ضعف بصر زوجته ضعفاً شديداً فمازال بها يواسيها ويلاطفها مؤكّداً لها عكس ذلك تخفيفاً لها عمّا بها .

فاذا أُضيفَتْ الى ظروفه الخاصّة ظروف المُجتمع عامّة - من فقر وجهل وظُلم ومرض علمنا إلى أيّ مدى يمكن أن يتعاطف هذا الأديب مع كل ماحوله من مؤثّرات خاصّة كما أنه كان على قدر كبير من طيبة النّفس ورحمة القلب وحُسْن الخُلُق مع ما امتاز به من ثقافة اسلاميّة عالية تمثّلت فى حفظه للقرآن الكريم ومعظم أحاديث المُصطفى صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي دعاه الى الغيرة على الإسلام والعمل على تخليص المجتمع حوله من ضراوة المادّة ووحشيتها ، فجنّد قلمه وعاطفته لخدمة الانسانيّة والدّعوة الصّادقة الى التّعاطف معها ورحمتها ، فكان بذلك مشاركاً فعّالاً لأحاسيس بني وطنه عاملاً على نشْر الفضيلة بينهم .

أما عن حياته الأدبية ، فقد أشرقت شمسه في عصر ضاعت فيه المعاني وسط أغلال من الصَّنعة البديعية وأثقال الحُلى اللَّفظية ، فضاعت معها الأهداف الفاضلة للأدب عامةً شعره ونثره ، بينما اتْحفنا المنفلوطي بأسلوب رفيع المعاني سامي الأهداف تمثّل ذلك في مقالاته التي نُشِرت في (المؤيّد) بعنوان (النّظرات) وجُمِعت بعد ذلك في أجزاء ثلاثة ، وفي" العبرات" التي اشتملَت على قصص من تأليفه وأخرى مُترجمه ، كذلك تمثَّل انتاجه الأدبي الرَّفيع فيما قام بتنقيح ترجمته وتهذيبها من روايات كـ (الفضيلة) ، (ماجد ولين) ،(الشَّاعر) (في سبيل التاج)

وقد بدا في كل ذلك الانتاج اتّجاهه الانساني الرَّفيع وشخصيته الأدبيَّة المتميِّزه وأسلوبه المشرق الوضَّاء الذي عشَتْ أمام بريقِه أبصار الحاقدين عليه والحاسدين له ، فلم تتبيَّن الحقيقة السَّاطعه أمام ذلك البريق،ألا وهي تميُّز المنفلوطي بأسلوبه وطريقته في عصره حتَّى يمكننا أن نقول : إنَّه صاحب مدرسة أسلوبيَّة واضحه المعالم بيِّنة السِّمات والخصائص ،ألا وهي مدرسة المنفلوطي التي لم يعترف بها أحد في عصره بل اتَّهموه بالسُّخف والتَّفاهه والأنوثه ـ كما ادّعى المازني في الدّيوان ـ واتّهموه بتجميل عباراته وتزويق كلماته دون أن يكون وراءها أي معنى كما أدّعى العقَّاد ، أما طه حسين فقد رماه بسوء الخُلُق واهتمامه بذات غيره عن ذات نفسه وافترى عليه افتراءات لم يأت بدليلها الواضح من أدب الأديب حتى نتبيَّن صحَّتها أو غير ذلك ، الأمر الذي جعلنا نؤكّد أن كلَّ هذه الافتراءات ما هي الا حقد وحسد وغيْره لا أساس لها من الموضوعيَّه والنَّقد الذَّاتي لا يعوَّل عليه .

ثم كانت الجولة في أدب الأديب ذاته لبيان المظاهر الانسانيّة في أدبه والتي تمثّلت في :-

مقالاته الاجتماعيّة ، تلك المقالات التي أثبت فيها الأديب مدى مشاركته الفعلية لمشاعر المجتمع حوله فحاول بكلّ ما أُوتي من جُهد وأمانة الكلمه - حاول أن يُعالج هذه المشاكل في مقالاته تارة عن طريق القصّة وأخرى بطريقٍ مباشر فكان الخَطيب الموجّه والأب الواعي لكل مايدور حوله ، فعالج مشكلة الإنتحار النّاجم عن عدم تربية النّشىء تربية اسلاميةً سليمه ، وعالج مشكلة تطلّع الأزواج إلى تبديل زوجاتهم لمجرّد رؤيتهم من هي أجمل منها ، ومشكلة الآباء الذين يزوّجون بناتهم لرجال أثرياء يكبروهنّ سنّاً ، ظانّين أن وَفْرة المال هي كل السّعادة .

نعم لقد عالج المنفلوطي أمثال هذه المشاكل معالجةً انسانيّة واضحة المعالم بيّنة السّمات .

وفي عطفه عن البائسين،اتضح اتجاهه الانسانيّ في مواساته للمحزونين وتخفيفه ارزاء المفئودين من بني الإنسان،فبيّن أن على الانسان ألا يؤمّل في دوام السّعادة بل عليه أن يتوقّع زوالها بين لحظةٍ وأخرى لأنّها سرابٌ لامع لا يلبث أنّ يزول .

كذلك طالب بالرّحمة لأنّها اليُنبوع الذي يتفجّر منه كلّ العواطف الانسانيّة ويطالب بمدّ يد العون ماديّاً أو معنوياً لهؤلاء البائسين لأنّ هذا العمل سيسطّر لفاعله في صحيفته أنّه انسان وكفى بهذا اللّقب تشريفاً .

وفي انصافه للمظلومين،طالب بحقّ المرأة ، من حُسن مُعاملة الزّوج لها وضرورة تعليمها والأخذ بيدها الى مافيه صلاحها والنّظر إليها باعتبارها إنسان

له حقوقه وواجباته وعدم ظلم المجتمع لها أو تزويجها بمن لا ترغب لثرائه ومكانته كذلك طالب النّاس بعدم معاقبة الفقير الذي سرق رغيفاً ليسدّ به جوع عياله .

وثار الأديب هنا على الذين يتنكرون لزوجاتهم لمجرّد تحسّن أحوالهم الماديّة ويرى أنّ أحقّ النّاس بحسن المعامله هي تلك الزّوجة التى عاشرته أيّام شقائه الأولى .

واستنكر هنا أنْ يُقتل الرّجل المدافع عن عرضه أو أن يُؤخَذ برأي المدّعي في قضية يُقتل فيها المتّهم دون معرفة الحقيقه منه .

أما فى حملته على الأغنياء وطبقة الحكام ؛ فيرى الأديب أن الشّرف كلّ الشّرف في حسن الأدب لا فى رنين الذّهب ، وأن السّعادة الحقيقية هي سعادة النّفس وطمأنينتها لا فى كثرة المال وعلو الجاه .

كذلك استنكر على القاضي المرتشي حكمه الظّالم وتضييعه لحقوق الآخرين زوراً .

وهو لا يتمنّى لابنه أن يكون غنياً حتّى لا يكله ذلك الغنى إلى الاستكانة وعدم العمل الجادّ للوصول الى أرفع الدّرجات من العلم والمعرفة والكدّ المتواصل ، لأنّ معظم الناجحين فى حياتهم انما هم أبناء الفقراء الّذين دفعتهم الحاجة إلى العمل الجادّ ومحاولة الوصول الى قمّة المجد بأنفسهم لا بمال آبائهم وشهرتهم .

وفي دعوته الى التّمسك بأهداب الفضيلة لا ينسى أنْ يدعو المسلمين جميعاً إلى العودة إلى مبادئ الدّين الصّحيحه حتّى يعود الإسلام الى سابق مجده ورفعته لأنّ ما أصاب هذا المجد من فتور وضعف الآن ليس الا نتيجة تهاونهم فى دينهم ومبادئه .

ويدعو المنفلوطي دعوة حارّة إلى الالتزام بالفضيلة في كلّ الأمور وبين كلّ النّاس ، فلا يظلم قوي ضعيفاً ولا يحتقر كبير صغيراً ، أو عالم جاهلاً ولا يغدر صديق بصديقه أو يغشّ تاجر في سلعته أو يخلف واعد وعده ، حتى تسود الطّمأنينة ويعمّ الأمن في المجتمع وحتى تتحقّق السّعادة للجميع .

وهكذا بدا من العرض المختصر السّابق كيف استطاع المنفلوطي أن يلتزم بأمانة الكلمة في مجتمعه ، فجنّد لسانه وقلمه وفكره لخدمته بكلّ ما أوتي من وسائل الإقناع أو الرّدع ، وقد استطاع بسحر بيانه واشراق أسلوبه وقوّة أسره أن يعالج هذه القضايا باتجاه إنساني فاضل يسمو بالإنسان إلى عوالم الإنسانيّة الرحبة .

ولعلّ أهم ما توصّلت إليه من نتائج بعد متابعة طويلة لأدبه هي :-

أولاً : وضوح أثر الثّقافة الإسلاميّة من " القرآن الكريم " و" الحديث النبويّ الشّريف" على أدبه . سواءً كان ذلك التأثير في معانيه الإنسانيّة الخالدة لأن اتّجاهه الانسانيّ ما هو إلا ثمرة ذلك التّأثّر، أو كان ذلك التأثير في ألفاظه وعباراته التي أخذ معظمها ان لم يكن كلّها من الكتاب والسّنة ، وقد بيّنت بعض هذه التأثّرات في ثنايا البحث فأرجعتها الى أصولها من القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف .

ثانياً : إن هذا الأديب بما قدّمه من معان إنسانيّة سامية في أسلوب رائق عذب استطاع أن يؤكد لكل من ادّعى عليه إهماله لمعانيه كالاستاذ العقّاد ومن نحا نحوه استطاع ان يؤكد لهم انه ليس كذلك فحسب بل هو من أوائل الأدباء الذين اهتموا بجمال اللّفظ وحلاوته مع اهتمامهم لمشاطرة النّفس الانسانيّة مشاعرها ، فيهشّ

لسعادتها ويأسى لشقائها .

ثالثا : ان النقاد الذين ثاروا على المنفلوطي وحطوا معاولهم لتهديم صرح بنائه الشامخ من أمثال د . طه حسين ، والعقاد ، والمازني ليسوا على حق في شيء ، وانما دفعهم الى ذلك أغراض شخصية وأسباب سياسية . وسمت نقدهم بسمات ذاتيه والنقد الذاتي لا يقول عليه .

رابعا : أرى أن للمنفلوطي طريقة خاصة في الكتابة عرفت له وعرف بها بل واستحقت أن تضاف لاسمه فعرفت و (طريقة المنفلوطي) تلك الطريقة التي نسبها له بعض أساتذة الادب المعاصرين أمثال الدكتور احمد هيكل والدكتور شوقي ضيف والدكتور محمد نبيه حجاب بينما لم يعرف بها أحد من معاصريه .

المُقترحــــــات

في نهاية هذا المطاف لايسعني المجال هُنا الا أن أُدلي بمترحاتٍ متواضعه قد تعين من يخطــوعلى الدَّرب بعدي ، هي :-

أوّلاً : أن تُجمعُ أعمال المنفلوطـــي في كتاب واحد كما جُمِعت أعمــال أد بـــاء غربييِّن من أمثال :-

شكسبير ، فرنسيس بيكـــون ، وجيتـــه وغيرهم من الأدبـــاء المشهورين حتى يسهل على من يطلبها الوصول إليها د فعة واحـــدة .

ثانياً : أن يُجمَعَ كل ماكُتِب عن المنفلوطي من مقالات نقديّة أوغيرها في كتاب واحـــد صوناً لـهذه المقالات من الضَّياع والبِلى ، لأنّني عانيتُ في سبيل الوصول إلـــى بعض ماكتب عنه وخاصة في مجال شعره ، حتى شعره نفسه قد ضاع أكثره بسبب ما أصاب الدَّوريات التي نُشِر فيها من بِلى وفُقدان .

ثالثاً : أن يُعنى بلفت نظر الطلّاب ـ أو النّاشـدِين في الأد ب ـ إلى عبـــارات المنفلوطِي السّاحره وان تُختارَ نصوصاً من أد به الأخّــاذ ليحفظها كلُّ نـاشـــدٍ في الأد ب .

مصادر البحث ومراجعه .

١ - القرآن الكريم

٢ - الحديث النبويّ الشّريف

(أ)

٣ - الإتّجاهات الأدبيّة في العالم العربيّ الحديث . أنيس المقدسي ط ٥ دار العلم للملايين . بيروت

٤ - الإتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر . محمد محمد حسين . ج ١ ط. القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

٥ - إحكام صنعة الكلام لإبن عبد الغفور الكراعي . تحقيق محمد رضوان الدّاية ط

٦ - أدب العرب . مارون عبود طه . سنة ١٩٦٠م . بيروت

٧ - الأدب العربي المعاصر في مصر . د . شوقي ضيف ط ٧

٨ - أدب المقالة الصّحفية . د . عبد اللّطيف حمزة ج ١ ط ١

٩ - الأدب وفنونه د . عزّ الدّين اسماعيل ط٤ دار الثّقافة . بيروت .

١٠ - الأدب وفنونه د . محمد مندور ط. بدون . دار نهضة مصر .

١١ - أربعة أدباء معاصرين . عمر فرّوخ ط عام ١٩٤٤م .

١٢ - الأسس الجماليّة في النّقد العربي . د . عز الدّين اسماعيل ط

١٣ - الأسلوب . أحمد الشّايب ط ٧ عام ١٩٧٦م . مكتبة النّهضة المصريّة

١٤ - أسواق الذّهب . أحمد شوقي ط . دار الهلال . القاهرة عام ١٩٣٢م

١٥ - الأعلام . للزّركلي . م ٤ ط٤ عام ١٩٧٩م .

(ب)

١٦ - البلاغة الفنيّة . علي الجندي ط . عام ١٩٥٦م

١٧ - بلاغة الكُتّاب في العصر العباسي ط ١ عام ١٩٦٥م

١٨ - بين الأدب والصحافة . فاروق خورشيد ط ٢ عام ١٩٧٢م
دار الفكر العربي . بيروت

(ت)

١٩ - تاج العروس . محمد مرتضى الزبيدي .
٢٠ - تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر. لويس شيخو. ج ١٩٠٨،١م . بيروت .
٢١ - تاريخ الأدب العربي . أحمد حسن الزيات ط ٧
٢٢ - تاريخ الأدب العربي . أحمد حسن الزيات ط ٢٦ . دار الثقافة . بيروت
٢٣ - تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر . ابراهيم على ابو الخشب ط
عام ١٩٧٨م الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٢٤ - تاريخ الأستاذ الإمام . محمد رشيد رضا . ط ١. عام ١٩٣١م .
٢٥ - تاريخ الجبرتي . للجبرتي ج ٤ ط دار الشعب .
٢٦ - تطور الأدب الحديث في مصر . أحمد هيكل . ط ٣ . دار المعارف .
٢٧ - تطور الرواية العربية في مصر د . عبد المحسن بدر ط ٣

(ج)

٢٨ - جنة العبيط . زكي نجيب محمود ط عام ١٩٤٧م

(ح)

٢٩ - حياتي . أحمد أمين . ط عام ١٩٧١م . دار الكتاب العربي .

(د)

٣٠ - دراسات في علم النفس الأدبي . حامد عبد القادر ط عام ١٩٤٩م
٣١ - دفاع عن البلاغه . أحمد حسن الزيات ط ١٩٤٥م مطبعة الرسالة
٣٢ - الديوان للعقاد والمازني ط رقم ٣ دار الشعب

(ز)

٣٣ - زهر الرّبيع . احمد الحملاوى ط ٤

(س)

٣٤ - سرّ الفصاحه . لإبن سنان الخفاجي ط عام ١٩٣٢ م . مكتبة صبيح .
٣٥ - سنن ابن ماجه . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى . طبعة ١٩٥٢م . دار إحياء الكتب العربية .
٣٦ - السّيرة النّبوية . تهذيب ابن هشام . ج ١ بدون تاريخ مكتبة صبيح

(ش)

٣٧ - الشّاعر . ترجمه المنفلوطى . دار الثّقافه . بيروت
٣٨ - شعراء العصر . محمد صبرى ج ١ ط عام ١٩١٠م . الناشر مطبعة الأمة .

(ص)

٣٩ - صحيح مسلم بشرح النّووى ط ٢ عام ١٣٩٢ هـ عام ١٩٧٢م . دار الفكر . بيروت
٤٠ - الصناعتين . أبوالهلال العسكري ط مطبعة عيسى الحلبى ١٣١٩ هـ
٤١ - صهاريج اللّؤلؤ . توفيق البكري ط ٢ بدون تاريخ
٤٢ - صور البديع . فن الأسجاع

(ط)

٤٣ - طه حسين الشّاعر الكاتب . محمد سيّد كيلانى ط ١ عام ١٩٦٣م . دار القومية العربية للطباعة . القاهرة .

(ع)

٤٤ - العبرات . المنفلوطى . دار الثقافة . بيروت
٤٥ - علم الاجتماع . محمد عاطف غيث ط ١٩٨١م . دار المعرفة الجامعيّة - الإسكندرية

(ف)

٤٦ ـ فصول فى الأدب والنّقد . طه حسين ط ٤ عام ١٩٦٩م . دار المعارف

٤٧ ـ الفضيلة . ترجمة المنفلوطى . دار الثقافة . بيروت

٤٨ ـ فن المقالة الصّحفية د . محمد عوض محمد ط عام ١٩٥٩ م

٤٩ ـ الفن ومذاهبه فى النّثر . د . شوقى ضيف ط ٦ دار المعارف . القاهرة

٥٠ ـ فى الأدب الحديث . عمر الدسوقى ط ٨ . دار الفكر العربي .

٥١ ـ فى سبيل التّاج . ترجمة المنفلوطى . دار الثّقافة . بيروت

٥٢ ـ فيض الخاطر . أحمد أمين . ج ١ ط ١ . دار النّهضة . مصر

٥٣ ـ فيض الخاطر . أحمد أمين . ج ١ ط ٦ عام ١٩٧٣ . مكتبة النّهضة المصرية

٥٤ ـ فى المرآه . عبد العزيز البشري ط. عام ١٩٤٧م. لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر

(ك)

٥٥ ـ الكواكب والمواكب والدّور . محمد محمد عبد المجيد ط.(بدون) . إلتزام عطية محمد عطية.

(ل)

٥٦ ـ اللغة الشّاعره . العقاد . عام ١٩٦٠ م

(م)

٥٧ ـ ماجدولين . المنفلوطى . دار الثقافة . بيـــروت

٥٨ ـ ماذا بقى منهم للتاريخ . صلاح عبد الصّبور . ط ١ عام ١٩٦١م

٥٩ ـ المحافظة والتّجديد فى النّثر العربي المعاصر . أنور الجندي ط عام ١٩٦١م

٦٠ ـ مُذكّراتى فى نصف قرن . أحمد شفيق ج ١ ط ١ القاهرة سنة ١٩٣٦م

٦١ ـ مراجعات فى الآداب والفنون . العقاد . ط (بدون) الناشر إلياس أنطون إلياس.

٦٢ - مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى . د . عبد الرحمن الرّافعى
القاهـــــرة عام ١٩٤٢ م .

٦٣ - مصطفى كامل . عبد الرحمن الرافعى ط القاهرة عام ١٩٥٠م الناشر

٦٤ - المُعجم المُفهرس لألفاظ الحديث النّبوى الشّريف . ترتيب وتنظيم لفيف مــــن
المستشرقين . نشره . ونسنك ، د . منسنج ط ليدن عام١٩٤٣م

٦٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى . دار مطابع الشعب .

٦٦ - المعجم الوسيط . مجمع اللّغة العربية . القاهرة

٦٧ - (المنفلوطى) . محاضرة لأحمد عبد الحميد السّحرتى ألقيت بدار العلوم عام
١٩٢٩م وطُبعت بمطبعة الطّلبة عام ١٩٣٠م

٦٨ - المنفلوطى . محاضرة مطبوعة لأحمد عبد الحميد السّحرتى عام ١٩٢٩م

٦٩ - المنفلوطى الكاتب . رسالة ماجستير مخطوطه للأستاذ محمد محمد أبو الأنوار
قدّمت الى كلية دار العلوم عام ١٩ مطبوعة على الآلة الكاتبة

(ن)

٧٠ - النّثر العربى فى نماذجه وتطوره لعصريّ النّهضة والحديث د . علِي شَـــلَق
ط ٢ عام ١٩٤٢م دار القلم . بيــــروت

٧١ - النّثر العربى المعاصر . أنور الجندى عام ١٩٦١م

٧٢ - نشأة النّثر الحديث وتطوره . عمر الدّسوقى ج ١ ط ٢

٧٣ - النصوص الأدبية . أحمد شفيع السّيد ط ١٩٥٨م . دار الكِتاب العربيّ

٧٤ - نصوص مختاره من الأدب العربِي . كتاب النّثر . د . عبد الحميد الدّواخلِي
دار الكِتاب الحـــديث - الكويت

٧٥ - النّظرات . المنفلوطي . ج ١ ،ج ٢ ،ج ٣ ط دار الثقافه . بيروت
٧٦ - نظرات أدبية .ج ١ . د . محمد رجب البيومي ط عام ١٩٧٠م مطبعة زهران
٧٧ - النقد الأدبي . احمد أمين . ط ١٩٧٢م. دار النّهضة المصرية

(و)

٧٨ - وحي الرّسالة . أحمد حسن الزّيات ج ١ ط ٨ . دار نهضة مصر .
٧٩ - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه . الشّيخ أحمد الإسكندري
والشيخ مصطفى العناني ط ٤ دار المعارف .

(ى)

٨٠ - يسألونك . العقّاد . ط عام ١٩٤٦م .

" الـــــــدوريـــات "

١ - صحيفة الجمهورية ٢٣ مايو ١٩٥٤م
٢ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٤/٢٠م
٣ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٤/٢٦م
٤ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٥/٤م
٥ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٥/٩م
٦ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٥/١٢م
٧ - صحيفه الشعب في ١٩١٠/٥/٢٠م
٨ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٥/٢٦م
٩ - صحيفة الشعب في ١٩١٠/٦/٢م
١٠- صحيفة مصر الفتاة في ١٩٠٩/٨/٣١م
١١- مجلة الأستاذ العدد ١٧ ينايـــــر ١٨٩٣م
١٢- مجلة الرسالة ١٢ يوليـة ١٩٣٧م
١٣- مجلة الرسالة ١٩ أغسطس ١٩٣٧م
١٤- مجلة الرسالة أكتوبـــــــر ١٩٥٢م
١٥- مجلة الهلال ديســـــمبر ١٩٢٩م
١٦- مجلة الهلال أول سبتمبر ١٩٥٤م

(فهرس الموضوعات)

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة
و

رقم الصفحه

رقم الصفحه

رقم الصفحه